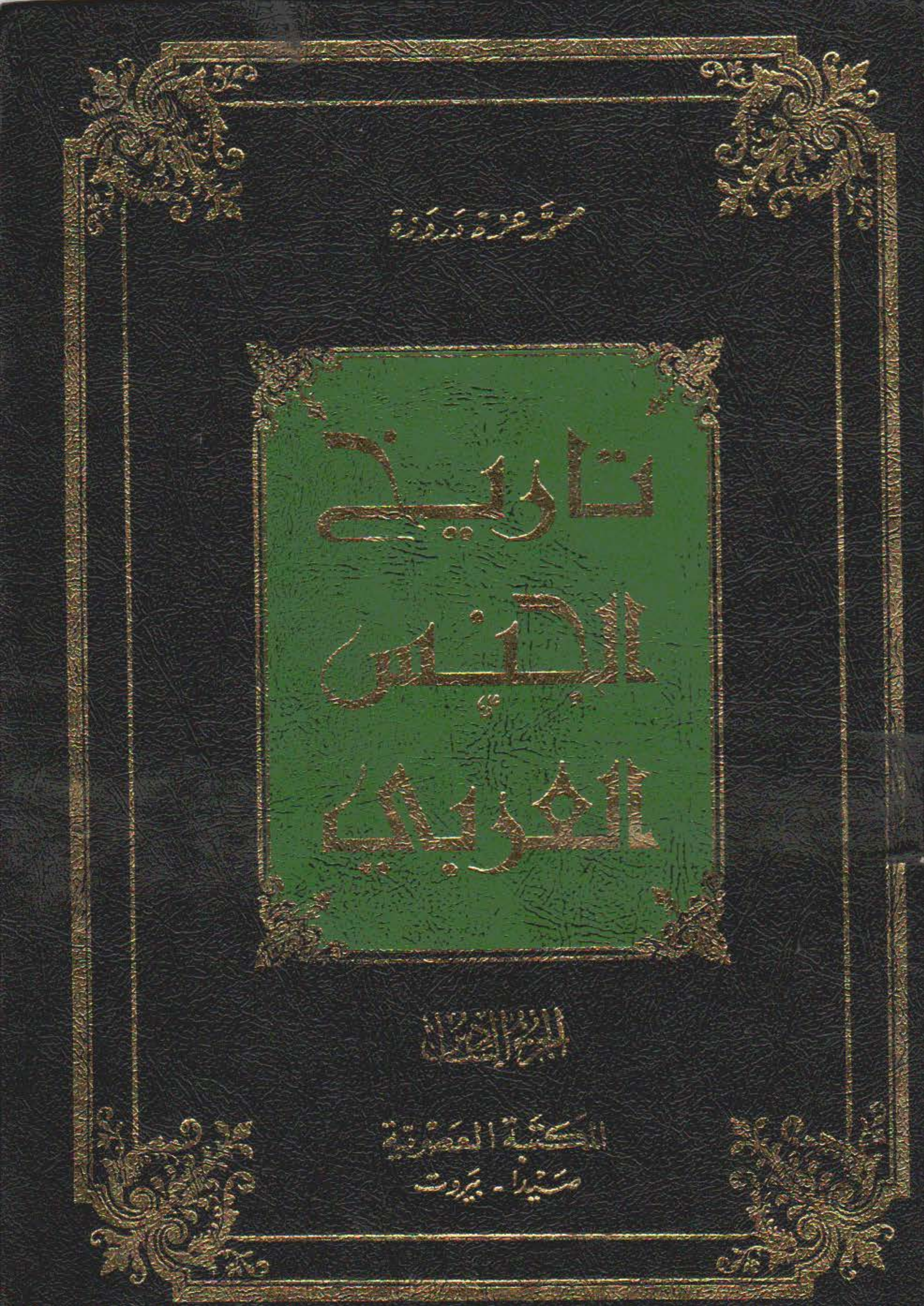


محمد عزة دروزة

تاريخ الجنس العربي

الجزء الثامن

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تاريخ الجنس العربي

في

مختلف الأطوار والأدوار والأقطار

تأليف

محمد عزة دروزة

الجزء السادس

العروبة الصريحة في الاسلام
تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم

الطبعة الاولى

١٣٨١ - ١٩٦٢

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢٠٦٢٤

موجز مشتمل هذا الجزء (١)

(١) انظر تفصيل الفهرست في آخر الجزء

العروبة الصريحة في الاسلام
تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم



نحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره طبع الاجزاء الخمسة السابقة من هذه السلسلة التي توخينا جمع تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار في حلقاتها واحدة بعد أخرى .

ومن الحق أن نذكر ونشكر في هذا المقام الاستاذ شريف الأنصاري صاحب المكتبة والمطبعة العصرية الذي ساعد على تحقيق الفكرة وطبع الأجزاء الخمسة وما يزال يواصل استعداده وتشجيعه على اتمام السلسلة .

ولقد نبهنا في المقدمة التي كتبناها للكتاب في الجزء الأول إلى أن الجنس العربي مر في ثلاثة اطوار أو أدوار . الاول ما قبل العروبة الصريحة أي الطور الذي لم تكن العربية الفصحى او القريبة اليها لغته واسم العرب مطلقاً عليه اطلاقاً شاملا أو قريباً من الشمول . واعتبرنا الموجات التي خرجت من جزيرة العرب في هذا الطور واستعمرت الاقطار المجاورة لها من شمالها وجنوبها من متناول مباحث هذا الدور حيث كانت وظلت متشاركة في اللغة والعقائد والافكار على ما بسطناه في تلك المقدمة . وقد كسرنا على تاريخ هذا الدور الأجزاء الأربعة الاولى .

وسمينا الطور او الدور الثاني باسم العروبة الصريحة قبل الاسلام لأن اللغة العربية الصريحة غدت لغة هذا الجنس في الجزيرة العربية ولغة من خرج منها الى الاقطار المجاورة فيه كما غدا اسم العرب يطلق عليه جزئياً ثم شاملا . وقد عقدنا له الجزء الخامس .

وسمينا الدور الثالث بدور العروبة الصريحة بعد الاسلام . وهذا الجزء هو اول الاجزاء التي عقدناها على هذا الدور . وسنتناول فيه تاريخ الحقبة التي كانت تحت راية النبي العربي العظيم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ونرجو اذا فسح الله في العمر وادام علينا نعمة العافية ان نتبعه بجزء ثان يتناول تاريخ الحقبة التي كانت تحت راية الخلفاء الراشدين وبثالث تحت رايـــة الامويين في بلاد الشام والاندلس وبرابع تحت راية العباسيين وبخامس يتناول تاريخ دول الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الهجري الذي خرجت فيه من نطاق سلطان العباسيين المباشر فيكون عـــدد اجزاء السلسلة التي عنوناها بتاريخ الجنس العربي عشرة يضاف اليها الاجزاء الثلاثة من كتابنا الذي عنوناه بعنوان العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي الذي كان ضمن منهج الكتاب الاصلي وجردناه وطبعناه لحدته والذي أرخنا فيه سيرة الارومات والاسر العربية الاصيلة التي برزت في مجال الحكم والسلطان في بلاد الشام والعراق ووادي النيل وبقيـــة شمال افريقية في الحقبة المذكورة التي بدأت بأواخر القرن الثالث الهجري وامتدت الى القرن الرابع عشر كما شرحنا فيه حركة القبائل العربية التي ظلت تتموج في هذه الحقبة في هذه البلاد وتغذي مدنها وقراها وباديتها بالدم العربي فتساعد على حفظ الصبغة العربية فيها قوية نامية امام تيار الزحف التركي الذي استمر وصار له في هذه البلاد السيادة والسلطان ، وقد جمعنا في أجزاء هذه الكتب التي بلغ عدد صفحاتها نحو الألفين حلقات مفككة وحبات منثورة من تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والقومي في حقبة طويلة امتدت اكثر من عشرة قرون من تاريخهم وختمناها بشرح المراحل التي توطدت بها السيادة العربية الخالصة عوداً على بدء في كل قطر من اقطار هذه البلاد فملأنا كما نرجو الفراغ الذي يبدو في هذه الحقبة التي كانت السيادة فيها على هذه البلاد للعناصر التركية ومن نشأ في ظلها من عناصر كردية وشركسية والبانية فبلغ عدد الاجزاء بها ثلاثة عشر . وكنا قد خصصنا الاجزاء التاسع والحادي عشر والثاني عشر للموضوع في سلسلة الكتاب. وقد جمعنا دور العروبة الصريحة قبل الاسلام في جزء واحد وهو الخامس وكنا قد خصصنا له الجزئين الخامس والسادس في السلسلة . وبذلك نقص عدد الاجزاء عن ما كنا ذكرناه في الجزء الاول واحد.

مصادر تاريخ دور العروبة الصريحة في الاسلام

ومصادر تاريخ هذا الدور ومادته متوفرة جداً بما لا يقاس عليه ممـا كان من ذلـك في الدورين السابقين له على ما شرحناه في الاجزاء الخمسة . لان وسائل التدوين والرغبة فيه عمت وشاعت وامكن حفظ كثير مما دون وسجل بكثرة ما نسخ من المدونات وانتشر .

ومن هذه المصادر ما لا يرقى اليه اي شك وما هو صادق كل الصدق ونعني به القرآن

الكريم الذي حفظه الله تعالى كما بلغه رسوله ورتبه حفظاً عظيما تمثل فيه المعجزة الربانية التي جاءت مصداقاً لاية سورة الحجر هذه :(إِنَّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ٩)

وفيه صور قوية مشرقة عن سيرة النبي العربي العظم الذي كان رائد هذا الدور من تاريخ الجنس العربي وحامل مشعل الهداية الربانية للعالمين في الوقت نفسه ، وعن الاسس الجديدة الرائعة الروحية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية والفكرية والانسانية التي قام عليها هذا الدور وامتاز بها عن الدورين السابقين .

ويأتي بعده احاديث النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه رضوان الله عليهم حيث تحتوي مادة تاريخية غير يسيرة ولو كان نطاقها ضيقاً لأنه منحصر في حقبة قصيرة من هذا الدور ونعني بها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . وإن كانت من ناحية ثانية احتوت كثيراً مما له صلة بالخطوط والاسس المذكورة التي قام عليها هذا الدور .

وهي إلى هذا لم تسلم كما سلم القرآن . فقد كان النبي عليه السلام ينهى عن كتابة شيء عنه غير القرآن وسار خلفاؤه الراشدون على سنته تفادياً من الاختلاط واللبس بين القرآن وبين كلام النبي الذي ليس قرآناً [1] فلم يكد يدون من احاديث النبي شيء في حياته وفي عهد الخلفاء الراشدين الذي امتد إلى السنة الاربعين للهجرة باستثناء شيء قليل حيث روي ان عبد الله بن عمرو بن العاص كان يدون في حياة النبي بعض الاحاديث في صحيفة عرفت بالصادقة [2] وان عروة بن الزبير كان يدون بعض الاحاديث التي كان يتلقاها من ام المؤمنين عائشة وهي عمته . وكان على صلة وثيقة بها [3] وقد ظلت الاحاديث محفوظة في الصدور ومتداولة على الالسنة قرابة مائة عام ثم بدىء بتدوينها رسمياً إن صح التعبير وفي نطاق ضيق في زمن عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي (٩٩ — ١٠١ ﻫ) وبأمره [4] ثم اتسع هذا النطاق حتى بلغ ذروته

---

(١) قواعد التحديث للقاسمي ص ٤٥

(٢) كتاب السنة للسباعي ص ٧٣

(٣) مقدمة ابن هشام ج ١ ص ﻫ

(٤) كتاب السنة ص ١١٩—١٢١ وقواعد التحدث ص ٥٥

في القرون الثاني والثالث والرابع حيث صارت الاحاديث المدونة تعد بمئات الالوف بعد ان كانت تعد بالعشرات ثم بالمئات ثم بالالوف بعد ان كانت تعد بالعشرات ثم بالمئات ثم بالالوف القليلة [1] ولقد كان اصحاب رسول الله وتابعوهم أي رجال القرن الاول للهجرة قد تفرقوا في الاقطار فصاروا يروون الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبار اصحابه . ولقد نجم قرن الخلاف على الحكم والسلطان في الثلث الاول من القرن الاول ثم اخذ يتفاقم وينشأ نتيجةله فرق وطوائف وشيع واحزاب متنافسة متناحرة . ثم تبع ذلك او نجم عنه خلاف في تأويل كثير من نصوص القرآن وتطور واتسع حتى شمل كثيراً من المعاني والمبادىء . وانقسم المختلفون بدورهم شيعاً وفرقاً وطوائف متناحرة متناكرة . واندمج في هؤلاء واولئك شعوبيون حاقدون على العرب والاسلام وحاولوا زيادة الخلاف والتناحر شدة ولهيباً . وعمد كثير من المختلفين الى تأييد ارائهم واهوائهم بأحاديث نبوية وصحابية . وكان ذلك قبل جمع الحديث بنطاق واسع وتدوينه فشاع على الالسنة وتداولته الأجيال ودون فيما دون عند جمع الحديث في القرن الثاني للهجرة مع ان كثيراً منه يتحمل التوقف ويبعث على الشك ويتناقض مع نصوص القرآن والثابت من الحديث والمتواتر من الروايات والوقائع ثم مع الحق والعقل والمنطق بل وقد ثبت لمحرري الحديث وعلمائه كذب كثير منه فأدى ذلك إلى تشويه حوادث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين سجل الله تعالى في القرآن رضاءه عنهم

---

(١) جاء في كتاب قواعد التحديث للقاسمي (ص ٦٠) انه روي عن البخاري انه قال (احفظ مئة الف حديث من الصحيح ومئتي الف من غيره والبخاري توفي في اواسط القرن الثالث الهجري (٢٥٦ هـ) ومن الجدير بالذكر انه لم يدون في كتابه من الصحيح الذي ثبت عنده حسب منهجه الا نحو سبعة الاف حديث نصفها تقريباً مكرور ! ومما ذكره القاسمي في كتابه ومصطفى السباعي في كتابه المذكور آنفا ان اول من بدأ بجمع الحديث بأمر عمر بن عبد العزيز الزهري بن شهاب وابو بكر الحزمي وهما من رجال القرنين الاول والثاني وكان النطاق ضيقا ثم اتسع على يد الربيع بن صبح وسعيد بن ابي عروبه وابن جريج وابن اسحق والامام مالك وحماد وسفيان الثوري والامام الاوزاعي وسفيان بن عينيه والليث بن سعد وهم من رجال القرن الثاني ثم الامام احمد والبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وهم من رجال القرن الثالث .

ورضاهم عنه [١]، وبلبلة الافكار فيها . فضلا عما ادى اليه من بلبلة الأفكار في اسس الشريعة الاسلامية ومبادئها واهدافها وتلقيناتها مما قرره القرآن الكريم واوضحته وفسرته السنة النبوية قولا وعملا .

وهكذا اختلط السمين من الحديث بالغث والضعيف بالصحيح والصادق بالموضوع حين التدوين وكان ذلك من الكوارث على الاسلام والامة الاسلامية وتاريخ العرب والاسلام معاً .

ومن هنا تظهر عظمة تلك المعجزة الربانية التي حفظت القرآن من كل تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص مجمعاً عليه في رسم واحد ونص واحد ومصحف واحد وترتيب واحد في مشارق الارض ومغاربها محتفظاً بكل اشراقه وسنائه وروحانيته والفاظه وحروفه في اسلوب ترتيله وتلاوته التي تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبترتيبه الذي رتبه آيات في سور وسور في مصحف مما لم يتيسر لأي كتاب سماوي ولا لأي نبي . وقد ظل مرجع كل خلاف وحكماً في كل نزاع بين المسلمين على اختلاف فرقهم واهوائهم والقول الفصل في كل مذهب وعند كل نحلة من مذاهبهم ونحلهم منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليوم وإلى ما شاء الله لهذا الكون ان يدوم . ويكفي لتبيين عظمة المعجزة الربانية ان يذكر المرء ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب وتنافس في سبيل الحكم والسلطان منذ صدر الاسلام الأول وما كان من اجتراء اصحاب الاهواء في ذلك العهد وبعده على رسول الله (ص) والكذب عليه في وضع الاحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ورأي على رأي ودعوة على دعوة وما كان من وضع الاحاديث والروايات لصرف آيات القرآن الى غير وجهها الحق بسبيل ذلك وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح واشتداد تيار الاحاديث المفتراة . وكان ممن صار له السلطان القوي الواسع المديد فئات كانت تقيم دعوتها على صرف تلك الآيات الى هواها وتأويلها بغير وجهها الحق ؛ وان يذكر ان هذا كان في وقت لم يكن القرآن فيه مطبوعاً ولا مصوراً ولم يكن من المستحيل فيه ان يجرأ الذين اجترأوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرفوا الآيات القرآنية إلى غير

---

(١) آية التوبة ١٠٠ (وَٱلسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

وجهها الحق على كتاب الله تعالى فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا شيئاً سائغاً على المسلمين مؤيداً لاهوائهم وينشروه في مصاحف عديدة وفي وقت كانت الكتابة العربية فيه سقيمة ولم يكن قد اخترع النقط والشكل وكان التشابه بين الحروف كثيراً واحتمال اللبس قوياً .

نقول هذا ونحن نعرف ان هناك بعض روايات تروى عن بعض آيات وكلمات وحروف مختلف عليها في القرآن وان بعض المستشرقين والمبشرين تقولوا بعض الاقوال في صدد ذلك. غير ان هذا وذاك لا يمس جوهراً وليس من شأنه ان ينقص شيئاً ما من المعجزة الربانية العظمى . وهو من الضآلة والقلة إلى درجة لا تكون شيئاً بالنسبة للمجموع كما انه لا يثبت على النقد والتمحيص . وهناك مستشرقون منصفون زيفوا بقوة الاقوال الصادرة عن الهوى والحقد والتعصب [1] .

ونعود الى الكلام عن الحديث فنقول ان الله قيض رجالا نبهاء مخلصين غيورين بذلوا جهودهم في تنقية الحديث وصنفوه مراتب منها الصحيح المتواتر والصحيح والحسن والمرسل والمنقطع والضعيف والموضوع ووضعوا قواعد وضوابط لذلك. غير ان جل اهتمامهم ان لم يكن كله كان منصرفاً الى تعديل الرواة وتجريحهم اكثر من المتون مع انه ليس من المستحيل ان يغتر بظاهر حال الراوي فيدون عنه ما ليس صحيحا . مما نبه اليه ابن خلدون وقال في صدده [2] (لو ان الاحاديث انتقدت من جهة متونها كما انتقدت من جهة سندها ورواتها لقضت المتون على كثير من الاسانيد بالنقض) ومع ان علماء الحديث وضعوا بعض القواعد بالنسبة للمتون فجعلوا صحة الحديث منوطة بصدق رواته وعدم تناقض نصه مع النصوص القرآنية ولا مع المشهور المتواتر من الاحاديث والسنن النبوية فإن كثيراً منهم لم يلتزمها كما انهم اختلفوا في تطبيقها اختلافاً غير يسير فظلت الاحاديث الضعيفة والمنقطعة والمرسلة والموضوعة والمتناقضة مع القرآن اختلافا تدون مع الاحاديث الصحيحة والمتواترة ويستند اليها اصحاب الاهواء والبدع والمآرب والطموح الى الحكم والسلطان في دعاويهم ودعوتهم .

على ان ذلك كله لا يعني بطبيعة الحال طرح الحديث كمصدر من مصادر تاريخ هذا الدور وبخاصة تاريخ الحقبة التي رويت عنها اي عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين . فهناك احاديث كثيرة تعد بالآلاف تتسم بالصدق والتوافق مع المبادىء والخطوط والصور

---

(١) انظر كتاب حياة محمد لحسين هيكل طبعة ثانية ص ٢٥ – ٣٩ وكتابنا القرآن المجيد ص ٥٢–١١٥

(٢) حياة محمد لحسين هيكل ص ٥٠

القرآنية ثم مع الحق والعقل وطبائع الامور يصح ان يكون عليها معول كبير في تاريخ هذه الحقبة فضلا عن مساعدتهـــا اعظم مساعدة على تعيين الاحاديث الضعيفة والمفتراة التي يسوقها ارباب الاهواء بسبيل تأييد اهوائهم السياسية وغير السياسية ودحضها .

ويأتي بعد القرآن والحديث كمصدر من مصادر تاريخ هذاالدور وما بعده رواياتالرواة التي كانت تعنعن كالحديث راوياً عن راو وإن لم تنل تمحيصاً مثله . غير ان معظم الروايات التي تروي احداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والدولة الاموية الشامية بل والشطر الاول من تاريخ الدولة الاموية والأندلسية والدولة العباسية ظلت محفوظة في الصدور ومتداولة على الألسن إلى القرن الثاني للهجرة .

وقد قلنا معظم الروايات لأن هناك روايات تفيد ان عروةبن الزبير كتب بعضاحاديث واخبار عن الصدر الاسلامي الأول . وكانت وفاته نحو سنة ٩٢ هـ وان إبان بن عثمان بن عفان فعل مثله وكانت وفاته نحو سنة ١٠٥ هـ . وقد ضاع ما كتباه وإن كان بعضالمؤرخين الذين وصلت الينا كتبهم رووا بعضه معزواً اليهما . ولقد كثر المدونون نوعاً ما في القرن الثاني ثم في أوائل القرن الثالث فدونوا كثيراً من روايات السيرة والخلفاء الراشدين والدولة الأموية وعصر الجاهلية . معنعنة من راو الى راو الى ان تصل الى صحابي او تابعي . ومن هؤلاء وهب بن منبه اليمني المتوفى نحو سنة ١١٠ هـ وشرحبيل بن سعد المتوفى نحو سنة ١٢٣ وابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى نحو سنة ١٢٠ وعبد الله بن ابي بكر بن حزم المتوفى نحو سنة ١٣٥ وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٥٠ ومحمد بن اسحق المتوفى نحو سنة ١٥٢ وزياد البكاء المتوفى نحو سنة ١٨٣ والواقدي المتوفى نحوسنة٢٠٧ وابن هشام المتوفى نحو سنة ٢٢٥ وابن سعد المتوفى نحو سنة ٢٣٠ هـ .

غير انه لم يصل الينا من هذه المدونات كاملة إلا مغازي الواقـــدي على شك في امره وطبقاتابن سعد وكتاب ابن هشام الذي استوعب اكثر ما كتبه ابن اسحق . وقد أدرك الطبري واليعقوبي والدينوري وغيرهم من مؤرخي القرنين الثالث والرابع شيئاً مما كتبه الكتاب الاولون وحفظوه لنا [1] . ويمكن ان يضاف الى هذه القائمة البلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ الذي وصل اليـــنا كتابه القيم المسمى بفتوح البلدان . وابن قتيبة الدينوري المتوفى

---

(١) انظر مقدمة ناشري سيرة ابن هشام مطبعة مصطفى الحلبي ج ١ ص هـ - و . والطبري عاش في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع واليعقوبي عاش الى اواخر القرن الثالث والدينوري توفي في سنة ٢٧٦ هـ

سنة ٢٧٦ الذي وصل الينا كتابه المسمى بالامامة والسياسة والذي دون فيه تاريخ الخلفاء الراشدين . ويمكن ان يضاف اليها أيضا اسمان عظيمان هما الامام ابو يوسف المتوفى في أواخر القرن الثاني والذي وصل الينا كتابه القيم (الخراج) والامام ابو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ والذي وصل الينا كتابه القيم (الاموال)حيث احتوى كتاباهما كثيراً من روايات السيرة النبوية والخلفاء الراشدين أيضاً .

ولقد لعبت الطبيعة البشرية دوراً في ما دونه المدونون القدماء أو رواه الرواة من روايات حيث يلمس الناظر فيه كثيراً من المبالغات والمفارقات والخيال والتناقض والاختلاط والتعدد في الاحداث والاسماء والوقائع والازمنة والامكنة وبخاصة في ما يعود الى ما قبل البعثة وروى او دون كمقدمة للسيرة النبوية كما لعبت الاهواء الناجمة من الخلاف والشقاق والمنافسات في الصدر الاسلامي الاول ثم في زمن الدولة الاموية والشطر الاول من الدولة العباسية دوراً أيضاً حيث يلمس الناظر آثار الحزبية والهوى وقصد التشويش والتشويه والتسويء والتفاخر والتباهي الخ ومنها ما روي ودون عن هوى ومنها ما روي وكتب كنقل امين . ولقد صنع ابن هشام وابن سعد والبلاذري وابن قتيبة والطبري من الذين وصلت الينا كتبهم والذين رووا كثيراً من تاريخ ما قبل البعثة ثم من سيرة النبي وخلفائه الراشدين والدولة الاموية خيراً كثيراً في اثباتهم روايات عديدة في موضوع واحد كنقله امينين مع تنبيه بعضهم احيانا الى عدم تصديقهم لبعضها او شكهم في بعضها ومع سكوتهم عن بعضها فكان لنا من ذلك مادة تاريخية هامة مهما كانت مشوشة فإن في الامكان استخلاص حقائق كثيرة منها وتمييز غثها من سمينها وكاذبها من صادقها بالمقارنة والتمحيص . وقد فعل شيئا من ذلك في صدد ماروي من خلاف أصحاب رسول الله على الخلافة وماوجه اليهم من مطاعن علماء مخلصون مثل ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم وابن تيمية في كتابه منهاج السنة ومختصره المنتقى وابن كثير في كتابه البداية والنهاية فوضعوا الامور في نصابها الحق ودافعوا عن الرعيل الاول من المسلمين الذين سجل الله في القرآن رضاءه عنهم ورضاءهم عنه ما نحل إليهم والصق بهم من اقوال وتهم فخدموا تاريخ الاسلام والعرب اجل خدمة .

أما تاريخ القرن الثالث الهجري وما بعده فصار على ما يظهر يدون من قبل كتاب معاصرين او قريبين من العصر الذي وقعت فيه الاحداث . وجرى هؤلاء أو كثير منهم على سنة حميدة حيث كانوا يبدؤون مدوناتهم بأحداث ما قبل القرن الذي يحيون فيه ويدونون احداثه بشيء من الايجاز وبأسلوب قد يختلف عن اسلوب من سبق من حيث

البحث والسرد والتمحيص ثم يدونون احداث القرن الذي يحيونه بتفصيل واسهاب فحفظوا بذلك سلسلة الاحداث التاريخية في ذلك الوقت الذي كانت الكتب عرضة للضياع فيه وقد ضاع فعلا شيء كثير منها وكان من المحتمل ضياع ما احتوته من مادة تاريخية لولا هذه السنة الحميدة التي جرى عليها كثير من مؤرخي المشرق والمغرب العربيين مثل اليعقوبي والطبري وابن الاثير وابن خلدون وابن كثير وابن اياس وابو الفداء وابن عذارى والمسعودي وابن عبد ربه وغيرهم فهيأوا لنا مادة تاريخية وافرة متصلة الحلقات لتاريخ هـذه الحقبة الطويلة .

وإذا كان من الحق أن الناظر في هذه المدونات يلمس فيها أيضاً اثر الطبيعة البشريـة والاهواء معاً بما يراه فيها من مفارقات ومبالغات وخيال وتناقض وتعدد في الاسماءوالوقائع والازمنة والامكنة وقصد التسويء والتشويه والانتقاص والتفاخر والتباهي الخ فان من الممكن مع ذلك استخلاص حقائق كثيرة منها وتمييز غثها من سمينها وكاذبها من صادقها بالمقارنة والتمحيص .

وعلى كل حال فالمادة التاريخية لهذا الدور متوافرة توافراً عظيما . والمدونات التي احتوتها كثيرة ومتعددة ومتنوعة في حجومها وأساليبها وأهدافها بما لا يقاس علـيه الامر بالنسبة للدورين السابقين على ما نبهنا اليه قبل . وبشيء من الحرص والتحفظ والاناة والتمحيص والمقارنة يمكن كتابة تاريخ هذا الدور متسلسلا بدون انقطاع وثغرات وبشيء مـن الوثوق والطمأنينة .

ونريد ان نشير الى مسألة هامة في هذا الصدد وهي نصوص الكتب والخطب الطويلة المعزوة الى النبي وخلفائه واصحابه وقواد الفتح والولاة في هذا الدور والتي وردت فيالكتب القديمة التي وصلت الينا مثل سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد والامامة والسياسة لابن قتيبة وتاريخ الطبري والعقد الفريد والبلاذري واليعقوبي وغيرهم . فليس هناك ما يمكن ان يدل على ان هؤلاء المؤلفين قد اطلعوا على اصول هذه النصوص ومخطوطاتها الاولى .

غير ان هناك روايات عديدة تفيد انهم سمعوا نصوص بعضها من أناس أخبروهم انهم رأوا مخطوطاتها الاصلية ، مثل ما ذكره ابن سعد حيث قـال : ان محمداً بن عمر الاسلمي أخبره ان شيخاً من أهل دومة الجندل أخبره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لأكيدر

(ملك دومة) كتاباً وانه جاءه بالكتاب فقرأه واخذ منه نسخته ثم أورد نصه [1] ومثل ما ذكره البلاذري حيث قال ان بعض اهل مصر اخبره انه رأى كتاب رسول الله الى اهل مقنا بعينه في جلد احمر دارس الخط فنسخه وأملى عليه نسخته ثم أورد نصه كذلك [2] . ومثل ما ذكره البلاذري عن محمد بن سعد قال ان ابا عبد الله الواقدي أخبره انه قرأ كتاب خالد بن الوليد لأهل الشام [3] . ومثل ما ذكره البلاذري قال حدثني الحسين قال حدثني يحيى بن آدم قال اخذت نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران من كتاب رجل عن الحسن بن صالح رحمه الله [4] .

حيث يسوغ القول ازاء ذلك ان النصوص المروية لا يعقل أن تكون جميعها مصنوعة ولا سيما هناك نصوص متصلة بأحداث بالغة حد اليقين في حقيقتها التاريخية . وكل ما يمكن أن يكون هو احتمال أن لا يكون جميع ما روي منها قد روي بحروفه كما صدر من أصحابه كلاماً مدوناً وان منه ما قد يكون ترديداً مقارباً لذلك متفقاً معه روحاً وجوهراً واحتمال دخول تحريف عليه منه ما قد يكون مقصوداً لأغراض متنوعة ومنه ما قد يكون نتيجة طول امد الحفظ وكثرة التداول .

هذا ولقد كتبت كتب كثيرة جداً في تاريخ هذاالدور في عصرنا الحاضر مختلفة في حجومها واساليبها واهدافها ومتناولها . وفيها كثير من الكتب القيمة الممحصة الوافية . غير أن ذلك لم يجعلنا نعدل عن اتمام حلقات سلسلتنا بالنسبة لهذا الدور لأن أحداً من الكاتبين لم يقصد الى ما قصدنا اليه من جمع حلقات تاريخ الجنس العربي في مختلف الاطوار والأدوار والاقطار في سلسلة واحدة وربط عابر تاريخ هذا الجنس منذ اقدم الازمنة التاريخية المعروفة بحاضره وهذا فضلا عن اننا اصطنعنا اسلوباً خاصا في عرض احداث تاريخ هذا الدور ومزاياه التي خلد بها الجنس العربي خلود التقديس . واهتممنا بقدر الامكان وبما يسمح به منهج الكتاب للتنبيه إلى ما أدخله أصحاب الاهواء والاغراض والشعوبيون وأعداء العرب والاسلام من شوائب وزيادات وأكاذيب كثيرة لأغراض حزبية وسياسية ودعائية وتخريبية ولتصحيح الاخطاء التي وقع فيها المستشرقون في سياق تاريخ حقبة النبي وخلفائه

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٥٤

(٢) فتوح البلدان ص ٦٦–٦٧

(٣) فتوح البلدان ص ١٢٩

(٤) ايضا ص ١٧٠ اكتفينا بالروايات الاربعة ولو اردنا ان نستقصي لعثرنا على امثلة عديدة اخرى .

الراشدين نتيجة لعدم فهمهم للروايات والنصوص العربية أو لتحريفهم لها عن مقاصدها بقصد تشويه هذا التاريخ أو تهوين شأنه وخطره مما نرجو أن يكون مفيداً لناشئتنا وخدمة نافعة لتاريخ جنسنا .

ولقد كان القرآن الكريم مصدراً هـــاماً لهذا الجزء بنوع خاص . لأن كل فصل من فصوله يمثل موقفاً متصلا بالسيرة النبوية سواء أكان موقفاً للنبي ازاء المؤمنين والمشركين واهل الكتاب في العهد المكي والمدني ام موقفاً ازاء النبي ودعوته واصحابه من هؤلاء ، او يحتوي صورة من الصور المتصلة بالسيرة من جدال وحجاج وسؤال وجواب وانذار ووعيد وازمات وتشريع وجهاد الخ الخ . وما دام ان القرآن هو المصدر الأوحـــد الذي بريء من كل مظنة وشبهة فمن الحق ان يكون هو اقوى المصادر للسيرة النبوية واوسعها .

ولقد اهتممنا لتفصيل هذه السيرة بعض الشيء . لأن صاحبها صلوات الله وسلامه عليه قد غدا موئل مجد العرب والاسلام الاعظم الذي صار مجداً إنسانياً عالمياً خالداً خلد بـــه الجنس العربي خلود التقديس ، وهي حافلة بالنشاط العظيم الذي قام به ذلك المجد الباذخ وبالصور المشرفة التي تمثل اروع المثل العليا فوجب ان يلم بها الناشيء العربي ليدرك سر ذلك المجد الخالد . والله ولي التوفيق .

دمشق الشام ١٢ رجب ١٣٨١ و ١٩ — ١٢ — ١٩٦١

المؤلف

تمهيدات

١ ـ الظروف الخطيرة التي انبثق فيها الاسلام

٢ ـ حكمة اختصاص الحجاز ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

٣ ـ محتوى واهداف الرسالة المحمدية

٤ ـ شأن الجنس العربي ومسؤليته في الرسالة المحمدية

٥ ـ اهتمام القرآن لليهودية والنصرانية واهلها وصلة ذلك بالرسالة المحمدية

الظروف الخطيرة التي انبثق فيها الاسلام

إن الدور الثالث من تاريخ الجنس العربي اي دور العروبة الصريحة في ظـــل الاسلام والذي ما يزال ممتداً إلى الآن والى ما شاء الله يبدأ من البعثة النبوية المحمدية على صاحبها افضل الصلاة والسلام .

وتمتاز مآثر الجنس العربي ومظاهر نشاطه وحركاته في هذا الدور بميزات عظيمة عما قبله، لأنه ظهر تحت راية الاسلام الذي انبثق من هذه البعثة المباركة .

ولقد انطوت الرسالة الاسلامية التي اختص الله بها محمداً العربي واللغة العربية في دور العروبة الصريحة للجنس العربي على اهداف بعيدة المدى من نواحي وحدة الفكر والطابع والمطمح والشمول والكيان العام والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمعـــاشي والسلوكي وشمول ذلك للانسانية كلها في كل زمن ومكان مما لم تنطو عليه اية رسالة نبوية سابقة . كما امدته بقوى معنوية عظيمة وطدت له قدسية وخلوداً وانتشاراً بما لا يقاس عليه شيء من ادواره السابقة بل بما لا يقاس عليه اي دور من ادوار التاريخ لأمة من امم الارض .

وإذا ما لحظ ما كان عليه الجنس العربي مـــن حالة سياسية واجتماعية وفكرية ودينية سواءً أفي موطنه الاصلي جزيرة العرب ام في مواطنه الثانية بلاد الشام والعراق ووادي النيل بدت عظمة آثار هذه الرسالة وبركاتها وقوتها وروعتها .

فقد انهار السلطان العربي في جنوب الجزيرة وبعد ان كان قويـــاً شاملا زاهر المآثر والمظاهر عشرات القرون وانتهى امره إلى سيادة الفرس بعد محـــاولة ابن ذي يزن على ما شرحناه في الجزء السابق . ولم تكن الحال في شمال الجزيرة مرضية او مستقرة حيث كان السلطان فيه موزعاً وضيق المجال والاثر . ففي المدن حكومات مدن محلية قبلية ليس لها ذلك الشأن والنشاط الذي كان للدول العربية في جنوب الجزيرة والمواطن العربية الثانية .

وفي البادية حكومات مشايخ وزعماء محلية وبدوية ضيقة المدى والنشاط بدائية المطامح والمطالب والرغبات . وكان هذا الشمال إلى هذا عرضة لمطامع المتغلبين من فرس ورومان ومجالا لدسائسهم وتحريكاتهم واثارتهم للمنافسات بين قبائله وبين الغسانيين واللخميين الذين كانوا يتنازعون السلطان في العالم العربي الشمالي على ما شرحناه كذلك في الجزء السابق . وماذكرناه في هذا الجزء من مظاهر النشاط السياسي الثقافي والاجتماعي والروحي في الحجاز خاصة وفي عرب الشمال عامة إنما كان في دور تطوري من جهة ولم يكن له بعد من الأثر ما يسبغ على هذه البقاع قوة واستقراراً من جهة اخرى .

وفي خارج الجزيرة انهـــار السلطان العربي الذي بدا قوياً في حقبة من الزمن في دور العروبة الصريحة والذي كان يمثله دول الأنباط وتدمر وبصرى الشام والحيرة . وقد اشتد سلطان الفرس على بلاد العراق وسلطان الروم على بلاد الشام ومصر قبيل البعثة النبوية بعد أن ازدهر سلطان الجنس العربي في كل من هذه الأقطار عشرات القرون قوياً باهر الآثار والمظاهر على ما شرحناه في الجزء السابق وما قبله .

ولقد كان العداء الذي أثاره الفرس والرومان بين الملوك الغسانيين واللخميين يؤدي إلى حروب دامية يشترك فيها قبائل العراق والشام فيها ضد بعضهم . وقد أدى هذا إلى إثارة الضغائن والثارات بين هذه القبائل في مجالها ومداها البدوي فلم تكد الحروب تنقطع بينها أيضاً . وهذا بالاضافة إلى ما كان من حروب ومنازعات قبلية محلية كانت لا تفتأ تنشب بين قبائل الجزيرة واطرافها لأسباب متنوعة وتؤرث الاحقاد والثارات بينها ممـــا شرحناه كذلك في الجزء السابق .

وكانت الحالة الدينية في الجزيرة العربية والمواطن العربية الثانية أي وادي النيل والهلال الخصيب سيئة منهارة . فقد كان الكتابيون ـ أي اليهود والنصارى فيها في خلاف ونزاع وشقاق وعداء وقتال فيما بينهم من جهة وبين كل منهم والآخر من جهة ثانية على ما شرحناه في الجزئين السابقين وأيدته آيات قرآنية عديدة سجلت واقع امرهم من هذه الناحية ثم من ناحية ما استشرى فيهم من فساد خلقي واجتماعي وانحراف جوهري عن المبادىء الاصلية للديانتين [1] .

---

(١) إقرأ هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر في صدد شقاق وانحراف اهل الكتاب الديني والخلقي : سورة البقرة ٤٤ و ٨٤ــ ٨٥ و ١١٣ و ٢٨٣ وآل عمران ٧١ و ٧٨ و ١٨٧ والنساء ٤٦ ــ ٥٢ ١٦٠ ــ ١٦١ والمائدة ١٣ ــ ١٤ و ٦١ و ٦٦ و ٧٩ و ٨٠ والتوبـــة ٢٩ و ٣٤ والشورى ١٤ زخرف ٦٣ و ٦٥

وكانت جمهرة سكان الجزيرة قد وصلوا إلى طور الاعتقاد بالاله الاكبر الذي خلق السماوات والارض وما فيها والذي بيده ملكوت كل شيء المؤثر المباشر في نفع الخلق وضررهم غير انهم كانوا في الوقت نفسه يخلطون ذلك باشراك شركاء مع الله في العبادة والاتجاه والدعاء يتخذونهم شفعاء لدى الله وكانوا إلى هذا على تقاليد غير متسقة مع العقل والحق في طقوسهم وعاداتهم الدينية والاجتماعية والاسروية والاقتصادية . وكان فريق منهم في حيرة وبلبلة من امره : صدف عن الشرك ورموزه المادية الوثنية وعن كثير مما عليه قومهم من عادات وتقاليد لبعد ذلك عن الحق والعقل . وصدف عن اليهودية والنصرانيه لما طرأ عليهما من تحريف وانحراف وسوء تأويل تعكر به صفاء مبادىء الديانتين ولما قام بين اهلها من خلاف وشقاق . وصار يتمنى الله على ان يقيض للأمة العربيه من يهديها إلى الحق ويخلصها من ضلالها وحيرتها وبلبلتها ويقسم بأنه إذا جاء نذير عربي بكتاب عربي ليكون اهدى من الأمم الاخرى بما فيها اليهود والنصارى على ما شرحناه في الجزء السابق .

ففي هذه الظروف العصيبة بالنسبة للجنس العربي من كل ناحية بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم مبشراً ونذيراً للعالمين جميعاً ورحمة لهم وانزل عليه القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . ورشح الذين يتبعونه لقيادة العالم وهدايته وليكونوا شهداء على الناس وخير امة اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير . ووعدهم بالتمكين والاستخلاف في الارض وظهور دينهم الذي ارتضاه لهم على الدين كله ونهاهم عن الانحراف عن سبيل الله الحق والتفرق شيعاً كما فعل الذين أوتوا الكتاب من قبلهم على ما قررته آيات عديدة من القرآن نورد منها ما يلي على سبيل المثال :

١ ــ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

آل عمران ١٠٤ ــ ١٠٥

٢ ــ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ

مِنْهُم ٱلْمؤْمنونَ وأَكْثَرُهُمْ ٱلْفاسِقونَ .

آل عمران ١١٠

٣ ــ وأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِياً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِهِ ذٰلِكُمْ وصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقونَ .

سورة الانعام ١٥٣

٤ ــ أَلِرَ كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُماتِ إِلى النُّورِ بإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ ٱلْعَزيزِ ٱلحَميدِ .

سورة ابراهيم ١

٥ ــ ولَقَدْ كَتَبْنا في ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحونَ . إِنَّ في هٰذا لَبلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ . وَما أَرْسَلْناكَ إِلّا رَحْمَةً لِلْعالَمينَ .

سورة الانبياء ١٠٥ ــ ١٠٧

٦ ــ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في ٱلأَرْضِ كَما ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم ٱلَّذِي أَرْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفاسِقونَ .

سورة النور ٥٥

٧ ــ يا أَيُّها ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً ومُبَشِّراً ونَذيراً . وَداعِياً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنيراً . وبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبيراً .

سورة الاحزاب ٤٥ ــ ٤٧

٨ ــ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَــذِيراً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

سورة سبأ ٢٨

٩ ــ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيداً .

سورة الفتح ١١

حكمة اختصاص الحجاز

ببعثة النبي محمد عليه السلام

ولعل من الجدير بالتأمل والتنبيه اختصاص الحجاز بالرسالة الاسلامية وظهورهـا فيها حيث كانت هي البقعة الوحيدة تقريبا من جزيرة العرب ومواطنهم الثانية التي نجت من نفوذ الاجانب أي الرومان والفرس الذين كانوا اصحاب السلطان في جنوب الجزيرة وشرقها وفي بلاد الشام والعراق ومصر وبقية شمال افريقية .

ولقد كان انبساط سلطان الدولتين على مهاجر بلاد العرب وما نشب نتيجة لتحريضهما بين ملوك العرب الغسانيين في الشام واللخميين في العراق من حروب ودماء وغزوة الاحباش لليمن وقضائهم على آخر ملك عربي مستقل فيها وطموحهم الى بسط سلطانهم على الحجاز وارتدادهم عنها ذا تأثير كبير على العرب أدى إلى ازدياد اتجاههم نحو الحجاز المستقل واتساع نطاق الحج الذي كان يقوم فيها واشتراك العرب على اختلاف نحلهم ومنازلهم فيه وتوطيد هدنة الاشهر الحرم المقدسة لتيسير هذا الاشتراك في ظلها على ما شرحناه في الجزء السابق فكان ذلك كله بالاضافة إلى عوامل دينية وفكرية اخرى تأثرت بها بيئة النبي صلى الله عليه وسلم مما شرحناه كذلك في الجزء المذكور من اسباب نجاح الدعوة المحمدية في الجزيرة في المرحلة الاولى وقيام الوحدة القومية والدينية فيها تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم وسلطان الاسلام بدلاً من الحياة القبلية المفككة المتناحرة وتعدد النحل والآلهة والاتجاهات على ما سوف يأتي شرحه .

محتوى واهداف الرسالة المحمدية

ولقد جاءت الرسالة المحمدية دينا ونظاما كاملين فانطوت على الدعوة إلى الله وحـده المتصف بجميع صفات الكمال والمنزه عن كل نقص ومماثلة وتقرير ربوبيته للعـالمين جميعا واستغنائه وتنزهه عن الشريك والولد بأي معنى كان وسواء أكان ذلك تأويلا أم وسيلة أم

شفاعة ، وعلى ما من شأنه القضاء على ما طرأ على الديانتين السماويتين السابقتين المارستين من سوء تأويل وانحراف وانقسام وتهاتر ، وعلى ما من شأنه تحرير الانسانية من الخضوع لاية قوة خفية وظاهرة غير الله ، وعلى ما من شأنه ان يفتح لها آفاق الحياة على مصراعيها في نطاق اسمى المبادىء وأكرم الاخلاق وافضل المناهج والخطط الاجتماعية والسياسية والفردية والانسانية واشدها مرونة للنهوض الى ذرى الكمال في كل مجال من مجالات الحياة وتوجيهها نحو احسن السبل واشرفها وأنزهها وأعدلها وأتمها صفاء وسناء . شاملة للناس جميعهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ونحلهم ليكونوا تحت رايتها اخوة متساوين في الحقوق والواجبات على اختلاف مناحيها . وليقوم في ظلها عالم واحد ونظام واحد ودين واحد ولغة واحدة وبكلمة واحدة مجتمع انساني واحد . يتولى الأمر فيه الصالحون الاكفاء الحريصون على مصلحته العامة . لا طاعة فيه لسلطان بمعصية وضرر ولا سند لحاكم فيه إلا كتاب الله وسنة رسوله ومصلحة العباد والبلاد المتسقة معها . ولا مكان فيه لظالم جبار وطاغية مسيطر . والشورى فيه — وهي تعبير عما يقال له الديموقراطية — صفة أساسية لأهله . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي الامر بكل ما فيه خير وصلاح ونفع والنهي عن كل ما فيه شر وفساد وضرر والدعوة الى الخير والسلام والتواد والتراحم من واجبات كل فئة فيه ، وصفة اساسية او خصائص ذاتية لاهله نتيجة لاسلامهم وايمانهم . لا يسمح باستقطاب الثروة في جانب والفقر في جانب . يؤخذ فيه من الغني للفقير ويمنع فيه القوي من ظلم الضعيف . ويساعد فيه القادر العاجز ، ويتواصون جميعا بالصبر والمرحمة والتعاون والتعاطف . ويستمتعون جميعا بكل طيب حلال من طيبات الحياة الدنيا وزينتها بدون تفريط ولا إفراط في ظل سلام شامل دعت اليه ووطدت معناه مقررة ان الله تعالى انما خلق الناس ليتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا ويتعايشوا لا ليتخالفوا ويتنازعوا . قابلة للانطباق في كل زمن ومكان وللاستجابة الى مختلف مطالب البشر المادية والروحية . مخاطبة في ذلك كله العقل والقلب معـا . وموفقة في ذلك كله بين سعادة الدنيا والآخرة بأسلوب لا تعقيد فيه ولا التواء نافذ الى اعماق النفس مع الأمر بالدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن وعدم الاكراه والأجبار . وموسعة صدرها لمن أراد الاحتفاظ بدينه وعقيدته إذا واد المسلمين وسالمهم ولم يتآمر عليهم وعلى دينهم . وآمرة بمعاملة هؤلاء بالقسط والبر . وبعدم القتال إلا للدفاع ودفع العدوان وتأمين حرية الدعوة وارغام الظالمين . ومصدقة لما بين يديها من الرسالات التوحيدية التي جاء بها انبياء الجنس العربي وبخاصة ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ومتممة لها . وجاء كتابها القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ليبين لأهل الكتاب كثيراً مما كانوا يخفون ويحل لهم

كثيراً مما كانوا يختلفون فيه ويضع الامور في كل ذلك في نصابها الحق . وكل ذلك يتم بقوة الحافز الديني الذي يحرك المسلم اذا كان صادق الاسلام تورعـــا ورغبة في تنفيذ حكم الله وقضائه الحكيم العادل لنيل رضوانه وتفادي غضبه وتحقيق سعادة الدنيا والآخرة معا التي وعده الله بها . فكمل بهذه الرسالة المجد العربي شرفا باهر النور والسناء ، وكانت الطور النهائي لتلك الميزة العظمى التي امتاز بها الجنس العربي – وهو ظهور الأنبـــياء المتصلين بالله ووحيه والداعين اليه والمبلغين عنه – لأنها احتوت من المبادىء والأسس والحلول الجذرية ما يكفل حاجة البشر ويحل مشاكلهم الروحية والمادية في كل زمن ومكان إذا مارجعوا اليها[1] .

شأن الجنس العربي ومسؤوليته في الرسالة المحمدية

ولقد كان تمام المجد العربي الذي كمل بالرسالة المحمدية ان حملت هذه الرسالة الجنس العربي الذي بلغ الذروة في العروبة الصريحة في هذا الظرف في آيات صريحة مهمة القيام بنشرها في مشارق الارض ومغاربها وبين جميع البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم مما لم يسبق له مثيل كما وطدت شأنه في المجتمع الجـــديد الذي رشح الاسلام ليكون دينه الذي يظهره الله على الدين كله ليتمكن من القيـــام بمهمته بحق ديني مقدس حتى لا يثير تحجها ولا امتناعاً من غيرهم من ناحية ومع تقرير كون ذلك ليس اعلاء عنصرياً ولا من قبيل جعل الشعوب الاخرى عبيداً ومستغلين كما انحرف اليه بنو اسرائيل وكون أكرم الناس عند الله أتقاهم حتى لا يثير من ناحية ثانية في نفس الجنس العربي غروراً ولا رغبـة في الاستعلاء والاستغلال ازاء اخوانه في الدين .

ولقد بذل السيد الرسول صلوات الله وسلامه عليه جهده فقام بمهمته أفضل قيام وأقواه . وكان من اهم ما اهتم له جمع العرب الذين كان لهم شرف الاختصاص برسالته في المرحلة الاولى تحت لواء واحد والقضاء على الحياة القبلية الضيقة التي كان جمهرتهم يحيونها وتهيئتهم روحياً

---

(١) الايات القرآنية المؤيدة لذلك اكثر من ان تحصى . ولا يشفي في هذا المقام ايراد بعضها . ولقـــد بوبناها في كتابنا الدستور القرآني في شؤون الحياة وشرحنا ما فيها من المبادىء والنظم والتشريعات والتلقينات الرائعة الخالدة من سياسية واقتصادية واجتماعية واخلاقية وتبشيرية وجهادية وقضائية مع نظرة القرآن الى الحياة الدنيا فليرجع اليه من شاء ليجد فيه الشاهد المؤيد لكل ما ذكرناه . وقد الحقنا بهذا الجزء القواعد المستخلصة منها بعنوان الدستور القرآني .

واجتماعياً وسياسياً وتنظيمياً للقيام بالمهمة العظمى الشاملة التي انيطت بهم وهي نشر الرسالة المحمدية وتبوء مكان الشاهد العدل الوسط بين البشر مما احتوت تلقينه آيات عديدة منها هذه الآيات التي انطوى فيها دلائل حاسمة في هذا الباب :

١ ــ وَكَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمّةً وسَطاً لِتَكُونوا شُهَداءَ على النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ شَهيدا ...

سورة البقرة ١٤٣

٢ ــ يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا اتّقوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَموتُنَّ إلّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . واْعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلا تَفرَّقُوا واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخواناً وكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أمّةٌ يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلا تَكونُوا كَالَّذينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ .

سورة آل عمران ١٠٤ ـ ١٠٥

٣ ــ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وتُؤْمِنونَ باللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنونَ وأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقونَ .

آل عمران ١١٠

٤ ـ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ .

الانبياء ١٠

٥ ـ وَجاهِدُوا في اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبيكُمْ إِبْراهيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفي هٰذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ .

الحج ـ ٧٨

٦ ـ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ . وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ [١] .

الزخرف ٤٣ ـ ٤٤

ولقد كان من وسائل التوطيد لهذه الشأنية توطيد اللغة العربية التي كانت بلغت ذروة فصاحتها لتكون لغة هذا الدين ولغة معتنقيه وبالتالي لغة الانسانية التي جعل الله تعالى هذا الدين دينا لها ووعد باظهاره على غيره من الاديان على ما جاء في آيات سورة التوبة التي أوردناها قبل .

فاللغة العربية لغة القرآن : والقرآن مستند الدين ومنبع اسسه وقواعده ومبادئه وتلقيناته وتشريعاته . ولا يمكن العمل به إلا اذا فهم على وجهه الصحيح بمعرفة لغته معرفة تامة . وهو بعد ركن من أركان الصلاة التي يجب على المسلم اقامتها خمس مرات في كل يوم ولا تتم الا بتلاوته بأدائه العربي وألفاظه العربية . والاحـاديث النبوية مستند للدين ومنبع لأسسه وقواعده ومبادئه وتلقيناته وتشريعاته كذلك بعد القرآن . وفيها كثير مما يفسر القرآن ويوضحه . ولا يمكن الانتفاع بها في هذا وذاك وكلاهما امران خطيران الا اذا فهمت على

(١) الخطاب في جميع الايات موجه للمسلمين حقا . غير ان الذين خوطبوا بها لاول مرة هم العرب . وما فيها ينصرف اليهم في الدرجة الاولى . ويؤيد ذلك آيات سور الانبياء والحج والزخرف التي تلهم بقوة ان المقصودين فيها هم العرب .

وجهها الصحيح بمعرفة لغتها العربية معرفة تامة . وهذا وذاك يوجبان تعلم اللغة العربية على كل مسلم ومسلمة مهما كان جنسها . وهذا مما يساعد على نشر هذه اللغة في الاصقاع التي ينتشر فيها الاسلام بل ويجعلها لغتها .

واللغة ليست ألفاظا للتفاهم فقط تصوت بها افواه الناس كما تصوت العجماوات بأصواتها بل هي مجموعة عواطف وميول وتقاليد وعادات وتاريخ الامة الناطقة بها . فانتشار اللغة العربية هو انتشار لسلطان العرب الروحي والثقافي والادبي والاجتماعي معا .

ولقد كان لها ذلك فعلا حينما انتشر الاسلام في اصقاع الارض في القرون الثلاثة الاولى للهجرة . فالمواطن العربية الثانية اي وادي النيل وبلاد الصومال وبلاد الشام والعراق ثم المواطن التي ظلت طويلا تحت الحكم العربي اي شمال افريقية اصطبغت نهائيا بصبغة العروبة الصريحة الخالدة بتأثير تدفق العرب المسلمين عليها وانتشار الاسلام فيها . والامم التي دانت بالاسلام ثم تخلصت من حكم العرب كالفرس والترك والافغان والبلوج والسند واطراف الهند والصين الغربية او التي دانت بالاسلام ولم تخضع لحكم العرب كأنيدوسيا والقازانيين والبشناق وأواسط افريقية وأواسط الهند والصين الخ غدا نصف لغتها على التقريب عربيا . والقرآن يتلى فيها بألفاظه وأدائه العربيين والاحاديث النبوية تحفظ وتتلى فيها بألفاظها وأدائها العربيين كذلك . والصلاة والطقوس والادعية والاوارد والتسابيح تمارس باللغة العربية . واصوات خطباء المنابر ومدرسي المساجد ومعلمي الدين وعلمائه ومؤذني المآذن تعلو باللغة العربية . وقد شهدنا بادرة جديدة تدل على مقدار عظمة هذا التوطيد في الدعوة القوية التي تنتشر في الباكستان الى جعل اللغة العربية لغتها الرسمية ثم لغة الامم والدول الاسلامية جمعاء . والباكستان هي أكبر دولة اسلامية او الدولة الثانية الكبرى ، ثم في الرغبة الملحة التي تعلنها الدول والشعوب الاسلامية في افريقية وغيرها في تعلم اللغة العربية وبعثاتها التي ترسلها الى مصر والبعثات التي تطلبها من مصر في سبيل ذلك .

ولقد كان من وسائل التوطيد كذلك استقبال الكعبة العربية . وهو ركن من اركان الصلاة . ومعنى هذا ايجاب توجه المسلم خمس مرات كل يوم نحو الكعبة في جميع انحاء الارض التي ينزل فيها المسلمون . وفي هذا ما فيه من ربط قلوب المسلمين على اختلاف اجناسهم وألوانهم وبلادهم بهذا البيت العربي وبجزيرة العرب التي هو فيها . والذي يتمعن في

الآيات القرآنية الواردة في هذا الموضوع يتبين هذا المعنى الذي نوهنا به [1] .

ومثل هذا يقال في الحج الذي هو ركن من أركان الاسلام الواجب على المستطيعين من المسلمين حيث تغدو بلاد الحجاز مزدحم اقدام حجاج المسلمين عربهم وعجمهم ابيضهم واسودهم واصفرهم واسمرهم يأتون من كل صوب ليشهدوا منافع لهم . وهي المنافع الاجتماعية الكبرى من تعارف وتآلف وتآمر بالمعروف وتناه عن المنكر ودعوة الى الخير وتعاون على المرحمة والحق والصبر ونظر في صالح المسلمين . وارتباط المسلمين بركن من أركان دينهم لهم فيه منافع عظيمة مثل هذه يؤدونه في البلد العربي الذي كان مهبط وحي نبيهم العربي يديم من دون ريب النفوذ الروحي لاهل هذا البلد ثم للجنس العربي الذي هذا البلد من مواطنه وهذا النبي منه على سائر المسلمين في مشارق الارض ومغاربها بطبيعة الحال .

والمتأمل في تاريخ الاسلام يجد ان العزة والقوة والحيوية انما كانت تتحقق بمعناها النافذ في اي قطر امتد اليه حينما يكون العرب هم اصحاب السلطان وحملة رايته او حينما تكون العروبة طابع اصحاب السلطان وحملة رايته ويجد بالتالي مصداق التوجيه القرآني المنطوي في جملة (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) ثم في جملة (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) التي حملت العرب مسؤولية نشر الرسالة الاسلامية .

وتنبه الى الفرق بين انتشار الاسلام وبين ما تعنيه كلمات العزة والقوة والحيوية الاسلامية . فالاسلام ظل ينتشر عبر القرون بدون توقف وفي ظروف قوة سلطان المسلمين وضعفه على السواء نتيجة لعناصر الاستجابة القوية فيه غير انه لم يكن له العزة والحيوية والقوة التي كانت له حينما يكون العرب هم اصحاب السلطان وحملة الراية . مما فيه توكيد لمهمة مسؤولية الجنس العربي العظمى .

اهتمام القرآن لليهودية والنصرانية واهلها
وصلة ذلك بالرسالة المحمدية

●

ولقد كان للنصرانية في الدرجة الاولى ولليهودية في الدرجة الثانية حيز كبير في جزيرة

---

(١) اقرأ مثلا آيات سورة البقرة ١٢٥ — ١٢٩ و ١٤٢ — ١٥٢ وسورة آل عمران ٩٥—٩٧ وسورة الحج ٢٠ — ٣٧

العرب ومواطن العرب الثانية . وهما الديانتان السماويتان اللتان تتحدان مع الديانة الاسلامية في المنبع والجوهر فاختصهما القرآن بعناية خاصة وجاء الى معتنقيهما بحلول لما تعقد من عقائدهم وتبلبل من افكارهم حيث كان اليهود قد شوهوا عموم رسالة موسى فجعلوها خاصة بهم وضيقوا رحمة الله الواسعة وربوبيته الشاملة للعالمين فجعلوه اله اسرائيل وحرفوا كتبهم ليجعلوا من انفسهم شعب الله المختار الذي يكون له سائر الشعوب عبيداً ومستغلا والذي لا يكون مسؤولا عن اي شيء يجترحه في حق هذه الشعوب من عدوان على مال وعرض ودم كما قررت ذلك احدى آيات سورة آل عمران تسجيلا لواقع امرهم وهي :

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥) ، وحيث كانوا الى هذا يقذفون في المسيح وامه عليهما السلام قذفا شنيعا ويعادون النصارى عداءً شديداً وتقوم بين الفريقين مذابح مروعة اثناء تصاول الفرس والروم في بلاد الشام فهتف القرآن الله رب العالمين جميعا وان رحمته وسعت كل شيء وان الله انما جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا فيتفاهموا ويتعاونوا ويتعايشوا على قدم المساواة لانهم من نفس واحدة ولا يفضل احد على احد عند الله الا بالتقوى ولا تكسب نفس الا عليها ولا يحل لاحد دم غيره او عرضه او ماله ، وان المسيح عليه السلام رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة وان الله ايده بروح القدس وجعله آية للناس ورحمة وان ولادته قد تمت بمعجزة في نطاق قدرة الله القادر على كل شيء .

ولقد كان النصارى بدورهم في بلبلة عجيبة من الاراء والعقائد . منهم من يعتقد بألوهية المسيح الكاملة وناسوتيته الكاملة في الوقت نفسه وهم الذين عرفوا بأصحاب عقيدة المشيئتين. ومنهم من كان يعتقد ان المسيح قد صار مزيجاً من طبيعتي اللاهوت والناسوت فلم يكن إلهاً كاملا ولا ناسوتاً كاملا وصار ذا مشيئة واحدة وهم الذين عرفوا بأصحاب عقيدة المشيئة الواحدة . ومنهم من كان يعتقد بأن المسيح كان هيكلا أو آلة لله حل فيه روح القدس ولا يجوز ان تسمى امه ام الاله وهم النساطرة . ومنهم من كان يعتقد بألوهية مريم فضلا عن ألوهية المسيح ويعبدها . ومنهم من كان يعتقد بنبوة المسيح كسائر الأنبياء ومعجزة ولادته ومنهم من كان يعتقد انه ولد من مريم ويوسف النجار ولادة طبيعية وان الله اصطفاه نبياً وأرسله الى بني إسرائيل ومنهم من كان يعتقد بصلبه ومنهم من لا يعتقد . وكانوا نتيجة لذلك شيعاً واحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً ويضطهد بعضهم بعضاً على ما شرحناه في الجزئين

السابقين فهتف بهم القرآن .

(إنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكون) و (ما كَانَ لِلهِ أنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إذا قَضى أمراً فإنّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكونَ) و (يا أَهْلَ ٱلْكِتابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلى اللهِ إلّا ٱلْحَقَّ إنّما ٱلمسيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقولُوا ثَلاثَةٌ أنْتَهوا خَيْراً لَكُمْ إنّما اللهُ إِلٰهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما في السَّمواتِ وَمَا في ٱلأَرْضِ وَكَفى بِاللهِ وَكيلاً)

وان معجزة ولادته كمعجزة ولادة يحيى التي يعرفونها — وقد ذكرت هذه في انجيل لوقا — والتي لم يترتب عليها ان يكون إلها او جزءاً من إله . وذكر ما قاله عيسى من القول الحق المتطابق مع ما سجلته الاناجيل من اقواله في آية الزخرف هذه :

(وَلمّا جاءَ عِيسى بِالبَيِّناتِ قَالَ إنّما جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفونَ فِيهِ فَاتَّقوا اللهَ وَأطِيعُون . إنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ ٦٣ — ٦٤)

وفي آية المائدة هذه :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هُوَ ٱلمسيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلمسيحُ بْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إسْرائيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنْصَارٍ ٧٢)

وفي آيات المائدة هذه :

(وإذْ قالَ اللهُ يا عِيسى بْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذوني وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قالَ سُبْحانَكَ مَا يَكُونُ لي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما في نَفْسي وَلا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيوبِ . ما قُلْتُ لَهُمْ إِلّا ما أَمَرْتَني بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وربَّكُمْ وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَـــا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١٦–١١٧)

ثم هتف بهؤلاء وأولئك معاً :

١ ــ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ أَلّا نَعْبُدَ إِلّا اللهَ وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ .

سورة آل عمران ٦٤

٢ ــ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَما اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ . فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وإِنْ تَوَلَّوا فَإنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ .

سورة آل عمران ١٩ – ٢٠

٣ ــ يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثيراً مِمّا كُنْتُمْ

تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتابِ ويَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ . قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وكِتابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ ٱتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ ويَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم

المائدة ١٥ – ١٦

٤ — ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ فَسأكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ والَّذِينَ هُمْ بآياتِنا يُؤْمِنونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْراةِ والإنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بالْمَعْرُوفِ ويَنهاهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ويُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمِ ٱلْخَبائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ والأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ جَميعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ لا إلٰهَ إلّا هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ فَآمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ النَّبِيِّ الامِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ باللهِ وكَلِماتِهِ واتَّبِعوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

سورة الاعراف ١٥٦ - ١٥٧

وقد هيأ القرآن بذلك السبيل الى انضواء ابناء الديانتين الى الراية الاسلامية التي حملها محمد العربي صلى الله عليه وسلم ليتسنى بذلك توحيد جبهة قوية لا يقف امامها شيء في نشر الرسالة الاسلامية وجعلها تظهر على الدين كله .

ولقد استجاب كثير من هؤلاء وأولئك للهتاف لأنهم رأوا في ما جاء في القرآن حقاً وصدقاً وحلا لمشاكلهم وماطرأ عليهم من انحراف وانقسام وما ارتكسوا فيه من سوء تأويل على ما سجلته آيات عديدة من القرآن بأسلوب رائع نافذ كما ترى في الايات التالية :

١ ـ وإنَّ مِنْ أهلِ الكِتابِ لَمَنْ يُؤمِنُ باللهِ ومَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ ومَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلهِ لا يَشْتَرُونَ بآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أولئِكَ لَهُمْ أَجرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ .

سورة عمران آل ١٩٩

٢ ـ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ مِنْهُمْ والْمؤمِنُونَ يُؤمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ ومَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ والْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ والْمؤتُونَ الزَّكاةَ والْمؤمِنونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ أولئِكَ سَنُؤتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً .

سورة النساء ١٦٢

٣ ـ ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إنَّا نَصارَى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ورُهْباناً وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ . وإذا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ .

سورة المائدة ٨٢ ـ ٨٣

٤ ـ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إلَيْكُمْ الكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمْ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

سورة الانعام ١١٤

٥ ـ والَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ .

سورة الرعد ٣٦

٦ ـــ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقانِ سُجَّداً . وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً .

سورة الاسراء ١٠٧ ـــ ١٠٩

٧ ـــ ٱلَّذِينَ آتَيْناهُمُ ٱلْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .

سورة القصص ٥٢ ـــ ٥٣

٨ ـــ وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ٱلْكِتابَ فَٱلَّذِينَ آتَيْناهُمُ ٱلْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلّا ٱلْكافِرُونَ.

سورة العنكبوت ٤٧

وان كان حقاً قد بقي كثير من هؤلاء واولئك متنكرين للاسلام والقرآن فان مرد ذلك الى الأنانية الضيقة والمآرب الخاصة التي جعلتهم سادرين في تعصبهم وتنكرهم على ما قررته آيات عديدة كانت من دون ريب تسجيلا لواقع امرهم كما ترى في الآيات التالية :

١ ـــ وَلَمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى ٱلْكافِرِينَ بِئْسَما ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ .

سورة البقرة ٨٩ ـ ٩٠

٢ ـــ وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أَهلِ ٱلْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفوا وَاصْفَحوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

سورة البقرة ١٠٩

٣ ـــ أَلَمْ تَرَ إِلى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وهُمْ مُعْرِضُونَ .

سورة آل عمران ٢٣

٤ ـــ كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجاءَهُمْ ٱلْبَيِّناتُ واللهُ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُولٰئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وٱلْمَلائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

سورة آل عمران ٨٦ – ٨٧

٥ ـــ وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَما يُضِلُّونَ إِلّا أَنفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ . يا أَهْلَ ٱلْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . يا أَهْلَ ٱلْكِتابِ لِمَ تَلْبِسونَ ٱلْحَقَّ بِالباطِلِ وتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

آل عمران ٦٩–٧١

٦ ـــ قُلْ يا أَهْلَ ٱلْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وأَنْتُمْ شُهَداءُ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

سورة آل عمران ٩٩

٧ ــ اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِروا إِلّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلّاهُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكونَ . يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَليمٍ .

سورة التوبة ٣٠ – ٣٤

ومع ذلك فان مكر المتنكرين لم يمنع دعوة القرآن الذي حفظه الله بكل سنائه وصفائه واشراقه ونفوذه من ان تكون وتظل قوية كاسحة . تجد فيها الانسانية حلولا لمختلف مشاكلها لأنها دعوة الحق الذي يتضاءل أمامه كل باطل وعناد ومكابرة وتمحل . ودليل ذلك ما كان من انتصارها وانتشارها الكاسحين في جزيرة العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه . وما كان من انتصارها وانتشارها الكاسحين كذلك في كل مكان وصلت اليه اعلامها في مشارق الأرض ومغاربها حيث انتشرت في البقعة الشاسعة الهائلة الممتدة من الهند والصين شرقا الى ساحل الاطلانطي ثم بلاد الأندلس وجزر البحر الأبيض وسواحل ايطالية غربا ومن جبال الاورال والقفقاس وبحر قزوين شمالا الى اواسط افريقية جنوبا في زمن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وما كان من انتشارها في ابان ضعف السلطان العربي والاسلامي بمثل المقياس الواسع ان لم يكن أوسع مما كان من ذلك في ابان قوة هذا السلطان في مختلف انحاء الأرض [1] وما يزال ومما فيه الدليل القاطع على انها انما انتشرت بقوة مافيها من الحق والسناء والصفاء والبساطة وحسب. وبقاء شراذم ضئيلة ضعيفة على نصرانيتها ويهوديتها الى اليوم في مختلف انحاء البلاد الشاسعة الواسعة التي ساد فيها السلطان الاسلامي سيادة قوية شاملة خلال القرون الاربعة عشر دليل قاطع آخر على ذلك .

---

(١) اقرأ كتاب الدعوة الى الاسلام تاليف ارنولد توماس وترجمة الدكتور حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين.

الفصل الاول

نشأة النبي صلى الله عليه وسلم
وحياته قبل البعثة

الفصل الأول

نشأة النبي صلى الله عليه وسلم
وحياته قبل البعثة

إن النبي العربي صلوات الله عليه رائد هذا الدور وهو الوحيد بين الأنبياء الذي لم تكن شخصيته التاريخيـــة موضع شك من أي كان . كما أن القرآن العربي الكريم الذي كان الأساس الأعظم الذي قام عليه هذا الدور هو الوحيد بين الكتب المقدسة الذي تداوله الناس منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما بلغه عن الله بألفاظه وحروفه وآياتـــه وسوره .

ولقد دونت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في عهد مبكر نوعاً ما أي في القرن الثاني للهجرة كما دونت أحاديث كثيرة مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم وتابعيهم في القرن الاول للهجرة . ومع أن هذه المدونات لم تصل إلينا فإنه وصل الينا كثير مما روي فيها في كتب دونت في القرنين الثاني والثالث للهجرة .

وفضلا عن ذلك فقد تضمن القرآن المدون والمرتب في زمن النبي صلى الله عليه.وسلم صوراً كثيرة عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قبـــل البعثة وبعدها منها الصريح الواضح ومنها ما هو دون ذلك ولكنه ينطوي على ملامح غير خفية من السيرة [1] .

وهكذا صار في اليد مصادر عديـــدة لهذه السيرة منها ما هو صادق كل الصدق وهو ما احتواه القرآن من صور وأحداث ومشاهد ودلالات وقرائن . ومنها ما فيـــه أخبار

---

(١) للمؤلف كتاب عنوانه سيرة الرسول في جزئين تضمن صوراً كثيرة جداً من السيرة النبويـــة قبل البعثة وبعدها وفي عهديها المكي والمدني .

كثير منها جدير بالثقة والاعتماد لتواتره واتساقه مع المضامين والملهمات القرآنية . ومنها ما يمكن أن يكون مشوباً ببعض الشوائب بسبب تداوله على الألسنة بدون تدوين مدة ما وبسبب ما كان من فتن في صدر الاسلام ، مما يتحمل التحفظ ولكنه لا يخلو من حقائق يمكن استخلاصها منه بالتمحيص والمقارنة .

والمستفاد من هذه المصادر أن النبي صلى الله عليه وسلم ينتسب إلى أسرة قرشية تمتد الى الزعيم العربي قصي بن كلاب الذي ذكرنا بروزه وزعامته ومآثره المروية في الجزء السابق . فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب . وأمه قرشية من بني زهرة واسمها آمنة بنت وهب [1] . وقد ولد في مكة للسنة الأولى من عام الفيل الذي وقعت فيه غزوة الأحباش لمكة على ما شرحناه في الجزء السابق . وتصادف سنة ولادته لسنة ٥٧٠ ميلادية على ما حسبه الحاسبون[2] .

استطراد وتعليق على تشكيك بعض المستشرقين في عروبة النبي وقرشيته واسمه

●

ولقد حوّم المستشرقون حول اسم النبي صلى الله عليه وسلم وقرشيته وعروبته استناداً الى بعض الروايات التي ليس فيها سند صحيح كما حوموا حوله .

فلقد ورد في بعض كتب السيرة المتأخرة رواية تفيد أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم في طفولته اسم آخر غير محمد وهو قثم أو قثامة فتمسكوا بها مع أنها لم ترد في كتب السيرة القديمة المعتبرة ووصل بهم الزعم إلى أن اسم محمد قد افتعل افتعالا وأقحم على القرآن إقحاماً [3] . والزعم متهافت لا يكاد يستحق تعليقاً حتى على فرض صحة تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بقثم أو قثامة . فاسم محمد هو المتواتر المشهور الذي لم يختلف فيه أحد ولا يتحمل شكاً ولا مراءً . والقرآن قد أملي ورتب من قبل النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ورد اسم محمد فيه اكثر من مرة [4] وسميت به إحدى السور . والزعم يقتضي أن يكون النبي صلى الله

---

(١) ابن هشام . ج ١ ص ١٦٤ مطبعة مصطفى الحلبي .
(٢) نفس المصدر ص ١٦٧
(٣) انظر الجزء الاول من الترجمة التركية لكتاب تاريخ الاسلام لكاتياني ص ٣٥٢ وبعدها .
(٤) في آية سورة آل عمران ١٤٤ وآية سورة محمد ٢ وآية سورة الفتح ٢٩

عليه وسلم هو الذي بدل اسم قثم أو قثامة الذي كان يسمى به في صباه وشبابه وبعد بعثته باسم محمد في القرآن بعـــد أن ذكر فيه الاسم الأول . وهـــذا هراء لا يصح في عقل ومنطق .

ولقد ورد في بعض الروايات أن عبد المطلب الجد الأقرب للنبي صلى الله عليه وسلم نشأ وترعرع في يثرب عند اخواله . وأن عمه المطلب حمله وأتى به الى مكة . وقال لمن سأل عنه إنه عبد له . ولقد ورد في بعض الروايات كذلك ان لوالد النبي صلى الله عليـــه وسلم اخوالا في يثرب كما كان لأبيه عبد المطلب . وانه كان يقضي كثيراً من اوقاته في زيارتهم حتى إنه مات في طريقه اليهم في احدى هذه الزيارات . كما ورد في بعض الروايات ان والدة النبي صلى الله عليه وسلم اخذت ابنها وهو طفل الى يثرب لتزيره اخوال ابيه فيها وماتت في طريق عودتها من هذه الزيارة . ولقد ندرت تسمية (عبد الله) عند العرب . ولقد قيل عن هذه التسمية إن العرب يسمون بها حينما يريدون ان يبقى الاسم الاصلي مجهولا . او انهم يطلقونها على صاحب الشخصية المجهولة . وازاء هذه الروايات والأقوال اطلق المستشرقون خيالهم العنان يستشفون ما وراءها من معان ومغاز ومجهولات[1] . لا سيما وفي يثرب جاليات اسرائيلية . والنبوات السماوية انما عرفت في هذا القبيل من البشر خاصة . وتساءلوا مشككين عما إذا كانت اصالة عروبة النبي صلى الله عليه وسلم وابيه وجده ومكيتهم وقرشيتهم لا يصح ان تكون موضع اشتباه . وعما اذا كان لا يصح ان يكون هناك دم وصهر واستعداد جنسي بين جد النبي صلى الله عليه وسلم او ابيه وبين اسرائيليي يثرب . ورأوا في تعـــدد الروايات واختلافها وتغايرها ما جعلهم ينظرون الى شجرة نسب النبي صلى الله عليه وسلم القريب منها والبعيد على انها قد صنعت بعد الاسلام . ومن الغريب ان لا يخطر ببالهم حين أثاروا هذه الشبهات او أرادوا ان يثيروها ان العرب لو عرفوا مغمزاً في نسب النبي صلى الله عليه وسلم وعروبته لوجهوه اليه ولذكره القرآن في معرض الرد كما ذكر كل التهم والمغامز الكثيرة التي وجهوها اليه ؛ هذا في حين ان روايات كثيرة متواترة لم يختلف فيها تضمن اعترافهم بصحة عروبة وقرشية النبي صلى الله عليه وسلم [2] . ومن الغريب كذلك ان لا يخطر ببالهم

---

(١) انظر الجزء الاول من الترجمة التركيـــة لكتاب تاريخ الاسلام لكايتاني ايضا ص ١٥٣ وما بعدها .

(٢) انظر ابن هشام ج ١ ص ٢٨٠ وما بعدها .

ان ينعموا النظر - ولعلهم عجزوا عن إنعام النظر - في الآيات القرآنية ليكفوا انفسهم مؤونة هذه الحيرة او هذا التشكيك والتحويم الذي يحلو لهم حول كثير مما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم والذي يساعدهم عليه - والحق يقـــال - ثغرات الروايات العربية والاسلامية .

ولقد احتوى القرآن آيات صريحه تقرر ان مكة ام القرى هي مدينه النبي صلى الله عليه وسلم [1] وآيات عديدة تكررت فيها عبارة (من انفسهم) و (من انفسكم) و (منهم) و (منكم) بسبيل الاشارة الى النبي صلى الله عليه وسلم وفي معرض الخطاب للعرب ولأهل مكة بخاصة [2] . وآيات عديدة وصف فيها النبي صلى الله عليه وسلم بوصف الأمي الذي جاء في القرآن لوصف غير الكتابيين ولوصف العرب لانهم غير كتابيين [3] وآيات عديدة وصف بها العرب واهل مكة والقرشيون - لأن هؤلاء هم اول من خوطبوا بالدعوة - بأنهم قوم النبي صلى الله عليه وسلم [4] . ولقـــد جاء في سورة الأحزاب هـــذه الآيـــة (إِنّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتي آتَيْتَ أُجورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمينُكَ مِمّا أَفاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللّاتي هاجَرْنَ مَعَكَ الخ ٥٠) حيث تدل بصراحة على انه كان للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة اعمام وعمات واخوال وخالات وانه قد تزوج من بناتهم اللاتي كن في عداد المسلمين المهاجرين الى يثرب . والمعروف اليقيني انه لم يكن بين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم هاشميات وبطن هاشم هو بطن النبي الأقرب . ومن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عائشة بنت ابي بكر رضي الله عنها وهن من بطن التيم من قريش ومنهن حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها وهي من بني عدي من قريش وام حبيبة رملة بنت ابي سفيان رضي الله عنها من بني امية بن عبد شمس . وام سلمه رضي الله عنهـــا من بني اسد وزينب

---

(١) انظر آية سورة محمد ١٣

(٢) انظر آيات سورة التوبة ١٣٨ وآل عمران ١٦٤ وسورة الجمعة ٢

(٣) انظر آيات سورة الاعراف ١٥٧ - ١٥٨ والجمعة ٢

(٤) انظر آية سورة الانعام ٦٦ والزخرف ٤٤

بنت حجش الأسدية رضي الله عنها من بطون قريش وسودة بنت زمعة رضي الله عنها ويتصل نسبها بلؤي جد قصي وام سلمة المخزومية رضي الله عنها من بطون قريش[1] وجميعهن من المهاجرات من مكة الى المدينة . ومن المعروف ان العمومة والخؤولة عند العرب لا تعني العم المباشر او الخال المباشر او العمة او الخالة المباشرتين فحسب وإنما قد توجعان الى العمومة والخؤولة غير المباشرتين ايضاً بحيث يصح القول إن بني امية وبني هاشم ابناء عم لأنهم يجتمعون في عبد مناف والد هاشم وعبد شمس جدي الاسرتين وإن تعبير اخواله وخالاته وعماته واعمامه يمكن ان يطلق على اخوال ابيه او جده وخالاتها وعماتها واعمامها ايضاً. وهكذا تبدو بنص القرآن صلة القربى بالعمومة والخؤولة غير المباشرتين وبتعبير آخر صلة القربى القديمة التي قد تعود الى عدة اجيال بين النبي صلى الله عليه وسلم ومختلف بطون قريش قائمة لا تحتمل مماراة . ولقد اشير الى هذه الصلة إشارة قوية في احدى آيات سورة الشورى وهي (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَى ٢٣) حيث تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لبطون قريش ان وشائج القربى بينه وبينهم يجب ان تكون قرينة قاطعة لهم على ان دعوته اياهم فوق كل شبهة من مطمع وانما هي دعوة القريب قريبه الى ما فيه الخير وان من حقه عليهم ان يقابلوه بالمودة التي توجبها القربى[2] .

ولقد روت روايات السيرة[3] انه لما نزلت الآية (وأنذر عشيرتك الاقربين . سورة الشعراء ٢١٤) ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف

---

(١) انظر ابن هشام ج ٤ طبعة المكتبة التجارية الكبرى ص ٣٢١ وبعدها

(٢) نعتقد ان هذا او ما يقاربه هو التأويل الاقرب الى الحق للآية من التأويل الذي يعمد اليه الشيعة بجعل الآية أمراً بمودة اقارب رسول الله مقابل هداية الناس ! واكثر المفسرين اولوها بنحو ما اوردناه في المتن (انظر تفسير الاية في ابن كثير والبغوي والطبري والخازن والزمخشري) ولقد روى البخاري حديثاً جاء فيه ان سائلا سأل ابن عباس رضي الله عنه عن ما تعنيه كلمة القربى في الاية وكان سعيد بن جبير حاضراً وهو من كبار علماء التابعين فقال قربى آل محمد فقال ابن عباس عجلت . إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة فقال لهم لا اسألكم عليه اجراً. ألا ان تصلوا مابيني وبينكم من القرابة (انظر التاج الجامع لاصول الاحاديث الصحيحة ج ٤ ص ٢٠٣ – ٢٠٤)

(٣) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٨٤ – ١٨٥ والطبري مطبعة الاستقامة ج ٢ ص ٦١ – ٦٤

وفي رواية دعا زعماء بطون قريش لانذارهم على اعتبار انهم عشيرته الأقربون . وعلى كل حال فالآية تتضمن كما هو ظاهر دلالة قاطعة على ان النبي صلى الله عليه وسلم كان له في مكة عشيرة او بطن خاص يلتحم معه التحام القرابة العصبية المباشرة . وفي سورة التوبة هذه الآية (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيله ١٩) ومعظم المفسرين[١] يروون ان المقصود بكلمة سقاية الحاج الشخص الذي كان يتولى هذه المهمة وهو العباس بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام ، وامر هذه المهمة من المهام العليا التي كان يتولاها رؤساء بيوتات قريش الرفيعة او نبهاؤها ووجهاؤها ابناء عن اباء على ما شرحناه في الجزء السابق حيث يكون في هذا قرينة قرآنية باسلوب ما على ان بني عبد المطلب من بيوتات قريش البارزة .

طفولة النبي

●

وتعود بعد هذا الاستطراد الى السياق فنقول ان بعض الروايات تذكر ان والد النبي مات وهو في بطن امه وبعضها تذكر انه مات بعد ولادته بسبعة اشهر او بثمانية وعشرين شهراً[٢] . وهي مقتنعة على انه مات في المدينة حيث كان في رحلة تجارية وصل فيها الى غزة وعاد منها مريضاً فتخلف عند اخواله بني عدي بن النجار فمات بعد شهر[٣] . وهي متفقة كذلك على ان النبي استرضع في بني سعد واسم مرضعته حليمة وعلى ان امه ماتت بعد ولادته ببضع سنين فنشأ يتيماً من الأبوين[٤] والى هذا اشارت آية سورة الضحى هذه (ألم يجدك يتيماً فآوى ٦) وقد نشأ في حضانة جده عبد المطلب الى ان مات هذا في السنة الثامنة من عمره فصار الى حضانة ورعاية عمه وشقيق ابيه ابي طالب[٥] . وقد كان له اعمام عديدون غير ابي طالب. منهم عبد العزى الذي نعته القرآن بأبي لهب والعباس وحمزة[٦] . وكان ابو لهب

---

(١) انظر تفسير الاية في تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما

(٢ – ٤) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٧ – ١٧٧ وطبقات ابن سعد ج ١ ص ٨٠ – ٩٠

(٥) ابن هشام ج ١ ١٨٩ وطبقات بن سعد ج ١ ص ١٠١ – ١٠١

(٦) غنى ابي لهب مؤيد بآية سورة تبت (ما اغنى عنه ماله وما كسب وغنى العباس مذكور في الطبري ج ٢ ص ٥٧ — ٥٨

والعباس من اغنياء قريش . وكان العباس صاحب منصب من مناصب مكة العليا على ما ذكرناه قبل . وكانت اسرته تنعت ببني هاشم نسبة الى جد والده . وكان هو وعمه ابو طالب من الفريق غير الغني بل وغير البارز في المجال الاجتماعي . ويستفاد هذا بالنسبة له من آية في سورة الضحى بالنسبة لفقره وهي (ووجدك عائلا فأغنى ٨) ومن آيات في سورتي الزخرف وص فيها حكاية استغراب زعماء قريش من اختصاصه بالنبوة دونهم مع انهم هم الزعماء البارزون اصحاب المكانة المرموقة والكلمات المسموعة كما ترى في النصوص التالية :

١ ــ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلأُ مِنْهُمْ أَنْ ٱمشُوا وَٱصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ يُرادُ . ما سَمِعْنا بِهٰذا في ٱلْمِلَّةِ ٱلآخِرَةِ إِنْ هٰذا إِلاَّ ٱخْتِلاقٌ أَءُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ في شَكٍّ مِنْ ذِكْري بَــلْ لَمّا يَذُوقُوا عَذابِ .

سورة ص ٦ - ٨

٢ ــ وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هٰذا القُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ ٱلقَرْيَتَيْنِ عَظيمٍ . أَهُمْ يُقَسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَّمْنا بَيْنَهُمْ مَعيشَتَهُمْ في الحَياةِ ٱلدُّنيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِياً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ[1]

٣٢ ــ ٣٣ سورة الزخرف

---

(١) استغربوا نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا إنه كان الاولى ان ينزل على زعيم عظيم من زعماء مكة والطائف . فردت عليهم الايات بان ما هم فيه من تفاوت في الدرجات وعلو في المكانة هو مظهر من مظاهر الحياة وليس مظهر رحمة ربانية يختص الله بها المستحقين لها من عباده الصالحين .

اما امر فقر عمه ابي طالب فهذا مما يستفاد من الروايات [1] . ولعل تقدم اخيه العباس عليه وتوليه منصب سقاية الحاج مع انه اصغر منه من الدلائل على ذلك .

ولقد احتوت بعض الكتب وبخاصة المتأخرة منها [2] روايات كثيرة في سياق ذكر وجوده ونوره قبل نشأة الانسان الأولى ثم في سياق ذكر نسبه وحمله وولادته وبشائره دون ان يكون لها اصل من قرآن او سند من حديث صحيح او دعامة من منطق ومقول بل وكثير منه لم يرد في الروايات المدونة في كتب السيرة القديمة حيث يبدو منها ان غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الانسان الكامل في النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتجلى في التميز في عظم الخلق وصفاء النفس وكبر القلب وقوة الايمان والفناء في الله والمهمة العظمى التي اضطلع بها ورأوا انه لا بد من ان يكون من لوازم نبوته واصطفائه ان تكون ثمة مقدمات وبشائر وان كان فيها ما يخرج النبي صلى الله عليه وسلم من النطاق الطبيعي للبشر اولا ولسائر الأنبياء ثانياً ويدخله في نطاق اللاهوتية او ما في معناها وذلك حين يصفونه بالاب الاكبر لجميع الموجودات وانه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفخ الروح فيه لانه هو المقصود من خلق النوع الانساني وان جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسي وسموات وارضين وانس وجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره وان احد اجداده الياس كان يسمع تلبيته بالحج وهو في صلبه وانه كان يعلم بأمر نبوته مذ كان في عالم الذر وبعد خلقته ويرى علائم ذلك في الشجر والحجر وهي تسلم عليه وان امه سمعت بشائر نبوته ورأت اعلامها حين وضعته الى آخر ذلك . ومن الغريب والطريف معاً ان يكون مثل هذا الغلو في اعتقاد صفات النبوة هو الذي حمل طائفة من العرب على جحد نبوتة والوقوف منه موقف المنكر المستغرب اذ تخيلوا ان النبي لا بد من ان يكون فوق البشرية في القدرة على الخوارق ومعرفة الغيب وتسخير الاكوان والخلود والصعود الى السماء واستنزال الملائكة وانفتاح كنوز الارض له . فلما رأوه بشراً مثلهم يقرر بلسان القرآن مثليته البشرية ويرد عليهم حينما يطلبون منه الخوارق بأنه ليس الا بشراً ورسولا وانه لا يعلم الغيب ولا يملك خزائن الله وانه ليس ملكاً وانه معرض لجميع ما

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ١١١ والطبري ج ٢ ص ٥٧ – ٥٨

(٢) اقرأ الشفاء والقسطلاني وشروحها ومختصراتها واقرأ قصص المولد النبي التي تتلى في الحفلات .

تتعرض له البشر عجبوا وجحدوا وردد القرآن موقفهم وندد به في آيات كثيرة[1] .

على ان في القرآن آيات كثيرة فيها سور عديدة عن شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وحياته قبل البعثة كما ان في الروايات التي يصح الاعتماد عليها سور عديدة من ذلك أيضاً .

أخلاقـــه

●

فبالاضافة الى الاشارات القرآنية التي نبهنا اليها قبل قليل في صدد يتمه وفقره وعدم بروزه في مجال الزعامة ففي سورة القلم آية فيها تنويه بأخلاقه وهي (وانك لعلى خلق عظيم ٤) ولا شك في أن الخلق العظيم الذي تقرره الآية فيه هو امتداد لما كان له من ذلك قبل البعثة لان الآية من أوائل ما نزل من القرآن . والكلمة مطلقة واسعة الشمول بحيث يصح القول انها تصف النبي صلى الله عليه وسلم بالاخلاق الكريمة الفاضلة الشخصية والاجتماعية. وقد روى البخاري[2] حديثاً عن عائشة رضي الله عنها جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما عاد من حراء بعد نزول الوحي الاول عليه قال لخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها اني خفت على نفسي فقالت له « كلا والله ما يخزيك الله أبداً انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » وفي هذا تفسير للاخلاق الكريمة الفاضلة التي كان عليها قبل بعثته كما هو واضح .

وفي سورة الانعام التي هي من السور المكية المبكرة في النزول نوعاً ما هذه الاية في معرض حكاية عناد زعماء قريش والرد عليهم (وإذا جاءَتْهُمْ آيـــةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِن حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ١٢٤)

---

(١) اقرأ مثلا آيات سورة الاعراف ١٨٨ ويونس ٤٩ والاسراء ٩٠ – ٩٤ والانبياء ٧ – ٨ والفرقان ٧ – ٨

(٢) التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٢٦ – ٢٢٧

حيث تقرر الجملة الثانية من الآية ان الله تعالى انما اصطفى محمدا (صلعم) لما كان عليه من استعداد ومواهب خلقية وعقلية وروحية جعلته أهلا لمهمة الرسالة العظمى . وطبيعي أن ذلك تقرير لما كان عليه قبل اصطفائه لهذه المهمة وفي سورة يونس هذه الايات التي تدل على انه لم يكن فضوليا وعلى انه كان منطويا على نفسه منقبضا عما كان عليه قومه

(وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الّذين لا يَرْجون لِقاءنا ائت بقرْآن غير هذا أوْ بدّلْهُ قلْ ما يكون لي أنْ أُبدّلَهُ منْ تِلْقاءِ نفْسي إنْ أتّبِعُ إلاّ ما يُوحى إليّ إنّي أخافُ إنْ عصيْتُ ربّي عذاب يوْمٍ عظيمٍ . قُلْ لوْ شاءَ اللهُ ما تلوْتهُ عليْكُمْ ولا أدْراكُمْ بِهِ فقدْ لبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً منْ قبْلِهِ أفلا تعْقِلُون . ١٥ ــ ١٦)

وفي سورة المؤمنين آيات تدل على أن النبي (صلعم) لم يكن نكرة بين قومه قبل بعثته ولو لم يكن بارزاً في مجال الزعامة . بل وتدل على أنه كان معروفاً عندهم برجاحة العقل وهي

(أفلَمْ يدّبّروا القوْلَ أمْ جاءهُمْ ما لمْ يأْتِ آباءهُمُ الأوّلين . أمْ لمْ يعْرِفُوا رسُولهُمْ فهُمْ لهُ مُنكِرُون . أمْ يقولُون بِهِ جِنّةٌ بلْ جاءهُمْ بالْحقّ وأكْثرُهُمْ لِلْحقّ كارِهُون .

« ٧٠ — ٦٨ »

وهناك آيات عديدة أخرى[1] تتضمن تقرير ما كانت عليه سيرته في المسلمين من لين وتنزه عن الفظاظة وغلظ القلب والاستماع للخير والعمل به وثقته في أصحابه وشدة حرصه

---

(١) انظر آيات سورة آل عمران و ١٥٣ - ١٥٩ والانعام ٣٥ والتوبة ٢٥ - ٢٦ و ١٢٨ ويونس ٩٩ والكهف ٦ وطه ١ - ٢ والشعراء ٣ والاحزاب ١٠ - ٢١ و ٢٨ - ٢٩ والحج ٧٢ والعلق ١٥ ــ ١٩ والقلم ١٠ ــ ١٦ وانظر كذلك ص ٤٨ ــ ٦٩ ففيها نصوص هذه الايات وغيرها وشرح لها في مبحث اخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

على المسلمين وتألمه مما كان يشق عليهم ويسبب لهم العنت والعناء وما كان عليـــه من خلق الحياء والتفادي من جرح عواطف أصحابه . وما كان من شدة حرصه على هداية قومه وخيرهم وصلاحهم . وما كان يبذله من جهد عظيم تكاد أن تهلكه وتشقيه في هذا السبيل . وما كان يعتريه من هم وحزن واشفاق بسبب انقباض قومه عن الاستجابة الى دعوته في مراحلها الاولى . وما كان عليه من ثبات الجأش وقوة الجنان في الخطوب وميدان الحرب وما كان من استغراقه في مهمته العظمى استغراقا جعله لا يبالي بأي متعة او مطلب او رغبة بالنسبة للمعيشة البيتية الهنيئة حتى كاد يطلق زوجاته حينما طالبنه بشيء من ذلك . وما كان عليه من جرأة وقوة جنان في الوقوف أمام الزعماء الاقوياء وتوجيه اشد الانذارات والصرخات القارعة التي أمر بتوجيهها عليهم كلما كانوا يشتدون في عنادهم وتصامهم[1] .

واذا كانت هذه الايات القرآنية متصلة بسيرته بعد البعثة فان مما لا يصح المراء فيه ان أصول الصفات والاخلاق المشار اليها فيها كانت ممتدة الى ما قبل بعثته وانما هي التي اهلته للرسالة العظمى فيما اهله من مواهب ومزايا . بل من الحق ان يقال هذا بالنسبة لجميع ما نوه به القرآن وحث عليه من اخلاق فاضلة كالصدق والعدل والبر والامانة والاعتدال والاحسان وصلة الرحم والوفاء ونصرة المظلوم والصبر والكرم وكل ما ذمه القرآن ونهى عنه من اخلاق سيئة من كذب وظلم وبغي واثم وفحش وافك وزور واسراف ونكث وغدر وخيانة ورباء ومكابرة وهوى . ولقد روى الامام احمد والنسائي حديثاً عن جبير بن نفير جاء فيه انه حج ودخل على عائشة رضي الله عنها فسألها عن خلق رسول (صلعم) فقالت « كان خلق رسول الله القرآن[2] وهو جواب فيه كل الحق والصدق والبداهة بدون ريب »

---

(١) اقرأ آيات سورة آل عمران ١٥٣ و ١٥٩ والتوبة ٢٥ – ٢٦ و ٩١ و ١٢٨ والكهف ٦ وطه ١ – ٢ والشعراء ٣ وفاطر ٨ والانعام ٣٥ ويونس ٩٩ والاحزاب ١٠ – ٢١ و ٢٨ – ٢٩ والحج ٧٢ والهمزة ١ – ٩ وتبت ١ – ٦ والعلق ١٥ – ١٩ والقلم ١٠ – ١٦ واقرأ كذلك الصفحات ٤٨ – ٦٩ من الجزء الاول من كتابنا سيرة الرسول التي استعرضنا وشرحنا فيها هذه الآيات وغيرها في صدد اخلاق النبي صلى الله عليه وسلّم .

(٢) انظر تفسير ابن كثير لاية « وانك لعلى خلق عظيم » من سورة القلم

شبابه وزواجه واعتكافاته وبعض أحداث جرت له

ولقد ذكرت كتب السيرة ان ابا طالب كان لا يسافر سفراً الا اخذ النبي معه وانه توجه نحو الشام فنزل منزلا فيه فأتاه راهب اسمه بحيرى فلما رأى النبي وكان عمره اثنتي عشرة سنة سأل عن والده فقال له ابو طالب ها انا ذا وليه فقال له احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به الى بلاد الشام فان اليهود حسّد واني اخشاهم عليه فرده ابو طالب معه الى مكة [1]

ومما روي [2] أن النبي (صلعم) لما بلغ سن الشباب وعرف ما كان عليه من أمانة واخلاق رضية طلبت اليه السيدة خديجة بنت خويلد ابن اسد بن عبد العزى بن قصي رضي الله عنها احدى نساء الأسر القرشية الشريفة وأرملة أبي هاله بن مالك أحد بني أسيد بن

---

(١) هذه خلاصة ما جاء في طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٠١ وقد روى ابن هشام ذلك بشيء من الخلاف والبيان حيث روى ان الركب الحجازي لما وصل الى بصرى وكان فيها دير يقيم فيه بحيرى الراهب رأي هذا غمامة تظلل الركب فنزل ودعاهم الى الطعام فلبوا الدعوة وخلفوا رسول الله عند متاعهم لحداثة سنه فظلت الغمامة حيث هي فسألهم ان كان تخلف منهم احد فقال غلام حدث فطلب إحضاره فلما جاء اخذ يلحظه لحظاً شديداً وينظر الى اشياء من جسده كان يجدها عنده من صفته فقال له اسألك بحق اللاة والعزي إلا ما اخبرتني عما اسألك عنه فقال له لا تسألني باللاة والعزي فو الله ما ابغضت شيئا قط بغضها فساله بالله عن اشياء من حاله في نومه وهيئة اموره فاخبره فوافق ذلك ما عنده من صفته ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده وكان مثل اثر المحجم فسأل الراهب ابا طالب عنه فقال له ابني فقال ليس ابنك فما ينبغي ان يكون له اب حي فقال له ابن اخي مات ابوه وامه حبلى به فقال له ارجع بابن اخيك الى بلده واحذر عليه اليهود فوالله إن رأوه وعرفوه ما عرفت منه ليبغنه شراً فانه كائن لابن اخيك شان عظيم فاسرع به الى بلده فخرج به عمه سريعاً حتى اقدمه مكة حين فرغ من تجارته . (١٩١ — ١٩٤ ج ١) ومهما يكن من اختلاف في رواية المؤلفين فالظاهر ان مصاحبة النبي لعمه في صباه في رحلته او رحلاته التجارية صحيحة وان لقاء جرى بين عمه وبين بحيرى الراهب في رحلته وان هذا راى في النبي من الامارات ما جعله يتوقع له ذلك الشان العظيم ويحذر عمه عليه .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٩٨ — ٢٠١

عمرو بن تميم حيف بني عبد الدار ، وكانت ذات مال أن يتجر لحسابها على عادة موسري مكة على ما ذكرناه في الجزء السابق فقام بأكثر من رحلة تجارية في سبيل هـذه المهمة ونجح فيها نجاحاً جعل السيدة تعرض عليه نفسها للزواج فتزوج بهـا وعمره خمس وعشرون سنة .

ونعتقد أن هذا الحادث كان فاتحة عهد جديد في حياة النبي (صلعم) بل كان حاسماً فيها له اكبر الأثر في الاتجاه النهائي الذي اتجه اليه وتهيأت نفسه وقواه الروحية لتلقي الرسالة العظمى والنهوض بهـا . إذ أغناه الله تعالى عن الضرب في الأرض في سبيل الرزق . فاستطاع ان يتمتع في جانب السيدة بالحياة البيتية الهانئة المطمئنة من جهة وأن يتفرغ من جهة اخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر في ملكوت الله وآلائه والقيام بالرياضات او الاعتكافات الروحية فارغ القلب من هموم المعيشة وضروراتها . ونعتقد ان آية سورة الضحى (ووجدك عائلا فأغنى ٨) قد تضمنت الاشارة الى ذلك . واسلوبها الذي فيـه معنى التنويه والتذكير بنعمة الله بذلك جدير بالامعان . وننبه الى ان روايات السيرة لم تذكر ان النبي (صلعم) قام بأي رحلة تجارية او شغل نفسه بأية مشغلة دنيوية تكسبية بعد اقترانه بالسيدة خديجه رضي الله عنها . وكل ما ذكرته هو اخبار رياضاته واعتكافاته في غار حراء ثم اخبار قليلة اخرى اهمها حادث التحكيم في وضع الحجر الاسود في ركن الكعبة وحضوره حرب الفجار وحلف الفضول . وهي اخبار اجتماعية . وإنه ليكفي المرأة العربية فخراً ان يكون للسيدة خديجة هذا الأثر العظيم في حياة النبي (صلعم) . ولقـد تواترت الروايات فيما كان من صور هذا الأثر قبل البعثة وبعدها . فقد كانت تحنو عليه أعظم حنان وتخصه باسمى العواطف وتهيء له الزاد في مواسم اعتكافاته الرياضية والروحية وتلاحظه في اثنائها . ثم شجعته اعظم التشجيع وهدأته اعظم التهدئة حينما اوحى الله تعالى اليه في غار حراء حيث رجع اليها مقشعراً وقال لها زملوني حتى ذهب عنه الروع فاخبرها وقال لها إني خشيت على نفسي فقالت له ما اوردناه قبل من كلام عظيم وانطلقت به حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب العبراني فيكتب من الأنجيل بالعبرانية ما شاء الله وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجه يا ابن عم اسمع من ابن اخيك . فقال له ورقة ماذا ترى يا ابن اخي فاخبره بما رأى فقال له هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً ليتني اكون حياً إذ يخرجك قومك فقال له رسول الله (صلعم) او مخرجي هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا

عودي وان يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً [١] وكانت اول من صدقه وآمن به بما يدل على صدق فراستها وثاقب نظرها في شخصية النبي (صلعم) بعد ان تزوجته وعرفت ما فيه من مواهب واستعداد وقوى روحية وعقلية وخلقية. وظلت تؤاسيه وتهدئه وتشجعه كلما اشتد غمه وحزنه من جراء موقف زعماء مكة من دعوته الى ان توفاها الله في السنة الثامنة لبعثته . وكان تفجعه عليها عظيما لأنه فقد بفقدها اقوى صديق ومشجع ورفيق [٢] .

وحادث التحكيم الذي اشرنا اليه ذو مغزى خاص في صدد شخصية النبي (صلعم) وفضل اخلاقه وعقله وامانته وقد ذكرته روايات السيرة [٣] دون خلاف بما قد يدل على صحته . فقد تعرضت الكعبة لسيل شديد فصدّعها فاتفق زعماء قريش على هدمها وتجديد بنائها . وكان النبي (صلعم) في الخامسة والثلاثين من عمره وقد اشترك في البناء حيث كان عملا مشرفاً . ثم اختلف الزعماء على من يضع الحجر الأسود في مكانه — وقد ذكرنا شيئاً من تاريخه وقداسته في الجزء السابق — حتى كادوا يقتتلون ثم اقترح بعضهم تحكيم اول داخل الى الحرم فكان محمداً (صلعم) فارتاحوا وهتفوا انه الامين — حيث كان اشتهر فيهم بهذا الاسم المحبب الدال على امانته ورجاحة عقله فوضع الحجر في ثوب وطلب الى زعماء قريش ان يمسكوا بأطرافه ويرفعوه معاً الى ان وصل الى مكان الحجر فوضعه بيده في مكانه فأرضى بتدبيره الحكيم الجميع .

اما حرب الفجار فقد كانت بسبب قتل شخص شخصاً آخر في الشهر الحرام بما فيه مناقضة لتقاليد الاشهر الحرم التي شرحناها في الجزء السابق . وقد اشترك فيها القرشيون الى جانب حلفاء لهم ضد فريق آخر . وكان عمر النبي (صلعم) عشرين في رواية وخمس عشرة في رواية اخرى فحضرها مع عمومته وكان يقدم النبل اليهم حينما تأتي من جانب اعدائهم وتسقط في ساحتهم وفي رواية انه رمى فيها ايضاً وانه قال ما احب ان لا اكون فعلت ذلك [٤]

---

(١) انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٢) انظر ابن هشام ج ١ ص ٢٥ وحياة محمد لهيكل ص ١١٨ — ١٨١ — ١٨٢

(٣) انظر ابن هشام ج ١ ص ٢٠٤ — ٢١١ والطبقات لابن سعد ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٩

(٤) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٨ والطبقات ج ١ ١٠٨ — ١١٠

واما حلف الفضول فقد انعقد بين عدة بطون قرشية بسبب ظلامة تعرض لها رجل من زبيد حيث اشترى منه العاصي بن وائل احد اشراف قريش بضاعة وحبس عنه ثمنها . فلما اعيا الامر الزبيدي صعد الى جبل ابي قبيس وصاح بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم اشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحِجْر والحَجر

ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغُدُر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال ما لهذا وترك . فاجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهره وبنو تيم وبنو اسد في دار عبد الله بن جدعان وتعاهدوا على ان لا يجدوا بمكة مظلوماً من اهلها وغيرهم الا قاموا معه على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . وقد شهد النبي (صلعم) الاجتماع واشترك في التعهد وكان عمره عشرين سنة وقد اثر عنه انه قال (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما احب ان لي بـه حمر النعم ولو دعيت اليـه في الاسلام لاجبت[1] .

هذا . وفي آية في سورة الضحى ما يمكن ان يلقي الضوء على نشأة النبي (صلعم) الروحية وهي « ووجدك ضالا فهدى ٧ » ولقد قال بعض المفسرين ان الآية احتوت اشارة الى حادث تيهان فعلي وقع للنبي (صلعم) في طفولته او في احدى رحلاته كما قال بعضهم انها تعني انه كان غافلا عن الشريعة التي لا تتقرر الا بالوحي او انه كان حائراً في اسلوب العبادة ونفوا عنه على اي حال ان يكون ضالا بمعنى الاندماج في العقائد والتقاليد الشركية الجاهلية .

والنفس لا تطمئن الى رواية تيهان النبي (صلعم) مضموناً وسنداً . ولا تبدو انها يمكن ان تتسق مع ما تضمنته الاية من منّ الله تعالى على نبيه بأعظم افضاله لتفاهة الحادث .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٠ ــ ١٤١ تحقيق السقا ورفقـاه وطبع مصطفى الحلبي والطبقات لابن سعد ج ١ ص ١١٠ ــ ١١١ مطبعة لجنة الثقافة الاسلامية

وتفسير كلمة (ضال) بالحائر يحمل معنى الاية على ان المقصود الحيرة في الطريق التي يجب ان يسار فيها الى الله وعبادته على افضل وجه وهو المعنى الذي نراه الاوجه .

ولقد ذكرت ملة ابراهيم في القرآن مرات عديدة وبحفاوة عظيمة وآيات مكية ومدنية وفي صدد الجدل والخطاب مع العرب في مكة ومع اليهود في المدينة وفي صدد الدعوة اليها والتنويه بها ووجوب التزامها وتقرير صفتها وماهيتها لذاتها أيضاً . وبأسلوب يفيد أنها توحيدية مستقيمة على وحدة الله او منحرفة عن الشرك ، وأنها كانت مما تتداوله الألسنة قبل البعثة وعنواناً على الملة المثلى لمعرفة الله وعبادته وحده[1] .

ولقد وردت روايات عديدة[2] عن افراد من العرب في مكة ويثرب وغيرهما تخلوا قبل البعثة عن تقاليد العرب وعقائدهم الشركية واعتقدوا بوحدة الله ونزهوه عن الشركاء ومنهم من عبده على ملة ابراهيم او ما ظنه ملة ابراهيم على ما شرحناه في الجزء السابق شرحاً يغني عن التكرار . وكان العرب يسمونهم حنفاء وصابئين بمعنى انهم مالوا وانحرفوا عن دين آبائهم وتقاليدهم. فالذي نعتقده ونرى ان الآيات القرآنية تلهمه ان النبي (صلعم) حينما نضج شبابه صار من هذه الطبقة التي أنفت من تقاليد الشرك الجاهلية واعتنقت فكرة وحدة الله منزهاً عن الشريك والولد والمساعد واخذت تبحث عن ملة ابراهيم وتعبد الله على ما ظنوه هذه الملة .

ولقد ذكرت الروايات والاحاديث[3] ان النبي (صلعم) كان يعتكف في رمضان كل سنة اعتكافاً روحياً في غار حراء في احد جبال مكة الذي سمي باسم جبل النور في الاسلام فيستغرق في آلاء الله وملكوته وعظمة كونه . وكان بعض المتورعين يفعلون ذلك[4] . والاغلب انهم كانوا من افراد هذه الطبقة الموحدة . وظل على هذا المنوال إلى ان بلغ أشده وبلغ اربعين سنة في رواية وثلاثاً واربعين في رواية[5] — والاولى هي الاشهر —

---

(١) اقرأ آيات سورة البقرة ١٢٣ – ١٣٢ وآل عمران ٦٧ – ٦٨ و ٩٥ و ٩٧ والانعام ١٦١ وابراهيم ٣٤ – ٤١ والنحل ١٣٠ – ١٣٢ مثلاً

(٢) انظر مثلا ابن هشام ج ١ ص ٢٣٧ — ٢٤٧

(٣) انظر التاج الجامع للاصول في احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) الطبري ج ٢ ص ٤٨ مطبعة الاستقامة

(٥) نفس المصدر ١٠٧ — ١٠٨

اصطفاه الله تعالى دون افراد طبقته لرسالته العظمى لما علم من مواهبه الخلقية والعقلية والروحية التي تؤهله للقيام بهذه المهمة وانزل عليه في ليلة القدر التي كانت إحدى ليالي رمضان العشر الاخيرة او السابعة والعشرين منها في غار حراء وحيه لاول مرة بآيات القرآن الاولى :

(إقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ . خلقَ ٱلإنْسانَ مِنْ عَلقٍ . إقْرأْ ورَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ . الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلإنسانَ ما لَمْ يَعْلَم .

سورة العلق ١ — ٥

وليس في روايات السيرة على ما ذكرناه قبل بيانات شافية عما كان النبي (صلعم) يفعله في السنين الخمس عشرة التي مرت بين زواجه من خديجة رضي الله عنها الى ان نزل عليه الوحي في غار حراء .

وفي القرآن بعض آيات تحكي قول الكفار إن النبي (صلعم) كان يتعلم ما يتلوه قرآناً من بعض الاشخاص او يستعين بهم على ذلك . منها آية في سورة النحل حكت قولهم إنه كان يعلمه رجل اعجمي وهي هذه (ولَقَدْ نَعْلَمُ إنَّهُمْ يقولُونَ إنّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذي يُلْحِدُونَ إليْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبينٌ ١٠٣) ومنها آية في سورة الفرقان حكت كذلك قولهم إن قوماً آخرين كانوا يساعدونه على نظم القرآن وهي (وَقالَ الَّذينَ كَفَروا إنْ هذا إلاَّ إفْكٌ ٱفْتَراهُ وأعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرونَ فَقَدْ جاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً ٤) والآيات إنما تنفي التعليم والاستعانة ولا تنفي الاتصال . والمتبادر ان القائلين لم يكونوا يقولون ما قالوه لو لم يروا او يعرفوا ان النبي (صلعم) كان يتردد على بعض أهل العلم والكتاب . ولقد ذكرت الروايات[1] في سياق تفسير هذه الآيات اسمي جبرا ويسار الروميين وقالت إنهما كانا يقرآن الانجيل والتوراة وإن النبي (صلعم) كان يتردد عليهما او على احدهما جبرا ويستمع إلى ما يقرأونه .

---

(١) انظر تفسير آيات سورتي الفرقان والنحل المذكورة في كتب تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما .

ولقد احتوى القرآن المكي آيات عديـــدة فيها استشهاد بأهل العلم واهل الكتاب على صحة رسالة النبي (صلعم) ودعوته وتنويه بفرحهم بما أنزل عليه من قرآن وإيمانهم وتصديقهم، وإقرارهم بأنه منزل من الله بالحق اوردناها في التمهيد والمستفاد من الروايات ان اكثر هؤلاء كانوا في مكة وانهم كانوا نصارى، وروح الآيات قد تؤيد هذا وإن هناك آيـــة مكية تذكر شاهداً من بني اسرائيـــل وايمانـــه بصحة رسالة النبي والقرآن نصاً وهي (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وكَفَرْتُمْ بِهِ وشَهِدَ شاهِـــدٌ مِنْ بَني إِسْرائيـــلَ عَلى مِثْلِهِ فـــآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَهْـــدي ٱلقَوْمَ ٱلظَّالمِينَ ١٠)

فليس من المستبعد ان يكون النبي (صلعم) قد كان يتصل بهؤلاء وان يكون وقف منهم على أسس الديانتين اليهودية والمسيحية وعلى ما في الاسفار التي كانت متداولة في ايديهم . والراجح إنه عرف كذلك منهم ما عليه اهل هاتين الديانتين من خلاف ونزاع وتأويلات وانحرافات عكرت صفاء جوهرهما فاشتد اتجاهه الى الله ليهديه الى ما هو الاقوم فاستجاب اليه فهداه الى ملة ابراهيم الحنيفية التوحيدية الاسلامية وحمله رسالته العظمى بما يتمثل في الهتاف الذي أمره بأن يهتف به (قُلْ إِنَّني هَداني رَبِّي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ديناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنيفاً وَما كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكين . قُلْ إِنَّ صَلاتي وَنُسُكي ومَحْيـــايَ ومَماتي لِلهِ رَبِّ ٱلعالمِينَ لا شَريكَ لَهُ وبذلِكَ أُمِرْتُ وأَنا أوَّلُ المُسْلِمين . الأنعام ١٦١ ـــ ١٦٣)

وبما يتمثل في النداء الذي تضمنته هذه الآية (قُلْ يا أَهْـــلَ ٱلكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللهَ وَلا نُشْرِكَ بِـــهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقولُوا اشْهَدوا بِأَنَّا مُسْلِمُون ٦٤ آل عمران) و (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَما ٱخْتَلَفَ ٱلَّذينَ أُوتُوا ٱلكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمْ ٱلعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ

يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسابِ . فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِ وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ واللهُ بَصِير بِالعِباد . آل عمران ١٩ - ٢٠)

والمبادر ان الفريق الكتابي الذي كان في مكة كان هو الآخر يشعر بالحرج مما عليه أهل مكة من انحراف وشقاق ونزاع فلما بعث الله النبي (صلعم) ووجه دعوته اليهم في جملة من وجه اليه دعوته اسلم وصدق معظمهم وفرحوا بما جاءهم به على ما سجلته آيات سور الرعد (٣٦) والانعام (١١٤) والاسراء (١٠٧ - ١٠٩) والقصص (٥٢ - ٥٣) والاحقاف (١٠) التي اوردناها في التمهيد حيث رأوا فيه حلولا لمشاكلهم وعقدهم وانقاذاً لهم مما ارتكسوا فيه من حيرة وبلبلة ونزاع وخلاف .

وليس من المستبعد ان يكون اتصال النبي (صلعم) بهذا الفريق كان وثيقاً مستمراً الى ان أوحى الله اليه.والروايات تذكرعدداً من الكتابيين الذين كانوا من الرعيل الاول من المسلمين والذين ايدوا النبي (صلعم) والتفوا حوله اشد تأييد والتفاف منهم بلال وشقران والنجشه والاسود وام ايمن من الاحباش وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم .

ولقد تواترت الروايات الى حد اليقين بأن ابا بكر الصديق رضي الله عنه كان صديقاً للنبي (صلعم) قبل البعثة . وكان دائم التردد عليه[١] ، وكان اول من آمن به من الرجال . وان كلا من عثمان بن عفان وابي عبيدة بن الجراح وسعد ابن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله وسعيد بن زيد رضوان الله عليهم كانوا كذلك من السابقين الاولين[٢] ومن اقوى انصار النبي (صلعم) . وهم من شباب الاسر القرشية البارزة . وبعضهم من جيل النبي (صلعم) . وهم من العشرة المبشرين بالجنة لسابقتهم

---

(١) ابو بكر الصديق لعلي الطنطاوي ص ٥٠

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٧٩

ونصرتهم . وجميعهم من ذوي العقول النيرة والمواهب الممتازة كما ثبت ذلك في إبّان حياة النبي (صلعم) وبعد وفاته . واحدهم سعيد هو ابن زيد بن عمر احد افراد الطبقة الموحدة التي اشرنا اليها آنفاً وكان يتعبد على ملة ابراهيم . وقد كان النبي (صلعم) عرفه واجتمع به [1] . فليس من المستبعد بل من المحتمل جداً ان يكون هؤلاء او بعضهم حلقة رفاق للنبي (صلعم) قبل بعثته وكانوا يتجهون اتجاهه ويتحدثون في شؤون الدين وما كان عليه قومهم من سخف وضلال. فما ان أوحى الله الى النبي عليه السلام حتى سارعوا الى تصديقه ونصرته وتأييده .

ومما له صله بنشأة النبي « صلعم » انه لم يكن يقرأ ويكتب على ما تفيده بعض الآيات القرآنية حيث جاء في آية في سورة العنكبوت « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » . سورة العنكبوت ٤٨

وفي سورة الفرقان آية اخرى تؤيد ذلك وهي :

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِين ٱكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا . ٥)

وتعبير اكتتبها بمعنى استكتبها على ما ذكره الزمخشري وغيره من المفسرين . ومعنى الآية ان الكفار زعموا ان النبي « صلعم » كان يكلف بعض الكتاب بنسخ وكتابة قصص الاولين وتلاوتها عليه صبحاً ومساء حتى يحفظها . وقد يدل هذا على ان زعماء قريش انفسهم الذين حكت الآية قولهم كانوا يعرفون انه لا يقرأ ولا يكتب :

ولقد حاول كايتاني المستشرق الطلياني في كتابه تاريخ الاسلام ان ينكر ذلك لانه في رأيه غير معقول . وان يستدل بما في القرآن من معارف كثيرة على ان النبي « صلعم » لا بد من ان يكون قرأها في اسفار الكتابيين . وقال فيما قال إن كثيراً من فتيان قريش من ابناء جيله كانوا يقرأون ويكتبون فلا يعقل ان لا يكون تعلم القراءة والكتابة بل

---

(١) اسد الغابة ج ٢ ص ١٧٨

لقد زعم ان من المحتمل ان يكون قد حاول كتمان معرفته للقراءة والكتابة عن الناس وان بعض اصدقائه كانوا يعرفون ذلك . والاستنتاج متهافت فيما يتبادر . فلا يعقل بأي حال ان تنفي الآيات القرآنية شيئاً يعرف بعض السامعين المؤمنين عكسه او ان يحاول كتمان امر مثل هذا عن الناس وعن اصدقائه وهم يعرفون ذلك فيه . وليس من الضروري ان يكون قارئاً كاتباً لان امثاله ولداته قارئون كاتبون . إذ ان من الممكن ان يكون ذلك بسبب ظروف نشأته الخاصة بل هذا ما نعتقد انه الواقع . ودعوى كون معرفة النبي « صلعم » لمعارف كثيرة تتوقف على معرفته الكتابة والقراءة غير مهمة بالنسبة لتلك الظروف وغير واردة . وعلى الأرجح ان القائلين بها ينظرون بعين الحاضر وعقله . وقليل من التفكير يكفي لتبين الغلو في هذه النظرة . وقد كانت الحافظة ذات الدور الاول في تلك الظروف . ولا يماري احد انها يمكن ان تكون ذات دور عظيم في كل ظرف . ونوابغ العلماء والادباء والحفاظ من العمي من اقوى الادلة على ذلك .

ومن العجيب ان بعض علمـــاء المسلمين حاولوا جهدهم في نفي الاكتساب العلمي عن النبي « صلعم » واستشهدوا بآية العنكبوت المذكورة وببعض آيات اخرى مثل آيـــة سورة يوسف هذه (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . ٣) وآية سورة النساء هذه(وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ١١٣) وآية سورة القصص هذه (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ٨٦) وآية سورة الشورى هذه (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِـــهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢)

ولقد حملوا هذه الآيات ما لا تتحمل في معرض الاستشهاد على ما ارادوا عـــلى ما هو المتبادر . ولسنا نرى حكمة ولا ضرورة لهذا الجهد و النفي . ولا يمكن ان تتعارض هذه الآيات مع صحة القول بأن النبي « صلعم » قد اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحتويه الكتب الدينية وغير الدينية من مبادىء واسس وقصص ووقائع ومما كان يدور على ألسنة الناس الكتابيين وغير الكتابيين من مثل ذلك . لأن هذا هو المتسق مع طبيعة الاشياء ولا يمكن ان لا يكون . ولقد احتوى القرآن إشارات كثيرة الى امور كثيرة مما كان عليه الناس ودائراً في بيئة النبي « صلعم » من شؤون وحالات دينية واجتماعية واخلاقية ومعاشية ومعارف وانباء ووقائع تناولها القرآن بالذكر جدلا وعظة وتعليما وتنديـــداً وإصلاحاً وتشريعاً وحظراً وإباحة. ولا يقول احد بطبيعة الحال إن هذه الامور والحالات جاءت جديدة في القرآن او ان النبي « صلعم » كان او يمكن ان يكون في غفلة او عزلة عنها قبل بعثته .

الفصل الثاني

بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

وسيرته في مكة بعد البعثة

الفصل الثاني

بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته في مكة بعدها

حينما بلغ النبي (صلعم) الأربعين من عمره كما قلنا قبل،نزل عليه الوحي في غار حراء اثناء اعتكافه في احدى ليالي شهر رمضان الاخيرة التي يرجح انها السابعة والعشرون والتي سميت في القرآن ليلة القدر والليلة المباركة تعظيماً لها [1] والكتاب لا يتحمل بحث الوحي القرآني الذي بحثناه في كتابنا القرآن المجيد [2] ولكننا لم نر بأساً في ايراد الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها حيث جاء فيه [3] : أول ما بدأ به رسول الله (صلعم) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى اهله ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق في غار حراء . فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء . قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ . قلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة ثم قال اقرأ باسم ربك الذيخلق . خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم . فرجع بها رسول الله (صلعم) يرجف فؤاده فدخل على خديجة واخبرها الخبر وقال لها لقد خشيت على نفسي . فقالت كلا والله ما يخزيك أبداً.إنك لتصل الرحم وتحمل الكل.وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. وانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة . وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية . وكان يكتب الكتاب

---

(١) اقرا سورة القدر وآيات سورة الدخان ٣ والبقرة ١٨٥

(٢) ص ١٥ — ٣٢

(٣) التاج الجامع للأصول ج ٣ص٢٢٦—٢٢٧

العبراني فيكتب من الأنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع ابن اخيك . فقال له ورقة يا ابن اخي ماذا ترى . فأخبره رسول الله خبر ما رآه فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل الله على سيدنا موسى . يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجني قومك . فقال (صلعم) أو مخرجي هم . قال نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت إلا عودي . وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً .

وبراعة استهلال الوحي القرآني الرباني على أعظم ما يكون من روعة وجلال . حيث تضمنت التنويه بما اختصه الله الانسان من العلم والتعليم . ثم أمر بدعوة الناس وانذارهم وتلاوة القرآن الذي كانت فصوله تنزل عليه تباعاً عليهم. والمرجح المتسق مع العقل والحق أن الفصول الأولى التي نزلت هي التي كانت محتوية أسس الدعوة وخطوطها ومبادئها وخالية من الحجاج والجدل وحكاية مواقف الكفار مثل سور الفاتحة والأعلى والليل والشمس والقارعة والعصر والفجر واوائل سور العلق والقلم والمزمل والمدثر .

علنية الدعوة منـــذ البدء

ولقد ذكرت بعض الروايات أن الدعوة بدأت سرية الى أن قوي الاسلام بعض الشيء ببعض الأشخاص مثل عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما ونزلت آيـــة

(فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ .سورة الحجر ٩٤) [١]

وأنه اتخذ مركزاً سرياً يجتمع فيه النبي (صلعم) واصحابه الأولون وهو دار الأرقم . ولا يمكن التسليم بهذه الرواية على اطلاقها لأن آيات سورة المدثر الاولى (يا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ١ ـــ ٢) قد أمرت النبي (صلعم) بالدعوة ولا بد من ان يكون فعل وفي سورة العلق آيات تدل دلالة قاطعة على ان النبي (صلعم) اخذ منذ تنبأ يصلي لله ويدعو الناس جهرة فتصدى له احد الزعماء الذي روى المفسرون انه ابو جهل ليمنعه فأمر بعدم المبالاة والاستمرار في خطته مع توجيه انذار قاصم للزعيم المتصدي وهي (أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي

(١) انظر تفسير الاية في تفسير ابن كثير وغيره.

يَنْهى . عَبْداً إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدَى . أَوْ أَمرَ بِالتَّقْوَى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتولىَّ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى كَلاَّ لئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كاذِبةٍ خاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُو الزَّبانِيةَ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ٩ ــ ١٩)

وفي سور القلم والمزمل والمدثر التي نزلت مبكرة جداً آيات عديدة [١] تــدل دلالة قاطعة على ان الجدل والحجاج بين الكفار والنبي (صلعم) وبخاصة زعمائهم قد بدأ مبكراً ولا يكون هذا الا نتيجة لدعوة النبي (صلعم) الناس وتلاوة القرآن عليهــم جهرة . واستمر هذا الاسلوب بدون انقطاع. وكل ما يمكن ان يكون ان النبي (صلعم) تجنب الزعماء البغاة موقتاً دون ان يقطع معهم الحبل ممــا قد تفيده آية في سورة المزمل وهي « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا ١٠ » وان يكون قصر دعوته موقتاً على من توسم فيهم الخير والاستجابة . وان يكون تجنب اقامة الصلاة جماعة في فناء الكعبة رعاية لاصحابه الضعفاء . وان يكون اتخذ له مكاناً منعزلا يجتمع فيه مع اصحابه وقد قلنا مكانا منعزلا لاننا لا نرى من المعقول ان يكون سرياً حيث كان المسلمون يعدون بالعشرات.

والمفسرون يروون [٢] ان الشخص الذي حكت تصديه للنبي (صلعم) آيات سورة العلق هو المغيرة بن هشام المخزومي الذي عرف في التاريخ الاسلامي بكنية ابي جهل . وكان يكنى بابي الحكم . وكان هذا الرجل وظل من اشد اعداء النبي (صلعم) ودعوته ومناوئيها والمحرضين عليها حسداً واستكباراً على ما حكته روايات السيرة كثيراً [٣] ولقد روى عنه انه قال تنازعنا الشرف نحن وبنو عبد مناف . اطعموا فاطعمنا وحملوا فحملنا واعطوا فأعطينا حتى اذا تجاثينا على الركب قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك ذلك . والله لا نؤمن به ولا نصدقه [٤] .

وعبارة الآية قد تفيد انه كان من زعماء مكة البارزين وصاحب مركز في مجلسهم او دار ندوتهم . وقد تفيد كذلك انه تصدى للنبي (صلعم) بموافقة المجلس الذي كان اعضاؤه

---

(١) اقرأ آيات سورة القلم ٥ــ١٦ وسورة المزمل ١٠ــ١٨ وسورة المدثر ١١ ــ ٢٥

(٢) اقرأ تفسير سورة العلق في تفسير الطبري وابن كثير والخازن وغيرهم

(٣) انظر سيرة ابن هشام ج١ص٢٨٠وما بعدها

(٤) انظر تفسير الايات ٣٣ــ٣٦ من سورة الانعام في تفسير الامام ابن كثير

من رؤساء الاسر القرشية الرفيعة الذين كانوا اصحاب الحكم والسلطات في مكة على ما شرحناه في الجزء السابق . واذا صح هذا فمن السائغ ان يقال ان السلطات الرسمية في مكة قد رأت في صلاة النبي « صلعم » علناً صلاة جديدة لا عهد للناس بها وفي دعوته الناس جهرة الى دين يخالف ما عليه الناس بدعة ورأت وجوب الوقوف امامها وانها عهدت الى احد اركانها بتنفيذ ذلك او إن هذا العضو كان اشد حماساً من غيره فكان هو المتصدي .

موقف أبي لهب وباعثه واثره

ومن الاشخاص الذين وقفوا من الدعوة موقف المناوأة الشديدة منذ بدايتها ابو لهب عم النبي « صلعم » وكنيته هذه كنية قرآنية استحقها لشدة مناوأته ونكايته . اسمه عبد العزي . وقد خصصناه بالذكر لان موقفه كان من اشد المواقف على نفس النبي « صلعم » وابعدها نكاية للدعوة على اعتباره عم النبي وكون تأثيره في سير الدعوة وعرقلتها اقوى من غيره لانه يقوي حجة هذا الغير اذا انصرفوا عن الدعوة او وقفوا منها موقف العناد والمناوأة . ولقد كانت زوجته ايضاً وراءه في موقفه الشديد فاستحقت معه ما جاء في سورة تبت من انذار قاصم لهما(تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ . سَيَصْلَى ناراً ذاتَ لَهَبٍ . وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ . في جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) .

والمفسرون يروون[1] ان السورة نزلت بمناسبة قول ابي لهب للنبي «صلعم» « تباً لك. ألهذا دعوتنا » وذلك حينما نزلت آية الشعراء هذه « وانذر عشيرتك الاقربين ٢١٤ » وجمع النبي بني هاشم وانذرهم. مع ان هذه الآية من سورة غير مبكرة في النزول وقد نزلت على ما رواه المفسرون بعد ثلاث سنين من البعثة ومع انهم قالوا إن سورة المسد من ابكر ما نزل من القرآن . وهي فعلا تأتي سابعة السور نزولا في روايات ترتيب نزول السور . وهذا ما يجعلنا نتوقف في الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة . ولقد ذكرت

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبري وابن كثير والخازن والطبرسي والبغوي

الروايات[2] ان الصلات بين النبي « صلعم » وعمه قبـــل البعثة كانت حسنة وان بيتيهما كانا متجاورين وان احدى بنات النبي «صلعم» او اثنتين منهما كانتا مخطوبتين لابن عمه هذا وان ابا لهب وامرأته قد حملا ابنهما او ابنيهما على فسخ الخطبة بعد قيام النبي « صلعم » بدعوته فالذي يرد على البال وينسجم مع تبكير نزول السورة ومضمونها وذكر امرأة ابي لهب فيها ومع هذه الروايات هو ان النبي « صلعم » اتصل بعمه او من اتصل به ودعاه واهله في اول من دعا . بل لعله كان اول من اتصل به بعد السيدة خديجه رضي الله عنها . فهو عمه وجار بيته وصهره . ولعله كان يكثر من التردد عليه وان يكون قد انعقد بينهما مودة. ومن المعقول ان يفاتحه قبل كل انسان من غير اهل بيته وان يفضي اليه بأمره وان يطلب منه التصديق والتأييد وهو واثق كل الثقة بمقابلته بالحسنى والاجابة والاستبشار وبأنه واجد فيه العضد القوي والسند المتين لا سيما انه كان طائـــل الثروة كما تصفه السورة فخاب امله وقوبل منه اسوأ مقابلة ووقف من الدعوة اشد موقف من الاذى والعناد والتعطيل وقطيعة الرحم حتى لقدروي انه كان يسير وراءه وكلما تحدث مع اي من وفود الحج وغيرهم قال لهم لا تصدقوه انه ذاهب العقل وانا عمه وادرى الناس به[2] . ونعت امرأة ابي لهب بحمالة الحطب يلهم انها كانت تزيد نار معارضة زوجها ومناوأتـــه واذاه لهباً . ولعلها كانت تنفخ روح العداء في زوجها كلما رأت منه جنوحاً الى التروي والفتور بسبب ما كان يربطه بابن اخيه من روابط العصبية وتقاليدها وليس بعيداً ان يكون تأثيرها عاملا في شذوذ هذا العم عن سائر افراد عشيرة النبي « صلعم » الاقربين الذين كانوا ينصرونه ويحمونه بتأثير قوة العصبية بالرغم من ان اكثرهم لم يكونوا قد استجابوا الى دعوته بل ظلوا كذلك امدا طويلا . ولقد ذكرت الروايات[3] ان هذه الزوجة هي بنت حرب بن اميه اي اخت ابي سفيان الذي كان من ابرز الزعماء وذوي الشأن في قريش والذي كان لاسرتـــه المكانة البارزة . وظل يناويء الدعوة طيلة العهد المكي واكثر العهد المدني اي الى فتح مكة مناوأة عنيفة ويقود ويجهز الجيوش التي كانت تشتبك مع المسلمين او تغزو المدينة دار الهجرة النبوية . ولقد نفست اسرته على بني هاشم ظهور النبوة فيهم وخشيت من ذهاب

---

(١) انظر مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٣ — ٢١٤ ومروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٨٥

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٢

(٣) انظر ابن هشام ج ١ ص ٣٨٠

مكانتها وتفوق بني هاشم عليها . فكان ذلك من عوامل هذا الموقف على الارجح والراجح ان موقف زوجة ابي لهب التي كانت تكنى بأم جميـــل متأثر بموقف اخيها واسرتها .

وهكذا واجه النبي ﷺ في خطواته الاولى هذا الموقف الأليم غير المنتظر وكان له أثر غير يسير في سير الدعوة لأنه استمر إلى نهاية العهد المكي ، بل الى السنة الثامنة من العهد المدني أي الى ان فتحت مكة .

ولقد ثبته الله وأيده بروح منه فواجه هذا الموقف العصيب المستمر بقوة وجرأة واستمرار دون ما كلل ولا ملل يتصل بكل طبقة وبمختلف الاساليب داعياً إلى الله وحده ومكارم الاخلاق والاعمال الصالحة والحياة الكريمة الانسانية محارباً للشرك في كل مظاهره ناعياً على المشركين سخف عقائدهم وتقاليدهم مسفهاً لأحلامهم مقرراً عجز شركائهم عن نفعهم وضررهم مما سجلت صوره وحكمته آيات كثيرة جداً تالياً قرآن ربه المحكم الذي فيه شفاء الصدور والهدى والرحمة لجميع العالمين الكفيل باخراجهم من الظلمات الى النور الى ان ظهر امر الله واخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً .

فتور الوحي عن النبي عليه السلام

●

ومن صور السيرة النبوية المبكرة فترة الوحي عن النبي ﷺ التي تضمنت الاشارة اليها آيات سورة الضحى هذه :

(وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٠ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ١ ــ ٥)

وسورة الضحى من السور المبكرة بالنزول حيث يجيء ترتيبها العاشرة اوالحادية عشرة في روايات ترتيب نزول السور اي ان فتور الوحي الذي تلهمه هذه الآيات كان في السنة الاولى من البعثة او لعله في الاشهر الاولى منها . والآيات تلهم ان هذا الفتور قد احزن النبي ﷺ اشد حزن . فقد استأنس بالوحي وسار في مهمته شوطا غير يسير . وصار له اعداء ومكذبون ومتربصون . وواجه مواقف عصيبة من عمه ومن الزعماء الكبار الذين كانوا اصحاب الحل

والعقد في مكة على ما حكته سور العلق والقلم والمزمل والمدثر والمسد . وقد روي [1] ان زوجة ابي لهب وغيرها من المكذبين المعطلين اظهروا شماتتهم لما بلغهم فتور الوحي وحزن النبي وصاروا يقولون ساخرين ان ربه قد قلاه . فبعضها يذكر اياما وبعضها اشهراً وبعضها سنين . وبعضها يجعله اكثر من مرة [2] . على ان تعاقب السور المكية بالانـــذار والتبشير والدعوة وحكاية مواقف الكفار والحملة عليهم حتى ليكاد يكون قد نزل نصف القرآن المكي في السنين الخمس الاولى من العهد المكي يجعلنا نشك في فتور الوحي مدة طويلة تبلغ السنين. وكل ما تطمئن به النفس ان تكون اياما او اسابيع معدودة .

انذار النبي عليه السلام لعشيرته الاقربين

●

ومن صور السيرة النبوية في العهد المكي ما أشرنا اليه اشارة خاطفة في سياق ذكر ابي لهب وذلك حينما امر الله تعالى نبيه ﷺ بانذار عشيرته الاقربين في آية سورة الشعراء هذه «وانذر عشيرتك الاقربين » التي يخمن نزولها في السنة الثالثة للبعثة او بعدها بقليل .

ومع ان معظم هذه العشيرة اعلنوا مناصرتهم وحمايتهم للنبي تأثراً بالعصبية القبلية الشديدة الرسوخ فقد ظلوا متمسكين بدين الآباء وتقاليدهم ومنهم من ظل كذلك ومات عليه ومنهم من ظل الى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة بل ومنهم من شذوناوأ النبي ودعوته مثل عمه ابي لهب وطبيعي انه كان لذلك اثر بالغ في سير الدعوة لأنه يعطي حجة قوية للغـــير في الامتناع والمناوأة ، وقد كان يحز في نفس النبي ﷺ ويحزنه اشد الحزن فاقتضت حكمة التنزيل بأمره بإنذارهم في الآية المذكورة حسما للامر .

ولقد روى المفسرون احاديث وروايات عديدة في صدد ذلك [3] جاء في بعضها ان النبي عليه السلام نادى بطون قريش وانذرهم وفي بعضها انه انذر اقاربه الادنين وفي بعضها انه اولم ثلاث مرات لعشيرته بني المطلب او بني عبد المطلب فكانوا يلبون فيأكلون ويشربون ثم يتفرقون دون استجابة لانذارهم وكان ابو لهب يحذرهم في كل مرة من سحر محمد . وقد

---

(١) انظر تفسير سورة الضحى في كتب تفسير الطبرسي وابن كثير والبغوي والخازن والطبري

(٢) انظر تفسير سورة الضحى وتفسير آيات سورة مريم ٦٤–٦٥ في كتب التفسير المذكورة آنفا

(٣) انظر تفسير آية الشعراء المذكورة في تفسير ابن كثير وطبقات ابن سعد ج ١ ص ١٨٤ – ١٨٥ والطبري ج ٢ ص ٦١ – ٦٤

ظل معظمهم على موقفه بما فيهم أعمامه أبو طالب والعباس وأبو لهب . ومات أبو لهب وأبو طالب على ذلك وتأخر العباس في إيمانه كثيراً . ولم يؤمن منهم إلا افراد قلائل منهم علي وجعفر ابنا ابي طالب وحمزة عم النبي ومصعب بن عمير من أبناء عمومته وزوجته خديجة وبناته وابنه بالتبني زيد بن حارثة رضي الله عنهم .

ولقد جاء بعد آية الشعراء المذكورة آيات يتبادر ان لها صلة بهذا الموقف وهما (واخفض جناحك للمؤمنين . فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم) حيث أمر الله نبيه فيها بمعالنة أقاربه بالبراءة من أعمالهم وكفرهم إذا عصوه وجعل اعتماده عليه وحده وخفض جناحه وحصر اهتمامه المؤمنين على اعتبار انهم حزبه الصادقون . فكان في هذا توطيد لبناء الاخوة الدينية والمبدئية في الاسلام وضربة من الضربات الشديدة التي وجهت الى العصبية العائلية والقبلية الضيقة . وإذا لوحظ ان هذا الموقف في ظرف كان النبي عليه السلام فيه والمسلمون قليلين ضعفاء وكانت الحاجة إلى نعرة العصبية ومناصرة عشيرته الأقربين شديدة فإنه يلمح جانب جدير بالاجلال والاعظام من جوانب عظمة الرسول وسيرته وقوة نفسه وشخصيته وعمق ايمانه برسالته وبنصر الله له مما جعله ينذر عشيرته الاقربين الذين كانوا يناصرونه بالبراءة منهم ويعلن تضامنه مع الذين آمنوا معه على ما كانوا عليه من قلة وضعف تنفيذاً لأمر ربه جاعلا اعتماده واتكاله عليه وحده .

الجدل حول القرآن بين النبي عليه السلام وزعماء الكفار

ولقد كان القرآن من اهم المواضيع التي كثر الجدل فيها بين النبي ﷺ والكفار في العهد المكي حتى لقد شغل ذلك حيزاً كبيراً في القرآن والسيرة النبوية في العهد المذكور . فقد كانت آيات القرآن وظلت تنوه بالقرآن وروحانيته وما فيه من هدى وحكمة ونور ورحمة للناس وكون الله انما انزله على نبيه ليخرج الناس من الظلمات الى النور وتستشهد على صحته وصدق صلته ونزوله من عند الله بأهل الكتاب واهل العلم على اعتبار انه آية الله العظمى التي أيد بها نبيه واكتفى بها عن الآيات والخوارق التي اعتاد ان يظهرها على يد انبيائه السابقين على ما حكته آيات قرآنية عديدة [1] . ولقد قابل نبهاء الكفار منذ البدء ذلك ثم ما كان يوجهه

(١) انظر مطالع سور الاعراف ويونس وهود والرعد وابراهيم والحجر والكهف والنمل والفرقان ولقمان والسجدة وفصلت والشورى والزخرف ثم آيات سور الاسراء ٨٢ و٨٨ و١٠ والانعام ١٩ — ٢٠ و١١٤ و ١٥٥ — ١٥٧ والنحل ٤٨ و ٦٤ والشعراء ١٩٢ — ١٩٦ والنمل ٧٦ — ٧٧ والعنكبوت ٥٠ — ٥١ والواقعة ٧٥ — ٨٠ وفصلت ٤٤ وص ٢٩

إليهم من تنديد وتسفيه وحملة على شركائهم وتقاليدهم واخلاقهم بنعت القرآن بأنه أساطير الاولين . وانه شعر وانه قول البشر وان الشياطين هم الذين يتنزلون به وانه مفترى وان اناساً يعلمونه للنبي ﷺ ويساعدونه عليه بل وقالوا انهم لو شاؤوا لقالوا مثله ثم بنعت النبي ﷺ بالساحر حيناً والمسحور حيناً والشاعر حيناً والمجنون حيناً والكاهن حيناً على ما حكته آيات عديدة أيضاً .

ولقد كان القرآن وظل يرد عليهم أقوالهم وتهمهم رداً قوياً لاذعاً نافذاً الى اعماق القلوب ثم اخذ يتحداهم المرة بعد المرة طالباً منهم ان كانوا صادقين بأن يأتوا بسوَر من مثله أو بسورة أو بحديث او بآية فلم يستطيعوا فسجل عليهم عجزهم في كل مرة وقرر بأسلوب الواثق المنتصر المستعلي انهم لن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله ولو اجتمعت معهم الجن وكان بعضهم لبعض ظهيراً على ما حكته كذلك آيات عديدة .

وهناك آيات تحتوي صوراً طريفة من صور الجدل حول القرآن بين النبي عليه السلام والكفار او بعبارة ادق نبهائهم . ففي سورة الفرقان هذه الآية :

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ٣٢)

ويظهر ان الكفار ظنوا او سمعوا ان الكتب الأولى نزلت على الأنبياء السابقين جملة واحدة فتحدوا النبي عليه السلام هذا التحدي الذي حكته الآية بقطع النظر عن ما في ظنهم من خطأ وجهل .

وعبارة الآية تفيد ان الكفار قد عنوا بالقرآن الفصول التي فيها مبادىء الدعوة ودعائمها. وهذا ماعنته جملة (آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ) في آية سورة آل عمران هذه (هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ٧)

وفي سورة فصلت هذه الآيات :

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ والَّذِينَ لا يُؤْمِنُون بِالآخِرَةِ في آذانِهِمْ وَقْرٌ وهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِك يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ ٤٣ ـــ ٤٤)

ويظهر أن الكفار استغربوا نزول القرآن بلغة غير اللغة التي نزلت بهـــا الكتب الأولى واعتبروا ذلك دليلا على عدم صلته بالله تعالى . وقد احتوت السورة ردين عليهم اولهما في آيات السورة الاولى التي أكدت نزوله من الرحمن الرحيم وانه أنزل بلغة عربية لقوم يعرفون هذه اللغة[1] . وثانيهما في الآية التي نحن في صددها حيث قررت أنه لو أنزل بلغة غير عربية لـكانوا طلبوا تفصيله بلغة عربية .

ومن الجدير بالذكر والتسجيل ان في روايات السيرة القديمـــة ما يفيد أن الكفار او بعبارة أدق نبهاءهم مع ما كانوا ينعتون القرآن من نعوت كانوا لا يمنعون أنفسهم من الاستماع اليه واظهار دهشتهم وحيرتهم من بلاغته وروعته وخوفهم من تأثيره .

فقد روى ابن هشام أن الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم فقال لهم يا معشر قريش إن الموسم قد حضر وإن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم فاجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً . فقالوا له نقول كاهن . قال والله ما هو بكاهن . ولقد رأينا الكهان . فما هو بزمزمة الـكاهن ولا سجعه . قالوا نقول مجنون . قال ما هو بمجنون . لقد رأينا الجنون وعرفناه . فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ، قالوا نقول شاعر . قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله . رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا نقول ساحر . قال ما هو بساحر . لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس . قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب القول فيه لان تقولوا ساحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيـــه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته . وروى كذلك عن ابن اسحق عن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري[2] أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من

---

(١) ج١ ص ٢٨٨

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٧ ـــ ٣٣٨

رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيـــه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقـــالوا لبعضهم لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لاوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا . غير أنهم عادوا ليلة ثانية ثم ليلة ثالثة . وذهب الاخنس إلى أبي سفيان فقـــال له ما رأيك يا أبا حنظلة فيما سمعت من محمد قال والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بهـــا . وسمعت اشياء ما عرفت معناها وما يراد بها فقال له وأنا والذي حلفت به كذلك . ثم خرج حتى أتى أبا جهل فقال ما رأيك فيماسمعت من محمد . فقال ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا . وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهانقالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى تدرك مثل هذه . والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

ولقد خرج ابو بكر رضي الله عنه من مكة يريد اللحاق بالمهاجرين في الحبشة لشدة ما كان من ضغط زعماء قريش واذاهم فلقيه زعيم اسمه ابن الدغنة فلما علم بما أراد قال له مثلك لا يخرج ولا يُخرج فأنا جار لك ارجع واعبد ربك ببلدك . ثم جاء معه الى مكة فقال لاشراف قريش اتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ولكنهم قالوا له ليعبد ربه في داره ولا يستعلن في قراءته فانا نخشى أن يفتن نساءنا وابناءنا لانه كان رجلا بكاء وكان ينقذف عليه نساء المشركين وابناؤهم متأثرين بما يقرأ معجبين به[1] .

ولقد روى ابن هشام عن ابن اسحق ان عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش رأى رسول الله ﷺ وحده جالساً في المسجد فقال يا معشر قريش ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه اموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه ايها شاء ويكف عنا فقالوا بلى يا أبا الوليد فقام اليه وجلس عنده وقال له يا ابن أخي إنك منها حيث علمت من الشرف في العشيرة والمكان والنسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت احلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك اموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال له قل اسمع فقال له ان كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك

(١) انظر سيرة ابي بكر الصديق لعلى الطنطاوي ص ٧٤ — ٧٥

من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وان كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع امراً دونك . وان كنت تريد ملكاً ملكناك علينا . وان كان هذا الذي يأتيك رئياً [٢] لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه اموالنا حتى نبرئك . فإنه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه . فلما فرغ قال له رسول الله ﷺ اسمع مني قال افعل فأخذ يقرأ سورة فصلت (حم . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشيراً وَنَذيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعون)

ومضى يقرأ وعتبة منصت حتى انتهى الى موضع السجدة منها

(وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ والْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ ولا لِلْقَمَرِ واسْجُدوا لِلّهِ الَّذي خَلَقَهُنَّ . إِنْ كُنْتُمْ إِيّـاه تَعْبُدونَ) .

سجد فسجد عتبة ثم قال له رسول الله ﷺ سمعت يا ابا الوليد ما سمعت فأنت وذاك ، فقام عتبة الى اصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهبه ، فلما جلس اليهم قالوا ما وراءك يا ابا الوليد قال ورائي اني قد سمعت قولا ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش اطيعوني واجعلوها بي . وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه : فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم اسعد الناس به . قالوا سحرك والله يا ابا الوليد . ومهما يكن من مآخذ على هذه الروايات فإننا نرجح انها لا تخلو من حقيقة ما . ولا سيما ان الزعماء لم يكونوا أغبياء حتى يفوتهم ما في القرآن من روعة وروحانية وسمو وبلاغة وحكمة وهدى . وكانت مواقفهم ناشئة عن اسباب عديدة اخرى على ما اشارت اليه آيات قرآنية عديدة وعلى ما سوف نشرحه بعد .

---

(١) ابن هشام طبعة مصطفى البابي ج ١ ص ٣١٣ — ٣١٤

(٢) يقصدون بالرئي شيطان الجن الذي ينزل على الكهان والشعراء والسحرة حسب اعتقادهم

ولقد كانوا يرون ما عليه اليهود والنصارى من خلاف ونزاع وشقاق فيحلفون اغلظ الايمان ان لو جاءهم نذير منهم ليكونن اهدى منهم[1] ويقولون اننا لا نعرف لغة الكتب المنزلة الاولى واننا سنكون اهدى من اليهود والنصارى لو جاءنا كتاب بلغتنا على ما قررته بعض الآيات القرآنية ومما فيه دلالة على ما قلناه

تعليق على موقف المغرضين من المبشرين والمستشرقين

وهنا مكان للاستطرادات الى مسألتين يقف المبشرون والمستشرقون المغرضون منها موقفاً يثير الاشمئزاز لما فيه من سخف وفحش وسوء أدب وتجن ، حيث يكررون ما حكاه القرآن عن الكفار من تهمة النبي ﷺ بافتراء القرآن ومن وصفه بالمجنون ، ولا يتأثرون بالردود القوية النافذة الى اعماق النفس التي رد بها القرآن على التهمتين والكفار[2] متجاهلين روحانية الرسالة المحمدية وعلويتها والمبادىء السامية التي قامت عليها .

ولقد اثاروا في معرض التهمة الاولى اشكالات ثانوية ووسائلية لا تمس الجوهر ولا تثبت على التمحيص حيث اتكأوا الى ما في القرآن من تطابق لكثير مما جاء في اسفار العهد القديم والجديد فزعموا انه مقتبس منها ، والى ما في القرآن من تغاير لما جاء في هذه الاسفار فزعموا انه محرف في القرآن والى ما جاء في القرآن من احداث ووقائع مغايرة في الظاهر لما عرف من احداث ووقائع فزعموا انه مخترع .

ولقد تجاهلوا بالنسبة للنقطة الأولى ان القرآن اعلن قيام التطابق بينه وبين ما سبقه من كتب في آيات عديدة لاعلى اعتبار انه مقتبس منها بل على اعتبار انه وحي رباني نزل على النبي ﷺ كما كان ينزل على النبيين من قبله[3] . اما بالنسبة للنقطة الثانية فلا يستطيع احد ان يزعم صادقاً ان ما هو متداول من الاسفار اليوم هو الذي كان متداولا في زمن النبي ﷺ وحسب . وهناك نقاط كثيرة جزئية لا يمكن ان يكون النبي ﷺ ـ ونقول ذلك من

---

(١) اقرأ آية سورة فاطر ٤٢ وآيات سورة الانعام ١٥٠ - ١٥٣

(٢) انظر آيات سورة الاحقاف ٨ والشوري ٢٤ والنساء ١٦٧

(٣) انظر آيات سورة البقرة ٤٠ و ١٠٦ وآل عمران ٣ والنساء ٤٧ و ١٦٣ والمائدة ٤٨ ويونس ٣٧ ويوسف ١١ وفاطر ٣١ والشورى ١٣

باب المساجلة معهم ولله ولرسوله المثل الأعلى ـ قد اخترعها. فليس هناك ضرورة فنية لذلك، وسياق القرآن يظلّ مستقيما بدونه لو لم يكن معروفاً متداولا . وليس هناك ما يمنع ان يكون ما لم يرد في الاسفار او ما يرد متغايراً معها قد ورد في اسفار وقراطيس مفقودة اليوم كما فقد كثير منها على ما يستفاد من ذكر بعضها لاسفار ليست موجودة اليوم . ولقد كان القرآن يتلى علنا ويسمعه اليهود والنصارى ولم يرو اي رواية عن اعتراضهم وانكارهم . اما بالنسبة لما جاء مغايراً في الظاهر لما هو معروف اليوم من وقائع وحقائق فإنه مما كان معروفاً في زمن النبي ﷺ . والقرآن في الأمور الوسائلية من قصص ومشاهد لم يهدف الى تاريخ الاحداث او تقرير حقائق المشاهد لذاتها وإنما الى العظة والعبرة والتذكير والتمثيل . وهذا الهدف انما يتحقق بقوة اذا كانت القصص معروفة عند السامعين لاول مرة جزئياً او كلياً . وليس هناك اي دليل ينقض ان القصص القرآنية مما كان متداولا في بيئة النبي ﷺ. ونحن نعتقد ذلك ونرى انه هو الذي يتسق مع العقل . بقي ما هناك من تطابق في الجوهر بين القرآن والكتب الاولى الى الدعوة الى الله ومكارم الاخـــلاق والنهي عن الفواحش والمنكرات . وهو المقصود بالدرجة الاولى في تقريرات القرآن بالتطابق بينه وبين الكتب والذي عبر عنه في اغلب المناسبات بتعبير «مصدق لما بين يديه »وما دام المصدر واحداً وهو الوحي الربـــاني فليس هنـــاك اي ضرورة للرد على اي زعم في صدده ان كان هناك زعم ما .

ولقد حرفوا في معرض التهمة الثانية بعض الروايات والاحاديث عن مواضعهـــا ومقاصدها ليزعموا ان النبي ﷺ كان مصاباً بالصرع وانه كان يفقد صوابه حينما تأتيه النوبة وتعتريه التشنجات حتى اذا أفاق تلا على المؤمنين ما يزعم انه وحي الله[1] ولقد كشفهم حقدهم وخبث سرائرهم فأنساهم ان المصابين بالصرع تتعطل فيهم اثناء النوبة حركة الشعور والتفكير والذاكرة ، وقد ناقضوا انفسهم حين قالوا انه كان عقب ذلك يتلو آيات القرآن متجاهلين ما في هذه الآيات من روعة وبلاغة وحكمة ودعوة الى الله وحده والايمان به وبأنبيائـــه وكتبه واليوم الآخر والى الخير والمعروف ومحاربة الشرك والوثنيـــة والنهي عن الاثم والفواحش والمنكرات مما لا يعقل ان يصدر عن مريض في عقله وجسمه وخلقه .وقد تجاهلوا

---

(١) انظر كتاب حياة محمد لحسين هيكل طبعة ثانية ص ٣٩ ـ ٤٠

كذلك ان القرآن حكى تهمة الجنون والمجنون عن خصومه الاشداء ومكذبيه العيدين وردها عليهم رداً شديداً قوياً نافذاً[1] .

ولقد تجاهلوا في التهمتين ان القرآن استشهد بالكتابيين وان الذين حسنت نواياهم وصفت سرائرهم وتجردوا من الغرض والتعصب والمكابرة والعناد والأنانية - ومنهم القسيسون والرهبان والراسخون في العلم - لم يسعهم إلا ان يصدقوا ويؤمنوا دون ان يكون هناك اي احتمال لتهمة الضغط والاكراه لعدم امكان ذلك في تلك الظروف تأثراً بما رأوه من صدق أعلام النبوة المحمدية وسمعوه من الحق ثم بما رأوه من تطابق بين صفات النبي ﷺ وما في كتبهم من بشائر على ما جاء في آيات قرآنية عديدة اوردناها في التمهيد كانت في الحقيقة تسجيلا لواقع حالهم[2] . وإذا كان حقاً ان فريقاً منهم بقوا متنكرين للدعوة المحمدية فقد كان ذلك حسداً وبغياً وبتأثير المطامع والمآرب والأنانية على ما جاء في آيات قرآنية عديدة أوردناها كذلك في التمهيد وكانت هي الاخرى تسجيلا لواقع حالهم .

عروض زعماء الكفار ومناوضاتهم للنبي عليه السلام

ولقد كان النبي عليه السلام شديد الحرص على هداية الناس شديـــد الغمّ والحزن من انصرافهم وتصاممهم ومناوأتهم حتى ليكاد يهلك نفسه على ما سجلته آيات قرآنية عديـــدة اقتضت حكمة التنزيل ايحاءها بسبيل التهوين عليه وتهدئة روعه وتثبيته وتقرير كونه ليس مسؤولا عن هدايتهم ولا يطلب منه اجبارهم وإنما هو نذير[3] . وكان حرصه هـــذا شديداً بالنسبة للزعماء بنوع خـــاص لأنهم كانوا يصدون سواد العرب عنه . فكان بعض الزعماء

---

(١) انظر آيات سورة الاعراف ١٨٤ والمؤمنون ٦٩ـــ٧٠ وسبأ ٤٦ والطور ٢٩ـ ٣١ والقلم ٢٩ والتكوير ١٦ـــ٢٧

(٢) انظر خاصة آيات سورة الاعراف ١٥٦-١٥٧ وآل عمران ١٩٩ والنساء ١٦٢ والمائدة ٨٢ -٨٣ والانعام ١١٤ والرعد ٣٦ والاسراء ١٠٧-١٠٩ والقصص ٥٢-٥٣

(٣) انظر مثلا آيات سورة الغاشية ٢١-٢٢ وق ٣٨ و ٤٥ وفاطر ٨ والقصص ٥٩ والنمل ٩١-٩٢ والانبياء ١٠٨ـــ١١١ وطه ١ـــ٣ والشعراء ٣ والكهف ٦ وهود ١٢ ويونس ١٠٨ـــ١٠٩ والحجر ٩٧ـــ٩٩ والانعام ٣١ و ٣٥ـــ٣٦

يستغلون هذه العاطفة فيه لمفاوضته وعرض الحلول النصفية وطلب التبادل في التساهل مما فيه دليل على انهم كانوا في قرارة انفسهم يرون في دعوته ومواقفه الحق والصدق والجد والاخلاص .

وفي القرآن آيات عديدة في صدد ذلك اوضحتها الروايات حيث ينطوي في ذلك صور هامة من السيرة النبوية . من ذلك آية جاءت في سورة القلم وهي :

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

اي تمنوا ان يسايرهم النبي ﷺ فيسايرونه . وقال المفسرون انهم طلبوا منه ذكر آلهتهم بالخير حتى يسمعوا له ويلينوا لكلامه [1] . وسورة القلم من اوائل ما نزل من القرآن حيث يدل هذا على ان فكرة تبادل التساهل انبثقت في اذهان بعض الزعماء منذ بداية الدعوة . ويظهر انهم كانوا يحلفون للنبي ﷺ على ذلك . وقد علم الله تعالى انهم كاذبون خادعون فنهاه عن مطاوعتهم ومسايرتهم على ما تفيده الآيات التي وردت قبل هذه الآية وبعدها :

(فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ . وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهِينٍ . هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كانَ ذا مالٍ وَبَنِينَ . إِذا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ ٨ــ١٦)

والآيات تدل على ان الذي عرض تبادل المداهنة والملاينة معروف بسوء السيرة والنشأة والاخلاق الفاسدة والكذب وانه يقف مواقف التكذيب والسخرية . ومن ذلك سورة الكافرون وهذه آياتها :

(قُلْ يا أَيُّها الْكافِرُونَ . لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ . وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ . وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ . وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ . لَكُمْ

---

(١) انظر تفسير سورة القلم في كتب تفسير الطبري والطبرسي وابن كثير وغيرهم

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

وقد روى المفسرون في صددها [١] ان رهطاً من زعماء قريش قالوا للنبي ﷺ هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كله نعبد آلهتنا سنة ونعبد آلهك سنة فان كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه واخذنا حظنا منه وان كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في امرنا واخذت بحظك منه فقال لهم معاذ الله اشرك بالله غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت السورة . والسورة من السور المبكرة في النزول حيث يجيء ترتيبها الثامنة عشرة بعد سور كلها قصار . ومن ذلك هذه الآيات في سورة الاسراء :

(وإنْ كادُوا لَيَفْتِنونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِيُفْتَرَى عَلَيْنا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَليلاً . وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَليلاً . إِذاً لأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وضِعْفَ المَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً ٧٣ـــ٧٥)

ومما رواه المفسرون [٢] في صدد هذه الآيات ان زعماء الكفار اقترحوا على النبي ﷺ ان يسكت عن شتم آلهتهم وتحقيرها وان يتساهل في بقائهم على بعض تقاليدهم مدة من الزمن او ان يسمح لهم بتكريم آلهتهم بعض التكريم او ان يلم بأوثانهم ويلمسها كما يفعـــل بالحجر الأسود . فخطر بباله ان يستجيب لبعض مطالبهم هذه مدفوعاً برغبة كسبهم وكسر السد الذي اقاموه بينه وبين سواد العرب ولكن الله ثبته لأن في أي تساهل في الاستجابة الى مطالبهم شائبة من الشرك بالله الذي جاءت الدعوة لمحاربته اشد حرب ثم نزلت الآيات تحكي الموقف .

ومن ذلك هذه الآية في سورة يونس :

(وإذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير البغوي

(٢) انظر تفسير الايات في تفسير الطبري وابن كثير والبغوي والخازن والطبرسي والزمخشري

إِنْ أَتَّبِعُ إِلّا ما يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَـــذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ . ١٥)

وقد روى المفسرون [١] في صدد هذه الآيات ان خمسة من رجال قريش جاؤوا الى النبي ﷺ فطلبوا منه الاتيان بقرآن ليس فيه تسفيه لعقولهم وحملة على آلهتهم او ادخال تبديل عليه يخفف من شدة ذلك اذا كان يريد ان يستجيبوا إليه او يسكتوا عنه . فنزلت الآيات بالرد عليهم هذا الرد المحكم الذي فيه التلقين المنطوي في السورة السابقة . ولقد اعقب الآيتين هذه الآيات :

(قُلْ لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِــهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفلا تَعْقِلونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّـــنْ ٱفْتَرَى عَلى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ ٱلْمجْرِمُونَ . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لاَ يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّمواتِ وَٱلأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

حيث احتوت امرا للنبي ﷺ بأن يقول ما جاء في الآيتين الاوليين بسبيل تأييد رفض مطالبهم وبأن يندد بعقائدهم وعبادتهم ما لا يضر ولا ينفع في الحقيقة بحجة جعلهم شفعاء عند الله . والآيات قوية التعبير رائعة التلقين في صدد الرسالة المحمدية وشخصية النبي ومدى عقائد العرب الشركية .

ومن ذلك هذه الآيات في سورة الانعام :

(وَلا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَداةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِم مِـــنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ . وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقولُوا

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير الخازن والبغوي

أهؤلاءِ مَنّ اللهُ عليهم مِنْ بيننا أليسَ اللهُ بأعلمَ بالشاكرين ٥١ــ٥٣)

وقد روى المفسرون [١] في صدد هذه الآيات ان بعض زعماء الكفار طلبوا من النبي ﷺ طرد الفقراء والصعاليك من اصحابه اذا كان يريد ان يجلسوا اليه ويستمعوا اليه او حينما يريدون ان يجلسوا اليه وكانوا يتحججون بهم بعدم استجابتهم للدعوة ويقولون على سبيل السخرية والازدراء أهؤلاء الذين منّ الله عليهم فهداهم من دوننا ، وان النبي ﷺ فكر في اجابة طلبهم او ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقترح عليه ذلك ليظهر ماذا يريد الزعماء وانه هم بأن يكتب بذلك عهدا بينه وبينهم فنزلت الآيات محذرة منبهة . ومهما يكن من امر ما جاء في بعض الروايات فالآيات تنطوي على ما كان من ازدراء زعماء الكفار لفقراء المسلمين الذين يلتفون حول النبي ﷺ وطلبهم منه طردهم عنه ليجلسوا اليه ويستمعوا الى حديثه وانه خطر بباله الاستجابة الى طلبهم مدفوعاً في ذلك برغبة هدايتهم وكسبهم فنزلت منبهة محذرة منوهة بشأن المؤمنين وكرامتهم عند الله وفضلهم على الكفار مهما كانت درجتهم الاجتماعية.

ومن ذلك هذه الآية في سورة الكهف :

(وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيا ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَٱتَّبَعَ هَواهُ وكانَ أَمْرُهُ فُرُطا ٢٨)

وقد روى المفسرون في صددها [٢] ان زعيما جاء الى النبي ﷺ فقال له اما يؤذيك ريح الذين حولك من الفقراء ونحن سادات مضر واشرافها ان اسلمنا اسلم الناس ولا يمنعنا من ذلك إلا هؤلاء . فنحهم عن مجلسك او اجعل لنا مجلساً ولهم مجلساً وان النبي ﷺ أراد ان يستجيب فنزلت الآية منبهة محذرة ورافعة كذلك شأن المسلمين وكرامتهم وفضلهم .

ويصح ان يسلك في هذه السلسلة آيات سورة عبس هذه :

(عَبَسَ وتَوَلَّى . أَنْ جاءَهُ الأَعْمَى . وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ

---

(١) انظر تفسير الايات في تفسير الطبري وابن كثير والبغوي والخازن والطبرسي والزمخشري

(٢) انظر تفسيرها في ابن كثير والبغوي وغيرهما

يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . وأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى . وهُوَ يَخْشَى . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ١ـــ١٠)

حيث احتوت عتاباً للنبي ﷺ بعدم اهتمامه بأعمى مسلم جاءه مستهدياً مستفسرا في وقت كان يتحدث فيه مع احد الزعماء ، وحيث انطوى في هذا الموقف تلك الرغبة التي كانت وظلت تعتلج في نفسه منذ عهد مبكر لأن سورة عبس من السور المبكرة في النزول ويجيء ترتيبها الرابعة والعشرين بعد سور كلها قصار — في هداية الزعماء وكسبهم .

ويلفت النظر الى التوافق بين الآيات القرآنية في مختلف الظروف في صدد كرامة المؤمن وقدره وفضله على الجاحد المستكبر ، حيث كان هـــذا وظل من المبادىء القرآنية التي لا تختلف ولا تتبدل

وواضح ان تكرر التسجيل القرآني لهذه السور المتماثلة يدل على تكرر الحوادث والمواقف المماثلة بين النبي ﷺ وزعماء الكفار .

ولقد روى ابن هشام روايات عديدة عن مراجعات زعماء قريش لأبي طالب وتذمرهم له من ابن اخيه وطلبهم منه ردعه عن تسفيه احلامهم وشتم آلهتهم او التخلي عنه ومن ذلك[1] مما يتصل بالبحث الذي نحن في صدده انهم جاؤوا اليه حينما اشتكى وثقل وكانوا خمسة وهم عتبة وشيبة ابني ربيعة وابو جهل وامية بن خلف وابو سفيان وقالوا له انك منا حيث علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت ما بيننا وبين ابن اخيك فادعه فخذله منا وخذلنا منه ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه فبعث اليه فقال له هؤلاء اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك فقال له يا عم كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب وتدين لهم بها العجم . فقال ابو جهل نعم وابيك وعشر كلمات قـــال تقولون لا إله إلا الله وتخلصون ما تعبدون من دونه . فصفقوا ثم قالوا اتريد يا محمد ان تجعل الآلهة الها واحدا ان امرك لعجب . ثم قال بعضهم لبعض انه والله ما هـــذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون . فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه .

---

[1] ج ٢ ص ٢٦ ـــ ٢٧ طبعة المكتبة التجارية

ونقول هنا في شأن هذه الرواية ما قلناه في شأن الروايات السابقة من حيث احتمال انطوائها على حقيقته برغم ما يبدو عليها من تنميق لأنها متسقة مع الآيات القرآنية .

ويمكن ان يسلك في سلكها الرواية التي رواها ابن هشام عن عتبة وأوردناها في مبحث الجدل في القرآن . وسورة فصلت التي ذكرت هذه الرواية ان النبي ﷺ تلاها على عتبة قد نزلت على ما يلهم ترتيبها في النصف الثاني بل في الثلث الثالث من العهد المكي . وهذا يعني ان عروض ومطالب زعماء قريش ظلت تتكرر منهم في مختلف أدوار هذا العهد .

حجاج المشركين ولجاجهم في صدد الحياة الاخروية

ولقد كانت مسألة البعث والجزاء الاخروي من أهم ما دار حوله الحجاج واللجاج بين النبي عليه السلام والمشركين . فقد كان الوعد والوعيد بالحياة الاخروية ومحاسبة الناس فيها على اعمالهم في الدنيا وجزاؤهم عليها بالجنة والرضوان او بالنار والغضب الرباني من أهم وسائل الدعوة ومؤيداتها ومنذ بدايتها على ما تدل عليه آيات كثيرة مبكرة النزول ثم استمر ذلك حتى لا تكاد تخلو منه سورة من السور الطويلة والمتوسطة بل والقصيرة وبخاصة السور المكية [1] . وقد اخذ المشركون يقابلون ذلك منذ البدء بالدهشة والانكار والتكذيب والسخرية والتحدي واستمروا على ذلك الى النهاية على ما سجلته الآيات الكثيرة التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل [2] . ومن نماذج ما حكته الآيات من أقوالهم آيات سورة سبأ هذه :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٧ — ٨

وآيات سورة الاسراء هذه :

(وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ

---

(١) (٢) الايات في ذلك كثيرة جداً ومبثوثة في معظم سور القرآن المكية فلا حاجة الى ايراد امثلة او الاشارة اليها

كونوا حجارةً أو حديداً . أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرةٍ فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ٤٩ــ٥١) .

فكان القرآن يرد عليهم ردوداً قوية عنيفة حيناً وهادئة حيناً موجهة الى العقل والقلب ومبرهنة على قدرة الله على ذلك بما كانوا يعترفون به من ربوبية الله الشاملة وخلقه السماوات والأرض وما فيها من مخلوقات عاقلة وغير عاقلة وحية وغير حية وظاهرة وخفية ومنبهة إلى ان الله لا يعقل ان يكون خلق الناس عبثاً ولهواً ورضي بأن يكون المسيء والمحسن والكافر والمؤمن والمتقي والفاجر في درجة واحدة وان لا ينال كل منهم ما يستحقه مما يمكن ان لا يناله في الحياة الدنيا ومما يتناقض مع الحكمة والرحمة والعدل والحق مما سجلته الآيات الكثيرة التي نزلت في مختلف أدوار التنزيل كذلك [١]

ومع انهم كانوا يعتقدون بشكل ما بخلود الروح بل وبالبعث بعد الموت بدليل انهم يعقرون ناقة عند قبر ميتهم وبخاصة اذا كان زعيما لتكون ركوبة له حينما يبعث وكانوا يزورون قبور موتاهم ويرثونها ويغرسون بعض الغراس عندها ويناجونها على ما شرحناه في الجزء السابق فان اذهانهم لم تستطع ان تستوعب هذه المسألة استيعاباً تاماً وظلوا على انكارهم وتكذيبهم حتى لتكاد تكون من اسباب عدم اسلام كثير منهم .

ويبدو لنا ان عدم ذكر البعث الاخروي وحسابه وثوابه وعقابه بصراحة ووضوح في الكتب المنزلة الاولى كانت من اسباب هذا الموقف . فقد كان العرب قبل البعثة يستمدون كثيرا من معارفهم الدينية من الكتابيين . ولقد كانت هذه المسألة في حد ذاتها مسألة ايمانية مغيبة وكانت اوصاف الحياة الاخروية وحسابها وجنتها ونارها مستمدة في القرآن من مألوفات الحياة الدنيا وآمن من آمن بها تبعاً لايمانه بالله ورسوله وقرآنه . فلما لم يسمع المشركون من الكتابيين شيئاً صريحاً واضحاً في ذلك وقفوا منه موقف المنكر المكذب والمستغرب الساخر المتحدي الذي رقفوه .

---

(١) الايات في ذلك مبثوثة في معظم السور المكية فلم نر ضرورة الى الاشارة اليها او ايراد امثلة منها

تحدي المشركين للنبي عليه السلام بالمعجزات

وفي القرآن آيات كثيرة تحكي ما كان يقع من المشركين وبخاصة زعمائهم ونبهائهم من تحد للنبي عليه السلام باستنزال الملائكة وعمل المعجزات لتأييد صدق دعواه وصلته بالله تعالى كما كان يفعل الرسل من قبله على ما علموه من الكتابيين وذكره القرآن حينما رأوه بشرا مثلهم ورأوه يبشر وينذر بحياة اخروية يحاسب الناس فيها على اعمالهم وينالون ما يستحقون من ثواب وعقاب ، ورأوا في دعوته تحدياً لزعامتهم وتهديدا لمكانتهم ومصالحهم وضربة على تقاليدهم ثم يرد على ما ينعتونه به من نعوت الجنون والسحر والكهانة والكذب والافتراء والاتصال بالشياطين ردودا قوية قارعة مستشهدا بالله عز وجل وبأهل العلم والكتاب على صدق دعواه مقررا انه ليس بدعاً وانما هو نذير وبشير ورسول كالرسل الذين جاؤوا قبله الى اقوامهم ثم يستمر في دعوته وانذاراته غير مبال بقوتهم وجاههم واموالهم ومناوأتهم .

ولقد بلغ عدد المرات التي تحدوا النبي ﷺ فيها خمساً وعشرين حكاها القرآن عنهم في سور عديدة تمثل مختلف ادوار العهد المكي الى نهايته حيث يدل ذلك على شدة ملاحقة الكفار بالالحاح والاحراج وما شغله ذلك من حيز كبير في السيرة النبوية في عهدها المكي .

وهذه جملة من الآيات تمثل مختلف ادوار هذا العهد نكتفي بها عن سائرها :

١ ـــ وَقَالُوا ما لِهٰذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي في الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظّالِمونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلّا رَجُلاً مَسْحوراً .

سورة الفرقان ٧ــ٨

٢ ـــ وَلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى

القصص ٤٨

٣ ـــ ولَقَدْ صرَّفْنا لِلنَّاسِ في هٰذا ٱلقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلّا كُفُوراً . وقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ ٱلأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلأَنْهارَ خِلالَها تفجيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَٱلمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى في السَّماءِ ولَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلّا بَشَراً رَسُولاً .

سورة الاسراء ٨٩ – ٩٤

٤ ـــ وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّما ٱلآياتُ عِنْدَ اللهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنونَ .

الانعام ١٠٩

٥ ـــ بَلْ قَالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلْ ٱفْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بآيَةٍ كَما أُرْسِلَ ٱلأَوَّلُونَ .

الانبياء ٥

٦ ـــ وَقالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَليهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّما ٱلآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّما أَنا نَذِيرٌ مُبينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنا عليكَ الكِتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ . إِنَّ في ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ .

العنكبوت ٥٠ – ٥١

ولقد كان موقف القرآن تجاه الالحاح المتلاحق والاحراج المستمر بالتحدي سلبيا حيث كانت ردوده تتضمن تقرير مشيئة الله بعدم استجابة التحدي كما جاء في آيات الاسراء ٩٤ والانعام ١٠٩ والعنكبوت ٥١ التي اوردناها وكما جاء في آيات عديدة اخرى منها هـذه الآيات :

١ ـ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عليْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ

الرعد ٧

٢ ـ وَيَقولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عليْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ قلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ .

الرعد ٢٧

٣ ـ وَيَقولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَليْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ .

يونس ٢٠

٤ ـ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكًا لَقُضِيَ ٱلأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ .

الانعام ٨

٥ ـ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا في الصُّحُفِ ٱلاولى .

طه ١٢٣

ومع هذا الموقف السلبي الذي كان على ما يتبادر من اسباب الالحاح المتصل والاحراج المستمر من ناحية الكفار فإنه يلهم ان حكمة الله اقتضت ان لا تكون الخوارق دعامة لنبوة محمد ﷺ وبرهاناً على صحة رسالته وصدق دعوتـــه على اعتبار ان هذه الرسالة التي تنطوي على الدعوة الى الله وحده وتنزيهه عن كل شائبة وتأويل وشريك وولد ومساعد ومحاربة الشرك والوثنية والتقاليد المبنية عليها ثم على الحث على صالح الأعمال ومكارم الأخـــلاق والفضائل الاجتماعية والشخصية الكفيلة باسعاد البشر وتوادهم وتعاونهم والتنفير من الرذائل والمنكرات والفواحش والبغي التي تؤدي الى شقاء البشر ودمارهم تنطوي في الوقت نفسه وبسبب ذلك على الحجة القاطعة على انها وحي رباني وفي غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بهـــا لذاتها .

على ان القرآن كان ايجابياً كل الايجابية في سياق الرد على جحود الكفار لوحـــدة الله واشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة وفي سياق البرهنة على وحدته واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع واتصافه بصفات الكمال ووجوب وجوده وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عقائدهم وتقاليدهم الوثنية والشركية وفي سياق اثبات حقيقة الحياة الاخرى وعذابها وثوابها وقدرة الله على اعادة الخلق الذي بدأه وما ينطوي في هذه الحياة من حكمة العدل والحق والتنزه عن العبث وفي سياق الدعوة الى الاعمال الصالحة وتقبيـح الأعمال السيئة على انواعها واثبات ان ذلك انما هو لصالح الانسانية وخيرها وسعادتها وبعبارة واحدة في سياق الدعوة الى اهداف الرسالة المتنوعة حيث احتوى القسم المكي منه آيات وفصولا كثيرة جداً فيها من قوة الحجة ونصاعة البيان واستحكام البرهان واسلوب الخطاب الموجـــه الى العقل والقلب معها ما فيه كل الايجابية وما لا يسع اي منصف حسن النية والرغبة غير متعمد للعناد والمكابرة إلا التسليم به وليس من حاجة الى ايراد الأمثلة لأن هذه الآيات والفصول منتشرة في جميع السور المكية تقريباً .

وإلى هذا فقد احتوت ردود القرآن على التحدي آيات كثيرة تضمنت تعليل عـــدم الاجابة اليه وتوضيح نية العناد والمكابرة في المتحدين بحيث لو أنزل عليهم أعظم الآيات لما آمنوا لأن الايمان انما يكون من ذوي الرغبة في الحق والهدى وذوي السرائر الطيبة والقلوب السليمة . ومثل هؤلاء لا يحتاجون الى معجزة ولا يتوقف ايمانهم عليها وانما يكفي لهم ان تخاطب عقولهم وقلوبهم وهو ما جرى عليه القرآن . وهذه بعض امثلة من تلك الآيات :

١ ـ وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً في قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذا إِلّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

الانعام ٧

٢ ـ وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا عَلَيْهِمُ ٱلْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنوا إِلّا أَنْ يَشاءَ اللهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ .

الانعام ١١١

٣ ـ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَى بَلْ لِلّٰهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحِلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ . إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ ٱلْمِيعادَ .

الرعد ٣١

٤ ـ وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ .

الحجر ١٤ ـ ١٥

وفي سورة الانعام آية اخرى ذات مغزى عظيم في هذا الصدد أيضاً وهي :

(وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً في ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلى ٱلْهُدَى

فلا تكونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ . إنّما يَستَجِيبُ الذِينَ يَسْمَعُونَ والموْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إليْهِ تُرْجَعُونَ ٣٥–٣٦)

حيث تفيد ان النبي ﷺ كان يود ان يظهر الله على يده معجزة استجابة لتحدي الكفار المحرج فاخبره الله ان ذلك لن يجدي لأن الذين عندهم الرغبة في الاصغاء للحق واتباعه سيؤمنون والذين ليس عندهم هذه الرغبة لن يؤمنوا مهما تأتهم من آية .

والخطاب في عبارة (وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون) في آية الانعام (١٠٩) التي أوردناها قبل موجه الى المسلمين الذين كانوا على ما رواه المفسرون وتلهمه الآية يتمنون بدورهم ان يظهر الله معجزة اجابة لتحدي الكفار فأخبرهم انه يعلم انه ليس في الكفار رغبة في الايمان ولو جاءتهم آية . وهذا المعنى منطو في تعبير (افلم ييئس الذين آمنوا) الوارد في آية سورة الرعد (٣١) .

ونحب ان نستدرك امراً وهو ان الموقف السلبي القرآني هو بالنسبة للتحدي فقط ولا يعني ان الله تعالى امتنع عن تأييد نبيه بالمعجزات بالمرة . ففي القرآن آيات عديدة فيها إخبار بتأييدات ربانية للنبي والمسلمين يصح ان تسمى معجزات كما ان هناك احاديث صحيحة فيها اخبار من ذلك هذا الى واجب اليقين بقدرة الله على المعجزات وهو الذي بدأ الخلق وبيده ملكوت كل شيء في كونه الاعظم ثم الى ان القرآن ذكر ذلك بصراحة . مع التنبيه الى ان كثيراً من الروايات التي احتوت اخبار المعجزات النبوية مما يحتمل التوقف ويدعو الى التحفظ والى ان اقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه .

وقد تكون آيات سورة القمر الأولى التي ذكر فيها انشقاق القمر وهي :

(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَر . وإنْ يَرَوْا آيةً يُعرِضُوا ويَقولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِر . وكَذَّبُوا وَاتَّبَعوا أهواءَهُمْ وكُلُّ أمرٍ مُسْتَقِر ١–٣)

مما يورد في معرض كون القرآن لم يبق سلبياً كل السلبية في الرد على التحدي . ولقد رويت حقاً احاديث عديدة ذكر فيها خبر انشقاق القمر فعلا في مكة وان ذلك قد وقع جواباً على تحدي الكفار . منها حديث عن انس بن مالك رضي الله عنه قال سأل اهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين والى ذلك اشارت الآية (اقتربت الساعة وانشق القمر)

ومنها حديث عن محمد بن جبير بن مطعم عن ابيه قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سحرنا محمد . وفي حديث آخر فيه نفس النص السابق وزيادة عليه قالوا انظروا السفار فان كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق فان محمداً لا يستطيع ان يسحر كل الناس، وسألوا القادمين من كل وجهة فقالوا رأينا [1].

ومع ذلك فانـــه يلحظ اولا ان سورة القمر من السور المبكرة في النزول ولم يرد في السور التي قبلها حكاية لتحدي الكفار للنبي ﷺ باظهار معجزة . وحكايـــة تحدي الكفار كانت في السور التي نزلت بعد سورة القمر بمـــدة غير قصيرة . وثانياً ان القرآن لم يشر الى حادث انشقاق القمر ثانية في السور والفصول القرآنية التي حكت تحديات الكفار بطلب الاتيان بمعجزة أو آية مراراً وتكراراً مع انه يمكن ان يقال ان التذكير به يكون رداً قوياً على المتحدين الذين رأوه ولم يؤمنوا . وهناك من لم يأخذوا بما ورد في هـــذه الاحاديث وصرفوا الآيات الى اشراط الساعة . وقاسوا خبر انشقاق القمر المذكور فيها على ما جاء في آيات عديدة ذكرت ما سوف يقع من تبدل في نواميس الكون عند مجيء الساعـــة مثل هذه الآيات :

١ ـــ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ .

التكوير ١ ـــ ٣

٢ ـــ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الإِنْسَانُ أَيْنَ الْمَفَرُّ .

القيامة ٧ـــ١٠

٣ ـــ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ .

الانفطار ١ ـــ٣

---

(١) هذه الاحاديث اوردها ابن كثير المفسر في سياق تفسير الايات المذكورة من سورة القمر وقد اورد معها احاديث عديدة اخرى .

ولعل سكوت القرآن عن الحادث على خطورته وخاصة ازاء تكرار تحدي الكفار وملاحقتهم يلهم وجاهة هذا الصرف المنسجم كما هو ظاهر مع الموقف السلبي الذي وقفه القرآن .

وفي سورة الاسراء آية ذات مغزى عظيم في هذا الصدد وهي :

(وَمَا مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالآياتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِها الأَوَّلونَ وآتَيْنا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَمَا نُرْسِلُ بِالآياتِ إِلّا تَخْويفاً ٥٩)

حيث تحتوي تقريراً باتاً صريحاً بأن حكمة الله اقتضت الامتناع عن إجابة تحدي الكفار بارسال آية لأنه ثبت بالتجربة مع الأقوام السابقين أنهم كذبوا بالآيات ولم يؤمنوا بها .

ولقد احتوت سورة العنكبوت آية ذات مغزى عظيم بعد حكاية تحدي الكفار للنبي ﷺ بانزال آيات من ربه وهي :

(أولم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون (٥) .

حيث انطوى في ذلك تقرير كون القرآن الذي احتوى أسس الرسالة المحمدية وأهدافها بروحانيته الرائعة واسلوبه البليغ الحكيم السامي هو الآية التي فيها كل الكفاية للدلالة على صحة دعوى النبي ﷺ وصدق دعوته وصلتها بالوحي الرباني .

الاسراء والمعراج

●

ومن الأحداث الهامة التي شغلت حيزاً في روايات السيرة والأحاديث وكتب التفسير حادث الاسراء والمعراج .

وقد أشير إلى هذا الحادث في الآية الأولى من سورة الاسراء وهي :

(سُبْحانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إلى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّميعُ البَصيرُ) .

والاسراء في اللغة بمعنى السير في الليل . وكلمة الاقصى بمعنى البعيد جداً . والمتفق عليه أن المراد بالمسجد الاقصى هو مسجد بيت المقدس الذي كان معبد بني اسرائيل . ولقد كان هذا المعبد خراباً مندثراً في زمن النبي ﷺ فيكون المقصود مكانه . وقد غدا تعبير (المسجد الاقصى) علماً في الاسلام على المسجد الاسلامي المشهور في بيت المقدس الذي انشىء مكان ذلك المعبد .

وفي كتاب سيرة ابن هشام فصل طويل عن حادث الاسراء احتوى احاديث متنوعة عن كيفيته وآثاره . وكذلك في كتب التفسير أحاديث متنوعة عن ذلك[1] .

ومما جاء في هذه الأحاديث حديث عن عائشة رضي الله عنها أن الاسراء كان رؤيا صادقة وأن جسد النبي ﷺ لم يفقد . ومنها ما روي عن أم هانيء عمة النبي ﷺ التي كان يبيت في بيتها ليلة الاسراء أنها فقدت جسمه وخشيت أن يكون تعرض لأذى الكفار وأنه أخبرها أنه صلى العشاء الأخيرة في مكة ثم أسري به الى بيت المقدس ثم عاد وصلى صلاة الصبح في مكة . ومنها ما يفيد أن حادث الاسراء كان مرة واحدة بعد البعثة وقبل الهجرة ومنها ما يفيد انه مرتين مرة في اليقظة وأخرى في المنام بعد البعثة وقبل الهجرة . ومنها ما يفيد انه ثلاث مرات مرة قبل البعثة ومرتين بعد البعثة وقبل الهجرة . واحدة منها في المنام وأخرى في اليقظة والجسد . ومنها أن الاسراء كان قاصراً على الاسراء من مكة الى بيت المقدس ومنه عاد الى مكة ، ومنها ما يقرن الاسراء بالمعراج ويفيد أن النبي ﷺ عرج به من بيت المقدس الى السماء ثم عاد الى بيت المقدس ومنه الى مكة . ومنها ما يفيد ان الاسراء كان بالجسد واليقظة وان المعراج كان بالمنام .

---

(۱) انظر ابن هشام ج ۲ ص ۱ – ۲۰ - طبعة مصطفى الحلبي وتفسير آية الاسراء المذكورة وتفسير سورة النجم في كتب تفسير الطبري وابن كثير والخازن والبغوي والطبرسي ، وما ياتي بعد مقتبس من هذه المصادر .

وآية سورة الاسراء قاصرة كما هو ظاهر على ذكر الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى . وروحها تلهم أنه كان بالجسد واليقظة لانه لو كان في المنام لما ظهرت حكمة ذكره والتنويه به بهذه القوة والصراحة .

واكثر ما ورد في الاحاديث من بيانات عائد الى المعراج وبلمح فيها تكلف وتزيد واغراب وتتحمل ملاحظات كثيرة ووجيهة — الا ان يكون حادث المعراج رؤيا في المنام كما ذكر بعض الاحاديث — مثل صعود النبي ﷺ للسماء على سلم وفتح أبواب السموات واحد بعد آخر مما فيه تقرير لمادية السماء ولقاء عدد من الانبياء في مختلف السموات أحياء على أشكالهم الدنيوية المروية ووصف العرش واللوح والقلم وسدرة المنتهى وصفاً فيه تقرير لماديتها . ومثل رؤية النبي ﷺ ربه والملائكة العظام بأشكالهم الهائلة والجنة والنار وعذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ومثل طريقة فرض الصلوات الخمس التي فرضت في أثناء هذا الحادث خمسين ثم انزلت الى خمس نتيجة لمراجعة النبي ﷺ المتكررة عملا بنصيحة موسى عليه السلام الخ ...

ومما ورد في صدد الاسراء أن جبريلا عليه السلام أتى النبي ﷺ وهو نائم فهمزه فلما أفاق أتاه بدابة اسمها البراق دون البغل وفوق الحمار يضع يده في منتهى طرفه فركبها وسار جبريل في ركابه الى أن وصلا الى بيت المقدس وهناك جاء الانبياء فتقدمه جبريل عليهم فأمهم ثم عرج به الى السماء . ومما ورد كذلك أن جبريل ورفيقين له شقوا بطنه وغسلوه بماء زمزم ثم حشوه إيماناً وحكمة ثم أتى جبريل بالبراق فركبه وقد روي أن هذا وقع قبل البعثة كما روي أنه وقع بعدها . والاحاديث التي وردت فيها هذه البيانات لم ترد في كتب الاحاديث الصحيحة المشهورة .

ولقد ذكرت الاحاديث أن النبي ﷺ حدث الناس باسرائه صباح ليلة الاسراء — وهذا يؤيد كونه بجسده ويقظته — فارتد أناس ممن كانوا آمنوا . والى هذا تشير آية ٥ في سورة الاسراء وهي :

(وما جَعَلْنا الرُّؤْيا الَّتي أَرَيْناكَ إلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ)

على ما ذكره المفسرون اي اختباراً ليظهر المؤمن الثابت من المتقلب . وقد كان من

سمع الحديث ابو جهل فلم يظهر استغرابه خوفاً من تواجع النبي ﷺ بل سارع هو وبعض زملائه مع المرتدين الى ابي بكر رضي الله عنه وقالوا له إن صاحبك يقول انه اسري به الليلة الى بيت المقدس ثم أصبح في مكة فقال لهم لئن قال ذلك لقد صدق وإني لاصدقه فيما أبعد من ذلك في خبر السماء في غدوة او روحة. ومما روي ان بعض الكفار قالوا امتحنوه فقالوا له هل مررت بابل لبني فلان قال نعم وجدتهم في مكان كذا وقد ضل لهم بعير فهم في طلبه. وانكسرت لهم ناقة حمراء. ووجدت قصعة فيها ماء فشربت مما فيها. وإن من رعاتها فلاناً وفلاناً. وستصبحكم بالغداة. فرقدوا على الثنية ينتظرون فما لبثوا أن استقبلوا الابل فسألوهم هل ضل لكم بعير وهل انكسرت لكم ناقة حمراء وهل فقدتم مـــاء في قصعة فقالوا نعم فسألوهم عن اسماء رعاتهم فذكروها كما ذكرها. ثم امتحنوه فطلبوا منه نعت بيت المقدس. فنعته نعتاً صحيحاً عرفه الذين زاروه منهم.

واكثر المفسرين واكثر الاحاديث على ان الاسراء وقع مرة واحدة بالجسد وفي اليقظة وانه اقترب بالعروج الى السماء اما خبر وقوعه مرة قبل البعثة ومرتـــين بعد البعثة واحدة في اليقظة وأخرى في المنام فأكثر المفسرين ينكرونه.

ومهما يكن من أمر فان روح آية الاسراء ومضمونهـــا يلهمان بأن الحادث كان تكريما للنبي ﷺ بقصد اطلاعه على ملكوت الله وآياته اولا انه حادث خاص بمدركات النبي ﷺ لم يشعر به غيره ثانياً وانه ليس من قبيل المعجزات التي تظهر على يـــد الرسل لاجل اثبات صلتهم بالله ثالثاً. والاولى ان يوقف من ماهيته وكيفيته موقف التحفظ مثل سائر مدركات النبي ﷺ الروحانية الخاصة. دون تزيد ولا تخمين مع واجب الايمـــان بالاسراء بنوع خاص كحقيقة ايمانية ما دام قد ذكر وقوعه صراحة في القرآن وإن لم يدرك كنهه مثل الايمان بالوحي وسائر مدركات النبي ﷺ الخاصة التي وردت فيها نصوص صريحة في القرآن والاحاديث النبوية الصحيحة ومع التسليم بقدرة الله على كل شيء. فاما المعراج فإنـــه لم يذكر صراحة في القرآن وإنما جاء في الاحاديث في سياق آية سورة الاسراء المذكورة وآيات سورة النجم الاولى. والتحفظ ازاءه اولى وأوجب بسبب ما جاء في الاحاديث والروايات عنه الا ان يكون كما روى بعض الاحاديث رؤيا في المنام وهو ما نميل الى ترجيحه.

ولقد كان الزعماء يكتفون في أول الامر بالصد والتكذيب والتعطيل والسخرية والتحدي وتوجيه الاتهامات واللجاج والحجاج . فلما رأوا النبي ﷺ مستمراً في دعوته ورأوا ان كثيراً من ابنائهم وبناتهم وكثيراً من الكتابيين والضعفاء والارقاء والغرباء الذين وجدوا في الدعوة ملاذاً وفرجاً وحلا لمشاكلهم قد سارعوا الى الايمان والتصديق خشوا من تفاقم الخطب فغيروا موقفهم وأخذ البغاة منهم يعمدون الى ايقاع الاذى على المسلمين واضطهادهم وفتنتهم الى إجبارهم على الارتداد عن الاسلام الى الكفر . وكان لهذا التصرف منهم أثر خطير في سير الدعوة في العهد المكي بطوله بل يصح أن يقال إنه من أهم احداث هذا العهد وأبعدها أثراً إن لم نقل إنه أهمها . ولقد احتوى القرآن آيات وفصولا فيها مشاهد وصور متعددة لهذا الموقف الذي استمر المسلمون يكتوون بناره طيلة العهد المكي الى السنة الثامنة من العهد المدني والذي كان من نتائجه الهجرات الاولى والثانية الى الحبشة ولجوء النبي ﷺ الى الطائف ثم هجرته وهجرة أصحابه معه الى المدينة .

وأولى الاشارات القرآنية الى ذلك جاءت في سورة البروج التي تعد من السور المبكرة في النزول حيث يجيء ترتيبها الرابعة والعشرين بعد سور كلها من القصار وحيث يخمن نزولها بناء على ذلك في اواخر السنة الاولى او اوائل السنة الثانية للبعثة . والآية التي تضمنت الاشارة هي :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ١٠) .

حيث يفيد مضمونها ان الاضطهاد قد بدأ قبل نزولها بامد ما وانه شمل الرجال والنساء على السواء .

ولقد كان من صور الاضطهاد على ما ذكرته روايات السيرة[1] ان الزعماء والاغنياء

---

(١) انظر ابن هشام ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٤

تعهدوا على تعطيل مصالح المسلمين من تجارة واملاك وزراعة وان بعض الآباء والامهات من قريش حرموا اولادهم من ثروتهم او هددوهم بذلك ومنهم من كان يقيد ابنه بقيود حديدية ليمنعه من الخروج والاجتماع بالنبي ﷺ وإخوانه في الدين وان يعرى الارقاء ويطرحون فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة الحرارة ويوضع على اجسادهم الصخور ويمنع عنهم الماء والطعام وتقيد ايديهم وارجلهم بقيود الحديد ويجلدون بالأسواط شديد الجلد مما ادى الى إزهـــاق ارواح بعضهم فضربوا مثلا خالداً على التمسك بالعقيدة وتحمل الاذى والتضحية بالنفس في سبيلها . ولقد كان ميسورو المسلمين وبخاصة ابو بكر رضي الله عنهم يشترون الارقاء المضطهدين وينقذونهم كلما امكن ذلك[1].

وهناك آيات احتوت بعض صور من الضغط والاذى بل الارتداد. ففي سورة العنكبوت هذه الآيات :

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ . ٢ ــ ٣)

حيث احتوت تنبيهاً للمؤمنين بأنهم معرضون للضغط والفتنة والاختبار ليظهر الصادق من الكاذب . ولقد روى المفسرون[2] انها نزلت في اناس في مكة آمنوا وحبسهم ذووهم عن الهجرة الى المدينة والآيات نزلت قبل الهجرة الى المدينة . ولقد ذكرت الروايات[3] ان بعض زعماء الاسر القرشية كانت تحبس وتقيد ابناءها الذين آمنوا وسمت منهم عياشا بن ابي ربيعـــة وابا جندل بن سهيل بن عمرو[4] .فالآيات فيما نعتقد نزلت في هؤلاء او امثالهم في مكة بسبيل تثبيتهم وتشجيعهم . ولعلها انطوت على شيء من الانذار . ولقد جاء بعد هذه

---

(١) انظر كتاب ابي بكر الصديق لعلي الطنطاوي ص ٦٨ وبعدها

(٢) انظر تفسير الايات في تفسير الطبرسي والبغوى والخازن

(٣) انظر تفسير آيات سورة العنكبوت السابقة في تفسير الطبري وانظر طبقات ابن سعد ج ٣ص ٢ ١٠٤

(٤) انظر تفسيرها في تفسير الطبرى

الآيات آيات فيها توكيد لهذا الانذار . وهي هذه :

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ فإنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وهُوَ السَّميعُ العَليمُ . ومَنْ جاهَدَ فإنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ العالمين . (٥ — ٦)

وفي هذه السورة ايضاً هذه الآية :

(وَوَصَّيْنا ألإنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وإنْ جاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعمَلُونَ ٨).

وقد روي انها نزلت في سعد بن ابي وقاص وامه ، فان امه وهي بنت ابي سفيان باسلامه قالت له لتدعن هذا الدين الجديد او لا آكل ولا اشرب حتى اموت فتعير بي فيقال قاتل امه . فنزلت الآية آمرة بعدم طاعة الوالدين اذا طلبا من ابنهما الشرك بالله . فقال لها يا امه لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني[1] ولا نستبعد ان تكون آيات السورة الأولى مقدمة تمهيدية لهذه الآية وما نزلت في صدده .

ولقد تكرر معنى الآية الأخيرة في سورة لقمان ايضاً كما ترى في هذه الآيات :

(وَوَصَّيْنا الإنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وفِصالُهُ في عامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ إليَّ المَصير . وإنْ جاهَداكَ عَلى أنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدُّنيا مَعْروفاً واتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أنابَ إليَّ ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤ — ١٥) .

---

١) انظر تفسيرها في تفسير الطبرسي .

حيث يدل هذا على ان المسألة ليست مسألة فردية بل اكثر . وحيث ينطوي في ذلك صورة من صور العهد المكي .

وفي سورة العنكبوت ايضاً هذه الآيات :

(ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقولُ آمَنَّا باللهِ فإذا أُوذِيَ في أللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعذابِ اللهِ ولَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقولَنَّ إنّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمِ بِما في صُدُورِ الْعالَمِينَ . ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذين آمَنُوا ولَيَعْلَمَنَّ الْمنافِقينَ . ١٠ ــ ١١)

وقد روي ان الآيات مدنية واستدل على صحة الروايـــة بكلمة المنافقين . والآيات منسجمة مع السياق وقد جاء بعدها هذه الآيات التي فيها صورة من صور العهد المكي :

(وقالَ الَّذينَ كَفَروا لِلَّذينَ آمَنوا اتَّبِعوا سَبيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وما هُمْ بِحامِلينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شيْءٍ . إنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ١٢)

ولذلك فنحن نرجح ان الصورة التي احتوتها الآيات من صور العهد المكي . وفحواها يؤيد ذلك لان المسلمين لم يتعرضوا لأذى الناس في العهد المدني باسلوب يجعلهم يرتدون عن دينهم .

وفي سورة الحج هذه الآيات :

(ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بهِ وإنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَـــلى وَجْهِهِ خسِرَ الدُّنيا والآخِرَةَ ذٰلِكَ هُو الْخُسْرانُ الْمبينُ . يَدْعو مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ ولا يَنْفَعُـــهُ ذٰلِكَ هُو الضَّلالُ الْبَعيدُ ١١ ــ ١٢) .

وفي الآيات إشارة الى اناس جعلوا ايمانهم رهناً على السلامة والعافية فلما تعرضوا للاذى والاختبار انقلبوا على وجوههم وارتدوا .

مقابلة بعض المؤمنين الاذى بمثله ونهي الله عن ذلك وحكمته

●

ولقد روت الروايات ان بعض المؤمنين الأقوياء حاولوا مقابلة الأذى بمثله حيث ذكرت ان بعض المشركين تصدوا لسعد بن ابي وقاص وبعض رفاقه رضي الله عنهم وهم يصلون في شعب من شعاب مكة فناكروهم وعابوا عليهم فقابلوهم بالمثل ووصل الأمر إلى الاشتباك . وقد ضرب سعد رضي الله عنه رجلا منهم بلحى بعير فشجهفكان اول دم هريق في الاسلام[1] ويظهر ان حكمة الله تعالىاقتضتان لا يصل الأمر في العهد المكي بين المؤمنين والمشركين الى هذا الحد حيث كان المؤمنون قـلة ضئيلة لا تستطيع ان تصمد امام الكثرة . وكان جل ابناء الآسر القرشية منهم مضطهدين او منبوذين من ذويهم فليس لهم بهم قوة ولا نصر على ما يستفاد من بعض الآيات حيث ورد في سورة الجـاثية هذه (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ١٤) وقد روى المفسرون[2] في صددها انها نزلت في مناسبة شتم فيها رجل من المشركين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهم هذا بالبطش به فأمرت الآية المؤمنين بالصبر والتحمل والتسامح والاغضاء .

ولعل آية النحل هذه قد هدفت الى ذلك (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعـظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن إن ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيلة وهو اعـلم بالمهتدين) حيث امرت النبي ﷺ والمؤمنين بأن لا يجادلوا غيرهم في صدد الدعوة إلا بالتي هي أحسن دون عنف وشدة قد يثيران المدعو وقد يؤديان الى عكس المقصود .

استطراد الى تعليل موقف الزعماء

●

ومن الجدير بالذكر ان الموقف المناوىء الصاد الجاحد المؤذي الذي وقفه زعماء مكة واغنياؤها من المؤمنين وأثروا به على السواد الاعظم من العرب فحالوا بينهم وبين الاسلام لمدة طويلة تبلغ نحوعشرين سنة لا يمت بسبب حقيقي الى جوهر الدعوةولا هوناشىءعن جهل

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٨١ ـــ ٢٨٢

(٢) انظر تفسير الاية في تفسير البغوي

وغفلة حيث كان اهل بيئة النبي وبخاصة الزعماء والنبهاء منهم على حظ غير يسير من الثقافــــة والحضارة لاتصالهم بالبلاد المجاورة لهم وبالكتابيين الذين كانوا بين ظهرانيهم على ما شرحناه في الجزء السابق [1] . حتى لقد كان بعضهم يسخر من الكتابيين ويستنكر ما كانوا عليه من خلاف ونزاع وانحراف وضلال ويقسمون الايمان ان لو جاءهم نذير من الله وكتاب بلغتهم مثل ما كان سابقاً ليكونن اهدى منهم [2] . وكانوا على ما قرره القرآن مؤمنين بالله عز وجل كإله اعظم خالق السماوات والأرض ومدبر الكون ورازق الناس والمؤثر في كل شيء والذي في يده ملكوت كل شيء . وقصارى امرهم او امر اكثرهم انهم كانوا يشركون مع الله في الاتجاه والعبادة والدعاء عناصر كشفعاء يتوسلون بها عنده لدفع المضار وجلب المنافع ويتخذون لها رموزاً مادية يقيمون عندها طقوسهم وكان اهم هذه العناصر الملائكة حيث كانوا يعتقدون انها بنات الله على ما شرحناه في الجزء الثاني .

ولعل من اقوى البراهين على هذا ما ظهر من المئات منهم الذين آمنوا مبكرين او متأخرين من عبقرية في العقل والحكم والفهم والسياسة والحروب والقيادة والادارة والقضاء مما امتلأت بأسمائهم كتب التراجم وبخاصة كتاب اسد الغابة لابن الأثير ، ومما هو مشهور معروف . وانما لأسباب ما انطوى في الدعوة من ثورة اصلاحية واجتماعية ودينية وانسانية . فمنهم من رأى النبي عليه السلام ينعى بلسان القرآن على اهل الاموال اموالهم وعلى المسرفين اسرافهم وعلى البخلاء بخلهم ويدعو الى البر بالفقراء والمساكين والانفاق في سبيل الله فخاف على ثروته ومنهم من رأى النبي بلسان القرآن يسوي بين الزعماء والصعاليك والاحرار والعبيد والعرب والعجم فاستعظم واشمأز . ومنهم من رأى الضعفاء والارقاء والفقراء يسارعون الى الايمان بالدعوة ويلتفون حول صاحبها فحسبوا ما ينجم عن ذلك من عواقب وخيمة لهم . ومنهم من كان يحتل مركزاً عالياً في قومه فاستكبر عن ان يغدو تابعاً بعد ان كان متبوعـــاً . ومنهم من حسد النبي ﷺ لاختصاصه دونه بالقرآن مع انه ليس من الزعماء البارزين . ومنهم من تأثر بالعصبية القبلية ورأى في نجاح حركة يدعو اليها نبي من بني هاشم غضاً لأسرتـــه البارزة واعلاء لشأن بني هاشم . ومنهم من خشي ان تفقد مكة ما كان لها من امتيازات متنوعة بسبب حرمها وامنها ومواسم الحج فيها يعود على اهلها منها المنافع العظمى فظن ان الدعوة سوف تنسف هذه الامتيازات . ومنهم من كان متأثراً بعصبية التقاليد الشديـــدة

---

(١) اقرأ باب الحياة العقلية في كتابنا عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ايضا

(٢) تمعن في آيات سورة فاطر ٤٢ – ٤٣ وآيات سورة الانعام ١٥٥ – ١٥٧ التي اوردناها قبل

الرسوخ التي كان يتضاءل امامها قوة المنطق وتعمى الابصار والتي كان النبي ﷺ يهاجم بلسان القرآن الفاسد الضار الفاحش منها . ومنهم من كان موقفه موقف الممتنع غير العنيف في الصد والحجاج الذي يعتذر عن موقفه بالاعذار الواهية . ويعرض العروض ويطلب المطالب التي فيها انحراف عن المبادىء والاهداف السامية في الدعوة ثمناً لمسايرته . ومنهم من كان موقفه موقف الممتنع الساعي في التعطيل والمحرض على الدعوة غيره والمجادل العنيد المكابر والمؤذي للمستجيب والمهوش على النبي ﷺ . ولم يتورع هؤلاء بنوع خاص عن وصف النبي ﷺ بالكاذب والمفتري والساحر والمسحور والمجنون والشاعر والكاهن . ونسبة القرآن إلى الشيطان كما بذلوا جهودهم في تحدي النبي ﷺ وتعجيزه بمختلف الاساليب .

والناظر في القرآن المكي يجد معظمه في شرح مواقف الكفار المتنوعة المذكورة وحكاية اقوالهم والرد عليهم وتسفيههم وانذارهم وتذكيرهم بقصص الانبياء السابقين واقوامهم وما نال المكذبين الجاحدين من نكال الله وتدميره في الدنيا وما سوف يلقونه من الموقف العصيب والعذاب الشديد والخزي العظيم في الآخرة بأساليب متنوعة . منها المعتدل . ومنها الموجه الى العقول والقلوب . ومنها ما كان صرخات داوية وصفعات شديدة كحمم البراكين كان النبي ﷺ يوجهها بخاصة للفريق العنيد المكابر الشديد العداء والأذى بكل قوة وجرأة دون مبالاة بما كانوا عليه من جاه ومال وقوة وأنصار كما يجد الى جانب ذلك تنويهاً بالذين آمنوا وصدقوا وتثبيتاً لهم وبشرى بما سوف يمنحهم الله من أمن ونصر وتمكين في الدنيا لهم ولدينهم الذي ارتضاه لهم ثم بما سوف ينالونه من صنوف التكريم والنعم في الآخرة مضافاً الى ذلك كله شروح رائعة جليلة لأهداف الدعوة السامية الصافية .

كان المؤمنون الأولون في مكة رمزا رائعاً للبشر جميعهم

ومع ان غالبية العرب العظمى نتيجة لموقف معظم زعماء مكة ظلت ممتنعة عن الاستجابة وظل موقف هؤلاء على ما هو عليه دون تبدل كبير طيلة السنين الثلاث عشرة التي قضاها النبي ﷺ في مكة بعد بعثته ثم طيلة ثاني سنين اخرى بعدها — باستثناء معظم اهل يثرب وما حولها في هذه الفترة — الى ان تم فتح مكة فانهار السد المانع ودخل الناس في دين الله افواجاً . ومع ان عدد المستجيبين الى الدعوة في مكة ظل قليلا نتيجة لذلك ايضاً فقد كانوا رمزاً رائعا للبشر جميعهم ودليلاحياعلى ان الدعوة تحتوي جميع عناصر القوة والاستجابة

حينما يستطيع سامعها ان يتجرد عن اهوائه وشهواته وعصبيته ومآربه وأنانيته وكبره ومكابرته وحسده . وحينما تكون مرضاة الله تعالى ووحدانيته والحق والحقيقة والخير والهدى غايته ورغبته وحسب . حيث كانوا من مختلف الاجناس والطبقات والألوان والأديان . فيهم الغني والفقير والشريف والصعلوك والحر والعبد والذكور والاناث والعربي والرومي والفارسي والحبشي والسرياني والمصري واليهودي والنصراني والمجوسي والمشرك والوثني وعبدة الكواكب والحنفي الصابئي الموحد . وقد تكون من هذا الرعيل الأول – الذي كان افراده اعظم واصدق واقوى شهود عيان لأعلام النبوة المحمدية فانضووا اليها – مجتمع انساني كامل متساو في الحقوق والواجبات يعاون القادر فيه العاجز ويعطي الغني فيه الفقير ولا يظلم فيه القوي الضعيف ولا يخشى فيه الضعيف القوي ، ويتضامن الجميع فيه في السراء والضراء ويتسابقون فيه الى الخيرات ويتواصون فيه بالصبر والحق والمرحمة والبر ويعبدون الله وحده منزها عن كل شائبة محررين انفسهم من كل قوة غيره خفية وظاهرة ويتحملون في سبيل هذا الدين القويم الذي انضووا اليه الأذى صابرين محتسبين ، منتظرين وعد الله لهم بالتمكين والنصر . وهو الوعد الذي حققه الله لهم كاملا بعد سنوات معدودات فتمت بذلك معجزة الله الكبرى ، وقد وصفهم الله بكل هذه الصفات بأسلوب رائع على ما يراه الناظر في القرآن مبثوثا في كثير من سوره وفصوله [1] .

ولقد كان من المؤمنين السابقين افراد كثيرون ينتمون الى الاسر القرشية البارزة وكانوا من الرجال والنساء على السواء . وكان جلهم في سن الشباب بينما ظل معظم آبائهم ودويهم وفيهم الزعماء الكبار على كفرهم وعنادهم على ما تفيده اسماء وانساب المهاجرين الى الحبشة التي سنوردها بعد قليل وعلى ما يفيده كذلك حديث هام رواه ابن اسحق عن ام سلمة ام المؤمنين سنورده بعد قليل ايضا ثم على ما يستفاد من استعراض اسماء المهاجرين الى المدينة مع النبي عليه السلام التي ذكرها كتاب اسد الغابة حيث يسوغ القول ان اذهان شباب قريش كانت آخذة بالتفتح باحثة عن مخرج مما كان عليه آباؤهم من عقائد وتقاليد سخيفة وحيث يكون في ذلك مظهر من مظاهر القواعد الاجتماعية التي تقرر قابلية الشباب للاستجابة للدعوات الاصلاحية والاجتماعية والاندماج فيها . وهو ما يمكن ان توصف به الرسالة المحمدية من

---

(١) اقرأ سورة العصر وسورة الليل وآيات سورة البلد ١١–١٨ والغاشية ٨ – ١٦ والنبأ ٥ – ٣٦ والانسان ٥ – ٢٢ والمعارج ١٩ – ٣٥ والطور ١٧ – ٢٨ والذاريات ١٥ – ١٩ والشورى ٣٦ – ٣٨ والصافات ٤٠ – ٤٩ وفاطر ٢٨ – ٣٥ والسجدة ١٦ والمؤمنون ١ – ٨ والفرقان ٣ – ٧٦

ناحية ما . فما إن أخذ يدعو اليها حتى استجابوا اليه وأقبلوا عليه دون مبالاة بما كان من غضب آبائهم وذويهم واضطهادهم لهم . وقد هاجروا من وطنهم الى الحبشة اولا ثم الى يثرب مستمسكين بدينهم الذي ارتضاه الله تعالى لهم وأشربوا حلاوته وكانوا حملة مشعل الهداية فصاروا مع غيرهم من السابقين الأولين مظهر ثناء من الله عظيم في آية سورة التوبة (١٠٠) التي قالت عنهم (رضي الله عنهم ورضوا عنه) .

ركن الزكاة وحكمة التبكير في فرضه

❁

ونود ان ننبه الى مسألة مهمة متصلة فيما نعتقد بظروف الدعوة الاولى ومحنة الأذى . وهي مسألة الزكاة التي هي من اركان الاسلام الأساسية . فقد أشير اليها في الآيات والفصول المبكرة في النزول متلازمة مع الصلاة ونوه بالمؤمنين الذين كانوا يؤدونها ويعرفون ان في أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم[1]

فمما يتبادر أن ذلك بالاضافة الى ان الزكاة ومقاصدها هدف أساسي من أهداف الدعوة الاسلامية يدل على ان ظروف الدعوة كانت تدعو الى فرض شيء معين من المال على ما يجوز الغني المسلم للفقير المسلم في ذلك الحين الذي كان عدد الفقراء فيه كثيراً من جهة ومعرضين للاذى والمطاردة من جهة أخرى . ولعل مشروع الدعوة الاسلامية نفسه كان في حاجة الى نفقات لابد منها كان النبي ﷺ يتقاضاها من أغنياء المسلمين كحق واجب الأداء عن اموالهم . ولقد يصح ان يقال ان تشريع الزكاة في العهد المكي هو الوحيد بين التشريعات غير التعبدية إذ ان جل هذه التشريعات إنما كان في العهد المدني حيث يؤيدها هذا التعليل الذي ذكرناه فاقتضت حكمة التنزيل فرض الزكاة فرضاً على أغنياء المسلمين ليؤدوها بدافع من ايمانهم كالصلاة ولا تكون بصفة التبرع التطوعي الذي يكون المرء فيه مختاراً .

---

(١) انظر آية سورة الاعلى (١٤) والذاريات ١٦ - ١٩ وفاطر ٢٩ والاسراء ٢٦ والمؤمنون ٢٤ — ٢٥ والنحل ١ — ٣ ولقمان ١ — ٥ والليل ١٧ — ١٨

الهجرة الى الحبشة

ولما اشتد الاذى على المسلمين قال لهم النبي ﷺ لو خرجتم الى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه[1] .

فهاجر فريق من المسلمين الى الحبشة نتيجة لذلك . والى هذه الهجرة أشارت هذه الآيات في سورة النحل (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في هذه الدنيا حسنة ولأجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ٤١ — ٤٢) .

وقد روى ابن سعد[2] أن عدد الذين خرجوا لأول مرة كان احد عشر رجلا واربع نساء وهم عثمان بن عفان من بني أمية وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو والزبير بن العوام من بني أسد ومصعب بن عمير من بني هاشم وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة وابو سلمه من بني مخزوم ومعه زوجته أم سلمه بنت أمية بن المغيرة وعثمان بن مظعون من بني جمح وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي وزوجته ليلى وابو سبرة بن ابي رهم العامري وحاطب بن عمرو بن عبد شمس وسهيل بن بيضاء من بني الحارث وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة رضوان الله عليهم .

وكانت هجرتهم في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة. وقد خرجت قريش في أثرهم فلم يدركوهم حيث كانوا ركبوا البحر على ظهر سفينتين من جده الى الحبشة مقابل نصف دينار عن كل راكب[3] وقد لبثوا شهرين ثم بلغهم ان قريشاً اسلمت فعادوا حتى اذا كانوا على ساعة من مكة لقوا ركباً من كنانه فسألوهم عن قريش فقالوا إن محمداً ذكر آلهتهم بخير فتابعه الملأ ثم ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشر فتركناهم على ذلك . فاستمر العائدون ثم قالوا ندخل فننظر ثم نرجع . وقد دخلوا بجوار رجال من مكة استجاروا بهم فأجاروهم حسب التقاليد التي شرحناها في الجزء السابق . ومع ذلك فقد اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديداً فأذن رسول الله ﷺ لهم بالهجرة ثانية

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٤٤

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٨٨

(٣) ابن سعد ج ١ ص ١٨٨ — ١٨٩

ى الحبشة فخرجوا وانضم اليهم غيرهم فبلغ عددهم هذه المرة ثلاثة وثمانين رجلا و ١١ امرأة
رشية وسبع غرائب [١] .

أما ما بلغ المهاجرين الاولين من اسلام قريش الذي جعلهم يعودون فقد اورد ابن
سعد[٢] في صدده رواية جاء فيها ان النبي ﷺ تمنى في نفسه ان لا ينزل عليه شيء ينفر زعماء
مكة منه وانه قاربهم وقاربوه وإنه قرأ عليهم في مجلس سورة النجم حتى بلغ

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى)

القى الشيطان كلمتين على لسانه وهما (تلك الغرانيق العـــلى . وإن شفاعتهن لترتجى)
فتكلم رسول الله ﷺ بهما ثم مضى فأتم السورة وسجد فسجد القوم جميعاً . ولقد انكر
كثير من المفسرين الرواية[٣] ومنهم من قال إن الشيطان هو الذي القى الجملتين فظن الكفار
ان النبي ﷺ هو الذي القاهما . ومنهم من قال إن بعض الكفار هم الذين القوهما تحدياً
لما جاء بعد الآيات التي تلاها النبي ﷺ من تسفيه وتنديد[٤] ثم لما سجد النبي ﷺ في آخر
السورة لله عز وجل سجدوا لآلهتهم استمراراً في التحدي والعناد .

ولقد أعاد بعض المستشرقين وابدوا في هذه القصة واعتبروها صحيحة ومأخذاً . ولقـــد
فندها حسين هيكل في كتابه حياة محمد في فصل طويل قوي محكم [٥] ولقد روى المفسرون

---

(١) ابن سعد ج ١ ص ١٩١ ـــ ١٩٢

(٢) ابن سعد ص ١٨٩ ـــ ١٩٠

(٣) انظر تفسير آيات الاسراء ٧٣ ـــ ٧٥ وآيات الحج ٥٢ ـــ ٥٣ في كتب تفسير الطبري وابن
كثير والخازن والطبرسي والبغوي .

(٤) تاتي بعد آيات (افرأيتم اللاة والعزى . ومناة الثالثة الاخرى) هذه الايات :

(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ
إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَـــا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ٢١ ـــ ٢٣)

(٥) ص ١٥٧ ـــ ١٦٤

هذه الرواية في سياق آيات الاسراء هذه :

(وإنْ كادُوا لَيفتِنُونَكَ عَنِ الّذي أَوْحينا إليْكَ لِتفتريَ علَيْنا غيْرَهُ وإذا لاتّخذُوكَ خليلاً . ولَوْلا أنْ ثبّتْناكَ لقَدْ كِدْتَ ترْكَنُ إلَيْهِمْ شيْئاً قَليلاً . إذاً لأذَقْناكَ ضِعفَ الحياه وضِعْفَ المماتِ ثُمَّ لا تجِدُ لكَ علَيْنا نَصيراً ٧٣ ــ ٧٥)

مع أن روح الآيات وصيغتها وظروف نزولها تثبت من الوجهة الجدلية عـــدم صحة الرواية اصلا . فالرواية تذكر ان النبي ﷺ قد قال قولا اي وقع منه فعل في حين ان الآيات تقول إنهم كادوا يفتنونه .وسياق آيات النجم لا يمكن ان تتحمل ما روي من الجملتين لأنه مصبوب على تسفيه الكفار لاتخاذ المعبودات الثلاثة الهة وتسميتها باسماء الاناث ونسبتها الى الله كبنات له او كرموز للملائكة الذين زعم الكفار انهم بنات الله سبحانه وتعالى .

وقد قلنا من الوجهة الجدلية لأن ثناء النبي ﷺ على الاصنام والاقرار بفائدة شفاعتهم من المستحيلات من ناحية الحقيقة وواقع اساس الدعوة . وفصول القرآن المتلاحقة المكررة المؤكدة على وحدة الله تعالى وتسفيه الشرك به بأي سبب ومظهرولا يمكن ان يقول بذلك منصف عاقل .

ومهما يكن من أمر فإننا لا نرى ما يمنع ان يكون خبر مماثل مكبر قد بلغ المهاجرين الاولين فاستبشروا وعادوا فلما رأوا الحالة على ما تركوها بل واشد عادوا فهاجروا ثانية وهاجر معهم عدد كبير آخر . بنتيجة لأشتداد قريش في العداء والأذى .

هذا . ويبدو من الاسماء والانساب التي اورد بعضها ابن سعد واستوفى جميعها ابن هشام ان جل المهاجرين في المرتين كانوا من ابناء الأسر القرشية مع افراد كانوا حلفاء لبعض هذه الأسر[1] حيث يسوغ القول إنهم الذين انكرت اسرهم او زعمـــاء اسرهم عليهم إسلامهم واضطهدوهم او قاطعوهم او لم يتعصبوا لحمايتهم ولم يكن لهم من القوة الذاتيـــة ما يمنعهم

---

(١) ابن سعد ج ١ ص ١٩١ ــ ١٩٢ وابن هشام ج ١ ص ٣٤٤ ــ ٣٥٣

ويحميهم حيث كان منهم افراد من كل من اسر بني هاشم وبني أمية وبني اسد وبني عبد الدار وبني مخزوم وبني جمح وبني عدي وبني سهم وبني عامر وبني الحارث .

وكان فيهم ابناء زعماء كبار كانوا في صف الكفر والمناوأة مثل عمرو بن سعيد بن العاص وزوجته فاطمة بنت صفوان بن أمية وعبد الله بن جحش وزوجته رملة بنت أبي سفيان . وفراس بن النضر بن الحارث بن كاوه الذي كان ابوه من اقوى خصوم النبي ﷺ وأبو سلمة المخزومي وزوجته ام سلمه بنت ابي امية بن المغيرة المخزومي . وهشام بن حذيفه بن المغيرة المخزومي . وسلمه بن هشام بن المغيرة المخزومي وعياش بن ابي ربيعة بن المغيرة المخزومي ، وهشام بن العاص بن وائل السهمي . وابي حذيفة عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو .

وممن هاجروا رجال صار لهم في التاريخ الاسلامي شهرة تدل على انهم كانوا في شبابهم من اصحاب النباهة والبروز والنشاط منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ومصعب بن عمير الهاشمي وعبد الرحمن بن عوف الزهري والزبير بن العوام الاسدي . وعثمان بن مظعون الجمحي والمقداد بن الاسود وابي موسى الاشعري وجعفر بن ابي طالب، الهاشمي وغيرهم وغيرهم رضوان الله عليهم .

وقد يبدو عدم وجود اسماء لمساكين المؤمنين وفقرائهم وغربائهم بين المهاجرين غريباً . وقد تبادر لنا تعليلا لذلك ان ضغط زعماء قريش كان اكثر شدة على ابناء الاسر القرشيين لأنهم تحسبوا عواقب ايمان الذين آمنوا منهم بالنسبة لسائر شباب هذه الاسر في حين انه لم يكن ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والارقاء والفقراء والغرباء ، وهذه صورة مخالفة لما في الاذهان كما هو المتبادر .

ونريد ان نقف عند اسم جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه لنقول اننا نستبعد ان يكون قد اضطهد من قبل اسرته . فالروايات متواترة على ان غالبية بني هاشم وعلى رأسهم ابو طالب كانوا يتعصبون للنبي ﷺ ناذرين حمايته والدفاع عنه تأثراً بالعصبية الراسخة برغم ان اكثرهم لم يكونوا قد آمنوا . ولذلك نرجح ان النبي ﷺ ندبه ليكون وكيله في المهاجرين ، ورسوله معهم الى ملك الحبشة . وفي الروايات مما قد يؤيد ذلك حيث ذكرت انه كان المتكلم بلسان المهاجرين امام هذا الملك[1] .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٥٩ — ٣٦١

ولعل انتشار النصرانية في الحبشة من عوامل اختيارها من قبل النبي ﷺ داراً للهجرة الاولى . لان النصارى في مكة الذين كانوا يؤلفون الكثرة الساحقة من الكتابيين وقفوا ذلك الموقف الايجابي المحب المؤمن المصدق من النبي ﷺ على ما سجلته الآيات المكية التي اوردناها في التمهيد .

ولقد ذكرت الروايات[1] ان المهاجرين لقوا من ملك الحبشة عطفاً وبراً وتطميناً وانه ابتهج وتأثر بما سمعه من آيات القرآن عن المسيح وامه ورسالته حتى لقد روي انه اعتنق الاسلام[2] مما جاء مصدقاً لما توفعه النبي ﷺ .

ولقد ذكرت الروايات[3] ان قريشاً ارسلت وفداً الى ملك الحبشة مؤلفاً من عمرو بن العاص وعبد الله بن ابي ربيعة ليقنعه بخطر المهاجرين ويغريه بطردهم وحملته الهدايا للملك وبطاركته ، حيث يدل هذا على توجس قريش من نتائج هذه الرحلة وكسب المسلمين لقلب الملك ورجاله وهم يسمعون منهم القرآن يذكر الكتابيين بشيء من الحفاوة . لا سيما ولم تكن غزوة الاحباش لليمن لنصرة بني دينهم النصارى حينما اضطهدهم الملك الحميري المتهود ثم غزوتهم للحجاز على ما شرحناه في الجزء السابق ما تزال حديثة العهد الذكرى .

وقد كان نصيب الوفد الاخفاق على ما ذكرته الروايات التي ذكرت ان الوفد وزع الهدايا على البطاركة واستعان بهم على مهمته ثم قابل الملك بحضورهم وقال له ان غلماناً سفهاء منا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين جديد ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت وقد ضووا الى بلدك . وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشائرهم لتردهم اليهم . وان البطاركة ايدوا الطلب ولكن الملك لم يقبل وطلب استدعاء المهاجرين وسألهم عن الدين الذي فارقوا قومهم فيه فتكلم جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه فقال (ايها الملك كنا قوماً اهل جاهلية نعبد الاصنام ونأكل الميتة . ونأتي الفواحش . ونقطع الارحام . ونسيء الجوار . ويأكل القوي منا الضعيف فبعث الله الينا رسولاً منا

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٥٨

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٥

(٣) ابن هشام ج ١ ص ٣٥٦ وبعدها

نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وامرنا بصدق الحديث وأداء الامانـــة . وصلة الرحم . وحسن الجوار . والكف عن المحارم والدماء . ونهـــانا عن الفواحش . وقول الزور وأكل مال اليتيم . وامرنا ان نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك بـــه شيئاً وحرمنا ما حرم علينا واحللنا ما أحل لنا . فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبـــادة الأوثان وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على سواك ورغبنا في جوارك ورجونا ان لا نظلم عندك . فقال له النجاشي هل معك مما جاء عن الله من شيء؟ فقال نعم فطلب منه قراءته عليه فقرأ عليـــه صدراً من (كهيعص) — سورة مريم — فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال لهم ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . انطلقا فـــلا والله لا اسلمهم إليكما ولا يكادون[1] .

ومما جاء في الحديث نفسه عن أم سلمة رضي الله عنها ان عمرو بن العاص عاد الى الملك في اليوم الثاني فقال له انهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فارسل اليهم فسلهم فأرسل اليهم فلما دخلوا عليه سألهم عما يقولون في عيسى بن مريم فقال جعفر رضي الله عنه نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول . فضرب النجاشي بيده الى الارض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال فقال وإن نخرتم والله . ثم

---

(١) هذا الحديث الطويل رواه ابن هشام عن ابن اسحق المولود في القرن الهجري الاول والمتوفى سنة ١٥٢ ه الذي قال حدثني محمد بن مسلم الزهري عن ابي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن ام سلمة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت من المهاجرين مع زوجها الاول ابي سلمة ومات عنها في الحبشه فشرفها النبي صلى الله عليه وسلم بالزواج منها مع انها كانت متقدمة في السن وكان لها اولاد كبار. ومهما يمكن ان يقال فيه بسبب تنميق عبارته وطوله فليس فيه خيال ولا مبالغة وانمـــا هو تعبير صادق كل الصدق عن واقع الامر مما يسوغ القول انه مطابق لما حصل . ووقت سماع الحديث وتدوينه يسمحان بالقول ان ما جاء فيه صحيح (انظر الجزء الاول من سيرة ابن هشام طبعة مصطفى البابي الحلبي ص ٣٥٦ — ٣٦٢

قال لجعفر وصحبه اذهبوا فأنتم آمنون من سبكم غرم . من سبكم غرم . مـــا احب ان يكون لي دبراً[1] من ذهب واني آذيت رجلا منكم فأنتم آمنون .

ولقد بقي المهاجرون في الحبشة نحو اثنتي عشرة سنة اي الى السنة السابعـــة من هجرة النبي ﷺ الى المدينة حيث صار في قوة ومنعة وتهادن مع قريش فيما عرف بصلح الحديبية فأرسل اليهم مندوباً فحملهم على سفينتين[2] .

هذا . ولقد رأينا المستشرق الطلياني كايتاني يغمز المهاجرين في صبرهم وجلدهم ورسوخ عقيدتهم وفي رغبتهم بالنجاة بأنفسهم وتخليهم عن نبيهم . وليس في هذا شيء من الحق من جهة . وهو ملقى جزافاً بعقل اليوم وناتج عن عدم فهم ظروف البيئة النبوية والمهاجرين وتقديرها من جهة اخرى . فالذين هاجروا كانوا بـــين امرين إما ان يظلوا يتعرضون للاذى وقد تخون بعضهم اعصابهم فيرتدون وإما ان يصبروا حتى يودي الصبر بحياتهم لانهم ليس لهم قوة ذاتية تحميهم وليس في هذا مصلحة للمسلمين والدعوة . وقد وقعت الحالتان فليس في تفادي مثل ذلك بالهجرة محل للغمز . بل هي دليل على تعلق المؤمنين بدينهم وخوفهم من الافتتان عنه وتضحيتهم بوطنهم ومصالحهم في سبيله . وفي هذا ما يستوجب الاكبار والثناء . ولقد خرجوا بإذن من رسول الله ﷺ بل وبحث وتشجيع وهو خير من يقدر الظروف المحيطة بهم . ولقد اشار القرآن الى هجرتهم باسلوب الاقرار والثناء والبشرى في آيات سورة النحل هذه (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولاجر الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ٤٠ — ٤١)وفي هذا وذاك القول الفصل حتى من الناحية التاريخية . والغريب ان الغامزين يتجاهلون حالة واقعية متكررة وسائغة في كل ظرف ومكان منذ اقدم الازمنة الى الآن والى ما شاء الله بسبيل شفاء النفس بالتعليق والغمز ضد الاسلام والمسلمين .

---

(١) فسرها ابن هشام بالجبل .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٤١٤

❁

في سورة النحل التي نزلت [1] بعد هجرة من هاجر من المؤمنين الى الحبشة آيات تفيد وقوع حادث ارتداد في العهد المكي . وهي هذه :

(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِه إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ١٠٦ ــ ١٠٧)

ولقد روى المفسرون [2] في صدد هذه الآيات ان هذا الحادث وقع حينما اخبر النبي عليه السلام بخبر الاسراء . ومع عدم استبعادنا ان يكون بعض المسلمين قد ارتدوا نتيجة لهذا الخبر فاننا نرجح ان حادث الارتداد المذكور في الآيات كان لسبب آخر . فقبل هذه الآيات جاءت الآيات التالية :

(فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ . إِنَّه لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّما سُلْطانُهُ عَلى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ . إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ

(١) الدليل على نزولها بعد الهجرة ورود آية في السورة تنوه بالمهاجرين وتبشرهم وهي (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوءنهم في الدنيا حسنة ولاجر الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون ٤١)

(٢) انظر تفسير الايات في تفسير الطبرسي وابن كثير والخازن

الله ولهم عذابٌ أليمٌ . إنّما يفتري الكذبَ الّذين لا يُؤمنونَ بآياتِ اللهِ وأولئكَ هُمُ الكاذِبُونَ ٩٨ ــ ١٠٥)

وروح هذه الآيات ومضمونها يلهمان انها نزلت في صدد حادث له صلة بالقرآن ويلهمان انه اوحي للنبي ﷺ ببعض الآيات لتكون مكان بعض آيات اخرى فلما تلا الجديدة وأهمل الأولى استغل زعماء الكفار ذلك فأخذوا يشنعون عليه ويهاجمون دعواه كون القرآن وحياً إلهياً وينسبون اليه الافتراء والتعلم من شخص معين . ولعلهم قالوا ان الشيطان هو الذي يوسوس له ويلقي عليه لا الملك وان التبديل دليل على ذلك . لأن الشيطان قد يخطىء ولكن الملك لا يصح ان يخطىء. واستغلوا الحادث في الصد والتأثير ببعض المسلمين وتوسلوا بالاغراء الى جانب الاستغلال والتهويش . وكان من نتيجة ذلك ان ارتد بعضهم استجابة لهذه الدعاية واستحباباً لمنافع الحياة الدنيا . فجاءت الآيات تثبت النبي ﷺ والمسلمين . وتهاجم الصادين والمهوسين والمرتدين وتحمل عليهم الحملة الشديدة التي انطوت في الآيات ، فليس للشيطان سلطان على المؤمنين المتوكلين على الله وانما سلطانه على الذين يشركونه وهم المشركون . والله هو الاعلم بمقتضيات حكمة التنزيل . وكل تبديل وتنزيل هو من وحي الله وتنزيل روح القدس ملك الله الاكبر . وليس للنبي إلا اتباع ما يوحى به اليه . والذين لا يؤمنون بآيات الله كما تنزل وفق حكمة تنزيله هم الكاذبون المفترون وهذا مما تنزه عنه النبي واصحابه المخلصون . والرجل الذي ينسبون اليه تعليم النبي هو اعجمي اللسان في حين ان القرآن عربي مبين فحجتهم ساقطة بنفسها ...

ولقد جاء بعد الآيات « ١٠٦ – ١٠٧ » هذه الآية :

(ثُمَّ إنَّ ربَّكَ لِلّذينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وصَبَرُوا إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغفورٌ رَحيمٌ ١١٠)

ومع ان المفسرين [1] قالوا ان الاية بحق مستضعفين اجبروا على الارتداد عن الاسلام ثم وجدوا فرصة فهاجروا وعادوا الى الاسلام وبعضهم قال انها نزلت في جماعة قيدهم اهلهم في مكة ومنعوهم من الهجرة الى المدينة بعد هجرة النبي ﷺ اليها فاننا نرى هذين القولين في

---

(١) انظر تفسير الاية في تفسير ابن كثير والبغوي .

غير محلها ونرجح انها متصلة بالموضوع الذي انطوى في الآيات السابقة بدليل نزول الاية عقبها ، وان بعض الذين ارتدوا بدعاية زعماء الكفار وتهويشهم واغرائهم ندموا ولما سنحت لهم الفرصة هاجروا وعادوا الى الاسلام . والمتبادر انهم هـــاجروا الى الحبشة وانضموا الى رفاقهم المهاجرين فيها .

ما تعوض له النبي عليه السلام وعشيرته من الاذى والضغط

●

ولقد كان النبي ﷺ وعشيرتـــه الاقربين من جملة من تعرضوا للضغط والأذى أيضاً . وهذا غير ما كان زعمـــاء المشركين يوجهونه إليه من تهم الجنون والكذب والافـــتراء والسحر والكهانة والشعر والتحدي . وفي الروايات حوادث عديدة فيها صور مشرقة من صمود النبي عليه السلام وصور مؤثرة مما كان يتعرض له هو وعشيرته من ضغط وأذى في سبيل الله واعلاء كلمته .

ففي سورة الانبياء هذه الاية :

(وإذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلّا هُزُواً أهذا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وهُمْ بذِكْرِ الرَّحْمَنِ كافِرُون ٣٦)

وفي سورة الفرقان آية قريبة منها وهي :

(وإذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُواً أهـــذا الَّذي بَعَثَ اللهُ رَسُولا ٤١)

حيث يفيد التكرر تكرر هذه الصورة من الاذى .

وممـــا ذكره بن هشام [1] عن ابن اسحق ان قريشاً كانت تسمي رسول الله ﷺ مذمماً ـ تحريفاً لمحمد ـ ثم يسبونه وان امية بن خلف كان شديد الهمز واللمز له وفـــيه نزلت سورة الهمزة :

---

(١) ج ١ ص ٣٨٢

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمعَ مالاً وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ بِالْحُطَمَةِ ، وَمـــا أَدْراكَ ما الْحُطَمَةُ . نارُ اللهِ الْموقَدَةُ . الَّتي تَطَّلِـعُ عَلى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّها عَلَيْهِمْ مُوْصَدَةٌ • في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ)
حيث احتوت رداً صاعقا يقذف بالحمم في وجه هذا الطاغي .

ومما رواه ابن هشام [١] ان زعماء قريش جاؤوا الى ابي طالب عمه وقالوا له ان ابن اخيك سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل ابناءنا فإما ان تكفه عنا أو تخلي بيننا وبينه . فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فردهم رداً جميلا . ثم جاؤوا اليه ثانية وقالوا لههذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش واجمله فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولداً واسلم الينا ابن اخيك الـــذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه احلامهم فانما هو رجل برجل فقال لهم بئس ما تسومونني عليه أسلمكم ابني تقتلونه واغذو لكم ابنكم [٢] .وجاؤوا إليه ثالثة فقالوا له انا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا ولن نصبر على شتم آبائناوتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا فاما ان تكفه عنا او ننازلك واياه حتى يهلك احد الفريقين فبعث ابو طالب للنبي ﷺ فحكى له قول الزعماء ثم قال له فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ ان قد بدا لعمه فيه وانه خاذله ومسلمه وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الأمر حتى يظهره الله او أهلك ما تركته ثم استعبر وبكى فقال له عمه يا ابن اخي قل ما احببت فوالله لن اسلمك ابداً [٣] . ثم دعا بني هاشم وبني المطلب وطلب منهم منع رسول الله والقيام دونه فأجابوه إلى ما دعاهم وشذ ابو لهب عن الاجماع [٤] .

ومما رواه ابن هشام [٥] ان عقبة ابن ابي معيط جلس الى النبي عليه السلام يستمع منه فبلغ ذلك ابيا بن خلف فأتاه فقال له : وجهي من وجهك حرام ان انت جلست اليه واستمعت له ثانية وان أنت لم تأته فتتفل في وجهه ففعل عدو الله وكان هذا من اشد الأذى الذي وقع على النبي عليه السلام ، وهو الذي عني في آية الفرقان هذه (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) .

---

(١) ج ١ ص ٢٨٤–٢٨٥ (٢) ج ١ ٢٨٥ ابن هشام (٣) ٢٨٤–٢٨٥

(٤) ٢٨٧ (٥) ج ١ ص ٣٨٧

كذلك مما رواه ان ابا لهب والحكم بن العاص وعقبة ابن ابي معيط كانوا جيرانا لبيت النبي عليه السلام فكانوا يطرحون عليه رحم الشاة وهو يصلي ومنهم من كان يطرحها في قدره اذا نصبت [1] .

ومما رواه ابن هشام [2] ان اشراف قريش اجتمعوا يوما في الحجر (فناء الكعبة) فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من امر هذا الرجل قط وقد صبرنا منه على امر عظيم . وبينما هم في كلامهم جاء النبي الى الكعبة فاستلم الركن ثم طاف فلما مر بهم غمزوه ببعض القول فكظم غيظه واستمر في طوافه فلما مر بهم ثانية غمزوه فكظم غيظه واستمر في طوافه فلما مر بهم ثالث مرة غمزوه فوقف وقال أتسمعون يامعشر قريش . اما والذي نفسي بيده لقدجئتكم بالذبح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر حتى ان اشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول ويقول له انصرف يا ابا القاسم فوالله ما كنت جهولا . ثم اجتمعوا في الغد فقال بعضهم لبعض لقد بادأتوه فبادأكم بما تكرهون فتركتموه. فبينما هم كذلك اذ طلع عليهم فوثبوا اليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون انت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلهتنا وديننا فقال لهم نعم أنا فتقدم واحد منهم فأخذه بمجمع ردائه فقام ابو بكر دونه وهو يبكي ويقول أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله ثم انصرفوا عنه وكان هذا أشد ما نالته قريش من النبي عليه السلام كما قال ابن هشام . وقد رجع ابو بكر رضي الله عنه وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه بلحيته وكان رجلا كثير الشعر [3] .

ومما رواه كذلك [4] ان ابا جهل قال في مجلس من مجالس قريش يا قوم ان محمداً ابى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا واني اعاهد الله لأجلسن غداً

---

(١) ج - ص ٢٥ (٢) ج ١ ص ٣٠٩-٣١٠

(٣) ج ١ ص ٣٠٩-٣١٠ من العجيب ان ابن هشام الذي يروي هذه الصور من الاذى يروي ايضاً (انظر الجزء الثاني ص ٢٥-٢٦ مطبعة مصطفى الحلبي) ان سفيها القى تراباً على رأس النبي عليه السلام فقال (ما نالت قريش مني شيئا اكرهه حتى مات ابو طالب) حيث ينقض هذا تلك الروايات . ويسوغ القول ان كل ما كان من قريش قبل موت ابي طالب هو الضغط على هذا وعشيرته والسخرية والتكذيب وتوجيه تهم الكذب والافتراء والسحر والشعر والكهانة والجنون وربما شيء من الشتائم والهمز واللمز

(١) ج ١ ص ٣١٩-٣٢٠

بحجر ما اطيق حمله فاذا سجد في صلاته فضخت به رأسه فاسلموني عند ذلك او امنعوني فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم قالوا والله لا نسلمك لشيء أبداً فامض لما تريد . فلما أصبح ابو جهل اخذ حجراً كما وصف ثم جلس ينتظر رسول الله . وغدا رسول الله كما كان يغدو وقام يصلي فلما سجد احتمل ابو جهل الحجر واقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره حتى قذمه وقام اليه رجال قريش يسألونه ما باله فقال لما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الابل والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (عنقه) ولا أنيابه لفحل قط فهمّ أن يأكلني . وقد روينا قبل رواية قريبة من هذه حينما هم ابو جهل ان ينفذ يمينا له بوطء عنق النبي عليه السلام ان عاد فصلى بعد ان نهاه عن الصلاة . وهذا وذاك في نطاق قدرة الله بدون ريب .

اسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما واثره

وبما رواه ابن هشام ايضا ان ابا جهل مر برسول الله عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف في امره فلم يكلمه ثم انصرف عنه . وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان شاهدة سامعة . ورأت في هذه الاثناء حمزة عم النبي فقالت له يا ابا عمارة لو رأيت ما لقي ابن اخيك آنفا من ابي الحكم بن هشام وقصت عليه ما سمعت ورأت فاحتمل حمزة الغضب فخرج يسعى ليوقع بأبي جهل إذا لقيه ودخل المسجد فرآه جالسا فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال أتشتمه وانا على دينه أقول ما يقول . فرد علي اذا استطعت فقام رجال من بني مخزوم لينصروا ابا جهل فقال لهم دعوه فاني والله قد سببت ابن اخيه سبا قبيحا . ومنذئذ انضم حمزة رضي الله عنه الى صف النبي ايمانا بعد ان كان في صفه عصبية . فكان ذلك مما اعز الاسلام وجعل قريشا يكفون عن بعض ما كانوا ينالون به النبي ﷺ [1]

واقد كان اسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه مما اعز الاسلام ايضا حتى لقد روي عن ابن مسعود انه قال ما كنا نصلي عند الكعبة حتى اسلم عمر .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣١١-٣١٢

ولقصة اسلام عمر صلة بموضوع أذى المؤمنين وأذى رسول الله وفيها عبرة وصورة خطيرة من العهد المكي .

ومما رواه ابن هشام في صدد ذلك ان احد المؤمنين وكان يكتم ايمانه لقي عمر فقال له الى اين فقال اريد هذا الصابيء « ويعني النبي » الذي فرق امر قريش وسفه احلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله فقال له والله لقد غرتك نفسك يا عمر اترى بني عبد مناف تاركيك أفلا ترجع الى أهل بيتك فتقيم امرهم . فسأله واي اهل بيتي قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً . فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعنده خباب بن الارت معه صحيفة فيها سورة طه يقرئها إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع واخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وكان عمر قد سمع قراءة خباب فلما دخل قال ما هذه الهيمنة التي سمعت . لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختنه فقامت اليه اخته لتكفه فضربها فشجها فلما فعل قالت له اخته وختنه نعم لقد آمنابالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وارعوى وقال لها اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا حتى انظر ما هذا الذي وجاء به محمد فامتنعتحلف لها ليردنها إذا قرأها قالت له انك نجس على شركك وانها لا يمسها إلا الطاهر فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة فلما قرأ من سورة طه صدراً قال ما احسن هذا الكلام وأكرمه . فلما سمع ذلك خباب خرج اليه فقال له والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته امس يقول اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم ابن هشام او بعمر بن الخطاب فقال له عمر فدلني يا خباب على محمد حتىآتيه فأسلم فأخذه حتى إذا طرقا الباب سمع من في الداخلصوت عمر فقالوا يا رسول الله هذا عمر متوشحا بالسيف فقال حمزة ائذن له فان جاء يريد خيراً بذلناه له وان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه فأذن له ونهض رسول الله حتى لقيه في الحجرةفأخذ بمجمع ردائه وجذبه جذبة شديدة ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى ان تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة فقال عمر يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله وبما جاء من عند الله وبرسول الله فكبر رسول الله تكبيرة عرف اصحابه منها ان قد اسلم . وعرف المسلمون وقريش ان الاسلام قد اعتز باسلامه كما اعتز باسلام حمزة قبله رضي الله عنهم [1] .

ومهما بدا على الرواية فنحن لا نرى ذلك مانعا لصحتها في جملتها لانها متسقة معظروف الاحوال .

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٦٨-٣٧١

المقاطعة التي أعلنها زعماء قريش ضد

عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم

●

ونعود بعد الاستطراد لموضوع الأذى ضد النبي ﷺ وعشيرتـــه فنقول إن من اهم احداث ذلك المقاطعة التي اعلنها زعماء قريش على عشيرة النبي الأقربين حينما أعياهم أمره ورأوه مستمراً في دعوته ورأوا عشيرته قائمة على نصرته والدفاع عنه حيث ائتمروا فاتفقوا على كتابة وثيقة عرفت بالصحيفة تعهدوا فيها بأن لا يزوجوا بني هـــاشم وبني المطلب ولا يتزوجوا منهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبـــة توكيداً للامر على أنفسهم . وكان ذلك من أشد الضربات التي وجهت للنبي وعشيرتـــه الأقربين . وقد انحاز بنو هاشم وبنو المطلب الى أبي طالب فدخلوا شعبه وتضامنوا معه وشذ عنهم ابو لهب . وقد استمرت المقاطعة سنتين في رواية وثلاثاً في رواية حتى جهدوا ولم يصل الى أحد شيء الا سراً ممن أراد صلتهم ممن كان لهم رحم من قريش .

ولقد لقي ابو جهل ابن اخي خديجة زوجة النبي ﷺ ومعه غلام يحمل قمحاً يريـد به عمته فقـــال له أتذهب بالطعام لبني هاشم والله لا تبرح حتى افضحك في مكة . فتصدى له أحد أقاربه من بني اسد وقال له مالك وماله اتمنعه من ايصال طعام الى عمته فدع الرجل وسبيله فأبى فتلاسنا ونال احدهما من صاحبه فأخذ الأسدي واسمـــه ابو البختري لحى بعير فضرب بـــه ابا جهل فشجه ووطأه وطأ شديداً . ثم مشى هشام بن عمرو وكان يمت في الخؤولة الى بني مناف الى زهير بن أبي أمية وكانت أمـــه بنت عبد المطلب فقال يا زهير أرضيت ان تأكل الطعـــام وتلبس الثياب وتنكح النساء واخوالك حيث علمت . اما إني أحلف بالله لو كان اخوال ابي الحكم بن هشام (يعني ابا جهل) ثم دعوته الى مثل ما دعاك اليه منهم ما اجابك اليه . ثم اتفقا على السعي في نقض الصحيفة وانضم اليها المطعم بن عدي وزمعه بن الاسد وغدوا في يوم الى المسجد وجاء زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال يا اهل مكة أنأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة فقال له ابو جهل كذبت والله لا تشق فقال زمعة له أنت والله اكذب فقال ابو البختري صدق زمعة فقال المطعم صدقتما وكذب من قال غير ذلك نبرأ الى الله منها . فقال ابو جهل امر قضي بليل . فلم يعبأوا به وقام المطعم

الى الصحيفة ليشقها فوجد الارضة قــد أكلتها الا جملة (باسمك اللهم) فاتحتها . وبذلك انحسرت الغمة عن رسول الله ﷺ وعشيرته الاقربين . والطبري الذي ننقل عنـه الخبر ذكر أن رسول الله عليه السلام لم يتوقف اثناء القطيعـة عن الدعوة إلى سبيل الله سراً وجهراً وآناء الليل واطراف النهار[1] .

ولا يذكر الطبري وقت هذا الحادث بصراحة . ولكن سياقه يفيد انه كان بعد هجرة المؤمنين الى الحبشة . أي في السنة الخامسة او السادسة للبعثة .

ولقد ذكرت الروايات ان ابا طالب لم يلبث ان توفي بعد انحسار الغمة وكانت وفاته قبل الهجرة الى المدينة بثلاث سنين[2] اي في السنة التاسعة للبعثة مما فيه تأييد للتخمين .

تفكير النبي عليه السلام بالهجرة الى الحبشة أيضاً

ولقد جاء في سورة الاسراء هذه الآية :

(وإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْها وإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَليلاً ٧٦)

التي تفيد أن النبي ﷺ قــد فكر في الهجرة هو ايضاً . ومن العجيب ان روايات السيرة لا تذكر ذلك مع ان دلالة الآية عليه صريحة . اما روايات التفسير فقد ذكرت[3] ان اليهود في المدينة هيجوا النبي ﷺ وقالوا له إن الأنبياء إنما بعثوا في الشام وإنه يجدر به ان يخرج اليها وإنه استعد فعلا للخروج .

---

(١) ج ٢ ص ٧٤ – ٧٩ مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٧ – ١٩٣٩ . ولقــد ذكر ابن هشام خبر الصحيفة ايضا .

(٢) ج ١ ص ٣٧٥ – ٣٧٦ ويتفق مع الطبري حتى في العبارة . وقد نقلنا الخبر عن الطبري لانه اوفى واكثر تسلسلا .

(٣) انظر تفسيرها في كتب تفسير الطبري وابن كثير وغيرها .

وبعض الروايات ذكرت ان الآية مدنية . واسلوبها وانسجامها مع ما سبقها ولحق بها مضموناً وسبكاً لا يسمح بتصديق الرواية . والآيات السابقة لها تذكر مواقف الكفار بحيث يسوغ الجزم بان ضمير الجمع الغائب فيها عائد اليهم . والذي نرجحه او بالاحرى نكاد نجزم به استناداً الى هذه الآية ان النبي عليه السلام حينما اخذ اذى الزعماء وضغطهم يشتدان عليه بعد هجرة كثير من اصحابه من ابناء الأسر القرشية اعتزم هو ايضاً الهجرة ثم ثبته الله ليستمر في اداء مهمته في مرحلتها الأولى في بيئته . ولقد روي عن عائشة رضي الله عنهـا حديث جاء فيه[1] ان اباها رضي الله عنه لما ابتلي المسلمون خرج مهاجراً نحو ارض الحبشة حتى بلغ برك الغماد وهو موضع وراء مكة مما يلي البحر فلقيه ابن الدغنة سيد القارة احدى القبائل المعروفة فقال اين تريد يا ابا بكر فقال له اخرجني قومي فأريد ان اسيح في الارض واعبد ربي فقال له مثلك لا يُخرج ولا يَخرُج . إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار . ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع وارتحل معه ابن الدغنة فطاف ابن الدغنة عشية في اشراف قريش وقال لهم إن ابا بكر لا يَخرج مثله ولا يُخرج . اتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة الخ ..)

ويلوح لنا ان ما جاء في هذا الحديث متصل بعزمة النبي عليه السلام على الهجرة وظروفها ومؤيد لما قررناه .

فأبو بكر رضي الله عنه اكثر اصحاب رسول الله ملازمة وتصديقاً وتأييداً له . هو صاحبه في الغار والهجرة الى المدينة . فمن المحتمل ان يكون الاثنان قررا الخروج كل على حدته على ان يلتقيا في جدة ويبحران منها الى الحبشة . وقد ثبت الله رسوله فاستقر ثم لم يلبث صاحبه ان عاد فازداد استقراراً وطمأنينة .

---

(١) انظر كتاب ابي بكر الصديق تأليف علي الطنطاوي ص ٧٤ – ٧٥

جرأة قريش على أذى النبي بعد موت أبي طالب وذهابه إلى الطائف وعرض نفسه على القبائل

•

ولقد قلنا إن ابا طالب لم يلبث ان توفي بعد شق الصحيفة . وكان ذلك في السنة الثامنة او التاسعة للبعثة . وقد توفيت ام المؤمنين خديجة رضي الله عنها في نفس السنة[1] فكانت ضربتين شديدتي الوقع على النبي عليه السلام . فبفقد عمه فقد زعيم عشيرته المدافع عنه الذي كانت العشيرة تحترمه وتتضامن معه في الدفاع والنصرة والذي كانت له الحرمة والمكانة في قريش ايضاً .

وبفقد زوجته فقد اعظم رفيق حنون مشجع ومثبت كان له اقوى الأثر في استشعاره بالهدوء والطمأنينة وتفرغه لرياضاته الروحية ثم في الظروف العصيبة التي ما فتىء يواجهها في مختلف ادوار عهد نبوته في مكة . وقد قال ابن هشام[2] إن قريشاً نالت من رسول الله من الأذى بعد هلاك ابي طالب ما لم تطمع به في حياته . وكان هذا ما قاله النبي عليه السلام على ما رواه حيث روى ان سفيهاً من قريش نثر التراب على رأسه فعاد الى البيت والتراب عليه فقامت احدى بناته تغسله عنه وهي تبكي فقال لها لا تبك يا بنية فإن الله مانع اباك ثم قال (ما نالت مني قريش شيئاً اكرهه حتى مات ابو طالب .

ويروي ابن هشام[3] بعد هذا ان النبي عليه السلام خرج الى ثقيف في الطائف رجاء هدايتهم والحصول على نصرتهم ومنعتهم . وقد اجتمع الى زعماء الطائف وسادتها وهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير واخويه مسعود وحبيب فتحدث معهم ودعاهم الى الله وطلب منهم النصرة على قومه فسخروا منه وكذبوه واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ويحصبونه حتى ألجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة واخيه شيبة[4] فعمد الى ظل جلة من عنب فجلس فيه . واخذ يناجي ربه ويشكو اليه ضعفه وحزنه ويطلب منه العون والرضاء فلما رأى

---

(١) و (٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٥ — ٢٦

(٣) ٢٨ — ٣١ ج ٢

(٤) كانوا يسمون بساتينهم بالحائط لانهم كانوا يقيمون حولها سوراً او حائطا . وعتبه وشيبه من اشراف قريش .

ابنا ربيعة ما لقيه تحركت رحمتهم فأمرا غلاماً لهما اسمه عداس بأن يضع قطيفاً من العنب على طبق ويقدمه اليه . فلما فعل قال رسول الله باسم الله قبل ان يمد يده ويأكل منه فنظر اليه عداس وقال هذا كلام لا يقوله اهل هذه البلاد فسأله عن بلده فقال له انا نصراني من اهل نينوى فقال له قرية الرجل الصالح يونس بن متى فقال له وما يدريك به قال ذاك اخي هو نبي وانا نبي . فاكب عداس على رأسه ويديه وقدميه يقبلهـــا . فلما رجع قال له سيداه ما لك فعلت كذلك فقال لهما ما في الارض خير منه لقـــد اخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي فحذراه وقالا له دينك خير منه .

وغادر الطائف يائساً فأراد الله تعالى تعزيته فصرف اليه نفراً من الجن يستمعون القرآن ويعلنون إيمانهم به ويعودون الى قومهم مبشرين منذرين واخبره بـــذلك في آيات سورة الأحقاف هذه :

(وإِذْ صَرَفْنا إِليْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ القُرْآنَ فلما حَضَروهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قالُوا يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدي إلى الحَقِّ وإلى طَريقٍ مُسْتَقيمٍ . يا قَوْمَنا أَجيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَليمٍ ٢٩ ـــ ٣١) .

فكان في ذلك تعزية كبيرة له . فإذا كان مشركو العرب يكذبونه ويؤذونه فالجن الذين هم اقوى منهم واعتى يؤمنون به .

ولم يجرأ على دخول مكة بدون جوار فأرسل رسولا الى الاخنس بن شريق يسأله عما إذا كان يجيره حتى يبلغ رسالة ربه فاعتذر فأرسل الى سهيل بن عمرو فاعتذر فأرسل الى المطعم بن عدي فأجاب ثم لبس سلاحه هو وبنوه وبنو اخيه فـــدخلوا المسجد فلما راه ابو جهل قال له امجير ام متابع قال بل مجير قال قد اجرنا من أجرت . فأرسل الى النبي عليـه السلام ان ائت مكة وادع الى ربك ومما يرويه الطبري[1] الذي ننقل عنه هـــذا الخبر ان

(١) ج٢ ص ٨٢ ـــ ٨٣

النبي عليه السلام دخل يوماً المسجد بعد ذلك والمشركون عند الكعبة فلما رآه ابو جهل قال هذا نبيكم يا بني عبد مناف فقال عتبة بن ربيعة وما تنكر ان يكون منا نبي او ملك فسمع النبي المحاورة فأتاهم فقال لعتبة اما انت فو الله ما حميت لله ولرسوله ولكن حميت لانفك . واما انت يا ابا جهل فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكي كثيراً . واما انتم يا معشر الملأ من قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وانتم كارهون .

ولقد اخذ النبي عليه السلام بعد ذلك يعرض نفسه على العرب في المواسم ويطلب منهم متابعته ونصرته . وممن عرض نفسه عليهم على ما رواه ابن هشام[1] جماعة من قبيلة كندة وجماعة من بني كلب وجماعة من بني حنيفة وجماعة من بني عامر وجماعة من بني الاشهل من الاوس . وكان ابو لهب يجري وراءه كلما جاء الى منزل من منازل العرب ويحذرهم منه . فكان منهم من يكتفي بالاباء ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً . ومما روي في سياق ذلك ان زعيما من بني عامر بن صعصعة قال لقومه لو اني اخذت هذا الفتى من قريش الاكلت به العرب ثم قال له ارأيت ان تابعناك ثم اظهرك الله على من خالفك أيكون لنا لامر من بعدك فأجابه ان الامر الى الله يضعه حيث يشاء .

اتصال النبي عليه السلام بجماعة من الخزرج وتلاحق الاتصالات بعد ذلك ومبايعة الأوس والخزرج للنبي

•

وفي الموسم السابق للهجرة بسنتين عرض نفسه على نفر من الخزرج من اهل يثرب وكانوا يسمعون من اليهود ان نبياً سيبعث من العرب ويكونون حزباً معه على العرب[3] .

---

(١) ج ٢ ١ ٣ — ٣٣

(٢) هذه النبذة الى آخر الفصل مقتبس مقطعها من ابن هشام ج ٢ ص ٣٨ — ٥٥

(٣) الى هذا اشارت آيات في سورة البقرة وهي تندد باليهود لكفرهم بالنبي والقرآن بغيا وغيظا وهي (وجاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزل من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين ٨٩ — ٩٠) ومعنى يستفتحون يتبجحون ويزهون

فلما سمعوا كلام النبي وآيات القرآن التي تلاها عليهم قالوا لبعضهم انه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه فقبلوا دعوته وصدقوه ثم قالوا له انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك وسنحدثهم فان يجمعهم الله على دينك فلا رجل أعز منك . وكان هؤلاء ستة أشخاص وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة وعوف بن الحرث من بني النجار — وهما من اخوال والد النبي عليه السلام وجده — ورافع بن مالك من بني زريق وقطبة بن عامر من بني سواد وعقبة بن عامر من بني حرام وجابر بن عبد الله من بني عبيد رضي الله عنهم وارضاهم حيث كانوا أول الرعيل الأول من اهل المدينة الذين شرح الله صدرهم للاسلام وحملوا مشعل الهداية وحثوا قومهم على الاستجابة ونجحوا وحيث يثبت بهذا مرة اخرى مافي الدعوة من قوة عناصر الاستجابـــة حينما يسمعها من تجرد من الهوى والمآرب والمكابرة ورغب في الحق والهدى .

ولما قدموا الى المدينة ذكروا لقومهم ما كان ودعوهم الى الاسلام فأخذوا يستجيبون بيسر وسهولة حتى لم يبق دار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

فلما كان العام التالي جاء وفد من المدينـــة مؤلف من اثني عشر رجلا من الأوس والخزرج معاً وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابناء الحرث بن رفاعـــة من بني النجار ورافع بن مالك وذكوان بن عبد قيس من بني زريق وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة من بني عوف والعباس بن عبادة من بني سالم وعطبة بن عامر من بني سلمه وقطبة بن عامر من بني سواد وجميعهم من الخزرج ثم ابو الهيثم مالك بن التيهان وعويم بن ساعده من بني عبـــد الأشهل من الأوس رضي الله عنهم فالتقوا بالنبي عليه السلام بمكان عرف بالعقبة وبايعوه على ان لا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا اولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصوا النبي عليه السلام في معروف[1] ثم تواعدوا للعام المقبل .

وهذا أول عقد سياسي ديني عقد في الاسلام بين النبي عليه السلام وبين وفد يمثل قبيلتي

---

(١) عرفت صيغة هذه البيعة ببيعة النساء لان الله امر النبي تبايعة النساء عليه كما جاء في آية سورة الممتحنة هذه (يا ايها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ١٢) وهكذا ثبت الله هذه الصيغة التي بايع وفد يثرب بها في القرآن .

الخزرج والأوس وأول نصر سياسي ديني سجلته الدعوة الأسلامية ودخلت به في عهد جديد وانفتح لها به باب تحقيق الوعد الذي وعده الله رسوله بالنصر والتأييد .

وقد بعث الرسول عليه السلام معهم مصعبا بن عمير بن هاشم بن عبد مناف[1] ليقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين . وانزله اسعد بن زراره احد زعماء الخزرج من بني النجار في بيته فكان هذا البيت المبارك أول مركز للاسلام في عهده الجديد .

ولا نستبعد ان يكون النبي عليه السلام قد اختار مصعباً لقرابته اللاحمة حتى يكون وكيله ومندوبه اسوة بما خمناه من انتدابه لجعفر بن ابي طالب ليكون مندوبه ووكيله في دار الهجرة الأولى في الحبشة .

والروايات تذكر أن اسعد بن زرارة رضي الله عنه أول من اقام صلاة الجمعة جماعة في يثرب بعد عودته فكان في ذلك صورة اخرى من صور تدشين العهد الجديد .

واخذ مصعب رضي‌الله عنه ينشط في سبيل نشر الاسلام وتعميمه بتأييد اسعد بن زراره. وكان الحظ حليفاً لها في نشاطهافاخذ الاسلام يعم وينتشر بين الأوس والخزرج بسهولة ويسر . ومما كان ذا اثر في ذلك إسلام أسيد بن خضير وسعد بن معاذ زعيمي الأوس رضي الله عنهما الذي رواه ابن هشام في حديث طويل شيق حيث تابعتهما قبيلتهما برمتها تقريباً .

وبيعة العقبة التي ذكرناها قبل عوفت بالعقبة الاولى او الصغرى لانه اعقبها في العام المقبل والاخير من العهد المكي بيعة اخرى عرفت بالكبرى حيث خرج وفد كبير عدته ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان منهم من الأوس ثلاثة عشر والباقون من الخزرج فالتقى بهم النبي عليه السلام حسب الموعد في العقبة . وكان معه عمه العباس الذي كان ما يزال على دين قومه واحب ان يحضر امر ابن اخيه ويتوثق له . فلما جلسوا قال العباس يا معشر الخزرج — والكلمة تشمل الأوس ايضاً على ما اوضحه ابن هشام — إن محمداً منا حيث علمتم وقد منعناه

---

(١) كان مصعب من المهاجرين الاولين الى الحبشة وعاد إلى مكة حينما عاد هؤلاء المرة الاولى على ما شرحناه في نبذة الهجرة إلى الحبشة . والظاهر من هذه الرواية انه بقي في مكة إلى جانب النبي عليه السلام وهو من عشيرته الاقربين ولم يرجع إلى الحبشة ثانية

من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . فهو في عز من قومه ومنعة في بـــلده . وقد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له وما نعوه فأنتم وما تحملتم من ذلك والا فدعوه فانه في عز ومنعة .

فقالوا قد سمعنا فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما احببت . فتكلم وتـــلا القرآن ثم قال ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم .

فأخذ البراء بن معرور رضي الله عنه احد زعماء الخزرج بيده ثم قال نعم يا رسول الله والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله اهل الحروب واهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر . وقام ابو الهيثم فقال يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا . فتبسم رسول الله ثم قال (بل الدم الدم . والهدم الهدم . انا منكم وأنتم منى احارب من حاربتم واسالم من سالمتم) ثم طلب منهم تسمية اثني عشر شخصاً ليكونوا نقباء على قومهم فسموا له تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهم من الخزرج اسعد بن زراره وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحه ورافع بن مالك والبراء بن معرور وعبد الله بن عمر وعباده بن الصامت وسعد بن عباده والمنذر بن عمرو . ومن الأوس اسيـــد بن خضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن المنذر او ابو الهيثم على اختلاف في الرواية رضي الله عنهم فقال لهم رسول الله عليه السلام انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريـــين لعيسى ابن مريم وانا كفيل على قومي ويقصد المؤمنين منهم .

ومما روي في هذا السياق الشائق الخطير ان العباس بن عبـــادة الخزرجي قال يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون الرجل . انكم تبايعونه على حرب الاحمر والأسود فان كنتم ترون انكم اذا نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتل اسلمتموه فمن الآن . فوالله ان فعلتم فهو خزي الدنيا والآخرة . وان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا فانا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف . فمـــا لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا . قال الجنة . فقالوا ابسط يـــدك فبايعوه . فكان ذلك العقد الاسلامي الديني السياسي الثاني الذي وطد الاول على مقياس اوسع والذي وطد العهد الجديد للدعوة الاسلامية بقوة اشد واشمل .

وجاء الى قريش من اخبرها بما جرى فاستشعرت بالجد والخطر وغدت جلتها الى منازل القوم وقالوا لهم انه قد بلغنا انكم جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا . وانـــه والله ما من حي من العرب ابغض الينا ان تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . وظل المسلمون منهم ساكتين .

وانبرى المشركون يحلفون بأنـــه لم يكن من هـــذا شيء . وكلموا فيمن كلموهم عبد الله بن ابي سلول احد زعماء الخزرج ـ الذي صار زعيم المنافقين في العهد المدني ـ فقال لهم ان هذا الامر جسيم وما كان قومي ليتفوقوا عليّ بمثله وما علمته كان . فانصرفوا ولكنهم لم يلبثوا ان تأكدوا الخبر فخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبـــاده والمنذر بن عمرو وكانا من النقباء وتمكنوا من اعتقال الاول وافلت الثاني .

وقد قيدوا يدي سعد واخذوه الى مكة وضربوه ضرباً مبرحاً حتى اشفق عليه احد المكيين فقال له ويحك اما بينك وبين احد من قريش جوار وعهد قـــال بلى كنت اجيراً لجبير بن مطعم وللحارث بن حرب قال فاهتف باسمها ففعل فذهب الرجل اليها وقال ان رجلا من الخزرج يضرب الآن بالأبطح يهتف باسمكما وهو سعد بن عبادة . قالاصدق فيما قال ثم جاءا فخلصاه من ايدي معتقليه .

هجرة المؤمنين الأولين من مكة الى المدينة

●

وأذن رسول الله لأصحابه بالهجرة الى المدينة قائلا لهم ان الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها فأخذوا يخرجون ارسالا حيثما امكنهم ذلك. منهم من كان يخرج مع اهله ومنهم من كان يخرج بمفرده واكثرهم خرجوا مستخفين وقـــد تركوا اهلهم واموالهم مضحين بها في سبيل دينهم وربهم .

وكانوا يلقون عنـــد اخوانهم من الأوس والخزرج الترحيب والعون . والى هذا المشهد الجليل . أشارت آيات سورة الحشر هذه :

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ

فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضواناً ويَنْصُرونَ اللهَ ورَسُولَهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقون . والَّذينَ تَبَوّوُّا لدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِم يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إلَيْهِمْ ولا يَجِدونَ في صُدورِهِمْ حاجَة مِمّا أُوتُوا ويُؤْثِرونَ عَلى أَنْفسِهِمْ ولَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ ومَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئكَ هُمُ المُفْلِحونَ ٨ — ٩) .

وكان هذا المشهد هو المثل الثاني الذي ضربه الرعيل الأول من المؤمنين في الهجرة في سبيل الله ودينهم في ظل الراية الاسلامية . ولكنهم في هـــذه المرة كانوا في طريق العزة والمنعة واعلاء كلمة الله .

استشعار قريش بالخطر وتآمرهم على النبي عليه السلام

وافلاته منهم وهجرته الى المدينة

●

ولقد بقي النبي عليه السلام متربصاً في مكة ليشرف على هجرة أصحابه منتظراً امر ربه للهجرة بدوره في الوقت المناسب . وقد اشتد شعور زعماء قريش بالجد والخطر فأخذوا يتآمرون في أمر منع النبي من الهجرة حتى لا يتفاقم الخطب عليهم ويقعوا فيما حسبوه من خطر . فمنهم من قال احبسوه في الحديد واغلقوا عليه باباً الى أن يموت . ومنهم من قال نخرجه من بين اظهرنا ومنهم من اقترح قتله من قبل جماعة مؤلفة من جميع اسر قريش حتى يتفرق دمه ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً ويرضون بالعقل اي الديـــة واستقر رأيهم اخيراً على هذا . والى هذه المؤامرات أشارت آية سورة الانفال هذه:

(وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَروا لِيُثْبِتُوكَ[1] أوْ يُخْرِجوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ المَاكِرينَ ٣٠)

---

(١) يعني ليحبسوك

ولقد كان زعماء قريش يظنون ان أمر محمد سوف يبقى ضيقاً ضعيقاً نتيجة لموقفهم منه وصدهم عنه وملاحقتهم له بالتكذيب والسخرية والاتهام وملاحقته وملاحقة اصحابه بالأذى والاضطهاد وتأثيرهم على قبائل العرب التي كانت ترى في مكة أم القرى إماماً وأهلها أهله وأدرى الناس به . حتى لقد كانوا يقولون انما هو شاعر نتربص به حتى يموت فيموت أمره معه على ما حكته آية سورة الطور هذه (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ٣٠) بل ولقد رأوا بعد وفاة ابي طالب امارات ظنوها امارات الانهيار حينما يئس منهم فذهب إلى الطائف فعاد منها خائباً ولم يجرأ على دخول مكة إلا بجوار ثم حينما عرض نفسه على القبائل فرفضوه وردوه ، فإذا هم يرونه يقوم بحركة التفاف خطيرة فيتعاقد ويتعاهد مع قبيلتي الأوس والخزرج القويتين ، وقد توقعوا من هذه الحركة العواقب الوخيمة من حيث احتمال نجاح دعوته وانتشارها في العرب وسقوط هيبة مكة وإمامتها وأمنها ومنافعها ونشوب العداء بينهم وبين المدينة وهي على طريق قوافلهم التجارية .

ويلوح لنا من آية الانفال ان السلطات الرسمية في مكة هي التي تولت المؤامرة . فان حبسه لا يمكن أن يكون من غير عشيرته إلاّ من سلطة نافذة . ونرى في عبارة (ليخرجوك) أكثر من إلجاء الى خروج حر حيث روى ابن هشام ان مقترح اخراجه قال (نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلدنا فإذا خرج فلا نبالي أين يذهب ولا حيث يقع ونكون قد فرغنا منه) لأنهم لو كانوا يقصدون هذا لما كان هنالك محل للمؤامرة عليه حتى يحبسوه أو يقتلوه . ولا محل لغضبهم من تعاقده مع الأوس والخزرج ليخرج اليهم هو وأصحابه وعزيمتهم على منعه من ذلك . ونرى انهم أرادوا بالاخراج نفيه الى مكان لهم عليه سلطان يقيم فيه إقامة اجبارية تحت المراقبة .

ولقد انتدبوا الفتيان الذين سينفذون مؤامرة الاغتيال. وصار هؤلاء يترصدون الرسول لاغتنام فرصة سانحة . ثم قرروا اقتحام البيت عليه في ليلة من الليالي وأنبأه الله بذلك فأمر ابن عمه علياً رضي الله عنه الذي احتضنه مذ كان صبياً تخفيفاً عن أبيه [1] وأسكنه عنده بالنوم مكانه والتسجي ببرد اخضر خضرمي كان يتسجى به وخرج في أول عتمة الليل وأعمى الله أبصار المتربصين عنه . وحينما اقتحموا البيت وجدوا النائم في فراشه هو علي وان النبي محمد فلت منهم .

---

(١) انظر الطبري ج ٢ ص ٥٧ ٥٨

وذهب النبي عليه السلام في رواية [1] الى بيت ابي بكر رضي الله عنه فقال له ان الله قد أذن لي في الخروج والهجرة فقال ابو بكر الصحبة يا رسول الله قال نعم . وكان ابو بكر كلما اعتزم ان يهاجر صبره النبي قائلا لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً . فأشرق وجهه وبكى من الفرح ثم قال يا نبي الله هاتان راحلتان كنت اعددتهما لهذا فاستأجرا دليلا وسلماه الراحلتين ثم عمدا الى غار في جبل ثور فدخلاه حتى يعميا على الناس وامر أبو بكر ابنه عبد الله بالتسمع للناس وإتيانهما بالاخبار وامر مولاه وراعي غنمه عامراً بن فهيرة باراحة الغنم إذا امسى نحو الغار حتى يأخذا حاجتهما وامر بنته اسماء بأن تأتيهما بما يصلحهما من الطعام ولبثا في الغار ثلاثة أيام حتى اذا اطمأنا بيأس قريش وانقطاع طلبها لهم ركبا راحلتيهما وسارا على بركة الله . وقد سلك الدليل واسمه عبد الله بن ارقط بهما طريقاً وعرة شاقة وغير مألوفة فكان في ذلك نجاتهما . ومما جاء في سياق ابن هشام الذي نروي عنه ما تقدم ان ابا جهل جاء الى بيت ابي بكر فسأل ابنته عنه فقالت لا أدري فلطمها ثم ارسل من يلتمسهما في شعاب مكة وجبالها . وقد مر بعض هؤلاء بالغار حتى لقد تسلقه احدهم وشعر به ابو بكر رضي الله عنه فارتاع اشد الروع فقال له النبي عليه السلام لا تحزن ان الله معنا . وهذا مما حكاه القرآن في آية سورة التوبة هذه :

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠)

ومما ترويه الروايات [2] ان المتسلق عاد ادراجه وقال لأصحابه لا يمكن ان يكون في الغار احد فقد وجدت العنكبوت معششاً عليه من قبل مولد محمد وهناك حمامتان بائضتان عند مدخله . وليس في هذا شيء خارج عن قدرة الله الذي شاء نجاة رسوله واظهار دينه .

---

(١) هناك رواية اخرى رواها الطبري (ج ٢ ص ٩٩) جاء فيها ان النبي ذهب من داره حينما خرج الى جبل ثور مباشرة ووصى علياً باخبار ابي بكر بذلك ليلحق به .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢١١ - ٢١٤

ومما ذكره ابن هشام [1] ان قريشاً جعلت لمن يرد محمداً مئة ناقة وان شخصاً اسمه سراقة ابن مالك طمع في الجائزة فخرج على فرس له يلتمسه مع صاحبه فأخذت فرسه تتعثر مرة بعد مرة حتى أدرك ان الله مانع رسوله فغير نيته ثم ادرك الركب واعلنهم انه لا يريدبهم شراً وطلب منهم عهداً يحتفظ به فكتب له ابو بكر ما طلب باذن من النبي عليه السلام ولم يلبث المؤمنون في المدينة ان عرفوا بأمر خروج النبي عليه السلام فصاروا يتوكفون قدومه في ظاهر الحرة يومياً الى ان طلع عليهم ركبه في مساء يوم . وكان أول من رآه رجل من اليهود فصاح بأعلى صوته يا بني قيلة [2] هذا جدكم قد جاء . وكان ذلك لثمان خلون من ربيع الاول وقيل كان دخوله يوم الجمعة لاثنتي عشرة من هذا الشهر .

وبهجرة النبي عليه السلام الى المدينة انفتح باب العهد الاسلامي الجديد الذي توطد فيه دين الله توطيداً نهائياً فكانت ابرك احداث التاريخ الاسلامي الأول بعد ليلة القدر التي نبيء فيها النبي ونزل عليه وحي الله بالقرآن .

الكتابيون في العهد المكي وموقفهم من البعثة النبوية

هناك روايات عديدة تحتوي اسماء عدد من الكتابيين كانوا في مكة قبل بعثة النبي عليه السلام وبعدها . وهناك آيات عديدة فيها اشارات الى ذلك .

والمستفاد من هذه وتلك ان الكتابيين في مكة لم يكونوا كتلة كبيرة او متماسكة . فبينما نرى في القرآن المدني فصولا طويلة بين ما كان بين النبي عليه السلام واليهود الذين كانوا كتلة كبيرة من احتكاك وحجاج ولجاج لا نكاد نجد شيئاً من ذلك في القرآن المكي مما قد يكون فيه دلالة على ذلك .

والاسماء التي ذكرتها الروايات اسماء افراد كلهم او جلهم ارقاء . منهم جبرا ويسار الروميين غلامي ابن الحضرمي وكانا يشتغلان بالحدادة وعايش غلام حويطب بن عبد العزى واناسطاس غلام صفوان بن امية وصهيب الرومي الذي كان ذا مال ونجار قبطي وشماس

---

(١) ج ٢ ص ١٠٢–١٠٣

(٢) قيلة احد اجداد الاوس والخزرج القدماء واراد بكلمة جدكم (حظكم)

رومي لم تذكر الروايات اسميهما . وذكرت كذلك اسماء بضعة اشخاص من اصل حبشي جلهم او كلهم ارقاء منهم بلال ووحشي وشقران وانجشه والاسود وام ايمن . وقد سلكنا هؤلاء في السلسلة اجتهاداً منا بأنهم نصارى لأن النصرانية كانت فاشية في الأحباش [1] .

وفي سورة النحل آية تحكي قول الكفار ان رجلا يعلم النبي عليه السلام وترد عليهم بأن هذا الرجل اعجمي اللسان وهي هذه :

(ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُم يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ١٠٣)

حيث تفيد الآية ان من هؤلاء من كانوا حديثي العهد بالقدوم إلى مكة حتى كان بعضهم ما يزال محتفظاً بلكنته او لغته الأعجمية .

وقد لا تكون هذه الاسماء جميع من كان في مكة من الكتابيين . ولكن ظاهر الحال يؤيد ما قلناه من انهم لم يكونوا كتلة كبيرة .

والارجح الذي قد تؤيده الروايات ان اصحاب هذه الاسماء ورفاقهم الذين لم تذكرهم الروايات كانوا نصارى . ولم تذكر الروايات غير اسم عربي واحد كان نصرانيـــاً في زمن بعثة النبي عليه السلام هو ورقة بن نوفل الاسدي ابن عم ام المؤمنين خديجة رضي الله عنها الذي جاء اسمه في حديث عائشة رضي الله عنها عن بدء الوحي وأوردناه في مطلع الفصل الثاني وقد ورد اسمه في سيرة ابن هشام في سياق الاسماء التي صدفت عن الشرك وعبادة الاوثان [2] ثم في سياق ذكر تعذيب بلال رضي الله عنه حيث كان يمر به وهو يعذب ويقول احد احد فيقول احد احد والله يا بلال ثم يقبل على معذبه أمية بن خلف فيقول احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حناناً [3] ونرجح ان ورقة ليس العربي النصراني الوحيد .

وفي سورة الاحقاف آية تفيد انه كان في مكة اسرائيليون ايضاً . وهي هذه :

---

(١) انظر تفسير البيضاوي لآية النحل ١٠٣ وآية الفرقان ٤ وتفسير الخازن وابن كثير والطبرسي ايضاً وانظر ابن هشام ج ١ ص ١٨٢ و١٠٥ — ٢١٠ و ٢٩٦ و ج ٢ ص ٢٣ وابن هشام ج ٣ ص ٧٤ .

(٢) انظر ابن هشام ج ١ ص ٢٣٧

(٣) نفس الجزء ص ٣٤٠ والمقصد من عبارة لاتخذنه حنانا لاجعلن قبره مزاراً للتبرك .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَــنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠) [١] .

والاشارة في الآية الى شخص واحد . ولكن هذا لا يمنع ان يكون الاسرائيليون في مكة اكثر من شخص . ففي المدينة كتلة اسرائيلية كبيرة ونشيطة على ما شرحناه في الجزء السابق . ومن المعقول ان يتسرب منهم متسربون الى مكة للتعامل او الاستقرار . ولقد جاء في سورة الشعراء المكية هذه الآية :

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيل ١٩٦) [٢]

وفي سورة النمل المكية هذه الآية :

(إِنَّ هذا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَــلى بَنِي اسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفونَ ٧٦)

حيث تلهم هذه الآيات صحة ما قلناه . ولكن الاسرائيليين في مكة لم يكونوا على كل حال كتلة كبيرة على ما يفيده ظاهر الأحوال .

والقرآن المكي لم يحتو عنفاً في مخاطبة الكتابيين نصاراهم ويهودهم على السواء . فقـــد احتوى قصة ولادة يحيى وعيسى عليهما السلام بأسلوب غـــير عنيف انطوى على انكار ان يكون عيسى ابن الله وعلى اشارة الى ما كان من خلاف الاحزاب [٣] . واحتوى آيات اخرى فيها حكاية ما كان يدعو اليه عيسى عليه السلام من عبادة الله ومن كونـــه رسول الله ومـــن كون الله ربـــه وربهم . ولا عنف فيهـــا كذلـــك [٤] . واحتوى آيات

(١) بعض الروايات تذكر ان هذه الاية المدنية . وسياقها وفحواها في صدد الحجاج مع كفار مكة مما يجعل تلك الرواية موضع شك وتوقف .

(٢) وهذه الايات تذكرها بعض الروايات انها مدنية . وما قلناه في صدد آية الاحقاف واردهنا بتمامه .

(٣) اقرأ آيات سورة مريم ١ـــ٤٠ (٤) اقرأ آيات سورة الزخرف ٦٣ـــ٦٥

فيها اشارة الى ما كان من الاختلاف وتفرق الكتابيين بدون عنف ايضاً [١] واحتوى قصصاً عديدة ومتكررة مع شيء من الاختلاف في الاسلوب والبيان عن موسى عليه السلام وبني اسرائيل ذكر فيها ما كان من الاسرائيليين القدماء من انحراف وتعجيز بأسلوب غير عنيف كذلك [٢].

ولقد احتوى القرآن المكي الى هذا آيات عديدة انطوى فيها تقرير مواقفهم من الرسالة المحمدية والقرآن وجلها بل كلها ايجابية . منها ما استشهد فيه بأهل الكتاب واهل العلم – الذين يتفق المفسرون على ان المقصود منهم اهل الكتاب ايضا – بأسلوب يفيد ان شهادتهم ستكون ايجابية [٣] . ومنها ما حكى من فرحهم بما انزل الله على النبي عليه السلام [٤] ومنها ما حكى عنهم بأن القرآن منزل من الله بالحق [٥] ومنها ما حكى اتباعهم للنبي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل [٦] ومنها ما احتوى تقريراً بأنهم مؤمنون بالنبي والقرآن وحكاية لاعلانهم ذلك مع عدم مبالاتهم بالكفار الجاهلين الذين كانوا يعيبون عليهم او يسيئون اليهم بسبب ذلك [٧] . ومنها ما احتوى حكاية مشهد رائع من مشاهد خشوع فريق منهم حينما كان القرآن يتلى عليهم وسجودهم وبكائهم [٨] . ومنها آية احتوت خبر ايمان واحد من بني اسرائيل بالنبي والقرآن [٩] .

وهناك آية في سورة العنكبوت التي هي من اواخر السور المكية نزولا جاء فيها :

(وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنا وَإِلٰهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ٤٦)

وهي الوحيدة التي جاءت في هذا الفحوى . ولا يذكر المفسرون في صددها اي رواية او مناسبة وقد تكون هذه الآية من قبيل خطة رسمها الله تعالى للنبي والمسلمين في مخاطبته اهل الكتاب بصورة عامة . وقد تكون احتوت واقعا اي ان يكون هناك فريق منهم

---

(١) اقرأ آيات سورة الشورى ١٢ــ١٥ وآية سورة هود ١١٠ (٢) اقرأ آيات سورة الاعراف ١٣٨ــ١٦٢ وسورة طه ٧٩ــ٩٩ (٣) اقرأ آية سورة الرعد ٤٧ والانعام ٢٠ (٤) انظر آية سورة الرعد ٣٦ (٥) إقرا آية سورة الانعام ١١٤ (٦) إقرا آية سورة الاعراف ١٥٧ (٧) إقرا آيات سورة القصص ٥٢ــ٥٥ (٨) إقرا آيات سورة الاسراء ١٠٧ ــ ١٠٩ وجميع هذه الايات وردت في المناسبات السابقة . (٩) إقرا آية سورة الاحقاف ١٠

امتنع عن الاندماج في الاسلام وكان يجادل ويحاجج . وإذا صح هذا فانه يكون بتأثير زعماء مكة الذين كانوا يبذلون كل جهد في الصد والمناوأة والتعطيل والتأليب . ولا يبعد ان يكون هذا الفريق ممن كان ملك يمين بعض الزعماء . على انه جاء في الآية التالية لآية هذه الآية :

(وكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ٱلْكِتابَ فَٱلَّذِينَ آتَيْناهُمُ ٱلْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلّا ٱلْكافِرُونَ ٤٧)

حيث احتوت تقريراً بأن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون بالقرآن . وقد تؤيد هذه الآية ما ذهبنا اليه من احتمال ان تكون الآية الاولى خطة ربانية للنبي ﷺ والمسلمين . وفيها كل الحق والعدل . وقد تأيد هذا في آيات أخرى جاءت مطلقة لتكون خطة تجاه الناس جميعهم منها آيات سورة النحل هذه :

(أُدْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ • وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضِيقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ • إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ١٣٤ ــ ١٣٨)

والمتبادر ان جملة (وإن عاقبتم بمثل ما عوقبتم به)تعني انكم إذا أردتم ان تقابلوا الجدال الشديد فلا تخرجوا عن نطاق ما فعله الذين تتجادلون معهم . والصبر مع ذلك خير وأحسن عاقبة ونتيجة [1] .

(١) روى بعض المفسرين ان الايات الثلاث الاخيرة مدنية نزلت بمناسبة يمين حلفها النبي عليه السلام بأن يقتل ثلاثين في ثأر حمزة عمه رضي الله عنه الذي استشهد في احد (انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير مثلا) والايات منسجمة مع الاية السابقة لها وتكاد تكون تعقيبا عليها ونتيجة لها . ولذلك نحن نتوقف في صحة الرواية ونرجح انها بقية الخطة الربانية ولعل فحوى الايتين الاخيرتين يؤيد ما ذهبنا اليه اذا ما امعن فيه .

وواضح من كل ذلك ان جل الكتابيين في مكة إن لم يكن كلهم قد آمنوا بالنبي عليه السلام والقرآن وأيدوهما ونصروهما واندمجوا في المجتمع الاسلامي الجديد . وفي ذلك دلالة حاسمة على ان الكتابيين الذين يتجردون من احقادهم ومطامعهم ومآربهم وشهواتهم ومكابرتهم يرون في الدعوة الاسلامية الحلول التي تنقذهم من مشاكلهم وعقدهم فينضوون إليها بطيبة خاطر . وهو ما وقع وما يزال يقع في كل ظرف ومكان على ما شرحناه في التمهيد .

تعليل لكثرة الآيات المكية في تثبيت النبي عليه السلام وتسليته

هذا وقبل ان ننتقل إلى الفصل الثالث المعقود على سيرة النبي عليه السلام بعد الهجرة إلى المدينة نريد ان ننبه الى مسألة هامة . ففي السور المكية آيات لا تكاد تحصى [1] فيها تثبيت للنبي وتطمين وتسلية وتهوين وأوامر بالصبر والصفح والانتظار وتنبيه إلى انـــه ليس جباراً للناس ولا مسيطراً عليهم ولا مسؤولا ووكيلا عنهم وليس مطلوباً منه هدايتهم وليس عليه إلا التبشير والانذار وتلاوة القرآن وتبيان ما انطوى فيه من مبادىء وهدى ورحمة للعالمين .

وفي اعتقادنا ان ذلك لا يعني ان النبي عليه السلام كان مضطرب النفس جزوعـــاً قلقاً متردداً . فقد احتوى القرآن من الآيات واحتوت كتب الحديث والسيرة من الاحاديث والروايات ما فيه أقوى البراهين على ما كان عليه النبي من عظم الخلق وعمق الايمان وقوة الجنان والجرأة والثبات امام الخطوب والنوازل والاستغراق في مهمته ورسالته استغراقاً تاماً والفناء في ربه فناءً كاملا . وكل ما هنالك ان الذين آمنوا به في العهد المكي كانوا وظلوا قلة ضئيلة مستضعفة وكان هذا يحزنه اشد الحزن لأنه كان شديد الحرص على هدايـــة قومه وانتشار دعوته واحداث ما انطوت عليه من خطط اصلاحية عظيمة في مختلف أمور الدين والدنيا فاقتضت الحكمة الربانية موالاتـــه بمثل تلك الآيات لتبث فيه القوة والصبر على المواقف العصبية المستمرة التي كانت تتمثل في وقوف الاكثرية الساحقة من العرب موقف الجحود والتصامم متابعة الزعماء وفي شدة لجاج وعناد هؤلاء الزعماء .

---

(١) لم نر ايراد امثلة على ذلك فانها مبثوثة في كثير من السور حتى لا تكاد سورة طويلة او متوسطة او قصيرة إلا احتوت شيئا من ذلك بأسلوب ما .

الفصل الثالث

السيرة النبوية في العهد المدني

الفصل الثالث

السيرة النبوية في العهد المدني

●

لقد امتد هذا العهد نحو عشر سنين جرى خلالها احداث متنوعة وكمل فيها نزول القرآن وتشريعاته ولم تنته حتى كان دين الله عاماً في جزيرة العرب ومسموع الصوت والأثر والدعوة في أطرافها والأقطار المجاورة لهـــا . وتوطدت تحت لواء النبي عليه السلام الدولة العربية الاسلامية والمجتمع العربي الاسلامي الجديد .

وكان تخلف عن النبي عليه السلام بعض المؤمنين في مكة فأخذوا يلحقون به ولم يتخلف إلا محبوس أو منتون [1] .

ولقد نزل أول قدومه في ضاحية قباء يومين ثم ارتحل إلى المدينة فبركت ناقته في محلة لبني النجار من الخزرج ــ وهم أخوال أبيه ــ فأخذ ابو ايوب خالد بن يزيد احدهم رحله الى بيته فكان نزيله ريثما أنشأ مسجده ومسكنه [2] .

مسجد النبي عليه السلام ومساكنه

●

ولقد اعجبته ارض ليتيمين كانت مربداً فيها بعض القبور الجاهلية وبضع نخلات وخرب فاشتراها بعشرة دنانير وأخرج رفات الموتى وسوى الأرض وأحاطها بجـــدار من لبن على أساس من الحجارة . وكان الجدار مربع الاضلاع ضلعه نحو مئة ذراع . وقد جعل له ثلاثة أبواب وسقف قسما منه بالجريد وبنى في جانب منه حجرات من لبن سقفت بجذوع من النخل والجريد اتخذها مسكناً له ولزوجاته وكان يزيد فيها كلما تزوج زوجة جديدة . وجعل قسما من الفناء لسكنى الفقراء الذين لا يملكون مساكن في المدينة . وقـــد تعاون الأنصار والمهاجرون على البناء حتى تم [3] .

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١١٦ (٢) نفس المصدر ١١٦ (٣) ابن هشام ١١٣ ــ ١١٥

وهكذا كان هذا البناء مسكناً له ومسجداً له ولاصحابه ومأوى للفقراء ومكاناً لاجتماعه باصحابه وعقد المجالس معهم للوعظ والارشاد والتعليم والمشاورة والقضاء والفتيا ولاستقبال الوافدين عليه سياسيين كانوا أم دينيين وعقد مجالس المناظرة والمفاوضة معهم وعقد المعاهدات الخ مما يمكن أن يعطي للمرء فكرة عما كان وعن ما ينبغي ان يكون عليه المسجد في الاسلام ومما نسج على منواله قليلا أو كثيراً في كل وقت ومكان بقطع النظر عما دخل عليه من ضخامة وفخامة ورواء وزخارف ومظاهر من الداخل والخارج اقتباساً من الغير واتساقاً مع تطور السلطان الاسلامي والحياة الاسلامية التي تفاعلت مع غيرها .

الأذان [١]

●

واحتاج المسلمون الى النداء الى الصلاة التي كانوا يؤدونها جماعة وراء رسول الله ﷺ في المسجد فألهمهم الله صيغة الأذان يهتف بها صوت جهوري من محل مرتفع فيكبر الله ويعلن أنه الاكبر من كل شيء ويشهد برسالة محمد ويدعو المسلمين إلى الصلاة والفلاح فكانت طريقة فذة في مداها ومعناها وأدائها .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

●

وكان من أول ما فعله في مجال توطيد المجتمع الجديد مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار على الحق والمواساة فدشن بذلك أساس مجتمع يقوم على عقيدة وحدة الله ونبذ ما سواه ثم على اكرم المبادىء الاجتماعية والخلقية والسلوكية وأفضلها دون العصبية القبلية التي كان يقوم عليها المجتمع وتقاليدها [٢] .

ومما رواه ابن سعد [٣] دون ابن هشام في سياق ذلك ان المؤاخاة التي كانت تتم بين

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٨-١٣٠

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٣

(٣) ج ٢ ص٣

رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار كانت توجب التوارث بين المتآخين إلى أن نسخ ذلك بآية سورة الأنفال هذه (والذين آمنوا من بعدها وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ٧٥) وسورة الانفال نزلت عقب وقعة بدر . فاذا صحت الرواية فيكون حكم الوراثة بين المتآخين استمر نحو سنة ونصف سنة . ومما ذكره ابن سعد أن عدد الذين آخى النبي عليه السلام بينهم تسعون نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الانصار وفي رواية أنهم كانوا مئة من المهاجرين وخمسين من الأنصار مع ان عدد المهاجرين والانصار في أول ايام الهجرة كانوا اكثر من ذلك حتماً . وقد سمى ابن هشام[1] الذين آخى النبي بينهم ثم قال هؤلاء الذين سموا لنا ممن آخى رسول الله بينهم من أصحابه . ومما رواه ابن هشام ان النبي أخذ بيد علي بن ابي طالب فقال هذا اخي[2] وروى هذا الخبر الطبراني في حديث وصف بعض رواته بالغدمق[3] ويبدو الخبر غريباً لأن المؤاخاة كانت لتوطيد الصلة الأخوية بين المهاجرين والانصار . ونخشى ان يكون من غرائب روايات او مصنوعات الشيعة مع اجلالنا لعلي ابن ابي طالب رضي الله عنه

كتاب الموادعة او دستور المجتمع الجديد

ثم كتب النبي عليه السلام كتابا سماه ابن هشام بكتاب الموادعة بين المهاجرين والانصار واليهود[4] مع انه احتوى احكاماً وشروطا بالنسبة للمشركين والكفار في يثرب يستفاد من فحواها انهم كانوا من جملة من شملهم الكتاب الذي يدل نصه على ان الاسلام كان هو الدين العام المتفوق في المدينة وان النبي لم يكد يحل فيها حتى صار هو المرجع وصاحب الحكم والسلطان على جميع من فيها يحدد واجباتهم وحقوقهم ويضع كلا منهم في موضعه من الدولة الجديدة الاسلامية التي قام على رأسها . والكتاب بذلك أولى ان يسمى دستور هذه الدولة.

فبموجب هذا الدستور اي نصوص الكتاب :

---

(١) ج ٢ ص ١٢٦

(٢) ١٢٤

(٣) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١١١–١١٢

(٤) ابن هشام ج ٢ ص ١١٩–١٢٣

١ – النبي عليه السلام هو مرجع الناس وما اختلفوا فيه من شيء فمرده الى الله ورسوله والله ورسوله جار لمن بر واتقى .

٢ – المؤمنون المهاجرون والانصار معا جماعة واحدة على من بغى منهم أو ابتغى ظلما أو اثما أو عدوانا او فساداً . يدهم عليه واحدة ولو كان ولد أحدهم . وبعضهم موالي بعض دون الناس . ذمتهم واحدة . وسلمهم واحد . يجير عليهم أدناهم . وبعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . واذا اختلفوا في شيء فمرده الى الله ورسوله .

٣ – المهاجرون يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم . وكل بطن من بطون الاوس والخزرج يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط .

٤ – لليهود التابعين للمؤمنين النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم . ومواليهم وبطانتهم كأنفسهم في ذلك . لهم دينهم وللمسلمين دينهم الا من ظلم وأثم وفتك فتبعة ذلك عليه وعلى اهل بيته ، وعليهم النصر مع المؤمنين على من حاربهم ، ويتفقون مع المؤمنين في الحرب . وعليهم النصح والنصيحة والبر دون إثم . ولا يخرج أحد منهم الا بإذن محمد .

٥ – ليس لمشرك في المدينة أن يجير مالا لقريش ولا يحول دونه على مؤمن . ومن قتل مؤمناً فعليه القود (القصاص) الا أن يرضى ولي المقتول . ولا يقتل مؤمن مؤمنا بكافر . ولا ينصر مؤمن كافراً على مؤمن .

٦ – يثرب حرام جوفها على اهل هذه الصحيفة . والجار كالنفس غير مضار ولا آثم . ولا تجار حرمة الا باذن أهلها . وما كان بين اهل هذه الصحيفة من حرب او اشتجار يخاف فساده فمرده الى الله والى محمد . ولا تجار قريش ولا من نصرها . وبين اهل الصحيفة النصر على من دهم يثرب . واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فعليهم أن يفعلوا . وعلى المؤمنين ان يتقيدوا به الا ازاء من حاربهم في الدين . ومن خرج فهو آمن ومن قعد فهو آمن إلا من ظلم وأثم . وان الله ورسوله جار لمن بر واتقى .

والمتبادر أن الدولة الجديدة قد اتسعت للمؤمنين والكتابيين والمشركين على السواء . وان النبي عليه السلام اعتبرهم رعايا دولته فعين لهم حقوقهم وواجباتهم في نطاق الحق وعدم الظلم والاثم . وقد أنس غير المؤمنين الى ذلك وارتضوه . وهذا الوضع النموذجي الرائع قد استمر في ظل السلطان الاسلامي دائماً .

وليس في نص الكتاب اشارة ما الى النصارى مع أن هناك رواية [1] تذكر أنه كان جماعة من النصارى يسكنون في مكان يقال له سوق النبط في يثرب وان بيتا من مرثية رثى فيها حسان بن ثابت رضي الله عنه النبي عليه السلام ذكر وجودهم وهذا نصه :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد

والمتبادر أن دستور الدولة الجديد قد شمل من كان في يثرب من النصارى وان عدم ذكرهم في كتاب الموادعة دون اليهود آت من انهم لم يكونوا مثل هؤلاء كتلة كثيفة تشغل حيزاً واسعا في يثرب اجتماعيا ودينيا وثقافيا واقتصاديا .

حركة المعارضة او النفاق

●

من اهم احداث هذا العهد وحركاته ما عرف بحركة النفاق والمنافقين . وقد ظهرت مبكرة جداً بل مع بداية العهد النبوي ثم استمرت الى نهايته .

ومع ان هناك بعض آيات مكية احتوت بعض صور من صور المنافقين وهي آية سورة العنكبوت (١٠) وآيات سورة الحج (١١ – ١٣) التي اوردناها في بحث الفتنة والاذى في الفصل السابق فان هذه الصور – ان صحت مكية الآيات على ما نرجحه – كانت مظهراً من مظاهر محنة الأذى والاضطهاد واثراً من آثارها على ما شرحناه في المبحث المذكور بحيث يصح القول ان حركة النفاق والمنافقين كانت من حركات العهد المدني المميزة .

وعلة ظهور هذه الحركة في المدينة واضحة . فالنبي عليه السلام والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم او ترجو خيرهم فتتملقهم وتتزلف اليهم وتتظاهر انها منهم وعلى دينهم وتكون في الوقت نفسه غير مؤمنة ولا مخلصة وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء كما كان شأن المنافقين في المدينة . ولقد كان اهل مكة وزعماؤهم بخاصة يناوئون النبي جهاراً ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالاذى والاضطهاد ويقاومون الدعوة بكل وسيلة ودون اي تحرز او تحفظ . وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون الى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم الى الحبشة اولا ثم الى يثرب ومعهم النبي ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والاكراه او بالاغراء والتهويش ، وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الاذى

---

(١) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ٦ ص ١٩٩ وبعدها

ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب كما مر تفصيله في الفصل السابق .

اما في المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جداً . فالنبي عليه السلام استطاع قبل الهجرة اليها ان يكسب انصاراً اقوياء من الخزرج والاوس. ولم يهاجر إلا بعد ان استوثق من موقفه ولم يبق بيت عربي فيها لم يدخله الاسلام [1] ولم يكد يحل فيها حتى صار نتيجة لذلك صاحب الحكم والمرجع لكل من فيها من مؤمنين وغير مؤمنين . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين ان يقف الذين لم يؤمنوا به اما عن جهل وغباء واما عن غيظ وحقد وعناد موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمؤمنين من المهاجرين والانصار . وكان للعصبية في الوقت نفسه اثر غير يسير في عدم الوقوف هذا الموقف . لأن سواد الخزرج والاوس ومعظم زعمائهم اصبحوا انصار النبي عليه السلام مرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر وغدوا يرون فيه رسول الله وقائدهم الاعلى الواجب الطاعة ومرشدهم الاعظم الواجب الاتباع . فلم يكن بسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ويتحكم فيهم مرض القلب والحقد ويحملهم على مناوأة النبي ودعوته ونفوذه ان يظهروا نزعتهم وعداءهم وحقدهم علناً . ولم يكن امامهم الا التظاهر بالاسلام والشهادة بالله وحده ورسالة محمد نبيه والقيام باركان الاسلام من صلاة وزكاة والخروج للجهاد والتضامن مع قبائلهم وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم باسلوب المراوغة والمواربة والخداع والتمويه .

ولقد وقفوا احيانا مواقف علنية فيها كيد ودس وعليها طابع النفاق بارز غير ان هذا كان منهم في بعض الظروف والازمات الحادةالتي كانت تحدق بالنبي والمؤمنين والتي كانوا يتخذونهاحجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط على ماسوف ياتي شرحه وصوره بعد

ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر وبالنفاق . غير ان نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي ونبهاء اصحابه من المهاجرين والانصار كما ان تلك المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الازمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقتا . وقد كانت الآيات القرآنية تفضحهم المرة بعد المرة وتدل عليهم بما يفعلون او يمكرون وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكائدهم وتحذر النبي عليه السلام والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

ولقد كانت مواقف المنافقين ومكائدهم بعيدة المدى والاثر على ما تلهمه الآيات

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٦

والفصول المدنية حتى لكأنه نضال قوي يذكر بما كان من نضال بين النبي عليه السلام وزعماء مكة احيانا وان اختلفت الادوار والنتائج . اذ ان النبي لم يلبث ان توطد مركزه وازدادت قوته وصار صاحب سلطان نافذ وجانب عزيز ولم تلبث دائرة الاسلام ان اتسعت وإذ لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة . وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسبا عكسيا مع ما كان من تزايد قوة النبي عليه السلام واتساع دائرة الاسلام وتوطد عزته وسلطانه .

ويكفيك لأجل ان تشعر بخطورة الدور الذي لعبه المنافقون وبخاصة في اوائل العهد ان تلاحظ انهم كانوا اقوياء نسبيا بعصبياتهم التي كانت ما تزال قوية الاثر في نفوس سواد قبائلهم والتي لم تضعف إلا بعد جهد وتنبيه وانذار متوال مـــن القرآن والنبي كما انهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، وان تلاحظ كذلك ان النبي عليه السلام مع اصحابه ودعوته كان محوطا بالمشركين الجاحدين من كل جانب وان اهل مكة خصومه الألداءوهم قبلة جزيرة العرب كانوا وظلوا يتربصون به الدوائر ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ، وان يهود المدينة ومن حولها قد تنكروا له ولدعوته منذ عهدمبكر وتطيروا بهما ثم جاهروا بالكفر والعداء والمكر والكيد ولم يلبث ان انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى والتضامن في موقف المعارضة والكيد على ما سوف نزيـــده شرحا بعد حتى ليمكن ان يقال ان المنافقين لم يقووا ويثبتوا ولم يكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد ان مكن الله للنبي من اليهود واظهره عليهم وكفاه شرهم .

والآيات التي تتضمن اوصاف واخبار ومواقف المنافقين والتي فيها حملات عليهم بسبب ذلك كثيرة جداً حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها وبخاصة السور الطويلة والمتوسطة . وهذا يؤيد ما قلناه من ان هذه الحركة ظلت مستمرة طيلة العهد المدني وان كانت اخذت تضعف مـــن بعد نصفه الاول . وفي روايات السيرة شيء من ذلك فيـــه اسماء وازمنة وامكنة .

والروايات تكاد تكون مجمعة على ان قائد لواء النفاق ومتزعم حركته هو عبد الله بن ابي سلول احد زعماء بني عوف احد بطون الخزرج الاقوياء وقد روى ابن هشام عـــن ابن

اسحق ان اسيدا بن خضير رضي الله عنه زعيم الاوس قال للنبي عليه السلام في موقف من المواقف ارفق به فقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه وانه ليرى انك قد استلبته ملكاً [1] . والراجح ان زعامته ضمنت لحركته شيئاً من العصبية والقوة فاستطاع ان يجمع حوله بعض أفراد من عشيرته وغيرهم من المتشككين أو الحاقدين أو مرضى القلوب وان اليهود قد رأوا في حركته وقوته ما جعلهم يعقدون معه حلفاً ضد النبي ودعوتـه فازدادت حركته قوة ونشاطاً .

ولقد كان المنافقون في بدء أمرهم يتظاهرون بالقوة والاعتداد والترفع والحصافة مع المواربة والمخادعة . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً . لأن حالتهم لم تكن خافية . وقد والى القرآن حملاته عليهم ووصف حالتهم فانكشفوا وانفضحوا .

ومن أول وأبكر ما نزل من القرآن المدني فيهم ويؤيد ما قلناه من أن حركة النفاق قد بدأت منذ بدء العهد المدني آيات سورة البقرة هذه التي يكاد يتفق المفسرون على أنها أولى الآيات نزولا في المدينة :

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ

---

(١) ج ٣ ص ٣٣٥ — ٣٣٦

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين ٨ ــ ١٦)

وقد احتوت الآيات وصفاً قوياً شاملا للمنافقين وافكارهم واعتدادهم وخداعهم وإن لم تحتو كلمة (المنافقين) . وتلهم ان الموصوفين من الزعماء البارزين الذين تدفعهم عنجهيتهم الى الترفع عن سواد الناس والاعتداد بأنفسهم وعقولهم والذين كانوا يرون في التفاني في النبي عليه السلام ودعوته غلواً بل سفهاً . والراجح ان ما حكته الآيات من اقوالهم قد صدر منهم لأناس من ذوي طبقتهم او من ذوي رحمهم من المؤمنين . ولكن ايمان المؤمنين كان أقوى من العصبية ففضحوهم . وجمهور المفسرين على ان تعبير (شياطينهم) يعني اليهود الذين وقفوا بدورهم موقف المناوأة ضد النبي ودعوته منذ عهد مبكر وانعقد بينهم وبين المنافقين تحالف وتضامن كما قلنا .

وتعبير (في قلوبهم مرض) في الآيات يعني النفاق لأنه ناشيء عن خبث سرائرهم وسوء نواياهم .

ولقد تكرر هذا التعبير في آيات عديدة في معرض وصف المنافقين . كبديل عن كلمة النفاق والمنافقين . غير انه ورد في سورة الاحزاب آية جمعت هذا التعبير والمنافقين وفئة اخرى وهي المرجفون معاً وهي :

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمنافِقونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والمُرْجِفُونَ في المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إلّا قَليلاً . مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلوا تَقْتِيلاً ٦٠ ــ ٦١)

واللعنة والانذار شاملان بقوة واحدة للفئات الثلاث المذكورة في الآية . غير ان ذكرها في آية واحدة قد يسوغ القول ان بينها بعض الفروق حيث كان منهم من هو كافر كل الكفر عدو كل العداوة ماكر كل المكر ومنهم من هو ميال مع منفعته راغب بنفسه عما يضمنه اخطاراً ومجازفات ومشاكل مشكك في صدق رسالة النبي متردد في طاعته طاعة تامة ينجر الى الفريق الاول او يقع في شباكه فاعتبره القرآن بحق في حكم الأول ورتب عليه ما استحقه الاول من انذار وعقاب في الدنيا والآخرة .

وفي سورة البقرة أيضا آيات اخرى فيها وصف قوي للمنافقين وان لم يرد فيها اسم النفاق والمنافقين وهي :

(ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الحَياةِ الدُّنيا ويُشهِدُ اللهَ على ما في قَلْبِهِ وَهوَ أَلَدُّ الخِصامِ . وَإِذا تَوَلَّى سَعَى في الأرْضِ لِيُفسِدَ فِيها ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ . وإذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخذَتْهُ العِزَّةُ بِالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ولَبِئْسَ المِهادُ ٢٠٤ ــ ٢٠٦)

وفيها صورة قوية الملامح لفريق من الناس يستثيرون الاعجاب بأقوالهم المنمقة وأيمانهم المغلظة ولكنهم لا يتورعون عن افظع الآثام ثم يغضبون اذا ما عوتبوا وطولبوا بتقوى الله وخوفه بما يقترفونه ويعتبرون ذلك اهانة لكرامتهم ووسيلة للايغال في الشر والفساد والفتنة. والصورة وإن كانت مطلقة للتعبير عن فئة من الناس قد توجد في كل زمن ومكان لأنها متصلة. بطبائع البشر المختلفة. واحتوت بهذا الاعتبار تلقينا بوجوب الحذر من هذه الفئة وعدم الانخداع بها فإنهــا فيما نعتقد نزلت في أناس كانوا يتظاهرون بالاسلام ويبطنون الكفر رغبة في النفع وتفاديا للضرر وكانوا يعمدون الى تنميق الكلام مع انهم شديدو العداء لله ورسوله . ولا يتورعون عن الاثم والفساد .

وقد روي [1] انها نزلت في الاخنس بن شريق الثقفي الذي كان يظهر الاسلام ويبطن الكفر كما روي [2] انها نزلت في فريق من المنافقين أظهروا شماتتهم باستشهاد بعض المجاهدين في الوقعة التي عرفت باسم الرجيــع وعابوهم .

ويتبادر لنا ان الصورة في الآيات اقوى من الروايات في صدد الفريق الذي اخذ يقف في وجه النبي ودعوته في العهد المدني من المعارضين المنافقين وما كانوا عليه من اعتداد وجرأة على الاثم والعدوان .

وفي سورة الأنفال التي يجيء ترتيب نزولها بعد سورة البقرة والتي نزلت عقب واقعة بدر الكبرى هذه الآيات :

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا أَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وأَنْتُمْ

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير الكشاف للزمخشري

(٢) انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير

تَسْمَعُونَ . وَلا تَكونوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وهُمْ لا يَسْمَعون . إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُون . ولَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ ولَوْ أسْمَعَهُمْ لَتَولَّوْا وهُمْ مُعْرِضُون ٣٠-٣١)

حيث احتوت الآيات تحذيراً للمخلصين من المؤمنين من ان يكونوا كالفريق الذي لا يسمع ولا يطيع . والمقصود من ذلك هو الفريق المنافق على الأرجح . وفحوى الآية يدل على ان المنافقين ما زالوا يعتدون بأنفسهم ولا يرعوون عن الوقوف موقف اللامبالي من النبي واوامره .

وفي نفس السورة هذه الآية أيضا :

(إذْ يَقولُ الْمُنافِقُونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ ومَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فَإنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٨ — ٤٩)

والآية جاءت بعد سرد قصة ما كان من وقعة بدر التي كان النصر فيها للمسلمين . ويظهر ان المنافقين شعروا بخيبة امل من نصر المؤمنين ورأوا ما كان من اعتزاز هؤلاء بما نالوه من نصر فتجلدوا وقالوا ما قالوه . وفي ما قالوه تعريض بالمؤمنين الذين أقدموا على الخطر اعتزازاً بدينهم في الوقت نفسه . ولم يخرج المنافقون مع المؤمنين الى بدر لأن النبي عليه السلام ندب للخروج من رغب فيه فخرج المخلصون من المهاجرين والأنصار فحسب

وبعد سورة الأنفال يجيء في ترتيب النزول سورة آل عمران التي نزل شطر كبير منها في صدد واقعة احد . وقد احتوت آيات عديدة تدل على ان المنافقين وقفوا في ظروف هذه الواقعة مواقف مؤذية عديدة قولا وفعلا .

فقد استشار النبي عليه السلام اصحابه حينما جاء جيش قريش الى غزو المدينة انتقاما لواقعة بدر فأشار فريق عليه بالبقاء في المدينة واتخاذ موقف الدفاع واشار فريق بالخروج لئلا يظن القرشيون فيهم ضعفا وخوفا وغلب رأي الفريق الثاني فأخذ النبي به . وكان رأي عبد الله بن ابي وغيره من المنافقين مع الفريق الاول . وخرج النبي عليه السلام على رأس المؤمنين وانضم اليهم المنافقون . غير ان هؤلاء لم يلبثوا ان انخذلوا ورجعوا بتحريض ابن ابي الذي قال اطاعهم وعصاني . وكانوا نحو ثلث الخارجين الذين بلغ عددهم نحو الف . وقد

عوتب على تراجعه فقال لو نعلم انه سيكون قتال لاتبعناكم [1] . وفي هـــذا تقول آيات في سورة آل عمران :

(وَمَا أَصابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقى ٱلْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنين . وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نافَقُوا وقِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قَاتِلوا في سَبِيلِ اللهِ أَوْ ادْفَعوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمانِ يَقولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ واللهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمونَ ١٦٦-١٦٧)

ونسبة الثلث للمنافقين من الخارجين تدل على ما كانوا عليه من قوة وعدد في مبادىء العهد المدني . وإن كان من المحتمل ان يكون من الراجعين مـــن انساق بعصبيته القبلية أكثر من نفاقه .

ولقد انتصر المؤمنون في الجولة الاولى مـــن معركة أحد ثم دارت الدائرة عليهم في الجولة الثانية على ماسوف نفصله بعد . فأخذ المنافقون يظهرون شماتتهم ويقولون انهم لو اطاعونا ما قتلوا فحكت آية جاءت بعد الآيات السابقة قولهم :

(ٱلَّذِينَ قَالُوا لإِخْوانِهِمْ وقَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا مَا قُتِلوا قُلْ فَادْرَأُوا عنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين ١٦٨)

ويظهر ان هذا كان ديدنهم في الأحداث الجهادية التي حدثت قبل وقعة أحد ايضا على ما تفيده آية في سورة آل عمران وهي :

(يا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنوا لا تَكونُوا كالَّذِينَ كَفَرُوا وَقالُوا لإِخْوانِهِم إِذا ضَرَبُوا في الأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا ومَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذلِكَ حَسْرَةً في قُلوبِهِمْ واللهُ يُحْيي ويُميتُ واللهُ بِما تَعْمَلُون بَصيرٌ ١٥٦)

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٣ - ٨

ويجيء بعد سورة آل عمران في ترتيب النزول سورة الاحزاب وفيها سلسلة آيات تحكي موقف المنافقين في ظروف غزو قريش واحزابها للمدينة مما عرف بواقعة الخندق. وكل ما قاله ابن هشام وابن سعد [1] عن هذا الموقف (ظهر النفاق) ولكن الايات تعطي صورة قوية خطيرة له إذا ما أمعن فيها [2] فلقد اشتد اضطراب المسلمين لقدومهم لأنهم قدموا

---

(١) انظر تفصيل وقعة الخندق في ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٨-٢٥٢ وابن سعد ج ٣ ص ١٠٩-١١٦

(٢) هذه هي الآيات.

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وكانَ اللهُ بِما تَعْمَلونَ بَصِيراً . إِذْ جاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وإِذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وبَلَغَتْ القُلوبُ الحَناجِرَ وتَظُنونَ بِاللهِ الظُّنُونا . هُنالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وزُلْزِلوا زِلْزالاً شَديداً . وإِذْ يَقولُ المُنافِقونَ والَّذِينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ ما وعَدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلّا غُرُوراً . وإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعوا ويَسْتَأْذِنُ فَريقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلّا فِراراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلوا الفِتْنَةَ لأَتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلّا يَسِيراً . ولَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبارَ وكانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولا . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ وإِذاً لا تُمَتَّعونَ إِلّا قَليلاً . قُلْ مَنْ ذا الَّذي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرادَ بِكُم سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولا نَصيراً . قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ والقائِلِينَ لإِخوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ البَأْسَ إِلّا

بعدد كبير بقصد استئصال شأفة النبي والمسلمين . وكان يهود المدينة قــد ذهبوا الى مكة وحرضوا زعماءها وتحالفوا معهم على ذلك على ماذكرته روايات السيرة وأيدته بعض الايات [١] فصار المسلمون بين نارين فما كان من المنافقين ومرضى القلوب إلا ان اخذوا يقولون بكل قحة وجرأة ان الله ورسوله قد غرروا بالناس وخدعوهم بوعودهم كما انهم اخذوا يثبطون من عزيمة المسلمين ويحرضونهم على الانصراف الى بيوتهم ويقولون كذبا ان بيوتنا عورة اي هدف مكشوف للخطر . وهذا في حين انهم بعد وقعة أحد جاؤوا الى النبي وتعهدوا له بأن لا يخذلوه ويفروا من الجهاد مرة اخرى . وكل هذا مما احتوت الايات اشارة اليه . وقــد وصفت احدى الايات زيف ما يتظاهرون به من ايمان بحيث ان الكفار لو استولوا على المدينة وطلبوا منهم الارتداد لارتدوا حالا بدون تردد . وقد وصفتهم الايات وصفا طريفا قويا في حالتي الامن والخطر . ففي الحالة الثانية يستولي عليهم الخوف والفزع الشديدان فإذا مازال الخطر طالت ألسنتهم ضد المسلمين . وهم على كل حال اشحاء على المسلمين وعلى كل دعوة الى الخير ...

ومع ان الظروف هي التي جعلت المنافقين يقفون موقفهم الذي وصفته الايات فالمتبادر انهم لم يكونوا يقفونه لو لم يكونوا يشعرون بشيء من القوة والعصبية أيضا . ولقد نكل النبي باليهود بعد ارتداد الاحزاب عن المدينة على ما سوف نشرحه بعد ولم يفعل بالمنافقين شيئا . بل وجعل الله امرهم إليه ان شاء تاب عليهم وان شاء عذبهم على ما جاء في آية بعد تلك السلسلة وهي هذه :

قَليلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإذا جاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإذا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلى الْخَيْرِ أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وكانَ ذٰلِكَ عَلى اللهِ يَسيراً . يَحْسَبونَ ٱلْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبوا وإِنْ يَأْتِ ٱلْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ في الْأَعْرابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ مَا قاتَلوا إِلّا قَليلاً ٩ — ٢٠)

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ — ٢٣٠

(لِيَجْزِيَ ٱللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعَذِّبَ ٱلْمنافِقِينَ إنْ شاءَ أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وكانَ ٱللهُ غفوراً رَحِيماً ٢٤)

وفي سورة الاحزاب آيات أخرى في حق المنافقين منها هذه الايات :

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمنافِقونَ والَّذِينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ في ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إلّا قَليلاً . مَلْعُونِينَ أيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ٦٠—٦١)

وقد احتوت الايات انذاراً قاصما للمنافقين ومرضى القلوب والمرجفين أي الذين ينشرون الاخبار والروايات السيئة الفاحشة ضد المسلمين . وهذه الآيات مسبوقة بآيات أخرى تضمنت ما يلهم ان المنافقين كانوا لا يألون جهدهم في الوقوف من النبي والمسلمين ونساء المسلمين مواقف مؤذية مسيئة وهي هذه :

(إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ ورَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللهُ في ٱلدُّنيا وَالآخِرَةِ وأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً . والَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ ما ٱكْتَسَبُوا فَقَدْ ٱحتَمَلُوا بُهْتاناً وَإثْماً مُبِيناً ٥٧—٥٨)

والمتبادر ان آيات الانذار السابقة قد نزلت نتيجة لمواقفهم المؤذية هذه .

وفي سورة النساء التي يجيء ترتيب نزولها بعد سورة واحدة من سورة الاحزاب آيات عديدة تحكي مواقف المنافقين ومكائدهم . منها هذه الآيات :

(أَلَمْ تَرَ إلى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ ٱلشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً . وإذا قِيلَ لَهُمْ تعالَوْا إلى مَا أَنْزَلَ ٱللهُ وإلى الرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدوداً ٦٠-٦١)

وقد حكت ما كان يفعله المنافقون حينما تكون لهم او لغيرهم قضية حيث كانوا يتهربون من التقاضي أمام النبي ويصدون الناس عن ذلك ويتقاضون امام قضاة من الكفار أو اليهود .

ومنها هذه الآيات :

(وإنَّ منكُم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فإنْ أصابَتْكُم مُصيبةٌ قالَ قَدْ أنعمَ اللهُ عَلَيَّ إذْ لَمْ أكُنْ معهُم شهيداً . ولئِنْ أصابَكُم فضْلٌ منَ اللهِ ليَقولَنَّ كأنْ لَمْ يَكُنْ بيْنَكُمْ وبيْنَهُ مَودَّةٌ يا ليْتَني كُنْتُ معهُم فأفوزَ فوزاً عَظِيماً ٧١-٧٢)

وقد حكت مواقفهم من الحركة الجهادية حيث كانوا يبطئون الناس ويثبطون عزائمهم عنها ثم لا يستحون من حسد المسلمين إذا ما أصابوا نصراً من الله وفضلا .

ومنها هذه الايات :

(فما لكُمْ في المنافِقينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أرْكَسَهُمْ بما كَسَبُوا أتُريدُونَ أنْ تَهْدُوا مَنْ أضلَّ اللهُ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلَنْ تَجِدَ لهُ سبيلاً . ودُّوا لَوْ تكْفُرُونَ كما كَفَرُوا فتكُونُونَ سَواءً فلا تَتَّخِذُوا مِنْهُم أوْلِياءَ حتَّى يُهاجِرُوا في سَبيلِ اللهِ فإنْ تَوَلَّوا فخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وجَدْتُمُوهُم ولا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا ولا نَصيراً ٨٨-٨٩)

ويظهر ان المسلمين المخلصين كانوا على رأيين في المنافقين وان منهم من كان يعتذرعنهم أو يأمل صلاحهم ويظل على صلة وولاء معهم فاحتوت الآيات ما احتوته من تنديد وتنبيه وتقرير لحقيقة كفرهم وحذرت المسلمين من اتخاذهم أولياء وحرضتهم على قتلهم إذا لم يخلصوا لله ودينه .

والذي نرجحه ان العصبية القبلية كانت تلعب دوراً هاما في الامر فجاءت الآيات لتكون حاسمة فيه .

ومنها هذه الآيات :

(إنَّ الَّذينَ آمَنوا ثُمَّ كَفَروا ثُمَّ آمَنوا ثُمَّ كَفَروا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبيلاً . بَشِّرِ المُنافِقينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَليماً . الَّذينَ يَتَّخِذُونَ الكافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَميعاً . وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَيُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَديثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جامِعُ المُنافِقينَ وَالكافِرينَ فِي جَهَنَّمَ جَميعاً . الَّذينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرينَ نَصيبٌ قالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ المُؤْمِنينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرينَ عَلى المُؤْمِنينَ سَبيلاً . إِنَّ المُنافِقينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَليلاً . مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً ١٣٧ــ١٤٣)

وقد تضمنت الايات حكاية مواقف جديدة للمنافقين . فهم يوالون الكفار الذين قال المفسرون انهم اليهود بقصد الاعتزاز بهم . ويقفون موقف المتربص المنتهز للفرصة من اي ناحية جاءت . وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالى وصلوا للمراآة . ويظهر ان بعض اقربائهم واصدقائهم من المسلمين المخلصين ظلوا على صلة بهم يغشون مجالسهم ويسمعون كلامهم الذي فيه دس وأذى ضد النبي واستهزاء بالقرآن فنهتهم احدى الآيات عن ذلك .

وعلى كل حال فالصور التي انطوت في الآيات تدل على انها نزلت قبل اتمام التنكيل باليهود وفي وقت كان اليهود والمنافقون على شيء من القوة والاعتداد .

وتجيء بعد سورة النساء في الترتيب سورة الحديد وفيها هذه الآيات عن المنافقين

(يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنافِقُونَ وٱلْمُنافِقاتُ لِلَّذينَ آمَنوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَراءَكُمْ فَٱلْتَمِسوا نوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلى وَلٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وغَرَّتْكُمُ ٱلأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورِ ١٣)

والايات بسبيل وصف ما كان من اعتداد المنافقين بأنفسهم واغترارهم . وذكر المنافقات مع المنافقين يدل كما هو واضح على ان حركة النفاق لم تكن قاصرة على الرجال فقد اشترك فيها النساء ايضا كما اشتركن في الاستجابة الى دعوة الله والايمان برسوله والهجرة والجهاد في سبيل الله وتحمل الاذى والاضطهاد. وفي ذلك ما فيه من صورة رائعة للمرأة العربية في ابان البعثة النبوية .

وتجيء سورة محمد بعد سورة الحديد في الترتيب وفيها بضع آيات في صفات المنافقين اعمالهم منها ما فيه حكاية ما كانوا يظهرونه من جزع حينما يدعون الى قتال وهي :

(ويَقُولُ الَّذِينَ آمَنوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فِيها ٱلْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ ٢٠)

ومنها ما فيه حكاية موالاتهم لليهود ووعدهم لهم بالتضامن معهم وهي :

(إِنَّ الَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى.الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وأَمْلى لَهُمْ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ في بَعْضِ الأَمْرِ واللهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ ٢٦)

ومنها ما فيه حكاية ظنهم انهم استطاعوا ان يخدعوا الله ورسوله ورد عليهم وهي :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ٢٩ــ٣٠)

وفي الآيات تنبيه الى ان المنافقين يعرفون بأقوالهم وأفعالهم مهما ظنوا انهم غير معروفين في النفاق وقد يكون فيها اشارة الى انه كان من المنافقين ومرضى القلوب فئة تحاول كتم نفاقها . ولعل هذه الفئة من غير اولي قربى زعماء المنافقين .

وعلى كل فالآيات تدل على انها نزلت في ظرف كان المنافقون لا يزالون يحتفظون فيه باعتدادهم وجرأتهم .

ويجيء بعد سورة محمد في الترتيب سورة الحشر وفيها آيات تحكي موقف المنافقين في ظروف تنكيل النبي ببني النضير اليهود واجلائهم عن المدينة وهي هذه :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ)

١١ ــ ١٢

ولقد كان بنو النضير احلاف زعيم المنافقين عبد الله بن ابي وقومه من الخزرج فلما حاصرهم النبي وطلب منهم الجلاء على ما سوف نشرحه في بحث آخر ارسلوا يستشيرونه في الأمر فقال لهم ما حكته الآيات. فتقووا ورفضوا وضيق النبي عليه السلام الخناق والحصار عليهم ولم يجرأ ابن ابي على الوفاء بوعده لأن معظم عشيرته ومعظم قبيلته وقبيلة الأوس كانوا مخلصين في ايمانهم [1] وعلى كل حال ففي الآيات صورة لمواقفهم التي فيها اعتداد ومناوأة للنبي عليه السلام وخططه .

---

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ١٩١ وما بعدها .

وتجيء بعد سورة الحشر في الترتيب سورة النور . وفي هذه السورة آيات تحكي مــا كان من قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مما يعرف في السيرة النبوية بحديث الافك على ما سوف يأتي شرحه بعد [1] ومنها آية تعني المنافقين وهي :

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ١٩)

حيث تفيد ان المنافقين استغلوا الحادث وافاضوا فيه على سبيل الشماتة . وقد ذكرت الروايات [2] ان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي كان على رأس هذه الفئة .

ويأتي بعد سورة النور سورة (المنافقون) وفيها أولا حكاية شهادتهم بأن النبي عليه السلام رسول الله وحلفهم على ذلك مع انهم كاذبون يتخذون أيمانهم ستاراً . وتقرير كونهم اعداء حقيقيين يجب الحذر منهم . ووصف حالتهم النفسية حيث كانوا بسبب ما يعرفونه من نواياهم المريبة دائمي الخوف والقلق كلما هتف امرؤ ظنوا انه يهتف ضدهم وكلما أشار أحد الى أحد منهم توهموا انه يحاول ان يفضحهم . وحكاية استكبارهم مع ذلك عن طلب الاستغفار من النبي حينما يحاول بعضهم اصلاح حالهم والتوسط لهم [3] . وفيها ثانياً هاتان

---

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ١ ٣٤ وبعدها

(٢) المصدر نفسه ٥ ٣٤

(٣) (إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

الآيتان اللتان تضمنتا موقفاً خطيراً وجريئاً من النبي عليه السلام واصحابه وهما :

(هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْـــدَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّمٰواتِ وَٱلأَرْضِ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلأَعَزُّ مِنْها ٱلأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنافِقِينَ لا يَعْقِلُونَ ٧ــ٨)

وقد روى ابن هشام [١] ان احد المهاجرين تلاحى مع احد بني عوف الخزرجيين رهط عبد الله بن ابي زعيم المنافقين في اثناء غزوة المريسيع التي جرت بقيادة النبي واستغاث كل منهما بقومه وكادت تقع الفتنة بين المهاجرين والانصار والخزرجيين . فغضب عبد الله بن ابي واخذ يحرض قومه على امساك ايديهم عن مساعدة اصحاب النبي من المهاجرين حتى يتحولوا عن دارهم ويقول إننا حينما نرجع الى المدينة يجب ان يخرج الأعز منها الأذل وهو ظان انه الفريق الاول وان المهاجرين الفريق الثاني . وان الآيتين قد نزلتا لتحكيا هذه الواقعة .

وإتماماً للقصة نذكر ان ابن هشام روى ايضاً ان الكلام بلغ النبي عليه السلام واصحابه المهاجرين فتأثروا وان عمر بن الخطاب حرض النبي على قتله ولكن النبي لم يستجب للتحريض وقال لعمر (كيف إذا تحدث الناس ان محمداً يقتل اصحابه) . وان الخبر لما بلغ أسيداً بن خضير احد زعماء الانصار قال للنبي عليه السلام (انت يا رسول الله تخرجـــه . هو الذليل وانت العزيز) ثم قال له (يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه . وانه ليرى انك استلبته ملكا) وان ابنه وكان مؤمنا مخلصاً جاء إلى النبي فقال له (إن كنت آمراً بقتل ابي فمرني فأنا احمل رأسه اليك . فاني اخشى ان يقتله غيري فتأخذني العصبية فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر) فقال له النبي (بل نترفق بـــه ونحسن صحبته ما بقي معنا . وكان من آخر ما فعله النبي معه من ذلك ان ابنه سأل النبي

يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ . إِنَّ ٱللَّهَ لا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفاسِقِينَ ١ــ٦)

(١) ج ٣ ص ٣٣٣-٣٣٧

ان يعطيه قميصه ليكفن به اباه فأعطاه ثم سأله ان يصلي عليه فصلى عليه رغم اعتراض عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقبل ان تنزل الآية التي جاء فيها ولا تصلّ على احد منهم مات أبداً . وكانت صلاة النبي عليه السلام سببا لنزول الآية المذكورة [1] .

وعلى كل حال فآيات السورة وما رواه ابن هشام يدل أولا على ان المنافقين كانوا يشتركون في الاعمال الحربية التي كان يقودها النبي عليه السلام ضد اعداء الاسلام والمسلمين ويحلفون الايمان على صدق اسلامهم ويكتمون نفاقهم غير ان احوالهم ومواقفهم المريبة كانت تفضحهم . وكانوا يستغلون اي حادث ليكيدوا للنبي واصحابه ودعوته ، كما كانوا حينما نزلت الآيات يستشعرون بشيء من القوة ويعتدّون بأنفسهم .

ويأتي بعد سورة (المنافقون) سورة المجادلة وفيها هذه الآية :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٨)

ولقد انطوى في الآية صورة لموقف شديد الأذى والكيد . فقد كان المنافقون يعقدون المجالس الخفية ليضعوا خطط العصيان والتمرد على النبي فعاتبهم ونهاهم عن ذلك فلم يأبهوا وظلوا على خطتهم الآثمة . وإلى هذا فقد كانوا حينما يأتون الى النبي لا يسلمون عليه بالسلام المعتاد بسلام فيه غمز او سخرية ثم يتساءلون ساخرين جاحدين متى يقع عليهم عذاب الله الذي انذرهم به النبي جزاء ما يصدر منهم من اقوال وافعال .

ومما روي [2] ان هذه الحلقات كانت تعقد اكثر ما يكون في ظروف الأزمات الحادة التي كانت تلم بالنبي والمسلمين . وقد يدعم هذه الرواية آية جاءت بعد قليل وهي :

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ

---

(١) انظر تفسير الاية ٨٤ من سورة التوبة في تفسير ابن كثير

(٢) انظر تفسير الايات في تفسير ابن كثير والطبرسي

شَيْئاً إِلّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٠)

اذ احتوت تطمينا للمسلمين . فهذه النجوى من وساوس الشياطين بقصد ادخال الحزن والهم على المسلمين مع انها ليست بضارتهم شيئا .

ولما كان من المرجح ان الحلقات كانت تعقد بتكتم فالمتبادر ان النبي قد جعل عليهم عيونا يأتونه بأخبارهم وفي ذلك ان صح مشهد من مشاهد السيرة النبوية والتدبير النبوي .
وعلى كل حال فالآية تدل على ما كان من شدة نفاق المنافقين وحقدهم على النبي والمسلمين والكيد لهم واستغلال الظروف العصيبة للاحراج والشماتة والسخرية .

وبعد بضع سور قصيرة تأتي سورة المائدة وفيها هذه الآيات :
(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارَى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَموا جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهم لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ .
٥١ ــ ٥٢

وقد روي [١] ان الآية الثانية نزلت بمناسبة مشادة بين كبير المنافقين ابن ابي واحد زعماء المؤمنين من الانصار اذ قال هذا بعد ان نزلت الآية الاولى اني بريء من اليهود وكان بينه وبينهم تحالف فقال الثاني اما انا فلا أتبرأ منهم لأني اخشى الدوائر . وعلى كل حال ففي الآية الثانية صورة من التواثق الذي كان بين المنافقين واليهود بسبب ما جمع بينهم من الحقد على النبي عليه السلام ودعوته ونجاحه والتفاف الناس حوله . وتكون الآية قد نزلت قبل اتمام التنكيل في يهود المدينة .

---

(١) انظر تفسير الايات في تفسير ابن كثير والطبرسي

وتأتي بعد سورة المائدة سورة التوبة . وهي آخر سور القرآن المدني نزولا وترتيباً .

وفيها فصول عديدة في المنافقين. منهـــا ما نزل في صدد تلكؤ منافقي المدينـــة عن الاستجابة للاشتراك في غزوة تبوك وتهربهم منها واستئذانهم النبي بالتخلف عنهـــا باعذار كاذبة .

فنددت بهم في سلسلة طويـــلة[1] وفضحت نفاقهم وكفرهم وسجلت عليهم سوء نواياهم ومقاصدهم وذكرت بما كان من سابق اعمالهم وأقوالهم ومواقفهم المريبة .

وفي السلسلة آيات انطوى فيها صور محددة لمواقف منافقي المدينة منها هذه الآية :

(ومِنْهُمْ مَنْ يَقولُ أْئذَنْ لِي ولا تَفْتِنِّي ألاَ في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وإنَّ جَهَنَّمَ لَمحيطَةٌ بِالْكافِرينَ ٤٩)

وقد روي[2] انها نزلت في منافق استأذن النبي في التخلف عن السفر معه إلى غزوة تبوك وقال له اني اخاف إذا ذهبت معك انتفتني بنات الروم ، وكان الروم أصحاب السلطان على بلاد الشام .

ومنها هذه الآية :

(إنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكَ مُصيبَةٌ يَقولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبلُ ويَتَوَلُّوا وهُمْ فَرِحونَ ٥٠)

حيث انطوى فيها بيان ما كان من شدة حقدهم على النبي وتربصهم الدوائر فيه . ومنها هذه الآيات :

(ويَحْلِفونَ باللهِ إنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وما هُمْ مِنْكُمْ ولَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقون

---

(١) الأيات ٤١ — ٨٩ .

(٢) انظر ابن هشام ج ٤ ص ١٧٠

لَوْ يَجِدونَ مَلجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُون) .
٥٦ — ٥٧

حيث انطوى فيها حكاية أيمانهم بأنهم مخلصون في الاسلام كلما عوتبوا على مواقفهم وتكذيب لهم بأن الايمان التي يحلفونها هي تقية وخوفاً ولو استطاعوا ان يجدوا مكاناً يلجأون إليه أو يختفون فيه لسارعوا إليه . وقد تفيد الآيات أن المنافقين قلوا عدداً بعد الفتح المكي وضعفوا قوة ولم يعودوا يجدون في ذوي قرباهم من المخلصين سنداً وعوناً. نقول هذا ونحن نعرف أن ابن هشام روى[1] أن النبي عليه السلام لما ضرب معسكره خارج المدينة تأهباً للسفر ضرب عبدالله بن أبي — قبل ان يستأذن ويتخلف هو وغيره من المنافقين — على حدة معسكره بأسفل منه وان هناك من زعم أنه ليس بأقل العسكرين . وهذا غريب جداً إذا علمنا ان جميع القادرين على الحرب من المخلصين قد انضموا إلى غزوة تبوك ولم يتخلف منهم إلا ثلاثة على ما تفيده آيات في سورة تبوك : وصيغة ابن هشام نفسه تلهم أنه لا يصدق هذا الزعم لانه يقتضي ان يكون عدد المنافقين آلافاً عند التأهب لغزوة تبوك . وهو ما لم يروه أحد وما تنفيه آية سورة التوبة التي نحن في صددها . بل هناك رواية تذكر ان عدد المتخلفين نحو ثمانين[2]. وهم الاغنياء ولا يعقل ان يكونوا أكثر من ذلك.

ومنها هذه الآية

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوْا وإِنْ لَمْ يُعْطَوا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ ٥٨)

حيث انطوى فيها حكاية اتهام بعضهم للنبي عليه السلام في توزيع الزكاة والغنائم وسخطهم إذا لم يعطهم ولو لم يكونوا من المستحقين الذين ذكرتهم آية جاءت بعدها وهم الفقراء والمساكين وعمال الصدقات والمؤلفة قلوبهم والمعسرون والارقاء وأبناء السبيل وسبيل الله أي الدعوة الاسلامية.

---

(١) ج ٤ ص ١٧٣
(٢) ابن هشام ايضا ج ٤ ص ١٨٩

ومنها هذه الآية:

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ٦١)

وقد روي[١] في صدد نزولها أن بعض المنافقين اجتمعوا سراً وأخذوا يستغيبون النبي عليه السلام وأصحابه فقال بعضهم أمسكوا حتى لا يبلغه مما نقول فقال بعضهم بل نتحدث بما نشاء فإذا بلغه وسألنا حلفنا له فيصدقنا فإنه اذن يصدق كل ما يقال له .

وقد تؤيد الآية والرواية ما خمناه قبل استلهاماً من آيات أخرى أن النبي عليه السلام كان يضع على المنافقين عيوناً تأتيه بأخبارهم.

ومنها هذه الآية

(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ٧٤)

وقد روي[٢] في صددها أن عبد الله بن أبي كبير المنافقين وقع في النبي فبلغه ذلك فعاتبه فأخذ يحلف أنه لم يقل . والآية تفيد أن حالة أهل المدينة الاقتصادية قد تحسنت كثيراً ببركة هجرة النبي اليها . والآية تفيد شيئاً عجيباً آخر وهو نقمة المنافقين مما نالوه هم وقومه من خير وغنى ! والمتبادر ان نقمتهم كانت بسبب ما كان من إزدياد مركز النبي تمكناً

---

(١) انظر تفسيرها في تفسير الطبرسي

(٢) انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير والطبرسي .

واستقراراً ومن اشتداد التفاف الناس حوله واخلاصهم له لما نالوه من بركة هجرته إليهم .
ومنها هذه الآية

(الَّذينَ يَلْمَزُون الْمطَّوِّعينَ مِنَ الْمؤْمنينَ في الصَّدَقات والَّذينَ لا يَجِدون إلّا جُهْدَهمْ فَيَسْخَرونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ولَهمْ عَذابٌ ليمٌ ٧٩) .

وقد تضمنت حكاية لمز المنافقين المتبرعين في الصدقات من المسلمين حينما كان النبي يطلبها منهم فلم يكد أحد يسلم من سخريتهم ولمزهم حيث كانوا يلمزون من يعطي الكثير فيقولون إنه مراء ومن يعطي القليل حسب جهده فيقولون إن الله غني عن هذا القليل .

والآية تفيد ان الايمان بالله ورسوله ودعوته قد ملأ المخلصين الذين كانوا الاكثرية العظمى فكانوا يسارعون إلى تلبية أوامر النبي في كل شيء ويساهمون في التبرعات كل حسب طاقته .

ولقد كان بعض الاعراب في البادية منافقين أيضاً . وكما تلكأ منافقو المدينة وتهربوا من غزوة تبوك تلكأ منافقو البادية وتهربوا باعذار كاذبة فنزل في حقهم بدورهم فصل[1] يندد بهم ويفضح كذبهم ويحذر النبي وأصحابه بعدم تصديقهم ويأمرهم بالاعراض عنهم لأنه رجس وبعدم الرضاء عنهم مهما حلفوا لهم من الايمان . وقد جاء في آخر الفصل آيتان تفيدان أنهم كانوا أشد كفراً ونفاقاً من منافقي المدينة وأنهم كانوا يعتبرون ما يؤدونه من صدقات وينفقونه في الحركات الجهادية من نفقات خسارة وعبثاً ويتربصون بالنبي والمسلمين الدوائر حتى يخلصوا من الأعباء وهما هاتان

(الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدودَ ما أَنْزَلَ اللهُ على رَسولِهِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ . ومِنَ الأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ مـــا

---

(١) الآيات ٩٠ – ٩٨

يُنفِقُ مَغرَماً وَيَترَبَّصُ بكمْ الدَّوائِرَ عَليْهِمْ دائِرَةُ السُّوءِ واللهُ سَميعٌ عَليمٌ ٩٧ — ٩٨) .

وفي سورة التوبة آيات أخرى في حق للمنافقين منها هذه الآية :

(وممَّنْ حَوْلكمْ مِنَ الأَعْرابِ مُنافِقونَ ومِنْ أهلِ ٱلْمدينَـــةِ مَرَدُوا على النِّفاقِ لا تَعلمهُمْ نَحْنُ نَعْلمُهُمْ سنُعذِّبُهم مَرَّتيْن ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذابٍ عَظيمٍ ١٠١) .

حيث تقرر أنه كان هناك طبقة من المنافقين من أهل المدينة ومن الاعراب استطاعت ان تتقن كتم نفاقها عن النبي والمسلمين . ويبدو أنه كان اذاهم أشد لأن الآيةتوعدتهم بالعذاب مرتين في الدنيا فوق ما ينتظرهم من عذاب الآخرة .

ومنها هذه الآيات :

(والَّذينَ اتَّخَذوا مَسْجِداً ضِراراً وكُفْراً وتَفْريقاً بَيْنَ ٱلْمؤْمنين وإرْصاداً لِمنْ حارَبَ اللهَ ورَسولَهُ مِنْ قَبْلُ ويَحْلفنَّ إنْ أرَدْنا إلاَّ الْحُسْنَى واللهُ يَشْهَدُ إنَّهُم لكاذِبونَ . لا تَقُمْ فيهِ أَبَداً لَمسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوى مِنْ أوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أنْ تَقُوم فيه ، فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتَطَهَّروا واللهُ يُحِبُّ الْمطَّهِّرينَ . أَفَمنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على تَقْوَى مِن اللهِ ورِضْوانٍ خَيْرٌ أمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ على شَفا جُرُفٍ هارٍ فانْهارَ بِهِ في نارِ جَهَنَّم واللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظَّالِمينَ . لا يَزالُ بُنْيانُهُمْ الَّذي بَنَوْا رِيبَةً في قُلوبِهِمْ إلاَّ أنْ تُقَطَّعُ قُلوبُهُمْ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ١٠٧ — ١١٠)

ومما روي في صدد هذه الآيات ان فريقاً من المخلصين استأذنوا النبي ببناء مسجد في ضاحية قباء مكان صلاة النبي حينما جاء مهاجراً إلى المدينة ونزل في هذه الضاحية مدة قصيرة

على ما ذكرناه قبل . وكان في هذه الضاحية جماعة من المنافقين فاستأذنوا بدورهم النبي ببناء مسجد لهم ليصلوا فيه في ايام الشتاء والليل فأذن لهم ورجوه ان يصلي فيه ليباركه فوعدهم بذلك حينما يعود من غزوة تبوك . وقد روي ان الآيات نزلت في اثناء هذه الغزوة . وقد فضحت خبث نواياهم ومقاصدهم فلما عاد النبي الى المدينة ارسل من هدم المسجد وحرقه .

وقد روى المفسرون[1] ان جملة (إرصاداً لمن حارب الله ورسوله تعني شخصاً اسمه ابو عامر الراهب .

وقد كان موحداً ثم تنصر قبل الهجرة فلما هاجر النبي عليه السلام الى المدينة حسده واستكبر عن اتباعه وتنازع معه واقسم ان يحاربه ما وجد الى ذلك سبيلا . وقد استطاع أن يغري بعض افراد من قبيلة الأوس التي ينتمي اليها ولما جاءت قريش تغزو المدينة وكانت الوقعة الكبرى التي عرفت بوقعة احد انضم اليهم وحارب النبي والمسلمين وفيهم قومه . ولما انتهت الوقعة ظل على عناده وعداوته وصار يحمس المنافقين ويحرضهم .

وهو الذي طلب منهم ان يبنوا هذا المسجد ليكون مركزاً لاجتماعه بهم ثم ذهب الى بلاد الشام لتحريض الروم على النبي والمسلمين واحضار جيش يغزو المدينة وطلب منهم انتظاره .

ومن الآيات الواردة في سورة التوبة فيهم هذه الآيات :

(يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما في قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهزِؤُا إِنَّ اللهَ مُخرِجٌ ما تَحْذَرونَ . ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبْ قُلْ أَبِاللهِ وآياتِهِ ورَسولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ . لاَ تَعْتَذِروا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانوا مُجْرِمينَ ٦٤ ـ ٦٦) .

---

(١) انظر تفسير الاية في كتب تفسير الطبرسي وابن كثير ورشيد رضا . انظر ايضاً ابن هشام ج ٣ ص ١٢

وقد جاء في بعض الروايات ان هذه الآيات نزلت اثناء غزوة تبوك في حق جماعة من المنافقين اشتركوا في الغزوة وكانوا يقولون من باب السخرية ان محمداً يزعم انه سوف يغلب بني الأصفر – أي الروم – ويفتح مدائنهم . وجاء في بعضها انهم كانوا يذمون قراء القرآن ذماً قبيحاً . وجاء في بعضها انهم كانوا يتآمرون على اغتيال النبي اثناء الرحلة . وفي الآية الأولى ما يفيد انهم كانوا يسخرون من النبي ويقولون هلا نزل عليه سورة فيهم !

وعلى كل حال فالآيات تفيد ان النبي علم بمواقفهم وأقوالهم وعاتبهم فأخذوا يعتذرون له ، وفي الآية الأخيرة ما يفيد ان منهم من كان اعتذاره صادقاً فوعد بعفو الله .

وفيها هذه الآية

(فَرِحَ الْمُخَلَّفونَ بِمَقْعَدِهِم خِلافَ رَسول اللهِ وكَرِهوا أن يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِم وأَنْفُسِهِم في سَبيلِ اللهِ وقالوا لا تَنْفُروا في الْحَرِّ قُل نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حرًّا لَوْ كانوا يَفْقَهونَ ٨١)

حيث تذكر ما كان من فرح المنافقين حينما أذن لهم النبي بالتخلف بناء على اعتذارهم عن غزوة تبوك .

يظهر ان هذا كان ديدنهم في أكثر الغزوات حيث جاء بعد قليل من هذه الآية هذه الآيات :

(وإذا ما أُنْزِلَتْ سورَةٌ أَنْ آمِنوا بِاللهِ وجاهِدوا مَعَ رَسولِهِ اسْتَأْذَنكَ أُولو الطَّوْلِ مِنْهُم وقالوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدين . رَضُوا بِأَنْ يَكُونوا مَعَ الْخَوالِفِ وطَبَعَ اللهُ على قُلوبِهِم فَهُم لا يَفْقَهون) .
٨٦ – ٨٧

ولقد روى ابن هشام[١] ان أناساً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت يهودي اسمه

---

(١) ج ٤ ، ١٧١

سويلهم ويبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك . وقد بلغ النبي ذلك فأرسل اليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره ان يحرق عليهم البيت ففعل [1] .

ولهذا كله اقتضت حكمة التنزيل أن تأمر النبي بإعلانهم أنهم لن يخرجوا معه للحرب بعد الآن إذا استأذنوه للخروج معه وبأن لا يصلي على أحد مات منهم ولا يقم على قبره كما ترى في هاتين الآيتين :

(فإن رَجَعَكَ ٱللهُ إلى طائِفَةٍ مِنهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجوا مَعي أبَداً ولَنْ تُقاتِلُوا مَعي عَدُوًّا إنَّكُمْ رضيتُمْ بالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدوا مَعَ ٱلخالِفينَ . ولاَ تُصَلِّ عَلى أحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أبَداً ولا تَقُمْ على قَبْرِهِ إنَّهُمْ كَفَروا باللهِ ورَسولِهِ وماتُوا وهُمْ فاسِقُونَ . ولا تُعْجِبْكَ أمْوالُهُمْ وأوْلادُهُمْ إنَّما يُريدُ ٱللهُ أنْ يُعذِّبَهُمْ في الدُّنيا وتَزْهَقَ أنْفُسُهُمْ وهُمْ كافِرونَ ٨٣ ــ ٨٥)

وهكذا امرت الآيات بنبذهم واخراجهم من حظيرة الاسلام والمسلمين .

ومنها هذه الآيات :

(وإذا ما أُنْزِلَتْ سورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقولُ أيُّكُمْ زادَتْهُ هذهِ إيماناً فَأمَّا ٱلذينَ آمَنوا فَزادَتْهُمْ إيماناً وهُمْ يَستَبْشِرونَ . وأمَّا ٱلذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِم وماتُوا وهُمْ كافِرونَ . أوَلاَ يَرَوْنَ أنَّهُمْ يُفْتَنونَ في كُلِّ عامٍ مَرَّةً أوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتوبونَ ولا هُمْ يَذَّكَّرونَ . وإذا ما أُنْزِلَتْ سورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ

---

[1] هذه الرواية تؤيد نفينا لزعم كثرة عدد المنافقين في ظروف غزوة تبوك .

مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُم قَومٌ لا يَفْقَهُونَ) ١٢٤ - ١٢٧

وفي الآيات صورة من صور المنافقين حيث كانوا يتساءلون تساؤل الساخر المستريب كلما نزلت سورة عمن زادتهم إيماناً وتأثروا بما نزل وحيث كانوا حينما تنزل السور على النبي ينظر بعضهم الى بعض نظر الساخر المستريب كذلك ويسللون من المجلس النبوي .

وقد ندّدت بهم الآيات وفضحت خبث طواياهم وعجبت من عدم ارعوائهم مع أنهم يفضحون في كل عام مرة بعد مرة .

تعليق على موقف النبي عليه السلام من المنافقين

وواضح من هذا الاستعراض الذي تعمدنا الاسهاب فيه خطورة حركة المعارضة والنفاق أن هذه الحركة بدأت مع بداية العهد المدني واستمرت إلى آخره وان المنافقين لم يألوا جهداً طيلة هذا العهد في الكيد والدس والتآمر والتعويق عن الجهاد والسخرية بالله ورسوله وقرآنه والمسلمين والشماتة فيهم واستغلال الازمات والظروف الحرجة في كل فرصة ومناسبة مع تحالفهم مع اليهود حتى بعد أن صاروا أعداء محاربين وكانت لهم مواقف وأعمال شديدة النكاية والخطورة والاذى على كيان الاسلام والمسلمين .

ومن العجيب الذي نراه ذا أهمية عظمى من ناحية السيرة النبوية والتشريع النبوي معاً أنه لم يرد روايات موثقة تفيد أن النبي عليه السلام اعتبر المنافقين أعداء محاربين أو عاملهم كذلك أو امر بقتلهم أو قتل بارزيهم بسبب صفة النفاق او بسبب اي موقف ناشيء عنه من تلك المواقف الكثيرة المتنوعة التي حكتها الآيات التي نزلت في مختلف ادوار التنزيل المدني والتي احتوت صوراً كثيرة من الاذى والكيد والسخرية بالله ورسوله وآياته والمسلمين والتناجي بالاثم والعدوان ومعصية الرسول والتثبيط عن الجهاد والمخامرة فيه ودس الدسائس وإثارة الفتن والاحقاد وإشاعة الفاحشة والارجاف بين المسلمين بما يثير قلقهم وفزعهم والتعرض لنساء المسلمين بل لنساء النبي بالأذى والكيد والتضامن مع اعداء الاسلام وموالاتهم وتقرير كونهم آمنوا ثم كفروا مرة بعده وكونهم قالوا كلمة الكفر وكفروا

بعد إيمانهم وارتدوا الخ . وهذا في حين أن القرآن أمر بمجاهدتهم مع الكافرين والاغلاظ عليهم واعتبارهم أعداء الداء وأمر بقتل من لم ينته منهم عن موقف الاذى والارجاف وبنفيه وبتقتيله اينما ثقف وبقتلهم اينما ثقفوا اذا لم يخلصوا دينهم اليه ويصدقوا في الهجرة اليه فضلا عما انذروا به من عذاب دنيوي وأخروي شديدين وجعل منزلتهم في جهنم في الدرك الأسفل وقرنهم في الانذار مع الكافرين وأمره باخراجهم من حظيرة المسلمين وعدم الصلاة على موتاهم وعدم القيام على قبورهم على ما يفهم من نصوص الآيات التي أوردناها معاً ثم في حين ان حكم المرتد عن دينه هو القتل استناداً الى احاديث نبوية صحيحة منها حديث رواه البخاري وابو داود والترمذي عن عكرمة (ان علياً حرق قوماً ارتدوا عن الاسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال (لو كنت انا لقتلتهم لقول رسول الله من بدل دينه فاقتلوه[1]) .

ومنها حديث رواه الثلاثة مع مسلم والنسائي جاء فيه (لا يحل دم امريءمسلم يشهد ان لا إله إلا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني والمفارق لدينه التارك للجماعة[2] . ثم في حين ان القرآن حكى مواقف المنافقين مثل المواقف التي أمر النبي بقتلهم اذا لم ينتهوا عنها وبعد تلك الاوامر والانذارات الحاسمة .

فإزاء ذلك لا نعدو الصواب اذا قلنا **أولا** ان النبي عليه السلام لم يعتبرهم اعداء محاربين فلم يقاتلهم فعلا كما كان شأنه مع كفار العرب والكتابيين الذين بدأوا المسلمين بالعدوان . ولم يأمر بقتل احد منهم عقوبة على قوله كلمة الكفر وارتداده وجرأته على الله ورسوله ولا سيما ان حرب النبي للكفار من عرب وكتابيين يهود ونصارى انما كان لبدئهم بالعدوان على المسلمين واستمرارهم فيه على ما سوف يأتي شرحه بعد . ولم يكن حال المنافقين على كل حال يشبه حال هؤلاء . **وثانياً** ان النبي قد اعتبر ما جاء في الآيات القرآنية بمثابة توجيهات متروك اليه امر تقدير ظروف تنفيذها والسير فيها بما يوافق مصلحة الاسلام والمسلمين . لا سيما ان الآيات التي وردت في حق المنافقين في كثير من الفصول والسور تخللها جمل تلهم معنى التعليق على شرط مثل (فان يتوبوا يك خيراً لهم[3] و (لئن لم ينته المنافقون[4]) و (والا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع

---

(١) و (٢) انظر التاج الجامع للاصول ج ٣ ص ١٧
(٣) آية التوبة ٧٤
(٤) آية الاحزاب (٦٠)

المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين اجراً عظيماً[1]) و (فان تولوا فخذوهم واقتلوهم[2] حيث وجدتموهم ولا تتخـــذوا منهم ولياً ولا نصيراً) كما تخلل الآيات الواردة فيهم إشارات إلى انهم كانوا يصلون ويؤدون الزكاة ويشهدون ان النبي هو رسول الله ويشتركون في الحركات الجهادية احياناً مـــع المسلمين ولو ان ذلك كان منهم كذباً او نفاقاً . وانهم كانوا يحلفون الايمان على حسن نيتهم وصدق إسلامهم وينكرون ما ينسب اليهم من الأقوال والأفعال المنكرة في حق الله ورسوله وآياته والمسلمين في كل مرة يعاتبون فيهـــا على تلك الأقوال والافعال . وقد رأى النبي ان يعاملهم بسعة صدر وحلم وصبر الى النهاية لما كان بينهم وبين كثير من المخلصين من روابط القربى والرحم وان خلاف هذه الخطة قد يفتح في صفوف المسلمين والاسلام ثغرات واسعـــة ويثير ازمات حادة[3] . ولا سيما انه كان مطمئن القلب بوعد الله بالنصر النهائي وإظهار دينه على الدين كله .

وقد اخذ يرى منذ اوائل النصف الثاني من العهد المدني وبعد ما خضدت شوكة اليهود وهو الوقت الذي صار في امكانه من جهة مادية شن حرب عملية على المنافقين مأمونة عواقبها بعض الامان ان صوت المنافقين اخذ يخفت ونشاطهم يخمد وعـــددهم يقل وتزلفهم يشتد ومداراتهم تزداد وخوفهم يبدو واضحاً .

وان كثيراً منهم ندموا وعادوا الى حظيرة الاسلام الصحيح فكانت هذه الظواهر

---

(١) آية سورة النساء ١٤٦

(٢) نفس السورة ٨٩

(٣) مما رواه ابن هشام (ج ٣ ص ٣٣٧) بعد رواية حادث مجيء عبد الله ابن ابي ابن كبير المنافقين المخلص الى النبي وقوله له اذا اردت ان تقتل ابي فرني احمل اليك رأسه لاني اخشى ان اقتل من يقتله بأمرك فادخل النار في قتل مؤمن بكافر وقول النبي له بل نترفق بـــه ونحسن صحبته ان قوم المنافق صاروا هم الذين يعنفونه كلما وقف موقفاً مؤذيا فقال النبي لعمر بن الخطاب الذي حرضه على قتله اما والله لو قتلته يوم قلت لي لارعدت له انف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . ومما رواه كذلك في سياق حادث الافك والقذف في ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها ان أسيد بن خضير رضي الله عنه احد زعماء الاوس قـــال للنبي عليه السلام ان يكن القاذفون من الاوس نكفيكهم وان كانوا من اخواننـــا الخزرج فرنا بأمرك فوالله انهم لاهل ان تضرب اعناقهم فقام سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال له كذبت لعمر الله لا تضرب اعناقهم . اما والله ما قلت هذه المقالة إلا انك قد عرفت انهم من الخزرج . ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فلم يلبث ان اشتد التلاحي بين الزعيمين حتى كاد يكون بين الحيين شر (ج ٣ ص ٣٤٥)

مما ثبته في خطته وجعله يرى فيها الصواب والمصلحة .

ومع خصوصية الموقف الزمنية فإن في تصرف السيد الرسول عليه السلام تلقيناً مستمر المدى بليغ الروعة والجلال ، ومثلا يحتذى في كل ظرف ومكان . كما ان فيه تنبيهاً شديداً للمتزمتين الذين يضيقون ما وسع الله ورسوله فلا يتورعون عن تكفير الناس وشتمهم لأوهى الأسباب والمظاهر والحكم على الأمور بظواهرها ووصفها بالحلال والحرام دون بينة وترو .

الحركات الجهادية ضد اعداء الاسلام

تمهيد

•

شغل الجهاد حيزاً كبيراً في القرآن المدني وفي كتب السيرة .

والفصول القرآنية نوعان . نوع فيه حث على الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس وتوضيح للاهداف المستهدفة منه والمباديء التي يقوم عليها والحدود التي يقف عندها ، وبيان لما للمجاهدين عند الله من ثواب واجر عظمين ومنزلة كريمة وما للجهاد بالمال والنفس من ضرورة وأثر في حفظ كيان المسلمين والاسلام والدفاع عنها وإرغام اعدائها .

ثم ما للمعوقين عن الجهاد بالمال والنفس والمتهربين منه عند الله من سخط وعقاب وخسران في الدنيا والآخرة وما يؤدي ذلك اليه من خطر وضرر وتهلكة على الاسلام والمسلمين .

ولقد تضمنت هذه الفصول تقرير القواعد والمباديء التالية[1] :

١ ـ إن الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله واجب على المسلمين . يتولى قيادته والدعوة اليه اولياء الأمر فيهم . والتقصير فيه اثم عظيم عند الله يستوجب اشد العقاب كما انه خطر جسيم على الاسلام والمسلمين . والاستجابة اليه دليل من ادلة صدق الايمان والاسلام . وعدم الاستجابة اليه دليل على العكس .

٢ ـ ان هدف الجهاد هو دفع الظلم والبغي والأضطهاد عن المسلمين والانتقام ممن بادأهم بالعدوان والأذى ومقابلته بالمثل وتأمين حرية الدعوة الى الله حتى لا يكون عدوان عليها ويكون الدين كله لله .

---

(١) انظر كتابنا سيرة الرسول عليه السلام من القرآن ج ٢ فصل الجهاد ص ٢١٧ – ٣٠٥ وكتابنا الدستور القرآني فصل النظام الجهادي ص ٢٢٤ ـ ٢٨٥ ففي الكتابين الايات القرآنية الواردة في الجهاد وشرح ما احتوته من مبادىء وقواعد .

٣ — ان الجهاد لا يستهدف اجبار الناس على الاسلام لان الدعوة الى سبيل الله انما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن . كما قرره القرآن الذي قرر في الوقت نفسه ان لا اكراه في الدين فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وليس النبي وكيلا عن الناس ولا جباراً على الاسلام وانما هو نذير وبشير[1] .

٤ — إن الغنائم ليست هدفاً من اهداف الجهاد ولا يجوز ان تجعل كذلك كما لا يجوز التشدد مع الناس لهـذا القصد ويجب قبول ظواهرهم اذا ما جنحوا الى السلم واظهروا الاسلام [2] .

٥ — ليس من مانع قرآني يمنع ولي امر المسلمين من التعاهد والتهادن مع الكفار سواء أكانوا اعداء محاربين ام لا . وإذا انعقد صلح بينهم فيجب على المسلمين ان يوفوا بعهودهم ولا يجوز لهم ان ينقضوها إذا ظل الطرف الثاني وفياً لها[3] .

٦ — إن من واجب المسلمين تجاه من كف يده ولسانه عن الاسلام والمسلمين ولم يقاتلهم ولم يتحرش بهم ولم يظاهر عليهم عدواً ولم يطعن في دينهم ولم يصد عنـه ان يعاملوه بالبر والقسط وليس لهم ان يقاتلوه بسبب كونه على غير دينهم[4] .

٧ — ليس من اهداف الجهاد إبادة العدو المحارب بل إرهابه وإرغامه وخضد شوكته . فاذا ما تحقق هذا الغرض وجب الكف عن القتل . وإذا ما طلب عدو صلحاً فيجب اجابته الى طلبه [5]

٨ — استعداد المسلمين واعدادهم ما امكن من قوة هو واجب جهادي لان في ذلك ارهاباً للعدو ومنعاً لعدوانه .

اما النوع الثاني من الفصول القرآنية الجهادية فهو ما تضمن إشارات مسهبة او مقتضبة

---

(١) إقرأ الايات التاليـة : سورة النحل ١٢٥ والبقرة ٢٥٥ ويونس ١٠٨ — ١٠٩ وق ٤٥ والغاشية ٢١ — ٢٦ .

(٢) إقرأ آية النساء ٩٤ .

(٣) إقرأ آية الانفال ٦١ و ٧٢ والتوبة ٤ و ٧

(٤) إقرأ آيات سورة الممتحنة ٧ — ٩

(٥) إقرأ آية سورة محمد ٤ والانفال ٦١

الى الوقائع الجهادية . مع التنبيه الى ان القرآن لم يذكر او يشر الى جميع الوقائع ولم يقصد تسجيل الوقائع التي ذكرها او اشار اليها تسجيلا تاريخياً وإنما كان القصد في ذلك الموعظة والعبرة والتنبيه والتحذير والتشريع .

وما جاء في القرآن غفلاً من الاسماء والاعلام والمواقع والأسباب والنتائج والتفصيلات للوقائع قد أوضحته روايات السيرة التي ذكرت كثيراً مما لم تقتضِ حكمة التنزيل ذكره أو الاشارة اليه في القرآن .

وقد نعتت الروايات الوقائع التي كانت تحت قيادة النبي بنعت الغزوة والتي كانت تحت قيادة قواد اختارهم بنعت السرية . ولقد بلغ عدد الغزوات سبعاً وعشرين وعدد السرايا سبعا وأربعين أي بمعدل سبع وقائع في السنة لان مدة العهد المدني عشر سنين[1] . حيث يدل العدد رغم انه لم يقع في اكثر السرايا والغزوات اشتباك وقتال على ما شغله الجهاد ووقائعه من حيز عظيم وعلى ما كان من نشاط النبي والمسلمين في سبيل ذلك . وقد كان النبي حينما يخرج على رأس غزوة من غزواته يستخلف واحداً من أصحابه ليصلي بالمؤمنين وليكون نائبا فيهم عن رسول الله ومرجعا لهم في ما يطرأ من الشؤون .

والمتمعن في احداث الوقائع يرى أن جميعها قد جرت في نطاق المبادىء والتقريرات القرآنية حيث يجد الاسباب المبررة لها في القرآن وفي الروايات معا .

وإذا كان هناك روايات فيها شذوذ عن ذلك فالواجب التوقف فيها لان النبي عليه السلام لا يمكن أن يكون قال قولا أو فعل فعلا مناقضا للمباديء والتقريرات القرآنية . وإذا كان في بعض الآيات ما يوهم ذلك فان التروي فيها يزيد الوهم . ففي سورة الفتح مثلا هذه الآية :

(قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَومٍ أُولي بَأسٍ شَديد تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسلِمونَ ١٦)

وقد يوهم ظاهرها ان المقصود هو قتالهم إلى أن يسلموا . ولكن ليس في الآية ما يمنع ان

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٤٣

يكون القوم الاولي البأس الشديد من اعداء الاسلام ومن الذين بينهم وبين المسلمين حالة حرب وعداء .

وفي سورة التوبة آيات تعلق تخلية سبيل المشركين والكف عنهم على توبتهم واسلامهم واقامتهم الصلاة وايتائهم الزكاة مثل هذه الآية :

(فإنْ تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فَخَلّوا سَبيلَهُمْ ٥)

وهذه الآية (فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ٩) .

غير ان هاتين الآيتين قد نزلتا من جهة في حق فريق من المشركين اعتدوا على المسلمين بدءاً ثم عوهدوا ولكنهم ظلوا مبيتين نية الغدر والنكث ولم يروا انفسهم مقيدين نحو المسلمين بأي عهد ولاذمة على ما تفيده سلسلة الآيات التي نزلت فيهم . وهي (١-١٣) من السورة . فليس من الشذوذ في شيء ان يشدد مع هذا الفريق وان لا يقبل منهم إلا التسليم بدون قيد وشرط والدخول في الاسلام حيث يصبحون اخوانا للمسلمين ويضمن بذلك عدم نكثهم وغدرهم . ولا يتضمن هذا معنى الاكراه على الاسلام بالقوة قصد وهدفا او مبدءاً كما هو واضح . وهذا بقطع النظر عن ان الشرك يمثل مظاهر انحطاط الانسانية ورضوخها لقوى وافكار وعقائد سخيفة مغايرة للعقل والمنطق والحق ، وبقطع النظر عن ان الشرك كان يمثل نظاما جاهليا فيه التقاليد الجائرة والعادات المستكرهة والعصبيات الممقوتة . بينما جاء الاسلام ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويرتفع بهم من الحضيض الى ذروة الكرامة الانسانية . ثم بقطع النظر عما في ذلك معالم ذلك الشرك السخيف وهذا النظام الجاهلي من مبررات لا تتحمل مراء ، وبقطع النظر كذلك عن ان الآيات لا تمنع بصراحة التعاهد معهم ثانية لو رأى النبي من بعده مصلحة في ذلك . ولقد جاء في آيات في سورة الانفال نعي على الكافرين الذين عاهدهم النبي ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون .

وامر النبي بمقاتلتهم إذا تحقق من خيانتهم بعد إعلانهم بذلك . ومع ذلك فقد جاء فيها امر للنبي بالجنوح الى السلم معهم إذا جنحوا اليها[1]

---

(١) تمعن في آيات الانفال ٥٦ - ٦١

ومن عجيب امر المبشرين والمستشرقين المغرضين انهم برغم صراحـــة الآيات القرآنية وتوافقهـا وقوتها في صدد الجهاد وأهدافه وحدوده حينما ينعم المنصف فيها ويفسر بعضهـا ببعض ثم برغم الروايات المتساوقة مع ذلك كل التساوق بالنسبة لجميع الحركات الحربية مع كل فريق من الفرقاء الذين وقعت بينهم وبين المسلمين وقائع حربية أي العرب المشركين واليهود ونصارى مشارف الشام يظلون يقولون ان هذه الحركات انما كانت بقصد الغنائم تطميناً للطبيعة البدوية الكامنة في العرب حيث كان النبي يغري بها المنضوين الى الاسلام من جهة وبقصد اجبار الناس على الخضوع والدخول في دين الاسلام من جهة أخرى ، وان النبي بعد ان كان يقول انه ليس جباراً ولا مسيطراً وليس هو إلا مذكراً ونذيراً وبشيراً انقلب إلى زعيم سياسي وقائد عسكري ينشىء دولة ديكتاتورية ويثير الرعب في غير المسلمين ويغري أصحابه بالنهب .

وتهافت هذه الأقوال وما فيها من غرض وسوء نية وأدب ازاء في ماالقرآن من تقريرات ومبادىء قوية صريحة متساوقة وما في الروايات من تساوق وتأييد ما يغنينا عن الرد عليها . وليس من محل لدعوى ان الروايات التي تذكر أسباب كل وقعة المتسقة مع تقريرات القرآن وهي والدفاع ومقابلة العدوان بمثله هي مصنوعة للدفاع عن النبي عليه السلام لأنه لم يكن هناك قضية من نوع القضية التي يثيرها المغرضون . فلا بد من أخذها على حقيقتها ولا بـــد من التوقف مما قد يكون هناك من روايات شاذة عن ذلك لأن المنطق يؤدي إلى ان النبي لا يمكن ان يكون فعل فعلا أو قال قولا مناقضاً للقرآن .

وليس في القرآن المكي ما يفيد منعاً لما كان من تطور موقف النبي وحـــالة الاسلام والمسلمين بعد الهجرة إلى المدينة . وقد كان هذا التطور طبيعياً ومتسقاً مع العقل والمنطق والظروف ثم مع جميع المبادىء والتقريرات القرآنية كل التساوق . وكان فيه كل الخير للعرب وللمسلمين وللانسانية عامة من مختلف النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية .

أما مسألة الغنائم فان القرآن أقام النكير على من جعلها في إحدى الوقائع الحربية هدفاً ونبه بكل شدة على انها ليست كذلك في هذه الآية من سورة النساء :

(يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا إذا ضَرَبْتُمْ في سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا

لِمَنْ ألقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ٩٤)

وجميع الحركات الحربية كانت للدفاع والثأر ومقابلة العدوان بمثله وحماية الدعوة الاسلامية وحسب على ما سوف يأتي شرحه في سياقها . وإذا كان هناك احتمال وجود رغبة في نهب قوافل قريش في الحركات الحربية الاولى بنوع خاص فان ذلك يأتي في الدرجة الثانية . وليس فيه عند أي منصف أية غضاضة ومأخذ . فزعماء قريش واهل مكة اضطهدوا المسلمين وضيقوا عليهم وآذوهم وفتنوا بعضهم وألجأوهم على النزوح عن وطنهم والتخلي عن ما لهم فيه من أملاك واموال . فليس هناك أي مأخذ عليهم إذا هم رغبوا في نهب قوافلهم . ولقد كان المجاهدون في هذه الحركات من المهاجرين فقط . فلو كان نهب القوافل هو الدافع الأقوى او المقصد الاول لكان اشترك معهم اخوانهم من الانصار .

وأما ما كان يصيبه المسلمون من أسلاب وغنائم في سياق الحركات الحربية الاخرى فهو أمر طبيعي جداً ولكنه ليس على كل حال الدافع الأقوى بل لم يكن هو الدافع قط على ما سوف يأتي شرحه بعد .

هذا ولسوف نقتصر في هذا المبحث على ذكر الوقائع التي كانت مع أهل مكة والقبائل العربية المشركة . اما ما كان مع اليهود والنصارى فسنذكره في مباحث خاصة نعقدها على موقف الطائفتين في العهد النبوي المدني .

فاولا : الوقائع الحربية بين المسلمين واهل مكة

●

ان اولى الآيات القرآنية المدنية في القتال آيات سورة الحج هذه :

(إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَأَنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلّا أَنْ يَقولُوا رَبُّنا ٱللّهُ وَلَوْلا دَفْعُ ٱللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها ٱسْمُ ٱللّهِ كَثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ في ٱلأَرْضِ أَقـاموا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلّهِ عاقِبَةُ ٱلأُمورِ ٣٨ ــ ٤١)

ثم نزلت آيات سورة البقرة هذه :

(وَقاتِلُوا في سَبِيلِ ٱللّهِ ٱلَّذِينَ يُقاتِلونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ ٱللّهَ لا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلا تُقاتِلوهُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرامِ حَتّى يُقاتِلوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزاءُ الكافِرِينَ . فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقاتِلُوهُمْ حَتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلاّ عَلى ٱلظّالِمِينَ . الشَّهْرُ الحَرامُ بِالشَّهْرِ ٱلحَرامِ وَٱلْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما ٱعْتَدَى عَلَيْكُم وَٱتَّقوا ٱللّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩٠ ــ ١٩٤)

ثم نزلت آيات سورة البقرة هذه :

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ

لا تَعلَمُونَ . يَسأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهرِ ٱلحَرَامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كبيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلْفِتنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلقتلِ وَلا يَزالونَ يُقاتِلونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتطاعُوا وَمَنْ يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعمالُهُمْ في ٱلدُّنيا وٱلآخِرَةِ وأُولَئِكَ أَصْحابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنوا وٱلَّذِينَ هاجَرُوا وَجاهَدُوا في سَبِيلِ ٱللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللهِ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٦ – ٢١٨)

ولقد وقعت نتيجة لذلك وقائع عديدة بين المسلمين واهل مكة ، منها ما نعت في روايات السيرة بنعت السرايا وهي ما كانت بقيادة بعض اصحاب رسول الله . ومنها ما نعت بنعت غزوات وهي ما كانت بقيادة النبي عليه السلام . ثم منها ما كان ثانوياً بأعداد قليلة لم يقع فيها احداث جسيمة ودماء كثيرة ومنها ما كان رئيسياً ذا أثر ودوي شديدين .

وأولى ما ذكرته الروايات من الوقائع الثانوية قبل وقعة بدر الكبرى سرية عبيدة بن الحارث الى بطن رابغ على رأس ثمانية اشهر من الهجرة . ثم سرية سعد بن ابي وقاص الى الخرار بعد شهر . ثم غزوة النبي الى الابواء بعد ثلاثة أشهر . ثم غزوته إلى بواط في الشهر الثالث عشر . ثم غزوته الى ذي العشيرة في الشهر السادس عشر . ثم سرية عبد الله بن جحش الى بطن نخلة في الشهر السابع عشر التي سمي فيها عبد الله بن جحش بأمير المؤمنين لأول مرة في تاريخ الاسلام . وكان التعبير يعني قائدهم . وكان جميع أفراد هذه السرايا والغزوات من المهاجرين فقط [١] .

والروايات تذكر ان هذه الغزوات والسرايا كانت تخرج لاعتراض قوافل قريش وان القوافل كانت تنجو فلا يقع قتال إلا في الأخيرة حيث وقع اشتباك فقتل المسلمون احد المشركين واسروا اثنين وغنموا القافلة .

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤٣–٤٩ وابن هشام ج ٣ ص ٢٢٣–٢٣٨

وفي آيات الحج جملة (أذن للذين يقاتلون) وفي آيات البقرة الاولى جملة (وقـــاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونـكم) وفي آيات البقرة الثانية جملة (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) حيث تلهم هذه الجملة ان اهل مكة هم الذين بدأوا بالقتال بشكل ما لم تروه الروايات . وهذا لا يعني ان هذا هو المبرر الاوحد لما كان من تلاحق الحركات ففي ما كان من اهل مكة من ظلم وعدوان وبغي وأذى ضد المسلمين وازهاق لأرواح بعضهم وفتنة بعضهم عن دينه ومؤامرتهم على اغتيال النبي وإلجائهم النبي والمسلمين الى الخروج من وطنهم مبرر قوي لاعتبار حالة الحرب قائمة بينهم وبين المسلمين واقـــدام المسلمين على التحرش بهم ونهب قوافلهم وقتل مـــن يمكن قتله منهم ولو لم يصح تخميننا بدء اهل مكة بالقتال . وفي آيات الحج والبقرة يبدو هذا المبرر قوياً .

ومن الاحداث التي يحسن تسجيلها موادعة النبي عليه السلام لرئيس بني ضمرة مخشى بن عمرو وقومه في اثناء مسيره لغزوة الابواء على الوقوف موقف المحايد المسالم فـــلا يغزون المدينة ولا يعينون عدواً ولا يكثرون عليه جمعاً فكان هذا اول عهد موادعة بين النبي وبعض المشركين بدون سابق حرب وعداء . ومن ذلك ان الاشتباك الذي كان بين قافلة قريش وسرية عبد الله بن جحش كان في يوم اشتبه انه اول رجب الذي كان من الاشهر المحرمة . فاستغلت قريش الحادث وأخذت تشيع بين العرب ان محمداً واصحابـــه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الاموال وأسروا الرجال . وغضب النبي على قائد السرية وافرادها وقال لهم ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام وتوقف عنـــد توزيع الغنيمة وتوتر الموقف حتى فرجه الله بآيات سورة البقرة التي أوردناها قبل قليل فيها تبرير لما وقع من المهاجرين المجاهدين .

والمتبادر ان النبي عليه السلام لم ينتدب الانصار للخروج في هذه السرايا والغزوات لأنها تعد بشكل ما عملا تحرشياً او هجومياً في حين ان العهد الذي بينه وبينهم ان يدافعوا عنه ويحموه بما يدافعون ويحمون نساءهم وأولادهم .

ولقد قال الدكتور هيكل [٢] انه يرى ان من اهم مقاصد هذه الغزوات والسرايا ازعاج قريش واجبارهم على التروي في موقفهم وحسبان حساب تعطل طرق تجارتهم فيجنحون الى

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٤٦

(٢) حياة محمد طبعة ثانية ص ٢٣٨ وبعدها

المسالمة والتفاهم مع النبي اكثر منها الحرب والانتقام لان اكثرها كانت حركات خاطفة وبأعداد قليلة . وكانوا يعلمون ان قوة مكة كبيرة ليس لهم قبل بها .

وفي بعض هذا القول وجاهة تؤيدهـــا آيات القرآن حيث وردت في آيات البقرة التي أوردناها قبل جملة .

(فَإِنِ ٱنتَهَوا فَإِنَّ ٱللهَ غفورٌ رَحِيم)

وجملة :

(فَإِنِ ٱنتَهَوْا فلا عُدوانَ إلاَّ عَلي ٱلظَّالِمِينَ)

وقـــد وردت في آيات من سورة الأنفال التي نزلت بعد وقعة بدر حيث جـــاء في الآية ١٩ :

(إنْ تَسْتفْتِحوا فَقَدْ جاءَكُمْ ٱلْفَتحُ وإنْ تَنْتَهُوا خَيْرٌ لَكمْ)

وفي الآية ٣٨ :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغفَرْ لَهُمْ ما قَد سَلفَ)

والآيتان تعنيان اهل مكة .

غير ان هذا لا ينفي قصد وفكرة الحرب والانتقام ايضاً . والسرعة وقلة العدد ليستا مهمتين لأنهما كانتا حسب الظروف . وكان العدد يكثر ويقل وفق الاخبار التي تتوفر عن قوة العدو .

ثم كانت وقعة بدر الكبرى في السابع عشر من رمضان من السنة الهجرية الثانية [١] :

وبدر ماء بين مكةوالمدينة كان يقام عندها سوق . فقد علم النبي ان قافلة تجـــارية كبيرة ذاهبة الى مكة فقال لأصحابه اخرجوا اليها عسى الله ان ينحها لكم . فخرجوا تحت قيادته وكانوا نيفاً وثلاثمئة منهم نحو ٢٤٠ من الانصار وباقيهم من المهاجرين . وهي أول

(١) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٥٠ــ٦٦ وابن هشام ج ٢ ص ٢٤٣ــ٤٣٣

مرة بخرج الانصار في حركة حربية . وعـــلم ابو سفيان رئيس الركب بخروجهم فأرسل يستنجد بمكة وسار في طريق آخر فنجت القافلة . وعرف النبي ان القافلة قـــد نجت وان نجدة كبيرة قد خرجت من مكة . ومع ان النجدة علمت بنجاة القافلة واقترح بعض زعماء مكة العودة بل وعاد بعضهم فان ابا جهل ابى وقال والله لا نرجع حتى نزور بدراً فنقيم عليها ثلاثاً ننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع العرب بمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .ولقد اقترح بعض اصحاب رسول الله العودة مادامت القافلة وهي الغرض الاول قد نجت غير ان آخرين تحمسوا لما علموا ان حملة قريش لم ترجع وانها في موقف التحدي للمسلمين ورأوا في رجوعهم معنى الفرار وابدوا استعدادهم للقتال . وطلب النبي عليه السلام من الناس الرأي فكان المهاجرون يؤيدون فلم يكتف وظل ينشد الرأي من الناس فقام سعد بن معاذ رضي الله عنه احد زعماء الانصار الكبار وقال كأنك يا رسول الله تريدنا قال اجل – وعلل راوي الخبر ذلك بأن الانصار انما عاهدوه على الدفاع عنه – فقال يا نبي الله امض لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هـــذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد . فانشرح صدر النبي وقال سيروا على بركة الله فإن الله وعدني احدى الطائفتين . فوالله لكأني انظر الى مصارع القوم . وكان عدد حملة المشركين اضعاف حملة النبي عدداً . ووقع الاشتباك فثبت الله المسلمين وشملتهم عنايته وروحانيته حتى تم لهم النصر وقتل في المعركة نحو سبعين من المشركين فيهم عدد غير يسير من صناديدهم منهم ابو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وامية بن خلف وزمعة بن الاسود واخواه والعاص بن هشام ونبيه ومنبه ابناء الحجاج وحنظلة بن ابي سفيان والعاص بن سعيد العاص والحرث بن عامر والحرث الحضرمي وغيرهم . وأسر نحو سبعين . وكان عدد شهداء المسلمين اربعة عشر ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وتعد هذه الواقعة من ناحية معناها ونتائجها بقطع النظر عن العدد فتحاً عظيما في تاريخ الاسلام بسبب الضربة الشديدة التي نزلت بها على صفوف مشركي مكة والدوي العظيم لنصر المسلمين عليهم .

ولقد روي ان النبي عليه السلام كان اثناء المعركة يضرع الى الله هاتفاً (اللهم ان غلبت هذه الفئة فلن تعبد في هذه الارض) مما فيه دلالة على ما كان يعلق عليها من اهمية وعلى ما كان لانتصار المسلمين فيها من مدى خطير .

وشطر كبير من سورة الانفال تضمن الاشارة الى هذه الوقعة والتنويه بمداهـا [1] . والتمعن في آيات هذه السورة يدعم ما قلناه من خطورة الوقعة ومداها ونتائجها . وفيهـا تنويه وتذكير بما كان من تأييد الله للمسلمين بعنايته وملائكته حتى تم لهم النصر عـلى قلة عددهم وكثرة عدوهم

والسورة استهلت بذكر الانفال (الغنائم والاسلاب) بأسلوب يدل على ان المجاهدين اختلفوا في كيفية توزيع الغنائم . وقد احتوت السورة تشريعاً أزال الخلاف وهو توزيع اربعة اخماس الغنائم على المجاهدين والخمس الآخر لله ورسوله وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل حيث كان المجاهدون يجهزون ويمونون انفسهم بأنفسهم .

وبهذه الوقعة امتزج دم المهاجرين بدم الانصار واشتد توطد الوحدة الاسلامية بينهما . وقد اثبت المسلمون فيها على ان الغنائم لم تكن الحافز على الاشتباك مع العدو ولكنه كان قصد الارغام .

ومما روي في سياق وقعة بدر وفيه تشريع نبوي عظيم ان النبي عليه السلام نزل منزلا فسأله الحباب بن المنذر عما اذا كان ذلـك بأمر الله ام بتدبير منه فقال له بل بتدبير مني فقال له : هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى الماء فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له النبي (لقـد اشرت بالرأي) وفعل بالمشورة .

ولقد اعلن النبي عليه السلام استعداده لأخذ الفداء عن الاسرى ومـنع التمثيل بهم ووصى بهم خيراً ولم يقتل منهم إلا عقبة بن معيط والنضر بن الحارث لشدة ما كان مـن اذاهم للنبي والدعوة . وكان فداء الاسرى برأيه ورأي ابي بكر خلافـاً لرأي عمر الذي اقترح قتلهم وقد عاتب الله النبي على هذا الرأي في آيات سورة الانفال هذه :

(ما كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي ٱلأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلا كِتابٌ مِنَ ٱللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلالاً

---

(1) الايات ١ - ١٩ و ٤١ - ٤٨

طَيِّباً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٦٧ ـ ٦٩)

وواضح ان التنزيل القرآني لم يمنع الأمر وإنما نبه إلى أنه لا ينبغي أن يكون إلا في ظرف تكون هيبة النبي والمسلمين قد توطدت . ولقد جاء في هذا الظرف فأنزل الله هذه الآية في سورة محمد :

(فَإِذا لَقِيتمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ . فَإِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلوِثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزارَها الخ ... « ٤ »)

وقد تراوح الفداء بين أربعة آلاف وألف درهم إلا من لا شيء معه ولم يفاده أهله فمنّ النبي عليه . ومنهم من فعل معه ذلك لقاء تعليم عدد من أطفال المؤمنين القراءة والكتابة .

ولقد كان وقع الهزيمة وهلاك من هلك من المشركين عظيما على قريش حتى لقد دفع الغيظ صفوان بن امية إلى الاتفاق مع عمير بن وهب على ان يسد عنه دينه مقابل تعهده بالذهاب الى المدينة واغتيال النبي عليه السلام . ولقد ذهب فعلا فاشتبه المسلمون فيه فأخذوه إلى النبي معتقلا فأخبره النبي بما جاء من أجله فلم يسعه إلا أن يعترف بصلة النبي بالله لأن امر الاتفاق كان سراً بينه وبين صفوان فقط ثم أسلم واستأذن في العودة الى مكة لقضاء مصالحه . وقد اسلم على يديه ناس كثير [1] .

وبعد ايام من وقعة بدر ذهب عمير بن عدي في جوف الليل الى بيت امرأة من بني امية اسمها عصماء بنت مروان زوجة يزيد بن زيد الخطمي . وكانت تعيب الاسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وتقول الشعر فوضع سيفه على صدرها حتى انفذه من ظهرها ثم صلى الصبح مع النبي فسأله أقتلت ابنة مروان قال نعم فهل علي من ذلك شيء فقال له : (لا ينتطح فيها عنزان)

---

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٩

وقد اورد ابن سعد هذا الحادث الطريف بعنوان سرية بن سعد [1] . وظاهر الحال يدل على ان عصماء كانت تقيم في المدينة أو في إحدى ضواحيها .

ولقد أراد ابو سفيان الذي كان يتولى قيادة جيش مكة ان ينتقم من هزيمة بدر بغارة خاطفة على المدينة فخرج في مئتي راكب حتى بلغها فحرق بعض نخيلها وقتل رجلين وجدهما في حرث لهما وانصرف . ونذر الناس بهم فخرج النبي في اثره على رأس ثلة من أصحابه فلم يدركه . وسميت هذه الغزوة بغزوة السويق لأن ركب ابي سفيان اخذوا يلقون ما معهم من سويق للتخفف فوجد المسلمون في طريقهم كثيراً منه . وكانت الوقعة في الشهر الثاني والعشرين من الهجرة [2] .

وبعد قليل خرج النبي على رأس حملة يريد قريشاً رداً على غارة ابي سفيان فوصل الفرع واقام بها شهرين متربصاً ثم عاد ولم يلق كيداً [3] .

بعد قليل ارسل النبي حملة بقيادة زيد بن حارثة لاعتراض عير لقريش في ارض نجد . فلما اقبلت على العير فر رجالها الذين كان منهم صفوان بن امية وحويطب بن عبد العزى وعبد الله بن ابي ربيعة من رجال قريش البارزين . وقد فروا بأرواحهم واستولى زيد على العير الذي بلغت قيمة ما يحمله مئة الف درهم . وقد اسرت الحملة دليل العير فعرض عليه الاسلام فأسلم [4] .

ثم كانت الوقعة الكبرى التي عرفت بوقعة احد وهو اسم جبل قريب من المدينه وقعت الوقعة في سفحه الجنوبي . وكانت في الشهر الثاني والثلاثين مـــن الهجرة وفي شهر شوال ، حيث جمعت قريش جموعها وزحفت على المدينة بثلاثة آلاف محارب فيهم ٧٠٠ دارع و ٢٠٠ فرس و ٣٠٠٠ بعير لأخذ ثارها .

والمستفاد من الروايات [5] ان النبي علـــيه السلام حينما بلغه خبر الزحف المكي استشار

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٦٦ــ٦٧

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٦٩ وابن هشام ج ٢ ص ٤٢٢ــ٤٢٣

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٤٢٠ــ٤٢٦

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ٧٥

(٥) ابن سعد ج ٣ ص ٧٨ــ٩١ وابن هشام ج ٣ ص ٣ــ١٥٩

المسلمين فأشار بعضهم بالتحصن في المدينة واتخاذ خطة الدفاع واشار آخرون بالخروج وعدم الظهور بمظهر الخائف . وكان كبير المنافقين وبعض رجاله من الرأي الاول . وقد جنح النبي في اول الأمر الى هذا الرأي غير ان الاكثرية مالت الى الرأي الثاني فوافقهم النبي وتهيأ للحرب وامر الناس بالتهيؤ والخروج فخرجوا في نحو الف ومعهم المنافقون ثم انسحب كبير المنافقين ابن ابي وقال انه اطاعهم وعصاني ولا أرى أن قتالا سيقع وعاد فعاد معه نحو ثلاثمئة. وكاد بطنان من الخزرج ان يتأثوا وينسحبا مع المنسحبين ولكن الله ثبتهم . وكان عـدد الثابتين نحو ربع عدد الغزاة . ولقد رتب النبي صفوف المسلمين وامر الرماة باحتلال مكان مرتفع من وراء الميدان وشدد عليهم بعدم مزايلة مكانهم لحماية ظهر اخوانهم . ودارت رحى القتال فوقع الرعب في قلوب المشركين ولاحت عليهم امارات الهزيمة والاضطراب .ورأى الرماة ذلك فوسوس الشيطان لبعضهم بالنزول حتى ينالوا نصيباً من الاسلاب . ولما رأى قائد فرسان المشركين خلو مكان الرماة اغتنم الفرصة فدار بخيله من وراء المسلمين وفاجأهم فاضطربوا وذعروا ثم انهزموا لا يلوون على شيء ووقع النبي في حفرة واصابه بعض الجروح في رأسه وأسنانه . وظن الناس انه قتل فازداد المسلمون اضطراباً وذعراً .

ولقد تجلت شجاعة النبي في هذا الظرف فثبت في ميدان المعركة رغم ما اصابه وحوله بعض اصحابه واخذ يهتف بالمنهزمين حتى عادوا ووقفوا موقف المستميت . والقى الله في قلوبهم الامن وفي قلوب اعدائهم الخوف فاكتفوا بما كان ولم يقع اشتباك آخر بين الفريقين. وقد استشهد من المسلمين نحو ثمانين اكثرهم من الانصار ومن أبرز الشهداء حمزة عم النبي .

وقد روي ان هنداً زوجة ابي سفيان حرضت عبداً لها اسمه وحشي على قتله مقابل عتقه وكان بارعاً في رمي الحربة فقتله انتقاماً لأبيها وعمها وابنها الذين قتلوا في بدر . وقتل من المشركين نحو ثلاثة وعشرين فيهم بعض صناديد قريش مثل هشام بن امية بن المغيرة والوليد ابن العاص بن هشام وامية بن ابي حذيفة وابي بن خلف الجمحي وغيرهم . والاخير قـد قتله رسول الله بحربة رماه بها فكسرت اضلاعه فلم يلبث ان هلك .

ومما روي ان ابا سفيان هتف قائلا يوم بيوم بدر واخذ يرتجز (اعل هبل . اعل هبل) فرد عليه المسلمون بأمر النبي (الله اعلى واجل) فهتف (لنا العزى ولا عزى لكم) فردوا عليه (الله مولانا ولا مولى لكم) وانصرف الفريقان عن بعضهما بعد تواعد على اللقاء في العام القابل على بدر . ولقد جاء من اخبر النبي عليه السلام ان قريشاً توقفت واعتزمت الكرة

ثانية فنادى النبي بالخروج وخرج على راس اصحابه وهو مجروح حتى بلغوا حمراء الاسد فوجدوا قريشاً قد انصرفت فعادوا بدون لقاء [1] ، ويدل هذا على ما كان النبي واصحابه يشعرون به من قوة نفس وجنان وايمان وان ما كان في الجولة الثانية من وقعة احد من هزيمة منوا بها انما كانت بسبب الخطأ الذي اخطأه الرماة ومزايلتهم لمكانهم الذي امرهم النبي بالتزامه .

ومما روي ان بعض الذين ايدوا فكرة الخروج ظنوا انهم استكرهوا النبي فقالوا له ما كان لنا ان نكرهك على الخروج فافعل ما ترى فلن نخالفك . وكان قد لبس عدة الحرب فقال (لا ينبغي لنبي اذا لبس لأمته ان يضعها حتى يحكم الله بينه وبين اعدائه فانظروا ما امرتكم به فافعلوه وامضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم .

حتى مما روي انه كان مع قريش بعض نسائهم وفي طليعتهن هند زوجة ابي سفيان فكن يضربن بالدفوف ويحرضن ازواجهن ويذكرنهم بقتلى بدر .

ولقد نزل فصل طويل من سورة آل عمران في هذه الوقعة [2] . وما اقتبسناه من ابن هشام وابن سعد آنفاً متسق مع مضامين الفصل الذي احتوى على ما يدل على ان المسلمين قد الم بهم حزن والم شديدان من نتائج المعركة . وفي الفصل تقرير بأن انقلاب المعركة ضد المسلمين بعد ان صدقهم الله وعده ونصرهم على عدوهم في جولتها الاولى انما كان بسبب ما بدا من بعض المجاهدين من مخالفة للنبي وطمع في الغنيمة واختلاف وتنازع . وفيه حملة شديدة على المنافقين الذين لم يكتفوا بالانسحاب بل استغلوا ما الم بالمخلصين فصاروا يقولون لهم لو اطعتمونا ما قتلتم على ما جاء في الفصل .

ولقد احتوى الفصل آيات عديدة فيها معالجة شافية لجميع الحالات التي نشأت من ظروف الوقعة ونتائجها الممضة يمكن ان تكون معالجة شافية لكل حالة مماثلة تلم بالمسلمين في كل ظرف حيث احتوت بأسلوب رائع قوي تطميناً وبشرى وتهدئة وتعليما ثم استنكاراً لما كان من هزيمة وفوضى بسبب شائعة قتل النبي وبثاً للقوة والعزيمة والاقدام في نفوس المسلمين وتلقيناً لهم ان واجب الاستمرار في الدفاع عن الاسلام ونشره ورفع شأنه واجب عام دائم لا يجوز ان يقعدهم عنه او يجعلهم يقصرون فيه اي حادث حتى قتل النبي او موته .

---

(۱) ابن سعد ج ۳ ص ۹۰ــ۹۱

(۲) الايات ۱٦٤ــ۱۷۹

هذا وفكرة غزو المكيين للمدينة والحشد الكبير الذي حشدوه والحشد القليل الذي قوبلوا به ، كل ذلك يدل على ان المسلمين ما يزالون في حالة ضعف وقلة وعلى ان المكيين يعرفون ذلك حق المعرفة فضلا عن دلالته على تفوق مكة عـــلى المدينة في القوة والبأس بصورة عامة . ولعل تفكير بعض زعماء المدينة بالتحصن والدفاع وعدم الخروج للقاء الغزاة على ان اهل المدينة يعرفون كل ذلك حق المعرفة ايضاً .

وموقف المنافقين في ظروف الوقعة ترداً وتخلفاً وانسحاباً وتأثيراً وتهويشاً وتظاهراً على غير ما يليق ووسوسة للمخلصين واستغلال المهم كل ذلك يدل على انهم كانوا اقوياء الى حد ما وانهم كانوا مستشعرين بقوتهم وان المخلصين كانوا يشعرون بذلك ايضاً .

ولقد كان من نتائج صدمة الوقعة الشديدة ان تزلزل بعض المخلصين الذين كان من رأيهم عدم الخروج حتى اخذوا يقولون (لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا) على ما جاء في الفصل الذي جاء فيه امر للنبي عليه السلام بالعفو عنهم والاستغفار لهم ومشاورتهم في الأمر وتنويه بما كان من رحمة الله بالنبي ان جعله ليناً بعيداً عن الغلظة والفظاظة وان ذلك هو الذي جعلهم يظلون ملتفين حوله في اية حال . وفي ذلك تعليم رباني مستمر التلقين في كل ظرف ولكل زعيم .

وبعد عام خرج النبي على رأس الف وخمسمئة من اصحابه للقاء قريش حسب الموعد الذي تواعدوا عليه بطلب ابي سفيان . وكان العام عام جدب فاقترح بعض المخلصين عدم الخروج فأبى النبي حتى لا يظن العدو فيهم ضعفاً . والعدد قد يدل على نمو القوة الاسلامية خلال العام . وقد خرج ابو سفيان في الفين فلما وصل المجنة قال ارجعوا فاني راجع فان العام جدب ولا يصلح لنا إلا عام خصب غيداق . وقد انتظر النبي اياماً في بدر فلما لم يأت جيش مكة عاد بدون ان يلقى كيداً [1] .

وبعد سنة كانت وقعة الخندق او الاحزاب الكبرى [2] حيث جمعت قريش جميع قوتها واحزابها وحلفاءها حتى بلغ عددهم عشرة آلاف اربعة آلاف منهم من مكة والباقون من حلفائها واحزابها وزحفت نحو المدينة لاستئصال شأفة النبي والمسلمين . وسميت بوقعة الخندق

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٠ — ١٠٢

(٢) انظر ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ — ١١٦ وابن هشام ج ٣ ص ٢٢٩ — ٣٠١

لأن النبي والمسلمين التزموا خطة الدفاع وحفروا خندقاً حول المدينة ليحولوا دون اقتحام الغزاة والاشتباك مع العدو لكثرة عدده وعدده .

وقد كان لليهود ضلع كبير في هذه الحركة . فان الامر بينهم وبين النبي قد تطور حتى صار موقف عداء صريح هدد المسلمين بالخطر على امنهم وسلامتهم فاجلى النبي نتيجة لذلك يهود بني قينقاع ثم يهود بني النضير عن المدينة ، وقد ذهب بعض زعمائهم ممن بقي في المدينة من بني قريظة وممن جلا الى خيبر ووادي القرى الى مكة ثم الى قبائل غطفان وسليم فحرضوا زعماءها وتحالفوا معهم فصار المسلمون بين نارين من امامهم ومن خلفهم فاضطربوا وزلزلوا ووقف المنافقون موقف الشامت المعوق على ما ذكرناه في فصلهم فازداد الأمر شدة وحرجاً ، وكان ذلك مما جعلهم يفضلون خطة الدفاع ويحفرون الخندق ويتهيئون من ورائه للقتال ويرفعون النساء والاولاد الى الآكام في الهضاب والجبال . وكان عددهم ثلاثة آلاف حيث يدل على ازدياد قوتهم خلال هذه السنة ايضاً .

ونتيجة لهذه الخطة لم يقع بين الطرفين إلا مبارزات فردية وتراشق بالنبال . وقد امتد حصار الزاحفين نحو شهر وازعجتهم العواصف ودب بينهم وبين اليهود ريبة ونفور بسبب سعي سعاه زعيم مسلم يكتم اسلامه من غطفان اسمه نعيم بين الطرفين فنادى منادي ابي سفيان اني راحل ثم ركب ناقته وسار فارتحل الناس في اثره وكفى الله المؤمنين القتال .

وفي سورة الأحزاب آيات [1] تشير الى هذه الواقعة وما الم بالمسلمين من الزحف من همّ وفزع وما كان من المنافقين من موقف لئيم وما كان من تأييد الله وفرجه فيما كان من الريح والجنود الربانية التي سلطها الله على العدو وارتداده بغيظه دون ان ينال خيراً .

ولقد كان ارتداد الاحزاب عن المدينة نصراً عظيما بل من اعظم ما تم للنبي عليه السلام ودعوته من نصر وتوفيق.

ومما لا نرتاب فيه انه كان ذا اثر كبير فيما تم من تعالي الاسلام واتساع نطاقه وازدياد قوته فيما بعد ، وانـــه كان له اثر سلبي وايجابي في آن واحد . اذ جعل العرب المتربصين والاعداء والمنافقين في المدينة يرون فيه دلالة تأييد الله لرسوله واتباعه ودينه ، فيقف الاعداء عند حدهم ويكف المنافقون عن مواقفهم او الغلو فيها ويبدل المتربصون موقفهم من التربص

---

(١) الايات ٩ — ٢٥

الى الاقبال .

ومن حقائق وقائع السيرة النبوية ان الدعوة الاسلامية والقوة الاسلامية قد اخذتا بعد هذه الوقعة وبعد التنكيل الساحق ببني قريظة الذي تم عقبها وهم آخر من بقي في المدينة بالازدياد وان قوة المنافقين قد اخذت بالضعف والتضاؤل وان المكيين لم يفكروا في متابعة غزوهم وان النبي عليه السلام قد رأى من نفسه القوة وفي الميدان مجالا في السنة التالية على اعتزام زيارة الكعبة وان المكيين قد رأوا فيه القوة فجنحوا الى مسالمته وعقدوا معه صلح الحديبية . وكل هذا يدعم ما نوهنا به من اثر هذا النصر العظيم السلبي والايجابي .

وبعد ارتداد الاحزاب علم النبي بمسير عير لقريش فارسل سرية بقيادة زيد بن حارثة فلقيها في مكان اسمه العيص فاستولى عليها . وكان فيها لصفوان بن امية فضة كثيرة [١] .

وبعد قليل اتفق ابو سفيان مع اعرابي على ان يذهب الى المدينة ويغتال النبي . ولما وصل هذا ودخل على رسول الله اشتبه فيه فامسك به بعض اصحاب رسول الله فاذا خنجر يسقط منه فقال له النبي اصدقني من انت وانت آمن فاخبره بخبره واسلم [٢] .

ورأى النبي ان يقابل الكيد بمثله فارسل عمروا بن امية الضمري وسلمة بن اسلم ليغتالا ابا سفيان ولكن معاوية بن ابي سفيان عرف عمروا فاخبر به قريشا فخافوه وطلبوه وكان فاتكاً في الجاهلية فاستطاع ان ينجو مع رفيقه وفي الطريق التقى بمشركين فقتلها ثم التقى برسولين لقريش ارسلتها ليتجسسا اخبار النبي فقتل احدهما واسر الآخر [٣] .

صلح الحديبية ومداه

●

اما نبأ الزيارة وصلح الحديبية فالمستفاد عنهما من الروايات [٤] وآيات سورة الفتح التي نزلت في صددهما ان النبي عليه السلام راى في منامه انه دخل المسجد الحرام مع المسلمين آمنين وأدوا الزيارة وتحللوا من الاحرام بحلق الشعر او تقصيره حسب تقاليد الزيارة والحج

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٠

(٢) نفس المصدر ص ١٣٦—١٣٧

(٣) نفس المصدر ص ١٣٧

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٩—١٥٠ وابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥—٣٧١

واعتبر ذلك إلهاماً من الله واعلن للمسلمين عزمه على الزيارة وانتدبهم الى صحبته . وقد خرج معه نحو الف واربعمئة سائقين امامهم الانعام التي سوف ينحرونها قربة لله والتي كانت تسمى « الهدي » ولما وصلوا قرب مكة أرسل اليه المكيون ينذرونه بالترقف وصدوا الهدي عن الوصول الى محله حيث كبر عليهم ان يتحداهم .

ومما روي ان ناقته بركت في الحديبية التي سميت الوقعة باسمها والتي كانت منزلا فيه ماء فاستلهم من هذا وجوب التوقف وقال « والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم الى خطة فيها تعظيم حرمات الله وصلة رحم إلا اجبتهم إليها . وحاولت قريش ان تصده بالوعيد والتخويف فأرسلت اليه اكثر من زعيم كأنهم آتون من عند أنفسهم منهم زعيم خزاعة ومنهم زعيم الاحابيش ومنهم زعيم ثقيف يخبرونه بجمع قريش جموعها وتصميمها على منعه وينصحونه بعدم العناد والاصرار فكان يجيبهم انه انما جاء للزيارة وليس للقتال وانه يطلب من قريش التهادن والسماح له بالزيارة والتخلية بينه وبين العرب فإن هلك كفوا مؤونته وان اظهره الله كانوا في الخيار وان امعنوا في العناد وارادوا القتال فسوف يقاتلهم حتى تنفرد سالفته « حتى يقتل » ولينفذن الله امره . وأرسل من جانبه عثمان بن عفان ليخبر الناس برغبته عن القتال ورغبته في الزيارة فأبطأ في العودة وشاع ان قريشاً قتلته او حبسته . وحينئذ دعـــا النبي المسلمين الى مبايعته على الثبات والتضامن تحت شجرة آوى اليها وعرفت البيعة ببيعة الشجرة وببيعة الرضوان وظهر على المسلمين وهم يبايعون الحماس والعزيمـــة والتصميم على الموت في سبيل نصر الله ورسوله ودينه مما جعلهم مظهر ثناء الله ورضائه في آية الفتح هذه « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ١٨ »

ولم يلبث عثمان ان عاد وتيقنت قريش من قوة عزيمة النبي واصحابه وتصميمهم فلانت وارسلت احد زعمائها سهيلا بن عمرو الى النبي لمفاوضته في عقد هدنة مزوداً بشروط شديدة مثل تأجيل الزيارة الى العام القابل واعادة من يأتي النبي مسلماً من مكة على رغم اهله وعدم اعادة من يلتحق بمكة من المسلمين مرتداً وقبل النبي الشروط بعد مفاوضات وجذب ودفع واتفق على ان تكون مدة الهدنة عشر سنين . وكتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش وحينئذ امر النبي بذبح الهدي وحلق الشعر او تقصيره تحللا من الاحرام ثم نادى بالعودة الى المدينة . وفي اثناء المفاوضة حاول بعض فرسان قريش اخذ المؤمنين على غرة فعلم النبي بحركتهم وارسل من كمن لهم في الطريق واحبط الحركة واسر المسلمون

ثم من عليهم وأطلقهم . وفي أثناء كتابة العقد جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف بالحديد وكان شاباً مسلماً حبسه ابوه عن الهجرة وقيده فقال الأب للنبي لقد تم الاتفاق قبل أن يأتيك فليس لك ان تجيره فقال له صدقت وسلمه إلى أبيه .

ولقد أملى النبي العهد على علي بن ابي طالب فكتب باسم الله هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لا تعرف هذا فاكتب « باسمك اللهم هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله) فمحا النبي ما كتب أولا وأمر بكتابة ما طلب سهيل أن يكتب . حيث انطوى في الحادثين تشريع نبوي عظيم .

وهذا ما روي من الاتفاق الذي تم توقيعه (هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو . واصطلحا على وضع الحرب عشر سنين . يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على انه لا إسلال ولا إغلال . وان بيننا عيبة مكفوفة . وانه من احب ان يدخل في دين محمد وعقده فعل . ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل . وانه من أتى محمداً منهم بغير اذن وليه رده اليه . وانه من أتى قريشاً من اصحاب محمد لم يردوه . وان محمداً يرجع عامه هذا بأصحابه ويدخل قابلا في اصحابه فيقيم بمكة ثلاثاً لا يدخل بسلاح إلا سلاح المسافر . السيوف في القرب . شهد ابو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وسعد ابن ابي وقاص وعثمان بن عفان وابو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأحنف . وكتب علي) وحفظت نسخة من هذا العقد عند النبي واخذ نسخة منه سهيل بن عمرو [1] .

ولا نشك في ان هذا النص مقارب لما كتب ان لم يكن بحروفه وان الروايات ظلت تتداوله الى ان دون في أول ما دون من النصوص في القرن الاول أو الثاني .

ولقد كبر على بعض المخلصين ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الشروط فأنزل الله سورة الفتح التي سمت الصلح نصراً مبيناً ونوهت به تنويهاً عظيماً مؤيدة للنبي عليه السلام فيما أبرم .

ولقد كان حقاً فتحاً عظيماً بل انه ليصح ان يعد من الاحداث الحاسمة الكبرى في السيرة النبوية وفي تاريخ الاسلام وقوته وتوطده . فقد اعترفت قريش بالنبي والاسلام وقوته

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ (لا إسلال ولا اغلال) لا سرقة ولا غزو وظاهراً وخفيا .

وكيانها واعتبرت النبي والمسلمين انداداً لها بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن في حين انهاغزت المدينة في سنتين مرتين وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هـــذه الزيارة وبحشد عظيم لتستأصل شأفتهم بما أثار في نفوسهم الهلع والاضطراب . ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب الذين كانوا يرون في قريش الأمام والقدوة والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي والعدائي كل التأثر . وفي إحدى آيات سورة الفتح حكى موقف الاعراب المسلمين وتخلفهم عـــن مشاركة النبي في الزيارة واعتذارهم . وقد كشفت الآية عـــن ما في قلوبهم حيث كانوا يقدرون ان النبي والمسلمين لن يعودوا من هذه الرحلة سالمين [1] . وفي إحدى آيات السورة حكى موقف المنافقين وانهم كانوا يظنون أسوأ الظنون حيث يبدو من ذلك ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

ولقد اثبتت الأحداث صدق الهام النبي عليه السلام فيما فعل وأيده فيه القرآن وأظهرت عظيم الفوائد والبركات المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عـــادت منه على المسلمين والاسلام إذ قووا في عيون القبائل وبادر المتخلفون من الاعراب الى الاعتذار وازداد صوت المنافقين خفوتاً وشأنهم ضآلة . وإذ صار العرب يفدون على رسول الله مـــن انحاء الجزيرة المختلفة يدخلون في دين الله بل فعل ذلـك بعض زعماء مكة وتابعيهم مثل عمرو بن

---

(١) سَيَقولُ لكَ ٱلمُخَلَّفونَ مِنَ ٱلأَعرابِ شَغَلَتنا أَموالُنا وأَهلُونا فَاستَغفِرْ لَنا يَقولُونَ بِأَفواهِهِمْ ما لَيسَ في قُلوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِن ٱللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ ٱللهُ بِمـــا تَعمَـــلونَ خَبيراً . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ ٱلرَّسولُ وَٱلْمؤْمِنونَ إِلى أَهليهِمْ أَبَداً وزُيِّنَ ذٰلِكَ في قُلوبِهِمْ وظَنَنْتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وكُنْتُمْ قَوماً بُوراً (١٢ ــ ١٣)

(٢) (ويُعَذِّبُ ٱللهُ ٱلْمنافِقينَ وَٱلْمنافِقـــاتِ وٱلْمشْرِكِينَ وٱلْمشْرِكاتِ ٱلظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيهِمْ دائِرةُ ٱلسَّوْءِ وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ولَعَنَهُمْ وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصيراً ٦)

العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما حيث خرج كل منهما بدافع من نفسه والتقيا في طريقهما الى المدينة .

ومما رواه ابن هشام [1] انهما لما التقيا سأله عمرو الى اين قال له الى المدينة فأسلم فان الرجل لنبي وحتى متى . فقال له وانا كذلك قد خرجت لهذا . وإذ وجد النبي الفرصة لابلاغ دعوته إلى العالم فأرسل رسله وكتبه الى ملوك وامراء الأرض في الجزيرة وخارجها من عرب وعجم [2] . وإذ شعر المهاجرون في الحبشة بالقوة فعادوا ليشاركوا اخوانهم في حركتهم ونشاطهم . واذ تمكن النبي من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام . واذ سار يبعث بسراياه الى انحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء . واذ استطاع بعد سنتين ان يغزو مكة ويفتحها وكان في ذلك النهاية الحاسمة . إذ جاء نصر الله وفتحه ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

وهذا التطور في حالة مكة والمكيين من القوة والهجوم والتفوق والايغال في البغي والرغبة في الاستئصال تجاه النبي والمسلمين الى شيء من الوهن وجنوح الى المسالمة والاعتراف بهم نداً لافت للنظر من دون ريب . وقد يخطر على البال انه قد طرأ طارىء مادي او سياسي او حربي او معنوي او شقاق فيما بينهم لسبب من الاسباب اوهن تضامنهم وصلابتهم فكان هذا الموقف الذي عاد منه على الاسلام فتح عظيم كان له تلك الآثار الخطيرة المتنوعة .

ولعل هلاك عدد كبير بل العدد الأكبر من زعماء المناوأة وصناديد قريش كان من جملة الأسباب . ولقد اعتدى واحد من خزاعة احلاف قريش على واحد من بني بكر احلاف النبي فخافت قريش ان يعتبر النبي ذلك ناقضاً لصلح الحديبيه فأوفدت ابا سفيان الى المدينة ليعتذر ويوثق عقد الصلح . وهذا يدعم ما خمناه من تبدل حالة مكة والمكيين كما هو ظاهر .

على ان هذا لا يعني فيما يتبادر لنا ان لا يكون لارتداد الاحزاب عن المدينة ذلك الارتداد الخاسر الذي زلزل ثقتهم في قدرتهم على النبي عليه السلام ، ولخضد شوكة يهود المدينة نهائياً ولضآلة شأن المنافقين وازدياد اقبال الناس على الاسلام وتعاليمه بعد هذا وذاك آثار ايجابية في هذا التطور .

---

(١) ج ٣ ص ٣١٩

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨ــ٢٨٠

ومن الوقائع الهامة والطريفة معاً ان بعض المحبوسين من المسلمين في مكة تمكن من الفرار الى المدينة فأرسل زعماء مكة يطلبون اعادته وفقاً لعهد الصلح مع رسولين ارسلوهما فسلمه النبي اليهما وفاء بالعهد . وقد استطاع المسلم واسمه ابو بصير ان يقتل احد الرسولين في الطريق وينجو ويعود الى المدينة فأبى النبي ان يدعه يقيم فيها لئلا يكون في ذلك اخلال بالعهد فخرج الى نواحي مكة وأرسل يدعو اليه أمثاله المحبوسين المسلمين في مكة فيخرجون اليه واحد بعد آخر حتى تجمعوا سبعين رجلا فصاروا يقطعون الطريق على مكة وينهبون قوافلها ولا يدعون احداً منها إلا قتلوه ولا عيراً إلا نهبوها حتى اضطر زعماء قريش الى الكتابة الى رسول الله يستجيرون به منهم ويلحون عليه بايوائهم عنده وحجزهم عنهم [1] .

ولقد كان في مكة نساء مسلمات محبوسات عن الهجرة أيضاً . فاستطاع بعضهن ان يفلت ويفر الى المدينة فجاء ذووهن يطلبون ردهن عملا بالعهد . ويظهر ان اجتهاد النبي عليه السلام ان نص العهد لا يلزمه اعادة النساء فتردد في تسليمهن ثم انزل الله آيات مؤيدة لاجتهاده تنهى عن اعادتهن لانهن لا يحللن للكفار [2] . وقد أمرت بدفع تعويض لذويهن منعاً لكل ظن بالاخلال بالعهد فقبل ذووهن ذلك . وفي هذا وذاك مثل رائع على الوفاء النبوي بالعهد ودليل في الوقت نفسه على حالة مكة التي ذكرناها .

ولقد حاول بعض المؤمنين في المدينة تعطيل حركة الحج الى مكة ومنع بعض الحجاج مقابلة لما كان من منع اهل مكة اياهم من الزيارة فأنزل الله آيات تأمر المسلمين بالوفاء بالعهود والتعاون على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان وعدم تعطيل شعائر الحج ولو كان ذلك مقابلة لصد اهل مكة اياهم ، وان لا يحملهم عداؤهم لأهل مكة على مثل ذلك . وفي ذلك ما فيه من الروعة والجلال [3] .

زيارة النبي والمسلمين للكعبة في السنة السابعة

وفي العام القابل خرج النبي عليه السلام ومعه اصحابه لأداء الزيارة حسب العهد [4]

---

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٢ — ٣٧٤

(٢) آيات سورة الممتحنة ١٠ — ١١ وانظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٥ — ٣٧٧

(٣) آيات سورة المائدة ١ — ٢

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ١٦٧ — ١٦٩

وكانت عدتهم الفين فدخلوا مكة في لباس الاحرام وسيوفهم الى جنوبهم مهللين مكبرين واخذ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يرتجز بهذه الابيات :

خلوا بني الكفار عـــن سبيله   خلوا فكل الخـــير مع رسوله
نحن ضربناكم على تأويـــله   كما ضربناكم على تنزيـــله
ضرباً يزيل الهام عـــن مقيله   ويذهل الخـــليل عن خليله
يا رب اني مؤمن بقيـــله

فقال له النبي عليه السلام بل قل (لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده واعز جنده وهزم الاحزاب وحده) فقالها ورددها الناس معه بصوت اهتزت له جنبات مكة ثم امر النبي بلالا فأذن للصلاة من على ظهر الكعبة ثم صلى النبي باصحابه وقفل الى المدينة معتزين شاعرين بما آتاهم الله من نصر وبما كان من كبت لأعداء الله والاسلام .

استطراد وبحث فيما اذا كان المسلمون ادوا فرض الحج قبل فتح مكة

•

والعمرة في التقاليد الاسلامية هي زيارة الكعبة والطواف حولها بثياب الاحرام سواء كان ذلك في موسم الحج أم غيره . وهي تقليد من تقاليد ما قبل الاسلام على ما ذكرته الروايات وتلهمه آية من آيات سورة البقرة [1] . وقد اقر الاسلام هـذا التقليد مثل معظم تقاليد الحج السابقة للاسلام ومن جملتها الاشهر الحرم وتحريم الصيد بعد ان جردها مـــن شوائب الشرك والوثنية والمناظر القبيحة التي كان منها الطواف في حالة العري .

واعتزام النبي عليه السلام على زيارة الكعبة واداء العمرة مع اصحابه يجرنا الى سؤال عما اذا كان النبي والمسلمون قبل الهجرة والمسلمون بعد الهجرة وقبل فتح مكة كانوا يؤدون مناسك الحج .

فبالنسبة الى العهد المكي فانه ليس في القرآن ولا في الروايات ما يثبت ذلك او ينفيه

---

(١) ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم ١٥٨)

بصراحة . ولقد قال بعض المفسرين في سياق آية (فصل لربك وانحر) في سورة الكوثر ان النحر هو نحر الاضحية عقب الطواف . فاذا صح هذا ففيه اشارة الى ان النبي واصحابه كانوا يقومون ببعض مناسك الحج وهم في مكة لأن سورة الكوثر من السور المكية بل ومن ابكرها نزولا . وفي سورة الحج آيات اختلف في مكيتها ومدنيتها [١] فيها دلالات كثيرة على ان المسلمين كانوا يقومون بكثير من مناسك الحج اذ فيها خطاب لهم بذكر اسم الله على القرابين التي تقرب في الحج ويحل اكلها واطعام المعوزين منها وبالطواف حول البيت وتعظيم حرمات الله وشعائره واجتناب الاوثان والتوجه الى الله وحده وترك بعض العادات الجاهلية من تلطيخ جدار الكعبة بدماء القرابين لان الله لا يعنيه إلا التقوى منهم .

وفي هذه الآيات اشارة الى اصل تقليد الحج وكونه من امر الله لابراهيم عليه السلام ليأتي الناس إلى حج البيت من كل فج ويشهدوا منافع لهم . فـــان صحت مكية الآيات فيكون فيها دلالة حاسمة على ان النبي واصحابه كانوا يؤدون مناسك الحج في الحدود التي رسمها الله لهم . حتى ولو لم تصح رواية مكيتها فاننا نميل الى ترجيح كون النبي وأصحابه قبل الهجرة كانوا يقومون بكثير من المناسك مع تجنب مظاهر الشرك والوثنية . ولا سيا ان مكة في موسم الحج تكون آمنة مزدحمة بالناس . وهي فرصة لا يعقل ان النبي يفوتها بالاضافة الى عبادة الله باداء هذه المناسك له خاصة . ولقد كان بعض الزعماء الذين يرون في دعوة النبي هدى لا يتابعونه ولا يشجعونه خوفا من انها قد تذهب بتقاليد الحج وامتيازات اهل مكة في ظلها فطمأنهم القرآن المكي على ذلك على ما تلهمه آية سورة القصص المكية هذه :

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ ٱلْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ٥٧)

ولا بد من ان النبي عليه السلام لا يفوته ما في مشاركته مع اصحابه في مناسك الحج من معنى التطمين ايضا بالاضافة الى ما فيها من عبادة الله ومن فرصة الدعوة الى سبيل الله .

وفي سورة الحج آيات تدل يقينا على انها نزلت بعد الهجرة بقليل . وهي التي احتوت اذنا

---

(١) الايات ٢٩-٣٦

للمسلمين بمقابلة العدو الذي يقاتلهم لأنهم مظلومون اخرجوا من ديارهم بغير الحق ووعدا من الله بالنصر والتي نوهت بالذين هاجروا في سبيل الله ثم ماتوا او قتلوا ووعدتهم بتكريم الله ورزقه [1] .

فإذا لم تكن آيات الحج السابقة مكية فتكون قد نزلت مثل هذه الآيات بعد الهجرة بقليل ايضا وهذا قد يفيد انها نزلت لتشجيع المسلمين على الاستمرار على اداء مناسك الحج بعد الهجرة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وفي سورة البقرة آيات عديدة [2] في مناسك الحج وما يجب فيها على المسلمين وما يجوز لهم وما لا يجوز . وقد نزلت في وقت مبكر من العهد المدني وعلى كل حال قبل عزيمة النبي عليه السلام على الزيارة ، والمتبادر انهـــا نزلت لتعليم المسلمين الذين يستطيعون ان يؤدوا مناسك الحج بعد الهجرة . وبعبارة اخرى فيها دلالة على ان منهم من كان يفعل ذلك. وفي عداها دلالة قوية خاصة على ذلك وهي :

(وأتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَما ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلا تَحْلقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مَرِيضاً أوْ بِهِ أذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُكٍ فَإِذا أمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمرَةِ إلى ٱلْحَجِّ فَما ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ... الخ ١٩٦)

وفي بعضها حكاية لنوعين من دعاء الناس بعد قضاء مناسك الحج احدهما دعاء المؤمنين والثاني دعاء غير المؤمنين على الارجح وهي :

(فَإذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فاذْكُرُوا ٱللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أوْ أشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا في الدُّنْيا وَمالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ . ومِنْهُمْ مَنْ يَقولُ رَبَّنا آتِنا في ٱلدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً

---

(١) الايات ٣٨–٤٠ و ٥٨–٥٩

(٢) الايات ١٨٩و١٩٦–٢٠٣

وَقِنا عَذابَ النَّار . أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩٩ــ٢٠٢)

وفي الآيات دلالة على ان من المسلمين من كان يؤدي مناسك الحج الى جانب غير المسلمين بعد الهجرة كما هو المتبادر .

وعبارة آية آل عمران التي اعتبرت اصل فرض الحج على المسلمين وهي :

(وَللهِ عَلى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتطاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً ٩٧)

والتي نزلت قبل صلح الحديبية تسوغ القول انهـا نزلت من حيث الأصل لحث المسلمين المستطيعين على الحج في العهد المدني ثم صارت مطلقة التوجيه لجميع المسلمين .

وفي آية من آيات البقرة [١] ما يلهم ان المسلمين تحرجوا من السعي بين الصفا والمروة لأنه كان عليها صنمان وكانت القرابين تقرب في الجاهلية عندهما فأذن الله لهم بالسعي لأنه مـن شعائر الله .

وفي آية أخرى [٢] منها ما يلهم ان المسلمين تحرجوا من التكسب والأعمال الدنيوية اثناء الحج فأذن الله لهم في ذلك ابتغاء فضل الله .

وفي آية اخرى [٣] منها ما يلهم ان المسلمين تحرجوا من الاستظلال بالسقوف حسب تقاليد الجاهلية فأذن الله لهم فيها ونبههم الى ان البر عنده هو التقوى .

وهذه الآيات مما نزل قبل صلح الحديبية حيث ينطوي فيها دلالات على ان المسلمين كانوا يذهبون الى مكة في موسم الحج لأداء مناسكه .

وفي سورة المائدة آية [٤] نزلت بعـد صلح الحديبية تنهى المسلمين في المدينة عن تعطيل شعائر الله والحج والهدي والشهر الحرام نكاية بأعدائهم اهل مكة حيث تفيد انهم أرادوا ان يقابلوا اهل مكة بالمثل لقاء صدهم اياهم عن زيارة الكعبة وتعطيل ما يعود عليهم من المنافع من الحج وذلك في صد اخوانهم الذين يريدون الذهاب للحج عن الذهاب وفيها دلالة على ان

---

(١) ١٥٨ (٢) ١٩٨ (٣) ١٨٩ (٤) الاية الثانية

المسلمين كانوا يذهبون للحج قبل صلح الحديبية ايضا .

وقد حج المسلمون حجاً رسمياً ان صح التعبير في السنة التاسعة بقيادة ابي بكر الصديق رضي الله عنه وفي السنة العاشرة بقيادة النبي ﷺ[1]

هذا ويلفت النظر الى ما في اقرار معظم تقاليد الحج السابقة بعد تهذيبها من شوائب الشرك والوثنية والمناظر القبيحة من معان متصلة بالمجتمع الاسلامي الذي كان اذ ذاك هو المجتمع العربي بوجه عام . فالعرب على مختلف منازلهم ونحلهم وثقافتهم كانوا متحدين في هذه التقاليد تقديساً وممارسة.وكان لهم في ظروفها منافع عظيمة متنوعة . وكانت راسخة فيهم رسوخاً شديداً من المتعذر التغلب عليه . وكان اهل مكة وهم أئمة العرب يتخوفون من انتشار الدعوة الاسلامية ظناً منهم انها ستلغي هذه التقاليد ويفقدون بذلك مركزهم الممتاز ومنافعهم الكثيرة . وهذه التقاليد في اصلها مما هو متصل بملة ابراهيم التي دعا اليها القرآن . وكان العرب يعرفون هذه الصلة ويبنون تقاليدهم عليها . ولقد استهدف القرآن فيما استهدف توسيع افق العرب واخراجهم من نطاق القبيلة الضيقة الى كيان الامة الموحدة مما كانت تقاليد الحج بدأت تساعد على تحقيقه فيما كان من انضواء جميع العرب من حضر وبدو ومن مختلف انحاء الجزيرة اليها وقدومهم من كل صوب الى مكة في موسم الحج لممارستها ثم فيما كان نتيجة لذلك من تهذيب لهجات العرب وتقريبها حتى تصفى منها لغة واحدة يتكلمها ويفهمها جميع العرب على ما شرحناه في الجزء السابق لهذا الجزء . فكل هذا مما يفسر حكمة ذلك الاقرار ويوضح المعاني التي اشرنا اليها كما هو المتبادر .

فتح مكة ومداه

●

وبعد عام من زيارة العمرة زحف النبي على رأس المسلمين على مكة لأنها نقضت العهد[2] وقد ذكرت الروايات ان بطناً من بني بكر بن كنانة الداخلين في عهد مكة استعانوا بقريش على اعدائهم بني خزاعة بالرجال والسلاح ففعلوا فبيتوا بني خزاعة وهم غارون فقتلوا منهم عشرين رجلا . وذهب وفد خزاعي الى المدينة يخبر النبي بما وقع عليهم ويستنصره .

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٠٠ و ٢٧٢

(٢) انظر تفصيل فتح مكة الذي لخصناه في هذه النبذة في ابن هشام ج ٤ ص ٣—١٦٧ وابن سعد ج٣ ص ١٨١—١٩٨

فوعدهم خيرا . وادركت قريش ان عملها نقض للعهد فسارع ابو سفيان الى المدينة ليوثق العهد . فكلم النبي فلم يرد عليه فطلب من ابي بكر التوسط فأبى ثم من عمر فأبى ثم اتى علياً ابن ابي طالب وفاطمة فأبيا فجاء إلى باب المسجد يائساً وهتف (ايها الناس اني قـــد اجرت بين الناس) ثم عاد . ومما رواه ابن هشام ان ابا سفيان حينما قدم المدينة دخل على ابنته ام حبيبة زوجة رسول الله فلما اراد ان يجلس على فراش رسول الله طوته عنه فسألها ارغبت بي عنه ام رغبت به عني فقالت هذا فراش رسول الله وانت رجل مشرك نجس فلم احب ان تجلس عليه . حيث يبدو من ذلك مظهر رائع من مظاهر التفاني في دين رسول الله وغدو ذلك فوق الارحام مهما قربت .

ولما تم ما اراده النبي من حشد زحف على رأسه وقد بلغ عدته عشرة آلاف فيهم كثير من مسلمي القبائل مثل اسلم وغفار ومزينة وجهينة واشجع وسليم وفزارة الخ . وكان الزحف لعشر ليال خلون من رمضان من السنة الثامنة للهجرة . ولما علم المكيون بسيره استنفروا حلفاءهم من هوازن وثقيف وبني بكر والاحابيش . ووصل النبي مكة قبل ان يصل القسم الاقوى من الحلفاء اي هوازن وثقيف . فرأى اهل مكة ان لا قبل لهم بما جاءهم واستسلموا للنبي وحكمه ولم يقع إلا اشتباك جزئي في ناحية من انحاء مكة مع فريق من القوة الزاحفة واسفر عن بعض القتلى فأرسل النبي خبراً بالكف حالما بلغه الخبر .

ومما روي في سياق ذلك ان قريشا بعثت ابا سفيان ليتحسس اخبار الزحف فلقي العباس عم النبي وكان قد اسلم بعد وقعة بدر وظل في مكة يكتم اسلامه فسأله ما وراءك فقال له هذا رسول الله في عشرة آلاف فأسلم ثكلتك امك وعشيرتك ثم قال له انت في جواري واردفه واردفه وراءه وذهب به الى النبي فأسلم على يديه . وكرمه النبي فأمر مناديا ينادي (من دخل بيت ابي سفيان فهو آمن) ولقد رأى ابو سفيان مالا قبل له به وما لم يخطر بباله حتى قال للعباس لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيما .

ولما دخل النبي مكة عمد تواً الى الكعبة فطهرها من الاصنام وكان في جوفها وفنائها ٣٦٠ صنما . ووجد على جدرانها صوراً لابراهيم وهو يستقسم بالازلام وصوراً لعيسى والملائكة فأمر بطمسها . وفي ثاني يوم احتشد الناس حول الكعبة فخطب النبي فيهم خطبة بدأهـــا بقوله (لا إله إلا الله وحده ولا شريك له . صدق وعده . ونصر عبده . وهزم الاحزاب وحـــده . ثم خـــاطب قريشا فقال يا معشر قريش ان الله قـــد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء . الناس من آدم وآدم من تراب . وتلا قول الله (يا ايها الناس انا

خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) ثم قال ما ترون اني فاعل فيكم قالوا خيراً اخ كريم وابن اخ كريم فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وقد تم الفتح في العشرين من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة . واقبل الناس بعد ذلك على مبايعة النبي حتى عم دين الله وظهر على الدين كله .

وقد ارسل الله خالداً بن الوليد فهدم العزى وعمراً بن العاص فهدم سواعا وسعداً بن زيد الاشهلي فهدم مناة .

وفي اثناء اقامة النبي في مكة عدا خزاعي على مشرك من هذيل فقتله فقام رسول الله خطيبا فقال (يا ايها النـــاس ان الله حرم مكة يوم خلق السماوات والارض فهي حرام من حرام الى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الاخر ان يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجراً . لم تحلل لأحد من قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحلل لي إلا ساعة من نهار غضبا على اهلها ثم رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب . ثم قـــال يا معشر خزاعة ارفعوا ايديكم عن القتل . لقد قتلتم قتيلا ولأدينه . فمن قتل بعد مقامي هذا فاهله بخير النظرين ان شاؤوا فدم قاتله وان شاؤوا فعقله)

ومما روي ان النبي امر بقتل اشخاص ولو رأوهم متعلقين بأستار الكعبة . منهم عبد الله ابن خطل الذي اسلم ثم ارتد وعدا على رجل مسلم فقتله . وكان له قينتان تغنيان بهجـــاء رسول الله . ومنهم الحويرث بن وهب وكان شديد الاذى لرسول الله. وقد تعرض لابنتيه حينما ارتحلتا للحاق بالنبي في المدينة فنخس راحلتهما فسقطتا عنها الى الارض . ومنهم عبد الله بن سعد لأنه ارتد وفر الى مكة وكان يكتب الوحي لرسول الله . وهذا لم يقتل فقد اتى به عثمان بن عفان وكان اخوه من الرضاعة الى رسول الله مستغفراً فسكت فعد سكوته عفواً

وقد روي انه قال لمن حوله سكت لعل واحداً منكم يقوم فيقتله فقالوا له هلا اومأت الينا فقال ان النبي لا يقتل بالاشارة .

وقد فر صفوان بن امية وعكرمة بن ابي جهل وكانا من رؤساء المناوئين للنبي . فقال عمير بن وهب يا رسول الله ان صفوان سيد قومه وقد خرج هاربـا منك ليقذف نفسه في البحر فقال هو آمن . فلحق به فأخبره فلم يصدق لكثرة ما كان من اذاه للنبي . ثم اقبل بعد قليل فأسلم . وكذلك كان شأن عكرمة الذي فر الى اليمن . وقـد اسلمت زوجته

وطلبت الامان لزوجها فأعطاها النبي الامان فلحقت به وجاءت به فأسلم . وابقى النبي نكاحه على ما كان .

ولقد انهدم بفتح مكة السد الذي كان بين النبي والاسلام وسائر العرب فتدفق سيل وفودهم بعده على النبي من كل ناحية من انحاء الجزيرة . ودخل معظم اليمن في دين الاسلام وسلطانه بالاضافة الى معظم شمال الجزيرة . وسار النبي عليه السلام على رأس ثلاثين الفا نحو مشارف الشام فيما سمي في تاريخ السيرة بغزوة تبوك فوطد هيبةالسلطان الاسلامي في هذه المشارف واخذ الاسلام ينتشر بين قبائلها . وكانت هذه الغزوة من خطوات حركة الفتح الكبرى التي تمت بعد وفاة النبي ﷺ .

ومما روي ان الانصار اخذوا يتساءلون عما اذا كان النبي وقد نصره الله على قريش ويسر له فتح مكة ام القرى يعود ثانية الى المدينة او يبقى في مكة ويتخذها مقراً له فبلغ ذلك النبي فجمع زعماءهم وقال لهم (معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم ثم عين واليا على مكة وعاد الى يثرب مع اصحابه من المهاجرين والانصار وكثير ممن اسلم من اهل مكة ورجالاتها .

واسم الوالي الذي عينه هو عتاب بن اسيد بن العيص بن امية ابن عبد شمس . وكان فتى نابها . والمتبادر انه اختار هذا الفتى بدلا من رجل مسن من رجالات مكة وزعمائها لاعتبارات متنوعة فيها الحكمة والسداد . وقد اراد مع ذلك ان يتألف قلوب بني امية بتوسيده الحكم الى احد فتيانهم . وقد خلف معه معاذاً بن جبل رضي الله عنه ليعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين .

ومن طريف ما رواه ابن هشام ان النبي عين لعتاب درهما كل يوم لنفقته وانه قام خطيبا في الناس فقال ايها الناس اجاع الله كبد من جاع على درهم . فقد رزقني رسول الله درهما كل يوم فليست لي حاجة الى احد . ويبدو ان الفتى الوالي لم يكن من الاغنياء ولعل هذا من اسباب اختياره .

ويروي ابن سعد ان النبي ارسل خالداً بن الوليد عقب فتح مكة في سرية لهدم صنم العزى وعمراً بن العاص في سرية لهدم صنم سواع وسعداً بن زيد الاشهلي في سرية لهدم صنم مناة او بيوتها في اطراف مكة ففعلوا وكان سدنة هذه الاصنام يظنون انها سوف تؤذي الهادمين فلما لم تفعل اعلنوا اسلامهم [1] .

---

(١) ج ٣ ص ١٩٣ - ١٩٥

ثانياً

الوقائع الحربية مع القبائل العربية

●

باستثناء وقعة واحدة كانت جميع هذه الوقائع بعد وقعة بدر الكبرى . ومنها ما كان غزوات بقيادة النبي ومنها ما كان سرايا . وجميعها كانت إما رداً على عدوان وقع او استباقاً لعدوان مبيت .

والوقعة الأولى كانت في الشهر الثالث عشر للهجرة . فقد اغار كرز الفهري على سرح المدينة فاستاقه فسارع النبي في اثره ولم يدركه فعاد بدون اشتباك [1] .

ثم غزوة غطفان في نجد حيث علم النبي ان بعض بطونها تتجمع لغزو المدينة . فخرج النبي على رأس حملة كبيرة في الشهر الخامس والعشرين . ولم يلق عدواً فعاد بدون اشتباك . وغطفان من احزاب قريش ومن المحتمل ان يكون تجمعهم بتحريض منها [2] .

ثم غزوة بني سليم ببحران لنفس السبب ولم يلق النبي فيها عدواً . وكانت في الشهر السابع والعشرين [3] .

ثم سرية ابي سلمة المخزومي الى بني اسد في الشهر الخامس والثلاثين اي بعد وقعة احد للسبب نفسه . وقد خاف العرب لما بلغهم خبر الحملة فتفرقوا ووجدت السرية لهم ابلا وشاءً فاستاقتها وعادت سالمة [4] .

ثم سرية عبد الله بن انيس في نفس الشهر لاغتيال سفيان بن خالد الهذلي اللحياني حيث علم النبي انه يجمع جموعه لحربه . وقد تمكن عبد الله من خديعة الرجل حتى اذا اصاب منه غرة قتله وحمل رأسه الى رسول الله [5] .

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٤٦-٤٧

(٢) نفس الجزء ص ٧٣-٧٤

(٣) ص ٧٤

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ٩١-٩٢

(٥) ص ٩٢-٩٣

ثم سرية المنذر بن عمر الساعدي في الشهر السادس والثلاثين . ولم تخرج هذه السرية لحرب ولكن للدعوة فغدر بها وقتل معظم رجالها في مكان عرف ببئر معونة .

وكان من قصتها ان احد زعماء بني عامر بن كلاب الذي يوصف بملاعب الأسنة قدم على النبي في الشهر السادس والثلاثين من الهجرة فعرض النبي عليه الاسلام فلم يبعد وقال له لو بعثت معي نفراً إلى قومي رجوت ان يجيبوا فقال له إني اخاف عليهم اهل نجد فقال انا جار لهم . فبعث معه سبعين رجلا من قرار الانصار الشباب . واعطاهم كتاباً لزعيم بني عامر بن الطفيل يدعوه فيه وقومه الى الاسلام وقد نزلوا في مكان يعرف ببئر معونة وارسلوا الكتاب الى عامر بن الطفيل فوثب هذا على حامل الكتاب وقتله ثم استصرخ قومه بني عامر لقتل باقي افراد السرية فأبوا حتى لا يخفروا ذمة ابي براء فاستصرخ بني سليم فأجابه بعض بطونهم رعل وذكوان وعصية وأحاطوا بالمسلمين وقتلوهم جميعاً عدا عمرو بن امية الصخري حيث قال عامر ان على امي عتق رقبة فأنت حر عنها وجز ناصيته . وقد كانت هذه الفاجعة موجعة جداً للنبي واصحابه حتى لقد روي انه لم يجد على احد ما وجده على اصحاب بئر معونة . وقد دعا على قاتليهم في الركعة الثانية من صلاة الصبح فقال (اللهم اشدد وطأتك على مضر . اللهم سنين كسني يوسف . اللهم عليك ببني لحيان وعضل والقارة وزغب ورعل وذكوان وعصية فإنهم عصوا الله ورسوله[1] .

ثم سرية مرثد بن ابي مرثد . وهذه مثل تلك لم تخرج للقتال وانما للدعوة . فقد جاء الى النبي رهط من عضل والقارة فقالوا يا رسول الله ان فينا اسلاماً فابعث معنا نفراً من اصحابك يفقهونا ويقرؤونا القرآن ويعلمونا شرائع الاسلام فبعث معهم ستة نفر من اصحابه بقيادة ابي مرثد فلما وصلوا الى ماء يعرف بالرجيع استصرخ الرهط بني هذيل فجاؤوهم وهاجموا اصحاب رسول الله فاستل هؤلاء سيوفهم للدفاع فقالوا لهم لا نريد ان نقتلكم ولكنا نريد ان نصيب بكم شيئاً من اهل مكة فأبى ثلاثة منهم الاستسلام وقاتلوا حتى قتلوا واستسلم ثلاثة فأسروا . وفي الطريق حاول أحدهم الفرار فقتل . وذهبوا بالاثنين الى مكة فاشتراهما صفوان بن امية وشخص آخر فقتلوهما انتقاماً من قتلى لهم في وقعة بدر . وكانت الوقعة في نفس الشهر الذي وقعت فيه الوقعة السابقة . وهذا ما يفسر جمع النبي للمجرمين في الوقعتين ودعاءه عليهم معاً [2] .

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٩٣—٩٦

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٩٧—٩٨ وابن هشام ج ٣ ص ١٦٠—١٦٦

ومما روي في سياق قتل احد الاثنين واسمه زيد بن الدثنة انه اجتمع رهط من قريش ليشهدوا قتله فقال له ابو سفيان : انشدك الله يا زيد اتحب ان محمداً عنـــدنا الآن مكانك نضرب عنقه وانت في اهلك ؟ فقال له والله لا احب ان محمداً تصيبه شوكة في مكانه الذي هو فيه الآن واني جالس في اهلي فقال منذهلا : ما رأيت من الناس احداً يحب احـــداً كحب اصحاب محمد محمداً . وكان الذي اشترى زيداً رضي الله عنه صفوان بن امية فأمر غلاماً له فقتله .

ومما روي في سياق قتل الثاني واسمه خبيب بن عدي انه سأل من قاتليه ان يدعوه يركع ركعتين فأذنوا له فركعها ثم قال للقوم اما والله لولا ان تظنوا اني طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . وقد صلبه الكفار ثم قتلوه مصلوباً [1] .

ثم غزوة ذات الرقاع في الشهر السابع والاربعين حيث بلغ النبي ان انماراً وثعلبة قد جمعوا الجموع لغزو المدينة فقاد حملة وبادر اليهم فوجدهم قد فروا فسبى بعض نسائهم وعاد ولم يلق كيداً [2] .

ثم غزوة دومة الجندل حيث بلغ النبي ان فيها جموعاً وانهم يظلمون من مر بهم من قوافل الميرة وانهم يريدون ان يدنوا من المدينة فخرج على رأس الف من اصحابه في الشهر التاسع والاربعين فنذر العرب بهم فهربوا واصاب النبي بعض ماشيتهم وعاد ولم يلق كيداً .

وفي هذه الغزوة وادع النبي عليه السلام عيينة بن حصن زعيم فزارة [3] .

ثم غزوة المريسيع حيث بلغ النبي ان بني المصطلق يتجمعون لغزو المدينة فبادر النبي اليهم على رأس حملة كبيرة خرج فيها كثير من المنافقين حتى روي انه لم يخرج منهم في غزاة اخرى في كثرتهم . وقد اغار النبي عليهم بجملته فقتلوا عشرة رجال واسروا كثيراً آخرين وسبوا النساء والذرية وغنموا ما لهم من نعم وشاء . وفر باقي الرجال . وفد من النبي على بعض السبايا فأطلقهم بدون فداء وافتدى بعضهم اهلهم ووزع البـــاقي كغنيمة . وكانت جويرية بنت زعيم المصطلق الحارث في سهم احد المسلمين فكاتبته على نفسها وجاءت الى النبي تستعينه على كتابتها [4] فقال لها هل لك في خير من ذلك قالت ما هو قـــال اقضي عنك

---

(١) نفس المصدر المذكوران آنفاً

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٢–١٠٣   (٣) ص ١٠٣–١٠٤

(٤) اي اشترت نفسها من الذي صارت ملكاً له

واتزوجك فوافقت فقضى عنها وتزوجها ولما بلغ الناس الخبر قالوا اصهار رسول الله فاعتقوا ما وقع في اسهمهم من السبايا . واقبل بنو المصطلق فأسلموا . فما كان من امرأة اعظم بركة على قومها منها . وكانت هذه الواقعة في الشهر السابع والاربعين من الهجرة [1] .

وفي هذه الغزوة تلاحى احدالمهاجرين مع واحد من الانصار واستصرخ كل منهما بقومه وكاد الحيان يقتتلان استجابة للنعرة القبلية الجاهلية لولا ان النبي تدارك الامر . وفيها قال كبير المنافقين عبد الله بن ابي (لا تنفقوا على مـن عند رسول الله حتى ينفضوا) و (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل) على ما شرحناه في بحث حركة المنافقين .

وفي هذه الغزوة قذفت عائشة ام المؤمنين بما عرف في تاريخ السيرة بحديث الافك الذي سنشرحه في مبحث خصوصيات النبي عليه السلام بعد البعثة في آخر الفصل .

وكان بعد هذه الوقعة سرية محمد بن سلمة الى احد بطون بني بكر بن كلاب حيث كانوا يزعجون القوافل فأغار عليهم وقتل بعضهم وفر الباقون فاستاق بعض نعمهم وشائهم [2] .

ثم كانت غزوة النبي لبني لحيان انتقاماً لحادث الرجيع وشهدائه . وكانوا في ناحية عسفان . ففروا من جهة وتمنعوا في رؤوس الجبال وعاد بدون قتال وكانت الغزوة في السنة الهجرية السادسة [3] .

ثم غزوة الغابة في نفس السنة . حيث اغار عيينة بن حصن الفزاري مع بعض قومه على إبل الصدقة في مكان يسمى الغابة فاستاقوها وقتلوا حاميها فجاء الصريخ فنودي يا خيل الله اركبي وخرج النبي على رأس كتيبة من اصحابه ، وعليه الدرع والمقفر وهو شاهر سيفه فأدركت طليعة الكتيبة التي ارسلها النبي فرساناً بقيادة المقداد بن الاسود اخريات الغزاة فاستنقذت نصف الابل وتراشقت معهم بالنبال ثم فروا ونجوا بعد ان قتل منهم عدد غير يسير . ومما روي ان احد المسلمين واسمه سلمة بن الاكوع قتل وحده برميه ثلاثين رجلا منهم [4] .

ثم سرية عكاشة بن محصن الاسدي الى الغمر ليغير على بني اسد لموقفهم العدائي . فعلموا

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٤-١٠٧ (٢) ص ١٢١
(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٢١-١٢٢
(٤) نفس المصدر ١٢٣ - ١٢٧

بالامر وفروا واستاقت السرية ما وجدوه من ماشية وعادت سالمة [1]

ثم سرية محمد بن سلمة الى بني ثعلبة لاستمرارهم في موقفهم العدائي . وكان افراد السرية عشرة فتكاثر عليهم العرب وقتلوهم . فبعث النبي سرية اخرى بقيادة ابي عبيدة بن الجراح فهرب العرب من وجهه فاستاق ما وجده من نعمهم وغنمهم . وكان ذلك في السنة السادسة ايضاً [2] . وقد عاد النبي فبعث عليهم سرية اخرى بقيادة زيد بن حارثة ففروا ثانية واستاق ما وجده من نعم وغنم [3] .

ثم سرية زيد بن حارثة الى بني ثعلبة ايضا فهرب العرب واستاق ما وجده لهم من نعم وغنم وكانت في نفس السنة [4] .

ثم سرية زيد أيضا الى بني سليم بالجموم فأغاروا عليهم واصابوا إبلا وغنما واسرى . وكانت في نفس السنة [4] .

ثم سرية زيد في السنة نفسها الى بني ثعلبة في الطرف فأغاروا عليهم واستاقوا بعض ابلهم [5] .

ثم سرية علي بن ابي طالب الى بني سعد في فدك لتجمعهم لامداد يهود خيبر فأغار عليهم فهربوا واستاق ٥٠٠ بعير و ٢٠٠ شاة لهم وعاد بدون قتال . وكان ذلك في السنة السادسة أيضا [6] .

ثم سرية زيد بن حارثة الى بني فزارة فيوادي القرى حيث كانوا سلبوا قافلة تجارية كان يقودها زيد نفسه الى بلاد الشام وضربوه وضربوا اصحابه . وقد اغار عليهم وقتل بعض رجالهم ونسائهم . وكان ذلك في نفس السنة المذكورة آنفاً [7] .

ثم سرية كرز بن جابر في السنة نفسها الى بني عرنة. وكان ثمانية منهم قدموا على رسول الله فأسلموا واستوبأوا المدينة فأرسلهم الى ضاحية فيها ابل الصدقة . فلما صحوا وسمنوا استاقوا الابل ولحق بهم يسار مولى رسول الله ومعه نفر فقاتلهم ولكنهم تغلبوا عليه وقتلوه وقطعوا رجله ويده . وجاء الصريخ فبعث النبي السرية في اثرهم فأدركوهم واسروهم واتوا بهم الى النبي مع الابل فأمر بصلبهم وقتلهم وقطع ايديهم وارجلهم من خلاف وتسميل

---

(١) نفس المصدر ١٢٨ ابن سعد ج ٣ ص ١٢٨ (٣) ١٣٢–١٣٣
(٤) ١٣٣، ١٣٤ (٥) ١٣٢–١٣٣ (٦) ص ١٣٣–١٣٤

عيونهم [1] ومما ذكرته الروايه ان النبي لم يسمل عيونا بعد ان نزلت الآيه (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الأرض ... المائدة ٣٣) والمتبادر ان ما فعله النبي كان بقصد الارهاب للآخرين ولا سيما ان ما فعله العرنيون كان غدراً شديداً .

ثم سرية عمر بن الخطاب الى عجز هوازن في تربة لموقفهم العدائي ففروا من وجهه وعاد بدون قتال . وكان ذلك في السنة السابقة [2] .

ثم سرية ابي بكر الصديق الى بني كلاب في نجد في نفس السنة انتقاما لشهداء بئر معونة فأغارت عليهم وقتلت واسرت وغنمت بعض الماشية وعادت سالمة [3] .

ومما روي ان النبي استوهب امرأة منهم وهبها ابو بكر الى احد افراد السرية من المسلمين كانوا في ايدي المشركين .

ثم سرية بشير بن سعد الى بني مرة في فدك لموقفهم العدائي . وقد اغرت السرية عليهم واستاقت مشيتهم فلحق بهم المريون وقتلوا معظمهم واسترجعوا المشية ونجا بشير جريحاً وكان ذلك في السنة السابعة [4] .

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي الى بني ثعلبة في نفس السنة فقتلت بعضهم وفر الباقي . واستاقت بعض ابلهم وغنمهم [5] .

ومما وقع في هذه الوقعة ان اسامة بن زيد الذي كن في السرية لقي رجلا منهم في الطريق فما كان منه إلا ان نطق بالشهادة ولكن اسامة ظن ذلك خداعا وتقية فقتله . ولما عاد قص ما وقع على النبي فاستنكر فعلته وقال له (ألا شققت قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب) فتاب اسامة وعاهد النبي على أن لا يعود الى مثل ذلك [6] .

ثم سرية بشير بن سعد الى غطفان حيث بلغ النبي انهم يتجمعون لغزو المدينة ومعهم زعيم فزارة عيينة بن حصن . وقد هرب العرب واستاقت السرية ما وجدته لهم من نعم وغنم [7] .

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٦   (٢) ١٦٤
(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٦٥   (٤) ١٦٦   (٥) ١٦٦ ايضاً
(٦) ١٦٦ - ١٦٧   (٧) ص ١٧٠

ثم سرية ابن ابي العوجاء الى بني سليم في السنة الثامنة . وقد تكاثر العرب عليهم فقتلوهم الا قائدهم الذي عاد جريحا .

ثم سرية غالب الليثي الى بني الملوح في نفس السنة لموقفهم العدائي ، وقد اغارت السرية عليهم واستاقت نعمهم فلحقوا بها وكانوا اكثر من السرية وفيهم براعة بالرمي . ولكن السرية اغذت السير . وجاء سيل دافق فحال بينهم وعادت السرية سالمة غانمة [1] .

ثم سرية غالب ايض الى بني مرة في فدك للانتقام لسرية بشير بن سعد فـأغارت عليهم وقتلت بعضهم وغنمت بعض انعامهم [2] .

ثم سرية شجاع بن وهب الى بني عامر في نفس السنة . فأغارت عليهم واصابت نعما وغنما كثيراً . وعادت سالمة [3] .

ثم سرية ابي عبيدة في نفس السنة الى حي من جهينة مما يلي ساحل البحر . ولم يقع لقاء . وقد اصاب السرية جوع شديد فأكلوا الخبط . وسميت السرية بسرية الخبط [4] .

ثم سرية ابي قتادة الانصاري الى غطفان في نجد فأغارت عليهم وقتلت من اشرف منهم واستاقت النعم . وكنت في نفس السنة [5] .

ثم سرية ابي قتادة ايض في نفس السنة الى بطن من اضم بين مكة والمدينة . وكانت هذه السرية تعمية لقريش حيث كان النبي يتهيأ لغزو مكة .

وفي الطريق وجدوا رجلا من اشجع فسلم عليهم بتحية الاسلام ولكن احـــد افراد السرية وثب عليه فقتله وسلبه بعيره ومتاعه وقربة لبن كانت معه . وقد غضب النبي لقتل الرجل بعد ان حيا بتحية الاسلام ونزل في ذلك آية النساء هذه (يا ايهـــا الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمـــنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا) [6] حيث انطوى في ذلك تشريع رائع من تشريعات الجهاد في الاسلام على ما نوهنا به في مطلع البحث .

ثم سرية خالد بن الوليد الى بني جذيمة من كنانة وكانوا في اسفل مكة . وذلك

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٠-١٧٢ (٢) ١٧٢-١٧٣ (٣) ١٧٣

(٤) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٨ (٥) ص ١٧٨-١٧٩

(٦) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٩

عقب فتح مكة . وكانت لأجل دعوتهم إلى الاسلام . فلما انتهى اليهم قالوا له نحن مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحاتنا وأذنا فيها . فقال لهم فما بال السلاح عليكم قالوا ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا ان تكونوا هم . قال فضعوا السلاح فوضعوه ثم قال لهم استأسروا فاستأسروا وأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم في أصحابه فلما كان السحر نادى خالد من كان معه أسير فليدافـّه بمعنى الاجهاز عليه بالسيف . فقتل بنو سليم الذين كانوا في السرية من كان في أيديهم . اما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم الى النبي . ولما بلغ النبي ما فعل خالد قال (أللهم اني أبرأ اليك مما صنع) ثم بعث علياً بن ابي طالب فودى قتلاهم وما ذهب منهم [1] .

وإذا صح الخبر كما روي فيكون خالد كما هو المتبادر ظن انهم كانوا يتقونه تقية لأنه وجدهم شاكي السلاح متهيئين للقتال فأمر بما أمر اجتهاداً منه .

ومن الجدير بالذكر ان ابن سعد يروي في سياق الخبر ان خالداً وسريته أغاروا على بني جذيمة غارة وان ثلاثة رجـــال ارادوا انقاذ نسوة لهم وتهريبهن فقاتلوا من تصدى لهم من المسلمين حيث يبدو شيء من التناقض .

ورواية قتال الرجال الثلاثة دون النسوة مترافقة بشعر ارتجزه كل منهم فيه شيء من التوافق ويوحي بأنه مصنوع [2] . وابن هشام يروي اربع اراجيز لأربعة رجال . ويروى الى

---

(١) ج ٣ ص ١٩٥ــ١٩٦ انظر ابن هشام ج ٤ ص ٥٥ - ٦٣

(٢) هذه هي الاراجيز الاربع :

١» ارخين اذيال الحقاء واربعن مشي حييات كأن لم يفزعن .
ان يمنع القوم ثلاث تمنعن

٢» قد علمت بيضاء حمراء الاطل يحوزها ذو ثلة وذو ابل
لاغنين اليوم ما اغنى رجل

٣» قد علمت بيضاء تلهى العرسا لا تملا الحجين منها نهسا
لاضربن اليوم ضربا وعسا ضرب المذيدين المخاض القعسا

٤» اقسمت ما ان خادر ذو لبده شثن البنان في غداة برده
جهم المحيا ذو سبال ورده يرزم بين ايكة وجحده
ضار بتأكال الرجال وحده بأصدق الغداة مني نجده

هذا ان بعض اصحاب رسول الله اتهموا خالداً بأنه فعل في بني جذيمة ما فعل انتقاماً لدم عمه الفاكه كان بنو جذيمة قتلوه في الجاهلية .

وقد يكون الخبر عن خالد كله مصنوع بدليل ان هناك اخباراً مثله في مقامات اخرى سوف نذكرها في مناسباتها لا تبعث على الثقة ومن المحتمل ان تكون مصنوعة للنكاية به او باسمه لاسباب نفسية او قبلية .

ثم كانت وقعة او غزوة هوازن الكبرى في وادي حنين [1] وكانت هوازن من حلفاء قريش فلما زحف النبي على مكة استصرختهم قريش فأسرعوا الى نجدتهم ولكنهم وصلوا بعد ان تم فتح مكة ودان اهلها للاسلام وسلطان النبي . فتحشدوا في وادي حنين فخرج اليهم النبي في ١٢٠٠٠ منها الفان من اهل مكة حتى قال ابو بكر لن نغلب اليوم عن قلة [2] . والتقى الجمعان في وادي حنين ودارت المعركة فتزعزع جانب المسلمين وانهزموا وثبت رسول الله ﷺ في الميدان كعادته وحوله ابو بكر والعباس وعمر وعلي والفضل وغيرهم من اهل بيته واصحابه رضي الله عنهم واخذ ينادي الناس يا انصار الله يا انصار رسول الله . فلم يلبث المسلمون ان هدأ روعهم وانزل الله السكينة عليهم وعادوا إلى الميدان هاتفين لبيك لبيك. وحملوا على المشركين فقال النبي الآن حمي الوطيس وجعل يرتجز وهو على ظهر بغلته في الميدان .

انا النبي لا كذب   انا ابن عبد المطلب

وايد الله المسلمين وقذف في قلوب المشركين الرعب فانهزموا لا يلوون على شيء . واستولى المسلمون على انعامهم وماشيتهم ونسائهم واطفالهم . وكان عدد السبي ٦٠٠٠ والابل ٢٤٠٠٠ والغنم ٤٠٠٠٠ والفضة ٤٠٠٠ اوقية.

وكانت ثقيف ايضاً قد سارعت إلى نجدة مكة حينما استصرختها فلم تصل في الوقت فعادت وتحصنت في مدينتها الطائف فزحف النبي عليها وحاصرها وضربها بالمنجنيق حيث كانت مسورة. ولم يقدر عليها ولم يخرجوا من المدينة . وتراشق الطرفان بالنبال ثم انصرف النبي عنها [3] .

---

(١) انظر تفصيل الوقعة في ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٠ — ٢٠٨ وابن هشام ج ٤ ص ٦٥ — ١٢١

(٢) اشارت آية في سورة التوبة الى هذا المعنى حيث جاء فيها (ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم)

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ٢١٠ — ٢١٢

وفي طريق عودته توقف في الجعرانة لقسمة اموال هوازن وسبيها . وقد ارتأى النبي ان ينعم منها على بعض زعماء مكة والقبائل زيادة على الاسهم العادية تألفاً لقلوبهم لحداثة عهدهم بالاسلام فمنهم من اعطاه مئة من الابل ومنهم الخمسين ومنهم من اعطاه فضة ومنهم من اعطاه شاءً . ثم وزع الباقي على سائر الناس بعد افراز الخمس لبيت المال . وفعل كذلك بالسبي .

ولقد ارسلت هوازن وفداً الى النبي تعلنه باسلامها وتطلب منه رد اموالهـــا وسبيها . فسألهم رسول الله ابناؤكم ونساؤكم احب اليكم من اموالكم . فقالوا له بل ابناؤنا ونساؤنا . فقال اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم واذاما صليت الظهر فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله .ففعلوا . فقال النبي اما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . فقال الانصار والمهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله . وقال بنو سليم كذلك . وابى بعض زعمـــاءالقبائل فقال رسول الله (أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فـــله بكل انسان ست فرائض من اول سبي اصيبه) فقبل المتمنعون وردوا ما في ايديهم من السبايا ايضاً .

ولقد روى ابن هشام في سياق توزيع غنائم هوازن ان الانصار وجدوا في انفسهم ان لم يعط النبي زعماءهم منحاً كالتي اعطاها لزعماء مكة والقبائل حتى قال قائلهم ان رسول الله لقي قومه ودخل عليه سعد بن عبادة فقال يا رسول الله ان هذا الحي من الانصار قـــد وجدوا عليك في انفسهم في هذا الفيء الذي اصبت . قسمت في قومك واعطيت عطايا عظـاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الانصار منها شيء ، فقال له اجمع لي قومك فخرج فجمع الانصار فأتاهم رسول الله فقال بعدحمد الله (يا معشر الانصار ما قاله بلغتني عنكم وجدة وجدتموها علي في انفسكم . ألم آتكم ضلالا فهداكم الله . وعالة فأغناكم الله . وأعداء فألف الله بين قلوبكم) قالوا بلى . الله ورسوله أمنّ وافضل . ثم قال (ألا تجيبونني يا معشر الانصار) قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله لله ورسوله المن والفضل فقال لهم (اما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصُدقتم : اتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ؛ وطريـــداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . اوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم . ألا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوابرسول الله الى رحالكم. فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرةلكنت امرءاً من الانصار . ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا سلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم الانصاروابناءالأنصار وابناءابناء الانصار) فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا . فكان مشهداً من اروع مشاهد السيرة . وننبه الى امرهام

وهو ان النبي لم يعط احداً من اصحابه المهاجرين منحا وعطايا ، وانما كان الذين اعطاهم زعماء القبائل الذين كان اكثرهم حديث عهد بالاسلام .

ومما رواه ابن هشام في سياق خبر هوازن ان بعض جفاة اهل مكة قال حينما انهزم المسلمون ألا بطل السحر اليوم فقال له صفوان بن امية (اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربني رجل من قريش احب إلي من ان يربني رجل من هوازن) وان ابا سفيان قال لا تنتهي هزيمتهم دون البحر . وقد تكون الرواية مصنوعة لأسباب حزبية واسروية مؤخراً .

ثم سرية الطفيل الدوسي لهدم صنم قومه المسمى ذا الكفين ثم اتى بقومه الى النبي فاسلموا على يده [1] .

وقد روي عن الطفيل شعر يهجو به هذا الصنم بعد هدمه وهو :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا اقدم من ميلادكا
اني حششت النار في فؤادكا

ثم سرية عيينة بن حصن الفزاري الى بني تميم في السنة التاسعة فاغار عليهم واستاق ماشيتهم وسبى بعض رجالهم ونسائهم . فجاءه زعماء تميم يعلنون اسلامهم ويطلبون رد سبيهم فرده عليهم [2] .

ثم سرية قطبة بن عامر الى جماعة من خثعم في ناحية تربة فأغار عليهم واستاقوا ما قدروا عليه من إبلهم وغنمهم ونسائهم [3] .

ثم سرية الضحاك بن سفيان الكلابي الى قومه ليدعوهم الى الاسلام واول من دعا كان اباه فسبه وسب دينه فضرب احد رجال السرية عرقوبي فرس الاب فسقط فجاء واحد آخر فقتله [4] .

ثم حادث استسلام الطائف واهلها ، فكان ذلك في السنة التاسعة وبعد عودة النبي من غزوة تبوك . فان احد زعماء ثقيف عروة بن مسعود جاء الى النبي بعد عودته الى المدينة فأسلم واستأذن النبي بالذهاب الى الطائف ليدعو قومه فاذن له فلما وصل حيا الناس بتحية الاسلام فاستنكروا فلما طلع الفجر اذن للصلاة من فوق غرفة له فخرجت ثقيف من كل

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢٠٨ (٢) ص ٢١٢-٢١٣
(٣) ابن سعد ج ٣ ص ٢١٤ (٤) ٢١٤ - ٢١٥

ناحية ورماه احدهم بسهم فكاد يؤدي ذلك الى شر بين النـــاس فقال عروة رضي الله عنه تصدقت بدمي لأصلح بين الناس وهي كرامة اكرمني الله بها وشهادة ساقهـــا إلي ووصى بدفنه مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله . وبعد موته جاء ابنه قارب الى النبي مع رفيق له فاسلما . واستدعى النبي مالكاً بن عوف زعيم هوازن فرد عليه ماله واهله واعطياته فقال له انا اكفيك ثقيفا اغير على سرحهم حتى ياتوك مسلمين . فاستعمله على قومه وعلى من اسلم من القبائل فصار يغير على سرح ثقيف ويقاتلهم حتى اعجزهم فاتفقوا على ارسال وفد الى النبي ليفاوضه على الاسلام والتسليم وجاء النبي وفدهم وعلى رأسه زعماؤهم عبد ياليل وابناؤه وغيرهم . وقد سر النبي والمسلمون بتقدمهم وضرب لزعمائهم قبة في المسجد وكان يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيحدثهم . وقـــد حاولوا الحصول على بعض الامتيازات فلم يتساهل النبي فاستعفوه من هدم اصنامهم بايديهم فاعفاهم فاسلموا واستعمل عليهم النبي عثمان بن ابي العاص وارسل معهم من يعلمهم ويفقههم وقد حسن اسلامهم حتى روي عن المغيرة بن شعبة انه قال لا اعلم قوما مـــن العرب كانوا اصح اسلاما ولا ابعـــد ان يوجد فيهم غش لله وكتابه منهم [1] .

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٧٧ و٧٨

نشاط النبي عليه السلام في نشر الدعوة بين العرب ورسله ورسائله

إلى ملوكهم وزعمائهم والنجاح العظيم في ذلك

•

من الحقائق التاريخية أن أكثرية العرب ظلت في العهد المدني منكمشة عن الاسلام الى فتح مكة . وأن موقف كثير من القبائل العربيـــة في شمال الجزيرة الى الحجاز ونجد ومشارف الشام كان موقفاً عدائياً من النبي ودعوته على ما تفيده سلسلة الوقائع الحربية التي جرت بين المسلمين وهذه القبائل في هذه الحقبة .

غير أن هذا لا يعني بطبيعة الحال أن نطاق الاسلام لم يتسع في هذه الحقبة ففي كتب السيرة روايات كثيرة عما كان من ذلك فيها كما أن في القرآن آيات عديدة تلهم ذلك .

ولم يكن الاسلام قد عم الأوس والخزرج قبل هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة رغم أنه دخل كل بيت كما ذكرت الروايات . وقد تم ذلك بعد هجرة النبي اليها . ولقد كان عدد محاربي الأوس والخزرج في وقعة بدر مئتين واربعين وفي وقعة أحد نحو ستمائة وفي وقعة الخندق أكثر من الفين مما فيه دلالة على الاتساع التدريجي لنطاق الاسلام فيهم . ولقد كان عدد المنافقين منهم غير يسير فأخذ يتضاءل تدريجياً ويتغلب الاخلاص على النفاق حتى صار المنافقون يعدون عداً .

وفي سورة الحشر التي نزلت في السنة الهجرية الثالثة وبعد قليل من وقعة أحد آيات تنوه بالمهاجرين والأنصار السابقين للاسلام ثم جاءت بعدها آية تقول :

(وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ١٠)

حيث تلهم أن جماعات كثيرة انضمت الى لواء الاسلام بعد السابقـــين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وبعد هجرة النبي عليه السلام الى المدينة . والمرجح أنهم من أهل المدينة وحولهـــا . وفي سورة الانفال التي نزلت في السنة الهجرية الثانية وبعد وقعة بدر هذه الآية (والذين آمنوا من بعدو هاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ٧٥) حيث تفيد أن جماعة من خارج المدينة والبعيدين عنها آمنوا بعد هجرة النبي إلى المدينة وانضموا إلى النبي بالهجرة والجهاد . ومن المحتمل كثيراً أن يكونوا من أهل مكة وما حولها . وفي سورة الفتح التي نزلت في السنة السادسة عقب صلح الحديبية هذه الآية:

(سَيقولُ ٱلمُخَلَّفُونَ[1] مِنَ الأَعرابِ شَغَلَتْنا أَموالُنا وأَهلونا فاسْتَغْفِرْ لَنا ... ١١)

ثم هذه الآيات:

(سَيقولُ ٱلمُخَلَّفونَ إذا انطَلَقْتُمْ إلى مَغـــانِمَ لِتأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُريدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعونا كَذلِكَ قالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيقولُونَ بَلْ تَحْسُدونَنا بَلْ كانوا لا يَفْقَهونَ إلّا قَليلاً . قُلْ لِلمُخَلَّفينَ مِنَ الأَعرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُولي بَأْسٍ شَديـــدٍ تُقاتِلونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فإنْ تُطيعوا يُؤْتِكُمْ اللهُ أَجراً حَسَناً وإنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعذِّبْكُمْ عَذاباً أَليماً ١٥ ــ ١٦)

حيث تفيد أنه كان جماعات كثيرة من الأعراب قــد دانوا بالاسلام وتخلفوا عن الانضمام للنبي والمسلمين في عزيمتهم على زيارة الكعبة . والآية الاخيرة تفيد أنهم كانوا على شيء من القوة حيث أمرت النبي بأن يخبرهم انهم سيدعون الى حرب قوم أولي بأس شديد كامتحان لايمانهم .

---

(١) بمعنى المتخلفون .

ومن المحتمل أن يكونوا من الذين ذكرت الوقائع الحربية اسلامهم ومن المحتمل ان يكونوا غيرهم .

ولقد ذكر ابن سعد [1] ان وفداً كبيراً من قبيلة مزينه جاء إلى المدينة في السنة الخامسة للهجرة فبايع النبي على الاسلام وكانوا اربعمائة . وان النبي امرهم بالرجوع إلى بلادهم واموالهم وقال لهم أنتم مهاجرون حيث كنتم ، والمتبادر أن بقية قومهم ونسائهم واطفالهم قد اسلموا ايضا . وقد اشترك من مزينة في الزحف على مكة في السنة الثامنة نحو الف رجل [2]

وقد ذكر المؤلف نفسه [3] ان رهطا من بني عبس قدموا على النبي في عهد مبكر فأسلموا وانه ارسلهم ليعترضوا عيراً لقريش اقبلت من بلاد الشام . وان ثلاثة نفر من بني عبس قدموا على النبي فقالوا له إنه قدم علينا قرّاؤنا فأخبرونا انه لا إسلام لمن لا هجرة له ولنا اموال ومواش هي معاشنا فقال لهم اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من اعمالكم شيئاً ولو كنتم بصمد وجازان [4] . حيث يفيد هذا ان الاسلام قد انتشر في بنى عبس في عهد مبكر ولم يقتصر على الذين قدموا على النبي عليه السلام .

وقد ذكر ان ضمام بن ثعلبة من سعد بن بكر وفد على النبي في السنة الخامسة فسأله مسائل كثيرة (وعبارة الرواية (سأله فاغلظ له المسألة) فأجابه على كل ما سأله فاسلم ورجع إلى قومه فاخبرهم فما امسى ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما . وبنوا المساجد واذنوا بالصلوات [5] .

وقد ذكر [6] ان وفداً من بني عبيد بن عدي وفد على النبي قبل الفتح فقالوا له نحن اهل الحرم وساكنه واعز من به ولا نريد قتالك ونحبك ونريد ان نقاتل معك إذا قاتلت غير

---

(١) ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٧

(٣) ص ٦١ - ٦٢

(٤) لا يلتنكم بمعنى لا ينقصكم وصمد وجازال في بلاد اليمن وقد اراد النبي ذكرهما ضرب المثل على البعد .

(٥) ص ٦٤

(٦) ابن سعد ج ٢ ص ٧٠

قريش ولكنا لا نقاتل قريشا فقبل منهم شرطهم فاسلموا . والمتبادر ان قومهم قد اسلموا باسلامهم .

وقد ذكر[1] ان وفداً من اشجع مؤلف من مئة رجل في رواية وسبعمئة في رواية قدموا على النبي عام الخندق (في السنة الخامسة) فنزلوا شعب سلع فامر النبي لهم باحمال التمر ثم خرج اليهم فقالوا له لا نعلم احداً من قومنااقرب داراً منك منا ولا اقل عدداً . وقد ضقنا بحربك وحرب قومك فجئنا نوادعك فوادعهم ثم لم يلبثوا ان اسلموا .

وقد ذكر ان وافداً من بني سليم قدم على النبي قبل الفتح اسمه قيس بن نسيبه قبل الفتح فاسلم ثم عاد إلى قومه فقال لهم قد سمعت ترجمة الروم وهينمة فارس واشعار العرب وكهانة الكهان وكلام مقاول حمير فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم فاطيعوني وخذوا نصيبكم منه فلما كان عام الفتح خرجوا إلى رسول الله فادركوه في قديد في طريقه الى مكة وهم تسعمائة فاسلموا وشهدوا فتح مكة وحصار الطائف ويوم حنين مع هوازن[2] .

وقد ذكر[3] خبر اسلام الاجنع بن عمرو الكلبي وقومه وكانوا نصارى في انحاء دومة الجندل نتيجة لسرية سيرها النبي عليه السلام بقيادة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه للدعوة . في السنة السادسة للهجرة .

وقد ذكر ان وفداً من الاشعريين اليمنيين برآسة ابي موسى رضي الله عنه ركبوا البحر ونزلوا جده ثم جاؤوا الى المدينة في السنة السادسة وكان النبي في غزوة خيبر فاسلموا واقاموا عنده . وكانوا خمسين رجلا فيهم رجلان من قبيلة عك[4] .

وقد ذكر ان وفداً من اسلم جاء إلى النبي فقال له قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك وانا اخوة الانصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء فقال لهم اسلم سالمها الله

---

(١) ٧١

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٧١ — ٧٢

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٣٢

(٤) ١١١

وغفار غفر الله لها وكتب لاسلم ومن اسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف[1] والسهل كتابا يبين لهم فيه مقادير الصدقة والفرائض في المواشي . ولقد ذكرت روايات السيرة[2] ان قبيلتي اسلم وغفار كانتا مع النبي في زحفه على مكة حيث يفيد هـــذا وذاك انقبيلتي اسلم وغفار وغيرهما من قبائل العرب الذين كانوا يسكنون السيف والسهل قد اسلموا سلمياً قبل الفتح بمدة ما وإن لم تذكر الروايات وقت ذلك وكيفيته[3] .

ولقد ذكرت الروايات[4] أن من جملة من اعطاهم النبي عليه السلام عطايا كبيرة من غنائم هوازن تألفا لقلوبهم من زعماء القبائل نوفل بن معاوية من بني بكر بن عبد مناة بن كنانه . وعلقمه بن علاثة ولبيد بن رفاعه من بني عامر بن صعصعه من كلاب . وخالد بن هوذة وحرملة بن هوذة من بني عامر بن ربيعه . وعيينه بن حصن بن حذيفة زعيم بني فزارة والاقرع بن حابس زعيم بني تميم حيث يفيد هذا ان هؤلاء الزعماء كانوا في حملة الفتح وانهم اسلموا سلمياً هم وقبائلهم او جماعات من قبائلهم قبل الفتح بمدة ما وان لم تذكر الروايات وقت ذلك وكيفيته .

وقد ذكر ابن سعد ان وفدا من جهينه قدم على النبي قبـــل الفتح فاسلموا واقاموا في احدى ضواحي المدينة وخط لهم النبي فيها مسجداً وانه بعث منهم رجلا اسمه عمرو بن مرة الى قومه فاسلموا الا رجلا واحداً رد عليه فدعا عليه عمر فسقط فوه[5] وقد ذكر ايضا ان جهينه كانت من القبائل التي اشتركت في الزحف على مكة مما فيه تأييد للخبر السابق[6]

وقد ذكر المؤلف نفسه ان النبي عليه السلام ارسل سرية الى ما وراء وادي القرى لان جمعا من قضاعه يريدون ان يغزوا المدينة وقال له استعن بمن تمر به من قبائل بلى وعذره

---

(١) السيف ساحل البحر او ساحل الوادي

(٢) انظر ابن سعد ج ٤ ص ١٨٢

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ١١٦

(٤) ابن هشام ج ٤ ص ١٤٢ — ٢٤٤ وابن سعد ج ٧ ص ٢٠٣

(٥) ج ٢ ص ٩٧

(٦) ص ١٨٢

وبلقين[1] ، والمتبادر ان هؤلاء كانوا اساموا سامياً حتى يصح ان يوصي النبي قائـــده بالاستعانة بهم .

ولقد كان من جملة من ارسل النبي عليه السلام اليهم كتباً ورسلا من ملوك العرب وزعمائهم في السنة السادسة جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان . والمنذر بن ساوى ملك البحرين . فاجابوا الى الاسلام وكتبوا للنبي بذلك .

وقد اورد ابن سعد نص كتاب المنذر وجواب النبي عليه وهذا الاول (اني قد قرأت كتابك على اهل هجر فمنهم من احب الاسلام واعجبه ودخل فيـــه ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فاحدث لي امرك في ذلك) وهـــذا نص جواب النبي (انك مهما تصلح فلن نعز لك عن عملك . ومن اقام على يهودية او مجوسية فعليه الجزية) .

وقد ارسل النبي عمرو ابن العاص الى عمان والعلاء بن الحضرمي الى البحرين لجبايـــة الصدقات من اغنياء المسلمين وتوزيعها على فقرائهم وجباية الجزية من اليهود والمجوس[2] . والسياق والنصوص تدل في الوقت نفسه على ان البحرين قـــد دخلت تحت سلطان النبي وحكمه ودولته على طريقة الاستقلال المحلي . وهذا يقال بالنسبة لعمان ولغيرهـــا من الأمارات اليمنية التي اسلم امراؤها واقرهم النبي على ما في ايديهم ، بحيث يسوغ القول ان هذا النوع من الحكم سنة نبوية .

كذلك كان من جملتهم ثمامة بن اثال الحنفي ملك اليمامة ولم يسلم وقتئذ . ولكنه اسلم بعد قليل كما رواه ابن هشام في خبر طريف[3] حيث ذكر ان خيلا لرسول الله مرت ببني حنيفة فاخذت رجلا وجاءت به الى النبي فإذا هو ثمامة . فامر النبي بإحسان معاملته وهو في الاسر وارسل اليه طعاما ثم صار يدعوه الى الاسلام فيجيبه يا محمد ان تقتل تقتل ذادم وان ترد الفداء فسل ما شئت . فمكث ما شاء الله ان يمكث ثم قال النبي يوما اطلقوا ثمامة فلما اطلقوه اتى البقيع فتطهر فاحسن الطهور واقبل على النبي فبايعه على الاسلام ثم خرج معتمراً (لاداء واجب زيارة العمرة الى الكعبة) فدخل مكة وهو يلبي فاخذته قريش

---

(١) ج ٣ ص ١١٧

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٣ و ٢٧٩ وابن سعد ج ٢ ص ٢٧ — ٢٨

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣١٥

وقالت له لقد اجترأت علينا وارادوا قتله فحذرهم بعضهم من ذلك لان اليمامة مصدر طعامهم وطريق قوافلهم . وقد اورد بن هشام في السياق رواية اخرى جاء فيها ان رجال قريش قالوا له أصبوت يا ثمام قال لا ولكني اتبعت خير الدين دين محمد . ولا والله لا تصل اليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ثم خرج الى اليمامة فمنعهم من ان يحملوا الى مكة شيئاً فكتبت قريش الى رسول الله وكان ذلك في أثناء قيام هدنة الحديبية تقول له (قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع) فكتب النبي اليه ان يخلي بينهم وبين الحمل . ويبدو من ذلك ما كان من نشاط النبي العظيم في الدعوة الى سبيل الله وما كان من استجابة لها من مختلف انحاء جزيرة العرب ومن الحضر والبدو على السواء .

وهذا ما يفسر لنا ما ذكرته الروايات من ان عدد الذين اشتركوا في غزوة تبوك قد بلغ ثلاثين الفاً [1] . وهو عدد عظيم في ذلك الوقت يمثل ما لا يقل عن مئة الف لأنه لا يمكن ان يكون قد اشترك فيها كل مسلم من رجال ونساء وأولادهم . ولقد شك المستشرق كاتياني في هذا العدد الذي روي انه احتشد لغزوة تبوك . وما شرحناه كاف للرد على هذا الشك . ومهما يكن من المحتمل ان يكون منهم من اسلم بعد الفتح المكي فان المدة القصيرة التي مرت بين الفتح وغزوة تبوك وهي عشرة اشهر حيث كانت في رجب السنة الهجرية التاسعة لا تسوغ القول انه كان قسم كبير من هذا الحشد ممن اسلم بعد الفتح .

اما بعد الفتح فقد غدا انتشار الاسلام كاسحا . وقد نوهت بهذا المعنى سورة النصر الذي جاء فيها (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا ...) حيث دانت قريش ومن في مكة ومن حول مكة بالاسلام ثم دانت به هوازن وهي من كبريات القبائل ثم دانت به ثقيف اهل الطائف ثم اخذت وفود العرب تتدفق على النبي من كل صوب نتيجة لما كان من دوي اخباره وانتصاره على قريش وفتحه مكة ثم نتيجة لما بعث به من كتب ورسل فيبايعونه على الاسلام باسمهم واسم قومهم ويتلقون تعليماته ووصاياه ويسالونه المسائل المتنوعة ويسمعون اجوبته ومنهم من كان يناظر شعراؤهم شعراء المسلمين وخطباؤهم خطباء المسلمين . وكان النبي يرسل معهم القراء وجباة الصدقات ويوصيهم باخذها من الاغنياء وتوزيعها على فقراء القوم بعد افراز حصة بيت المال . ومن الوفود من اتى من مختلف انحاء اليمن ، ومنهم من

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢١٩

اتى من تهامة واليامة والبحرين وعمان ونجد ومنهم من اتى من مشارف الشام ومنهم من اتى من اطراف الحجاز ومنهم جماعات كان بعض قومهم قد اسلموا دونهم .

وممن ذكرت الروايات [1] وفودهم في السنة التاسعة للهجرة التي سميت عام الوفود وفي السنة التالية لها وفود بني اسد وتميم وفزارة ومرة وثعلبة ومحارب وكلاب وعقيل وجعدة وقشير والبكاء وكنانة وباهلة وعامر وثقيف وربيعة وبكر بن وائل وتغلب وحنيفة وشيبان وطيء وتجيب وخولان وجعفى وصداء ومراد وزبيد وكندة والصدف وخشين وسعد هذيم وبلي وبهراء وعذرة وسلامان وكلب وجرم والازد وغسان وبنو الحارث وهمدان وسعد العشيرة وعنس والداريين والمذحجيين وغامد والنخع وبجيلة وخثعم وحضرموت وازد عمان وغافق وبارق ودوس وثمالة والحدان ومهرة وحمير وجيشان والسباع .

وقد اورد ابن سعد [2] نصوص كتب كثيرة كتبها النبي عليه والسلام الى عدد كبير من اقيال اليمن والزعماء وغير اليمن دون ذكر تاريخ ارسالها . منها ما يفيد يقينا انه كتب بعد الفتح بسنة او سنتين ومنها ما لا يفيد شيئا غير اننا نرجح من اسلوبها انها هي الاخرى كتبت بعد الفتح : وبعضها يدل على انه مرسل الى اناس قد اسلموا حيث يعطيهم النبي ذمته وجواره ويقرهم على ما في ايديهم وعلى مالهم من رسوم وعوائد وامارات ومراكز وارض ماأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ويعلنهم براءة ذمته ممن يرجع عن دينه . وقد ذكر المؤلف في سياق بعض من ارسلت له كتب دعوة خبر اسلامهم مع قومهم او جماعة من قومهم وخبر ارسال النبي عليه السلام اليهم من يعلمهم القرآن ويجبي منهم الصدقات . وفي بعضها تعليمات واوامر نبوية في شؤون متنوعة بحيث يسوغ القول ان النبي قد اعتبرهم داخلين في حكمه وسلطانه وعاملهم على هذا الاعتبار .

وممن كتب اليهم الحارث بن عبد كلال وشريح بن عبد كلال [3] ونعيم بن عبد كلال

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٥٩ — ١٢١ وابن هشام ج ٤ ص ٢٢١ - ٢٧١

(٢) ج ٢ ص ٣٠ - ٥٦

(٣) هذا انموذج مما روى ابن سعد ان النبي كتبه لجماعات اليمن . كتبت لربيعة بن ذي مرحب الحضرمي واخوته واعمامه (ان لهم اموالهم ونخلهم ورقيقهم وآبارهم وشجرهم ومياههم وسواقيهم ونبتهم وشراجهم وحضرموت . وكل مال لآل ذى مرحب . وان كل رهن بأرضهم يحسب ثمره وسوره وقضبه من رهنه الذى هو فيه وان كل ما كان من ثمارهم من خير فانه لا يسأله احد عنه ، وان الله ورسوله براء منه . وان نصر

ونعمان قيل ذي يزن ، ومعافر ، وهمدان وزرعة ذي رعين وبنو معاوية من كندة وبنو عمرو من حمير وذو الكلاع التبعي ومعدي كرب بن ابرهة وربيعة بن ذي مرحب الحضرمي واخوته واعمامه ومن اسلم من حدس من لخم وخالد بن ضماد الأزدي وبنو قرة بن عبد الله النبهانيون وبنو الضباب من بني الحارث ويزيد بن الطفيل الحارثي وبنو قنان بن ثعلبة وبنو زياد الحارثين ويزيد بن المحجل وقيس بن الحصين ذو الغصة وبنو قنان بن يزيد الحارثين وعاصم بن الحارث وبنو معاوية بن جرول الطائيون وعامر بن الاسود الطائي وقومه وبنو جوين الطائيون وبنو معن الطائيون وبنو اسد وجفادة الازدي وقومه وقبيلتي سعد هذيم من قضاعة وجذام وبنو زرعة وبنو الربعة من جهينة وبنو جعيل من بلى وخزاعة وعوسجة بن حرملة الجهني وبنو شنخ من جهينة وبنو الجرمز بن ربيعة من جهينة وبنو الحرقة من جهينة وبلال بن الحارث المازني وبديل وبسر وسروات بني عمرو والعداء بن خالد بن هوذه وسلمة بن مالك السلمي والعباس بن مرداس السلمي وحرام بن عبد عوف من بني سليم ونعيم بن مسعود الاشجعي وجميل بن رزام العدوي وحسين بن نضلة الاسدي وبنو غفار وبنو صخرة واهل هجر وقبيلة جباح في تهامة وبنو زهير بن اقيش من عكل وابو ظبيان الازدي وقومه والحبيب بن عمرو وقومه وبنو بحتر من طي وسمعان بن عمرو العرني والسعير بن عداء والحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير وبنو عبد القيس في عمان واقيال حضرموت وعظماؤهم زرعة وفهد والبسي والبحيري وعبد كلال وربيعة والمطرف بن الكاهن الباهلي ونهشل بن مالك الوائلي وبنو حناب من كلب ومهري بن الابيض وقومه وقبيلة خثعم وبطن بارق من الازد ووائل بن حجر قيل حضرموت ...

ومن مشاهير العرب الذين اهتمت الروايات بذكر اسلامهم في هذه الفترة ايضا عدي بن حاتم الطائي ·

آل ذي مرحب على جماعة المسلمين · وان ارضهم بريئة من الجور . وان اموالهم وانفسهم وزافر حائط الملك الذى كان يسيل الى آل قيس ، وان الله ورسوله جار على ذلك · وكتب معاوية)

(ابن سعد ج ٢ ص ٣١)

وهذا نموذج ثان : (كتب رسول الله لمن اسلم من حدس من لخم واقام الصلاة وآتى الزكاة واعطى حظ الله وحظ رسوله وفارق المشركين . فانه آمن بذمة الله وذمة رسوله محمد . ومن رجع عن دينه فان ذمة الله وذمة محمد رسوله بريئة . ومن شهد له مسلم باسلامه فانه آمن بذمة محمد وانه من المسلمين . وكتب عبد الله ابن زيد)

ابن سعد ج ٢ ص ٣١

وروى خبر ذلك ابن هشام في قصة طريفة [1] ، حيث روى انه كان يقول ما من رجل من العرب كان اشد كراهــة لرسول الله مني وكنت امرءاً شريفا ونصرانيا وملكا على قومي فوصيت راعيا لي بانه اذا سمع بجيش محمد وطىء البلاد فاخبرني فاتاني ذات يوم فقال لي اقبلت جيوش محمد فاحتملت اهلي بقصد اللحوق بأهل ديني من النصارى في الشام وفي الطريق خلفت اختا لي في الحاضر واقمت بالشام متربصا . وقد اصابت خيل رسول الله اختي فاخذوها اليه في سبايا طي فلما رأته قالت له هلك الوالد وغاب الوافد فامنن علي فقال لها : من الوافد قالت اخي عدي قال الفار من الله ورسوله . ثم تركها فاعادت الكلام عليه مرة ثم مرة فقال لها قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي ثقة من قومك تخرجين معه ، فاخبرت النبي فكساها وحملها واعطاها نفقة فقدمت الشام واجتمعت باخيها وعاتبته وحضته على اللحوق بالنبي وقالت ان كان الرجل نبيا فللسابق اليه فضله وان كان ملكاً فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت . قال حاتم فخرجت حتى قدمت الى المدينة فأقبلت وسلمت عليه .. فسألني من الرجل قلت له حاتم بن عدي فأخــذني إلى بيته . وفي الطريق استوقفته امرأة ضعيفة لحاجتها فوقف لها طويلا فقلت والله ما هذا بملك ثم مضى بي حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من ادم محشوة ليفاً فقذفها لي وقال اجلس على هذه قلت بل انت اجلس عليها فقال بل انت فجلست عليها وجلس على الأرض فقلت في نفسي والله ما هذا بملك ثم اقبل علي فقال يا عدي ألم تك ركوسياً (طائفة نصرانية على ما هو المتبادر) قلت بلى قال أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع (اي تأخذ منهم ربع غنائمهم) قلت بلى قال فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك . قلت اجل والله . ثم قال لعلك يا عدي انما يمنعك من دخول الاسلام ما ترى من حاجة اهله (فقر اهله) فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه . ولعلك انما يمنعك من دخوله ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف . ولعلك انما يمنعك من دخوله انك ترى الملك والسلطان في غيرهم وايم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت لهم . قال فأسلمت . ثم قال لقد رأيت ثنتين القصور البيض من ارض بابل قد فتحت والمرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج البيت . وايم الله لتكونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه .

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٤٦ــ ٢٥٠

ومن مشاهيرهم كذلك فروة بن مسيك المرادي حيث روى ابن هشام [1] انه كان مفارقاً لملوك كندة فأقبل النبي فأسلم فاستعمله على مراد وزبيد ومذحج كلها وبعث معه خالداً بن سعد العاص على الصدقة .

ولقد اسلم بجير بن زهير بن ابي سلمى الشاعر المشهور عقب الفتح وكان اخوه كعب يهجو النبي ففر كغيره من الشعراء الهجائين للنبي فكتب له اخوه قائلا ان كان لك حاجة في نفسك فطر الى رسول الله فانه لا يقتل احداً جاءه تائباً . فنظم قصيدته المشهورة (بانت سعاد) وقدم الى المدينة وغدا مع صاحب له على النبي فسلم عليه ثم قال له ان كعبا بن زهير جاء تائبا مسلما يستأمن منك فهل انت قابل منه ان جئتك به قال نعم قال انا كعب يا رسول الله . ثم القى قصيدته . فقبل توبته وعفا عنه ومنحه بردته تقديراً لقصيدته التي هي من غرر الشعر العربي [2] .

وكان آخر ما فعله النبي عليه السلام ارساله سرية بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه الى بني الحرث بن كعب في نجران اليمن وسرية او اثنتين بقيادة علي بن ابي طالب رضي الله عنه الى اليمن للدعوة الى الاسلام وقد دخلت سرية على بلاد مذحج . ونجحت السرايا في مهمتها حيث دخل اهل الناحيتين في دين الله [3] .

وهذه الجهود العظمى التي بذلها النبي عليه السلام بعد الفتح مضافا اليها ما بذله قبل الفتح في الدعوة الى سبيل الله تفسر لنـا مدى صحة ما روي من ان عدد الذين رأوا رسول الله وعدوا من اصحابه بالمعنى الواسع [4] قـد بلغ مئة الف يمثلون فيما نعتقد اربعمئة الف او خمسمئة الف وبكلمة ثانية غالبية سكان جزيرة العرب مما يسوغ القول ان الهدف العاجل الذي قلنا في مطلع الجزء ان النبي عليه السلام اهتم له كمرحلة اولى وهو جمع كلمة العرب تحت

---

(١) ج ٤ ص ٢٥١ – ٢٥٢

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ١٤٩ ـــ ١٦٩ لم يذكر ابن هشام في سياقه خبر منح النبي البردة . ولكن ذلك من الاخبار المشهورة وننبه الى ان في ابن هشام وغيره قصص طريفة في اسلام غير من ذكرنا من مشاهير العرب فاكتفينا بالنماذج التي اوردناها

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ٢٢٢ ـــ ٢٢٣ وابن هشام ج ٤ ص ٢٦٢ ـــ ٢٦٥ و ٣١٩

(٤) اردنا بتعبير (المعنى الواسع) تمييز الفريق الذين صحبوا النبي صحبة طويلة من السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان والذين هم الذين عناهم النبي في احاديثه المروية في الثناء والنهي عن التعرض لهم على ما سوف نذكره بعد قليل

لواء الاسلام قد تحقق اجمالا في حياته ، ومما فيه دلالة على نجاح الدعوة الاسلامية العظيم وما فيها من قوة عناصر الاستجابة حينما تزول من طريقها العقبات الناجمة عن العناد والمكابرة والاستكبار والحقد والمنافسة والحسد والخوف على المصالح الشخصية والقبلية وسوء النية .

ولقد كان ممن كتب اليهم النبي عليه السلام مسيلمة الحنفي -- المعروف بالنبي الكذاب -- وكان الشيطان قد أغره وأغراه ونفخ في انفه فكتب جوابا يقول فيه للنبي انه نبي مثله وانه يشترط ان يكون له نصف الارض فكتب النبي اليه يقول ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده [1] . فركب رأسه واثر على كثير من قومه وجعلهم يلتفون حوله تأثراً بالنعرة القبلية حتى كان من شره ما كان على ما سوف نشرحه بعد .

ولقد اسلم معظم زعماء بني عامر وتابعهم قومهم عدا زعيم اسمه عامر بن الطفيل . وقد قال له قومه اسلم فالناس قد اسلموا فكان جوابه والله لقد كنت آليت ان لا انتهي حتى تتبع العرب عقبي أفأنا اتبع عقب هذا الفتى من قريش . ثم وفد على النبي مع زعماء قومه فطلب منه ان يخاله فقال له حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له فقال له إذاً والله لأملأنها عليك خيلا ورجلا [2] .

ولقد كان من جملة من كتب اليهم النبي من ملوك العرب هود بن علي الحنفي ملك اليمامة فاجاب النبي بقوله (ما احسن ما تدعو اليه واجمله . وانا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الامر أتبعك) فقال النبي المرسول الذي حمل كتابه (لو سالني سيابة من الارض ما فعلت . باد وباد ما في يديه [3] .

ففي هذه الامثلة وامثالها التي مر منها كثير في سياق مباحث العهد المكي ومواقف زعماء قريش ومباحث المنافقين ما قد يكون داعما لما قلناه .

ولقد قلنا أن غالبية سكان جزيرة العرب قد غدت منضوية تحت راية الاسلام لأنه كان هنا وهناك وهنالك فئات من العرب المشركين ظلت تحتفظ بشركها منها من كان في انحاء نائية ومنها من كان في انحاء دانية ولكن بينها وبين النبي عهد وهدنة . هذا الى جانب من احتفظ بدينه من نصارى الجزيرة ويهودها ومجوسها معاهداً على الموادة واداء الجزية .

---

(١) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٢
(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٣٣ -- ٢٣٤
(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٦ -- ٢٧

استدراك وتعليق على بنيان المجتمع الاسلامي الذي وطده رسول الله

●

وقد يكون محل لاستدراك محق خدمة للحق والتاريخ وهو ان من المحتمل ان يكون الاسلام لم يرسخ في قلوب كثير من البدو الذين دانوا به بمداه العميق وأن لا تكون التقاليد العصبية القبلية الضيقة قد زالت بالمرة بسبب قصر عهد الإشعاع النبوي الشخصي مما كان له آثار ونتائج أليمة في تاريخ العرب والاسلام .

ولقد كان هذا ملموحاً في أواخر عهد النبي واحتوى القرآن بعض إشارات اليه حيث جاء في سورة الحجرات المدنية :

(قالَتِ الأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ في قُلوبِكُمْ وإِنْ تُطيعوا اللهَ ورَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ[1] ١٤)

وحيث جاء في سورة التوبة :

(الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفاقاً وأَجْدَرُ أَنْ لا يَعْلَمُوا حُدودَ ما أَنْزَلَ اللهُ على رَسُولِهِ واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ . ومِنَ الأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً ويَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ واللهُ سَميعٌ عَليمٌ ٩٧ ــ ٩٨)

---

(١) في الآية تشريع وتلقين رائعان . فالله ورسوله قد قبلا من الاعراب الاسلام كمظهر من مظاهر الاستسلام والخضوع لله ورسوله وسلطانه ولو لم يكن ذلك عن ايمان راسخ في قلوبهم مع شرط طاعـــة الله وطاعة رسوله . ولهم على ما يفعلون من اعمال اجرهم دون نقص. وحكمة هذا ظاهرة وهي الأمل في تطور حالتهم ورسوخ الايمان في قلوبهم مع الايام .

وهذا بالإضافة إلى ما كان من فئة منافقة غير مكشوفة تماماً في المدينة وما حولها من الأعراب اشارت اليها آية سورة التوبة هذه:

(ومِمن حَولَكُمْ مِن الأَعرابِ مُنافِقون ومِنْ أهْلِ المَدينَةِ مَردوا على النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ١٠١)

وإلى ما كان من منافقين معروفين لا يتورعون عن التآمر عن رسول الله وعهده مما شرحناه في مبحث المنافقين ، ، ثم إلى ما كان من فئة أخرى ذكرتها آية في سورة التوبة هكذا :

(وآخرونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يَتوبُ عَلَيْهِمْ وإما يُعَذِّبُهُمْ واللهُ عَليمٌ حَكيم ١٠٦)

مما يمكن أن يكون وصفاً لجماعة كانوا يظهرون غير ما يبطنون مما فيـــه اثم وعدم إخلاص ، والى ما كان كذلك من فئة أخرى خلطت عمـــلا صالحاً وآخر سيئاً على ما ذكرته آية التوبة هذه (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم ١٠٢) ثم بالإضافة الى من كانت تعنيهم آيات مدنية عديدة احتوت تنديداً بسبب التثاقل عن النفرة في سبيل الله واظهار الجزع والشغب حينما تصيبهم بعض المصائب او يحق عليهم موقف ووصفوا في الآيات بوصف المؤمنين مثل آيات الصف هذه :

(يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقولُونَ ما لا تَفْعَلونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقولُوا ما لا تَفْعَلونَ ٢ — ٣)

وآيات سورة النساء هذه:

(أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذينَ قيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وأَقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ فلَمَّا كُتِبَ عَليهِمْ القِتالُ إذا فَريقٌ مِنهمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ

اللهِ أوْ أشَدَّ خَشْيةً وقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنا القِتالَ لَوْلا أخَّرْتَنا إلى أجَلٍ قَريبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَليلٌ ولا تُظْلَمُونَ فَتيلاً ٧٧).

وهذه :

(ألَمْ تَرَ إلى الَّذينَ يَزْعمونَ أنَّهُم آمَنوا بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُريدونَ أنْ يَتَحاكَموا إلى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِروا أنْ يَكْفُروا بِهِ ويُريدُ الشَّيْطانُ أنْ يُضِلَّهِمْ ضَلالاً بَعيداً ٦٠)

وهذه :

(فَلاَ وربِّكَ لا يُؤْمِنونَ حَتَّى يُحَكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهمْ ثُمَّ لا يَجِدوا في أنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّموا تَسْليماً . ولَوْ أنَّا كَتَبْنا عليهمْ أنْ اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ أوْ اخْرُجوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعلوهُ إلَّا قليلٌ مِنْهمْ ولَوْ أنَّهُمْ فَعَلوا ما يُوعَظونَ بِهِ لكانَ خَيْراً لَهُمْ وأشَدَّ تَثْبيتاً . وإذاً لآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أجراً عَظيماً . ولَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقيماً)

٦٥ — ٦٨

وهذه :

(يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تَتَّخِذوا الكافِرينَ أوْلِيـــاءَ مِنْ دونِ المُؤْمِنينَ أتُريدونَ أنْ تَجْعلوا للهِ عَليكُمْ سُلطاناً مُبيناً ١٤٤)

وآيات سورة آل عمران هذه :

(أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصيبةٌ قَدْ أَصبتمْ مِثْلَيْها قُلتُمْ انى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ١٦٥)

وآيات سورة التوبة هذه :

(يا أيُّها الذينَ آمنوا مالَكم إذا قيلَ لَكمْ انْفروا في سَبيل اللهِ اثّاقَلْتُم إلى الأَرْضِ أَرَضيتُمْ بِالحياةِ الدُّنيا مِنَ الآخِرةِ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخِرَةِ إلا قَليلٌ . إلا تَنْفُروا يُعَذِّبْكُمْ عذاباً أليماً ويَسْتَبدِلْ قوْماً غيْركُمْ ولا تضُرّوه شيئاً واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ٣٨ ــ ٣٩).

غير ان من الحق ان نقول أيضا ان هذا أمر طبيعي في كل مجتمع وبخاصة في مراحل التطور الخطر في كل مجتمع كما كان شأن المجتمع العربي في عهد النبي عليه السلام ونتيجة لرسالته ودعوته ونشاطه في سبيلها . وانه لم يكن لينقض ما قلناه من تحقق الهدف العاجل وتوطيد المجتمع العربي الجديد والدولة العربية الجديدة تحت راية الاسلام ونبيه . لان الأساس الذي كان يقوم عليه سليم قوي . حيث كان هناك طبقة عميقة الإيمان والإخلاص والاستغراق في الدعوة . كثيرة العدد نوعا ما تتألف من مسلمي المهاجرين السابقين الذين وصفتهم آيات مكية ومدنية اروع وصف[٢] ومن مسلمي الأنصار السابقين الذين وصفتهم آية في سورة الحشر كذلك اقوى وصف[٣] ومن العدد العديد الذين آمنوا بعدهم وهاجروا وجاهدوا واتبعوا هؤلاء واولئك بإحسان من اهل مكة والمدينة والطائف واليمن والقبائل

---

(١) هناك آيات عديدة اخرى من بابها مثل آيات سورة محمد ٢٠ و ٣٥ ــ ٣٨ والجمعة ١١ والممتحنة ١ ــ ٣ وآل عمران ١١٧ ــ ١٢٢ و ١٣٨ ــ ١٤٤ و ١٥١ ــ ١٥٦

(٢) اقرأ مثـــلا آيات سورة المؤمنون ١ - ١٠ وفاطر ٢٩ - والشورى ٣٦ - ٤٣ والذاريات ١٦ - ١٩ والمعارج ٢٢ - ٣٥ والانسان ٧ - ١٢ والفرقان ٦٢ - ٧٦ والمزمل ٢٠ والحشر ٨ والبقرة ٢١٨ والفتح ٣٠

(٣) آية سورة الحشر ٩ .

لذين اندمجوا في الدعوة ايمانا وعملا والذين جمعتهم آية سورة التوبة هذه :

(والسَّابِقونَ الأَوَّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ والأَنصار والذينَ اتبعوهُمْ بِإحسانٍ رَضِيَ اللهُ عنهمْ ورَضُوا عنْهُ ١٠٠)

والذين وصفتهم آيات مدنية عديدة اروع وصف ونعتتهم بالصادقين واهابت بسائر المسلمين بأن يكونوا معهم[1] . ومنهم الذين يوصفون بأصحاب رسول الله الحقيقيين الذين عناهم حديث نبوي رواه الترمذي[2] جاء فيه (الله الله في اصحابي . لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن احبهم فبحبّي احبهم ومن ابغضهم فببغضي ابغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك ان يأخذه) وحديث نبوي آخر رواه البخاري ومسلم وابو داود وابن ماجه[3] جاء فيه (لا تسبوا اصحابي فإن أحدكم لو انفق مثل احد ذهبا ما ادرك مُدّ احدهم ولا نصيفه) وبسبب وجود هذه الطبقة التي كان جمهرة منها في الحجاز (مكة والطائف والمدينة وما حولها من قرى وقبائل) وفتات كثيرة وشخصيات بارزة منها في مختلف انحاء الجزيرة والتي تكشفت عن طبقة موهوبة في عقولها وعبقريتها واقدامها وثباتها وكان لها المواقف العظيمة في مختلف الظروف والعصيبة التي مرت بالمسلمين في حياة النبي وكانت العامل الاقوى في حفظ الكيان الاسلامي العربي والدولة الاسلامية العربية اللذين وطدهما النبي حينا نجمت محنة الردة بعد وفاته وفي جعلها حقيقة قائمة راسخة قوية الاساس والبنيان .

ومن الجدير بالتنبيه اليه ان الوصف الذي انطوى في آيتي التوبة (٩٧ — ٩٨) للأعراب مستمد من طبيعتهم كما يبدو من تمعن مضمونها غير انه جاء بعدهما آية نوهت بفريق من الاعراب تنويها يفيد ان هــذه الطبيعة قد اخذت تتطور بقوة الاشعاع النبوي كما ترى فيها :

---

(١) اقرأ مثلا آيــات سورة آل عمران ١٧٠ — ١٧٤ و ١٩٩ — ١٩٨ والانفال ٧٢ و ٧٤ والتوبة ٧٢ - ٧٣ و ٨٨ و ٩٧ و ١١٩ والاحزاب ٢٢ - ٢٣ والمزمل ٢٠ والشعراء ٢٣٧ . وآيتا المزمل والشعراء مدنيتان .

(٢) انظر التاج الجامع للاصول في احاديث الرسول ج ٣ ص ٢٧٢

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٩٩)

وقد جاء هذا التطور مصدقاً للحكمة المنطوية في آية سورة الحجرات ١٤) التي أوردناها سابقاً ونبهنا إلى ما انطوى فيها من حكمة . .

ولقد كان لهذا التطور أثر بليغ عقب وفاة النبي عليه السلام وفي أثناء محنة الردة التي ألمت بالاسلام والدولة الإسلامية حيث ثبت فريق كبير من الأعراب في الحجاز وغير الحجاز تجاه هذه المحنة وتضامنوا مع خليفة النبي وأصحابه السابقين الأولين واتبعوهم بإحسان تضامنا أمكن به التغلب على تلك المحنة وخروج الإسلام والدولة الإسلامية منها وطيدين سليمين على ما سوف نشرحه في الفصل التالي .

رسل النبي عليه السلام وكتبه إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة

يضاف الى ذلك النشاط العظيم الذي بذله النبي صلوات الله عليه في الدعوة إلى سبيل الله في جزيرة العرب وكتبه ورسله الى أمراء وملوك واقيال وزعماء وقبائل العرب ونتائجه الكبرى فقد أرسل في السنة السادسة أيضاً وبعد صلح الحديبية إلى ملوك وأمراء البلاد المجاورة والقريبة رسلا يحملون كتباً منه بالدعوة الى الإسلام . وكان رسوله الى قيصر الروم الذي كان حيئذ في بلاد الشام دحية الكلبي وإلى كسرى الفرس عبد الله بن حذافة السهمي وإلى النجاشي ملك الحبشةعمرو بن أمية الضمري والى المقوقس ملك الإسكندريةوهذا وصف ابن هشام ــ حاطب بن ابي بلتعة . وإلى ابي شمر الغساني وجبله بن الايهم الغساني شجاع بن وهب الأسدي .

وقد ذكر الخبر ابن سعد وابن هشام رواية عن من قبلهم سماعاً ومدونات [1] . ورواه كذلك الامام المحدث ابو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال[2] . وهو مثلها مولود في أواسط القرن الثاني للهجرة ومتوفى في اوائل القرن الثالث (١٥٤ — ٢٢٤ هـ) ولم يورد ابن سعد وابن هشام نص الكتب . ولكن ابا عبيد روى روايات عديدة عن رواة مختلفين في نصوص عديدة فيها بعض الخلاف . من ذلك هـذا النص لكتاب الى قيصر صاحب الروم مروي عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن يونس الايلي عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن ابي سفيان (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى[1]. اما بعد فإني ادعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم واسلم يؤتك الله اجرك مرتين فإن توليت فإن عليك اثم الاريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً الا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وقد فسر أبو عبيد الاريسيين بالخدم والأعوان .

وروى الكلمة بصيغة الارسيين ايضا[3] ومن ذلك برواية عباد بن العوام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الله شداد (من محمد رسول الله الى صاحب الروم . إني أدعوك الى الإسلام فإن اسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. فإن لم تدخل في الاسلام فأعط الجزية فإن الله تبارك وتعالى يقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) والا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام ان يدخلوا فيه او يعطوا الجزية [4] ومن ذلك برواية يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن حرمله عن سعيد بن المسيب هذا النص الذي ارسل الى كسرى وقيصر والنجاشي (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله .

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٣ — ٢٧ وابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨ - - ٢٨٠

(٢) ص ٢٠ — ٢٣

(٣) ص ٢٢ — ٢٣

(٤) ص ٢١ — ٢٢

اما بعـــد تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك بـــه شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهـــدوا بأنا مسلمون[1] .

وقد ذكر الحبر الطبري ايضا كما ذكره ابن سعـــد وابن هشام اي اسماء الرسل الذين ارسلهم النبي واسماء الملوك الذين ارسلهم اليهم وروى نص الكتاب المرسل مع دحية الى هرقل برواية بن حميد عن سلمه عن محمد بن اسحق عن ابن شهاب الزهري عن عبيدالله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن ابي سفيان هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى . اما بعد أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن اثم الا كارين عليك[2]) .

وفي كتاب تاريخ الاسلام السياسي[3] صورة فوتوغرافيـــة لكتاب موجه من النبي الى المقوقس بخط بين الكوفي والرقعة كتب تحتها (كشفه مسيو ارتين برتليمي ويعتقد كثير من العلماء أنه الكتاب الأصلي . نقله الاستاذ مرجوليوت عن مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٠٤) وهذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون) وفي قرنة الصورة خاتم لم نستطع قراءة نقشه) .

وقد روى ابن عبد الحكم مؤلف كتاب فتوح مصر[4] نص كتاب النبي للمقوقس بنص مماثل لنص الطبري اي بدون الآية القرآنية التي جاءت في نص أبي عبيد الثالث .

---

(١) ص ٢٣

(٢) ج ٢ ص ٢٨٨ — ٢٩١

(٣) ج ١ ص ١٩٨ .

(٤) تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم طبعة اولى ج ١ ص ١٩٨ — ١٩٩

وقد روى الطبري [1] نص كتاب النبي لنجاشي الحبشة هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى النجاشي الأصحم ملك الحبشه . سلام أنت . فإني أحمد اليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة . فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته . وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله . وقد بعثت اليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله. فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى) .

وقد روى القلقشندي نص كتاب النبي لكسرى هكذا:

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وشهد أن لا إله إلا الله وإني رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم . تسلم . فأن أبيت فعليك اثم المجوس [2])

وقد ذكرت الروايات خبر اسلام النجاشي وجبله بن الأيهم الغساني وكتابتهم بذلك إلى النبي كما ذكرت أن القيصر هرقل الذي كان في بلاد الشام ووصله كتاب النبي عن طريق عامله على بصرى أراد أن يحمل بطاركته وأهل ملته على قبول الدعوة وقال لهم انه النبي المنتظر أو على مسالمته ومصالحته على الجزية أو قسم من بـــلاد الشام فقابلوه بالاحتجاج فانصرف عن ذلك [3] .

---

(١) ج ٢ ص ٢٩٤

(٢) لتاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ١٩٩

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٤ ـــ ٣٠ وانظر الطبري ج ٢ ص ٢٨٨ - ٢٩٣ وقد روى الطبرى في سياق ذلك رواية عجيبة نخشى ان تكون مصنوعة عن مقابلة ومحاورة بين ابي سفيان وهرقل . فقد كان ابو سفيان وبعض رفاقه في رحلة تجارية في غزوة خرجوا اليها بعد صلح الحديبية فجاءتهم شرطة قيصر فأخذتهم الى حمص حيث كان . وكان هرقل قد سمع بخبر النبي فأخذ يسأله عن صفته واخلاقه وسيرته والناس الذين يتبعونه ومقدار إيمانهم به وقال رفاقه ان كذب في جوابه ردوا عليه.وصدقه ابو سفيان في كل ما سأل فقال له هرقل لئن صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين . ولوددت ان اكون عنده فأغسل قدميه . ولم يلبث قيصر ان

وذكرت كذلك [1] أن كسرى مزق الكتاب وأرسل إلى باذان عامله في اليمن يأمره بارسال من يستطلع خبر هذا الرجل (أي النبي) فبعث برجلين فقال النبي لهما ابلغا صاحبكما ان ربي قد قتل ربه كسرى فلما عادا وأخبراه وتحقق من صحة الخبر أسلم هو والأبناء (أي أبناء الفرس الذين ولدوا في اليمن) باليمن ، وان المقوقس أخذ كتاب النبي فجعله في حق من عاج وأرسل إلى النبي يخبره انه أكرم رسوله وبعث اليه بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وكسوة وبغلة لركوبه وانه قد علم أن نبياً بقي وكان يظن أنه يخرج بالشام ولم يزد على ذلك . وقد تسرى النبي باحدى الجاريتين وهي مارية رضي الله عنها أم ابراهيم . وأن النجاشي وضع كتاب النبي على عينيه ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعا ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال لو كنت أستطيع ان آتيه لأتيته وكتب بذلك إلى النبي . وأن جبله بن الأيهم ملك غسان أسلم وكتب باسلامه الى رسول الله واهدى له هدية . وان حاجب ابن ابي شمر الغساني الرومي واسمه مري استوضح من شجاع عن صفة رسول الله ثم اعلن له إيمانه وتصديقه . وبعض المستشرقين ومنهم كايتاني ينكرون خبر رسائل النبي ورسله إلى الملوك وبخاصة إلى الكبار منهم الاعاجم أي هرقل وكسرى والنجاشي والمقوقس . وقد حاولوا ان يؤيدوا رأيهم بما وجدوه من ثغرات وعلل في النصوص والتواريخ والأيام والأسماء . ولا بعد هذا في الحقيقة سوغا جديا لإنكار الخبر . فمثل هذه الثغرات يمكن ان يقع في سياق كل حادث . ولم يدون الحادث إلا بعد مدة ما ظل خلالها متداولا على الألسنة يزيد الرواة في تفصيله ونصوصه وايامه واسمائه وينقصون ويبدلون ويغيرون . بل كثيراً ما يقع اصحاب حادث ما في مثل ذلك إذا ارادوا ان يرووا تفاصيله بعد مدة ما من حدوثه ولا يقتضي ذلك ان يكون الحادث كاذبا . ولقد ورد الخبر في اقدم ما وصل الينا من كتب كتبت في القرن الثاني والقرن الثالث والقرن الرابع وروى كتابها

جاءته رسالة النبي فلما قابل قومه رأيه في الاجابة والمصالحة بالرفض قال لدحية اني لاعلم ان صاحبك نبي مرسل وانه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ولكني اخاف الروم على نفسي فاذهب الى الاسقف ضغاطر فهو اجوز قولا عندهم مني فذهب دحية اليه فخرج هذا على الروم فقال لهم قد جاءنا كتاب من احمد يدعونا الى الله واني اشهد ان لا إله إلا الله وان احمد عبده ورسوله فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه .

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٢ — ٢٦ وكتاب الاموال لابي عبيد ص ٢٠ - ٢٤

ما كتبوه عن رواة معينين إلى ان اوصلوه إلى احد اصحاب رسول الله او تابعيهم . وفي النصوص تقارب كبير مع اختلاف الرواة مما يمكن فيه تأييد لصحة الخبر .

ومن الأسباب التي ابدوها لانكار الخبر انه لم يرد في القرآن نص صريح بعموم رسالة النبي وأنه ورد فيه نص صريح بأن القرآن أنزل عربياً لينذر أم القرى ومن حولها وأن النبي إنما أرسل عربياً للعرب وأنه لم يكن ليفكر قط بناء على ذلك ثم بناء على ظروفه الخاصة والعامة في خارج الحجاز وعلى الأكثر في خارج الجزيرة كما أنه لم يكن ليجرأ على ارسال رسل ورسائل إلى أكبر ملوك الأرض إذ ذاك .

وفي هذه الأقوال أخطاء فظيعة . ففي القرآن المكي والمدني آيات صريحة بعموم الرسالة النبوية للناس كافة وللعالمين ولجميع الناس كما أن فيه آيات وجهت الدعوة الى اليهود والنصارى بصراحة[1] وما ورد في القرآن من الآيات التي تأمر النبي بإنذار أم القرى وما حولها أو تذكر ان الله أنزل عليه القرآن عربياً لينذر أم القرى وما حولها إنما كانت بسبيل المواقف الحجاجية والجحودية التي كان العرب يقفونها من الدعوة أولا وبسبب كون العرب والحجازيين بخاصة أول من خوطبوا بالدعوة ثانياً . وإذا كان النبي بذل جهوده الأولى في العهد المكي وقسم من العهد المدني في نشر الدعوة وتوطيد سلطانها في الحجاز خاصة والعرب عامة فإن هذا طبيعي جداً ولا يعقل غير ذلك .

وزمن ارسال الرسل والرسائل المروي يدل على صحة الحادث حيث يصادف لوقت فراغ قلب النبي من اعداء الدعوة الألداء وهم اليهود وأهل مكة . فقد تم التنكيل بيهود المدينة وأجلوا عنها وخضدت شوكتهم في خيبر ووادي القرى وقد انعقد الصلح أو الهدنة بين النبي وأهل مكة لمدة عشر سنين . فليس في الحادث ارتجال يجعل خبره منكراً او موضوعاً كما هو واضح . وفي سورة المائدة آية ذات مغزى خاص في هذا الصدد فيما نعتقد وهي :

(يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليْكَ مِنْ ربِّكَ وإنْ لمْ تَفْعَلْ فَما

---

(١) اقرأ آيات سورة الاعراف ١٥٨ والمائدة : ١٥ و ١٩ و ٦٧ والنساء ٤٦ و ١٧٦ وسبأ ٧٨ والانبياء ١٠٧ والفرقان ١

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ[1] ٦٧)

وآيات السورة نزلت عقب صلح الحديبية وهو الظرف الذي تروي الروايات أن النبي أرسل رسله ورسائله إلى الملوك والأمراء .

والآية المذكورة جاءت عقب آيات طلب فيها من أهـــل الكتاب ان يقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إلى النبي من الله حتى يسعدوا ويفتح الله لهم بركات كل شيء[2] . ولعلها كانت نقطة الانطلاق في هذا المجال . ولقد أرسل النبي رسله وكتبه يبلغ رسالة ربه إلى امراء العرب وزعمائهم وقبائلهم في الحضر والبدو في جزيرة العرب فمن المنطقي جداً ان يرسل رسله وكتبه لابلاغها لمن هم خارج الجزيرة من ملوك وامراء ايضاً .

ولقد كانت هناك أحداث منبثقة عن هذا الحادث روتها الروايات في سياق آخر مثل سلب دحية الكلبي رسول رسول الله الى قيصر من قبل بعض بني جذام ترتب عليها توجيه سرية لقتالهم بقيادة زيد بن حارثة[3] . ومثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عمير الى ملك بصرى من قبل عامل مؤته الغساني عمرو بن شرحيل ترتب عليه توجيه سرية الى مؤتـــة للانتقال بقيادة زيد بن حارثة ايضاً[4] . والحادثان وقعا في السنة السادسة . وبعد ارسال النبي رسله وكتبه الى الملوك ولم ينكر المستشرقون اي الحادثين . ثم مثل حادث قدوم مارية واختها من مصر هدية من المقوقس فتخطى النبي عليه السلام مارية وولدت له ابنه ابراهيم والحادث يصادف للسنة السادسة .

---

(١) بعض مفسري الشيعة (انظر الطوسي مثلا) ورواتهم ومؤلفيهم يؤولون الآية بأنها امر رباني للنبي يبلغ الناس ما أمر بتبليغه وهو وصاية على ابن ابي طالب وخلافته من بعده وان النبي اعلن ذلك في موقف له عند غدير خم في طريق عودته من مكة الى المدينة بعد الفتح او بعد حجة الوداع . وهو من غرائب ما كثر من هذا الباب من تفسيراتهم وتأويلاتهم . والتهافت هنا ظاهر ولا يوجد بين هذا التأويل وبين الآية وسياقها اية مناسبة بعيدة او قريبة على ما ذكرناه في المتن (انظر المنتقى من منهـــاج السنة ص ٤٢٢ وبعدها) .

(٢) اقرا آيات سورة المائدة ٦٥ — ٦٧

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٣١

(٤) نفس المصدر ١٧٤ .

ومات ابراهيم وعمره ستة عشر شهراً او ثمانية عشر شهراً في السنة العاشرة للهجرة [1]. ومثل اسلام باذان عامل كسرى على اليمن . فهذه الأحداث تكاد ان تكون حقائق تاريخية نجمت عن حادث ارسال النبي رسله وكتبه الى الملوك . اما القول ان النبي صلوات الله عليه لم يكن ليجرأ على ارسال رسله ورسائله لاكبر ملوك الارض اذ ذاك فهو هراء بالنسبة الى صاحب دعوة مؤمن بدعوته اعمق الايمان ومستغرق فيها اشد الاستغراق ومعتقد بواجبه بنشرها في مشارق الارض ومغاربها وابلاغها لجميع البشر تنفيذاً لامر ربه القرآني اقوى الاعتقاد . وقد رأى علماء اليهود الراسخين بالعلم قد آمنوا بها ورأى النصارى الذين هم في الحجاز قد آمنوا بها ورأى وفود النصارى الذين فيهم القسيسون والرهبان قد آمنوا بها وقد فاضت اعينهم بالدموع مما عرفوا فيها من الحق على ما اشارت اليه الآيات القرآنية العديدة التي اوردنا نصوصها في مناسبة سابقة [2] فضلا عما كان من شهادتهم بأن رسالة النبي حق وصدق وأن القرآن منزل من عند الله ومن فرحهم به على ما اشارت اليه الآيات القرآنية العديدة كذلك التي اوردنا نصوصها هي الاخرى في مناسبة سابقة[3] فليس هناك أي محل لاستغراب هذا الحادث وانكاره والمكابرة فيه . وارسال النبي كتباً ورسلا الى ملوك وامراء العرب في الجزيرة واطرافها يكاد يكون يقيناً لان له آثاراً يقينية . والمستشرقون الذين يكابرون في ارسال النبي كتباً ورسلا الى الملوك الكبار لا يكابرون في ذلك . وليس من فرق في نظر صاحب الدعوة المؤمن بها . وليس غريباً بل وانه لمن المعقول ان يفكر النبي في جعله رسله وكتبه شاملة لملوك العرب وملوك العجم معاً . هذا الى انه لا يبدو ان هناك اية ضرورة دينية او سياسية او حزبية او قبلية تحمل احداً في القرن الاول او القرن الثاني للهجرة على خلق هذا الخبر وروايته وتدوينه .

ولعل من النتائج الايجابية الرائعة لدعوة النبي في خارج الجزيرة قدوم وفد نصراني من بلاد الشام او الحبشة على اختلاف الروايات فيه القسيسون والرهبان لاستطلاع النبأ العظيم شخصيا والاتصال بصاحبه مباشرة . فاستمع النبي وهو يتلو القرآن ففاضت عيونه من الدمع

---

(١) انظر ابن سعد ج ١ ص ١١٦ - ١٢٦

(٢) اقرا آيات سورة آل عمران ١١٣ - ١١٥ و ١٩٩ والنساء ١٦٢ والمائدة ٨٢ - ٨٥ والاعراف ١٥٧ والاسراء ١٠٧ - ١٠٩ والقصص ٥٢ والعنكبوت ٤٨ والاحقاف ١٠

(٣) اقرأ آيات سورة الانعام ٢٠ و ١١٤ والرعد ٣٦

واعلن الايمان برسالته والتصديق بما انزل الله عليه في موقف رائع احتوت وصفه آيات سورة المائدة هذه ٠

(ولَتَجِدنَّ أقربَهُمْ مودَّةً لِلَّذينَ آمنوا الَّذينَ قالوا إنّا نصارى ذلكَ بأنَّ منهمْ قِسّيسينَ ورُهباناً وأنَّهمْ لا يستكبرونَ . وإذا سَمِعوا ما أُنزِلَ إلى الرَّسولِ ترى أعيُنَهم تفيضُ مِنَ الدَّمعِ مِمّا عرفوا مِنَ الحَقِّ يقولونَ ربَّنا آمنّا فاكتُبْنا مَعَ الشّاهِدينَ . وما لَنا لا نؤمِنُ باللهِ وما جاءنا مِنَ الحَقِّ ونطمَعُ أنْ يُدخِلَنا ربُّنا مَعَ القومِ الصّالِحينَ)
٨٢ — ٨٤

وسورة المائدة كما قلنا قبل قد نزلت عقب صلح الحديبية . وهو الوقت الذي ارسل فيه الرسول كتبه ورسله الى الملوك والامراء .

ولعل من النتائج التي يصح ان تعد ايجابية قدوم وفد نصراني آخر من نجران اليمن لنفس القصد لان النبي ارسل اليهم كتاباً ورسولا ٠ وكان مؤلفاً من اربعة عشر شخصا من اشرافهم فيهم اميرهم وصاحب شورتهم الملقب بالعاقب واسمه عبد المسيح. واسقفهم وحبرهم وامامهم وصاحب مدارسهم واسمه ابو الحارث . وقد تناظروا مع النبي في شأن المسيح وتلا عليهم آيات القرآن فيه ودعاهم الى الايمان برسالته المصدقة لما بين يديه من الكتب والانبياء ، ونصحهم عبد المسيح بالاستجابة لانهم يعلمون حقاً صدق دعوى النبي ونبوته فأبوا وكابروا لان ذلك يفقدهم ما يتمتعون به من مركز وفوائد ، واقترح عليهم النبي المباهلة بأمر القرآن أي يجتمع مع الطرفين افراد اسرته الاقربين فيبتهلان الى الله ان يجعل لعنته على الكاذب منهما فأبوا. واظهروا استعدادهم للدخول في ذمة النبي وامانه مع الاحتفاظ بدينهم فأجابهم الى ذلك وصالحهم على ألفي حلة في السنة وإعارة المسلمين ثلاثين درعاً وثلاثين رمحاً وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً حينما يكون حرب في اليمن وكتب لهم عهداً فيه بجوار الله وذمة محمد على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم . لا يغير اسقف عن سقيفاه ولا راهب عن رهبانيته ولا واقف عن وقفانيته على ما جاء في طبقات ابن سعد وفي فتوح البلدان للبلاذري نص كامل لكتاب رسول الله لهم وهو هذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتب النبي رسول الله محمد لنجران إذا كان له عليهم حكمه في كل ثمرة وصفراء وبيضاء وسوداء ورقيق فأفضل عليهم وترك ذلك ألفي حلة حلل الاواقي في كل رجب الف حلة ، وفي كل صفر الف حلة . كل حلة اوقية . وما زادت حلل الخراج او نقصت عن الأواقي فبالحساب وما قصوا من درع او خيل او ركاب او عرض اخذ منهم بالحساب . وعلى نجران مثواة رسلي شهراً فدونه . ولا يحبس رسلي فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ذو مفدة . وما هلك مما اعاروا رسلي من خيل او ركاب فهم ضمن حتى يردوه اليهم . ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على انفسهم وملتهم وارضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم وامثلتهم لا يغتن اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا واقه من وقاهيته على ما تحت ايديهم من قليل او كثير . وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية . ولا يعشرون ولا يحشرون ولا يطأ اوضهم جيش . من سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين . ومن اكل منهم ربا من ذي قبل فذمني منه بريئة . ولا يؤخذ منهم رجل يظلم آخر ولهم على ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي ابداً حتى يأتي امر الله ما نصحوا واصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئاً بظلم . شهد ابو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والاقرع بن حابس الحنظلي والمغير وكتب[1]) .

---

(١) ص ٧١ — ٧٢ وهذا النص بتمامه تقريباً وارد في كتاب الخراج لابي يوسف الذي كتب في الثلث الثالث من القرن الهجري الثاني . حيث يبدو ان انعقاد الصلح بين النبي ونصارى نجران وفق الشروط المذكورة حقيقة تاريخية لامراء فيها (انظر كتاب الخراج ص ٤٠)

وتقول بمناسبة وفد نجران ان هناك رواية جاء فيها ان النبي عليه السلام غداة اليوم الذى اقترح فيه المباهلة على الوفد غدا ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم للمباهلة تنفيذاً لامر الله . فلما جاء الوفد خاف — اي الوفد — واعتذر . والرواية لم ترد في كتابي ابن هشام وابن سعد اللذين رويا خبر وفد نجران (ابن سعد ج ٢ ص ١١٩ — ١٢٠ وابن هشام ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢١٦) ولا في الطبري وانما وردت في كتب تفسير الشيعة وكتب تفسير متأخرة في سياق تفسير سورة آل عمران (انظر تفسير الطوسي والطبرسي وابن كثير) ونرجح انها من غريب ما اعتاد الشيعة روايته وتنميقه لتأييد اهوائهم . فابن سعد وابن هشام رووا ان النبي لما عرض على الوفد المباهلة طلبوا امهالهم للنظر في الامر ثم غدوا فاعتذروا فلم يكن هناك والحالة هذه اتفاق على المباهلة حتى يستعد النبي لها . وتأويلات مفسري الشيعة الغريبة تؤيد ما ذهبنا اليه حيث قالوا ان معنى دعوة النبي لعلي ان علياً هو نفس النبي لان الآية تأمر بدعوة (انفسنا) والدعوة انما توجه للغير وعللوا عدم احضار النبي لنسائه او بعضهن على صراحة الآية بدعوة (نسائنا) فقالوا ان ذلك يعني ان النبي اعتبر الآية امراً باحضار اخص اخصائه من اهل بيته فاخرج نساءه من هذا النطاق واقتصر على إحضار علي وفاطمة والحسن والحسين ! مع ان آيات سورة الاحزاب (٢٧ - ٣٣) صريحة بأن تعبير اهل البيت إنما يعني نساء النبي (انظر تفسير الطوسي للآية)

وفصول سورة آل عمران ١ - ٩ و ١٨ - ٢٧ و ٣٣ - ٦٤ مما نزل في صدد هذا الوفد على ما رواه غير واحد من المفسرين[١] حيث يبدو ان الاستكبار وحب المصلحة الخاصة جعلت هذا الوفد يأبى بينما تجرد الوفد الاول من ذلك وارتفع الى مستوى الحق والحقيقة فآمن وصدق .

موقف اليهود في العهد المدني

لقد شرحنا قصة قدوم الأسرائيليين اليهود من فلسطين الى الحجـــاز وما تيسر لهم من استقرار في يثرب والقرى الواقعة في طريق الشام كخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء وما كان لهم من مركز ديني وثقافي واقتصادي وما كانوا عليه من اخلاق وانحرافات وما كان بينهم وبين الأوس والخزرج من علاقات في الجزء الخامس من هذا الكتاب شرحاً يغني عن التكرار .

ولقد كان لهم في عهد النبي المدني شأن كبير متعدد النواحي . ولقد كانوا من أول من اصطدم بهم أيضاً . فبالرغم من انه اقر قبائلهم الثلاث في يثرب بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة في عهد الموادعة الذي كتبه عقب حلوله في المدينة المنورة وشرحنا خبره في مطلع الفصل على ما هم عليه وضمن لهم الحرية الدينية وأمنهم على أموالهم ومعابدهم وأبقاهم على محالفاتهم مع بطون الأوس والخزرج واوجب لهم النصرة والحماية مشترطاً عليهم ألا يغدروا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدواً ولا يعدوا يداً بأذى . وبالرغم من انهم كانوا يبشرون ببعث النبي العربي ويتفاخرون على العرب بأنهم سيكونون معه حزباً واحداً [٢] فإنهم لم يلبثوا ان تطيروا من هجرته الى المدينة واستقراره فيها وأخذوا ينظرون بعين التوجس الى احتمال رسوخ قدمه وانتشار دعوته واجتماع شمل الأوس والخزرج تحت لوائه وعواقب ذلك في مركزهم وما يتمتعون به من امتيازات متنوعة .

---

(١) انظر تفسير سورة ال عمران في كتب تفسير الطبري والطبرسي والخازن وابن كثير وغيرهم وانظر الجزء الثاني من كتابنا سيرة الرسول ص ١٤٧ و ١٥٨

(٢) جاء في سورة البقرة هذه الآية (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ٨٩

ولقد كان ظنهم على ما بدا ان يجعلهم النبي خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم أهدى من ان تشملهم وامنع من ان يأمل النبي دخولهم فيها وانضواءهم الى رايته بل لقد كانوا يرون ان من حقهم ان ينتظروا انضمامه اليهم على ما تلهمه آيات قرآنية عديدة [1] . ولا سيما حينما رأوه يترك استقبال الكعبة فور وصوله ويستقبل المسجد الأقصى - قبلتهم - في صلاته ويعلن تصديقه بأنبيائهم و كتبهم ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته فخاب ظنهم ورأوه يدعوهم في جملة الناس بل ويختصهم بلسان القرآن بالدعوة ، ويندد بهم لعدم مسارعتهم الى استجابتها وموقفهم المتنكر المتردد الجحودي منها [2] . فكان هذا على ما هو المتبادر باعثا على تنكرهم له وتطيرهم منه وحقدهم عليه منذ الخطوات الاولى . ثم رأوا الناس قد أخذوا ينصرفون عنهم ويتخذون النبي مرجعهم الاعلى ومرشدهم الاعظم وقائدهم المطاع فاستشعروا بالخطر العظيم يحدق بمركزهم فكان هذا عاملا على اندفاعهم في خطة التنكر والحقد والصد والدس والمكر والتآمر الى نهايتها .

ولقد كان من المتوقع على ما تلهمه الآيات المكية والمدنية في القرآن ان يجد النبي في اليهود سنداً وعضداً وان يكونوا اول من يؤمن به ويصدقه ويلتف حوله لما كان بين دعوته وأسس دينهم من وحدة ولما احتواه القرآن من تقريرات متنوعة وكثيرة بأنه مصدق لما بين يديه ومحتو لحلول المشاكل والخلافات التي يتعثر بها او يرتكس فيها الكتابيون ومن استشهادهم على صحة رسالة النبي وصدق صلة القرآن بالله استشهاداً ينطوي على الثقة فيهم والتنويه بهم وما كان من حسن استجابة الكتابيين وفيهم اسرائيليون الى دعوته وايمانهم برسالته وشهادتهم بصدق صلة القرآن بالله في مكة فيكون في تحقق هذا المتوقع منهم تيسير لانتشار وحسن استقبالها من سائر العرب الذين كانوا ينظرون الى اليهود نظرة الواثق بعقلهم وبصيرتهم الدينية فلما رأى النبي منهم ما رأى من الانقباض اولا والتنكر والصد والعناد والدس والمكر ثم العداء تأثر تأثراً عميقا من خيبة امله فيهم رددته آيات القرآن الكثيرة [3] .

ولقد احتوى القرآن المدني فصولا كثيرة فيهم تبدو من خلالها قوة الدور الذي قاموا به ضد النبي ودعوته وعهده وشدة نكايته وشدة البغض له وللمخلصين من اتباعه والغيظ

---

(١) اقرأ آيات سورة البقرة ١١١ و ١٢٠ و ١٣٥

(٢) اقرأ آيات البقرة ٤١ و ٤٤ و ٨٧ و ٩٢ والنساء ٤٤ و ٥٢ والمائدة ١٩

(٣) اقرأ آيات البقرة ٧٤ - ١٤٦ وآل عمران ٦٩--١٢٠ والنساء ٤٤--٥٢ والجمعة ٥ - ٨ مثلا

منهم ودسهم الى هذا بين الاوس والخزرج حتى كادوا يثيرون بينهما الحرب تأثراً بالنعرة الجاهلية على ما حكته آيات كثيرة [1] . وكل هذا رغم ما ظل بعض المسلمين يظهرونه لهم من محبة وولاء حكته آيات عديدة ايضا [2] فاستحقوا بذلك وصف القرآن بأنهم اشد الناس عداوة للمؤمنين [3] .

ولقد رفضوا الدعوة الموجهة إليهم بلسان القرآن بأسلوب بليغ الحجة . وكفروا بما كانوا يبشرون به حسداً وغيظا ومكابرة . وكانوا يستسنحون كل فرصة للدس على النبي والتشكيك فيه وطرح الاسئلة التعجيزية والتمحلية عليه ومحاججته محاججة تبدو فيها المكابرة وسوء النية وقصد السخرية بكل قوة . ولا يبالون ولايرتدعون ولا يخجلون حينما تنكشف مكابرتهم وسوء نيتهم وتدمغهم الآيات القرآنية وتذكرهم بمماثلة مواقفهم لمواقف آبائهم الأولين [4] . وكان الأمر يصل بهم إلى مخاطبته بألفاظ فيها سوء ادب ووقاحة بل ودعاء عليه مما حكته آيات سورة النساء هذه :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً . مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ٤٤ — ٤٥)

ولقد شجعوا حركة النفاق منذ ظهور بوادرها في اول العهد المدني وكانوا من اقوى العوامل فيما كان من المنافقين من مواقف الكيد والدس والازعاج حتى وصفهم القرآن

---

(١) اقرأ آيات سورة آل عمران ٩٧–١٠٢ وتفسيرها في كتب تفسير الطبري وابن كثير

(٢) اقرأ آيات آل عمران ١١٩ – ١٢٠

(٣) اقرأ آية المائدة ٨٢ وفي ايات ال عمران ١١٩–١٢٠ صورة قوية لشدة ما كان يحمله اليهود في نفوسهم من عداء وبغضاء وغيظ للمسلمين .

(٤) ايات السور المذكورة في الذيل السابق

بأنهم شياطينهم فضلا عما كان بين الفريقين من تضامن في التآمر على الدعوة وصاحبها على ما شرحناه في مبحث المعارضة والمنافقين .

وإذا لاحظنا الدور الباغي الذي قام به المنافقون وما كان لهم من آثار ضارة ثم لاحظنا ما كان يربط بين المنافقين والمخلصين من الاوس والخزرج من اوشاج القربى وما كان لعصبية القربى من قوة في المجتمع العربي وما كان ينتج عن وقوف بعض ذوي القربى ضد بعضهم من مشاكل ومواقف محرجة ومؤذيـــة في الوقت نفسه للكيان الاسلامي وحركة الدعوة الاسلامية بدت شدة النكاية وبعد مدى الأذى فيما كان من اندفاع اليهود في تغذية جبهة النفاق وتقويتها ونجاحهم في سعيهم وقيام حالة التضامن والتآمر بينهم وبين المنافقين منذ الوقت المبكر .

ولقد ظل النبي عليه السلام يتحمل من اليهود مواقفهم هذه على شدة أذاها وبعد نكايتها لأنه كان يراها على ما يبدو في نطاق الجدل والحجاج والمماحكات ، وكان يرى ان عهده لهم يحتم عليه التحمل ما داموا لم يعلنوا من جانبهم نقض هذا العهد بصورة سافرة .

على انهم لم يتاخروا كثيراً في الاقدام على هذا ايضا منذ عهد مبكر حيث اشارت آيات مبكرة في النزول الى خيانتهم ونقضهم العهد مرة بعد مرة ومظاهرتهم لأحزاب المشركين المسلحة حينما غزت المدينة [1] . فكان هذا من الاسباب التي جعلت النبي يرى التحلل مـــن ذلك العهد ومعالنتهم بذلك والاقدام على التنكيل بهم وتطهير بيئته منهم وازالة عقبة كأداء من طريق الحركة العربية الاسلامية الجديدة .

ومن الجدير بالتنبيه والاستدراك في هذا المقام ان بعض يهود المدينة وفيهم الراسخون في العلم قد تمكنوا من التغلب على الانانية والمكابرة والحسد والدس ودعوى الباطل والانحراف فآمنوا برسالة النبي عليه السلام واندمجوا في الاسلام على ما اشارت اليه بعض آيات القرآن المدنية مما فيه دلالة مؤيدة اخرى على ان موقف اليهود في المدينة انمـا كان موقف حسد وغيظ وعناد وان الدعوة الاسلامية قد وجدت طريقها الى كل من رغب في الحق والهدى وتجرد من الانانية والحقد والهوى في اليهود كما كان شأن بعضهم في العهد المكي وكما كان

---

(١) ايات سورة البقرة ٩٩–١٠٠ والانفال ٥٨ والاحزاب ٢٧ والحشر ٢و٤

شأن غيرهم من الكتابيين ، فكانوا محل تنويه وثناء [1] .

وفي القرآن آيات قد تدل على ما كان من تطور في حالة اليهود الاقتصادية كان من أسباب ما كان من مواقفهم العدائية نحو النبي والاسلام والمسلمين . ففي سورة آل عمران هذه الآيات :

(وَلا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمْ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُم سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلقِيامَةِ وَلِلهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَٱلأَرْضِ وَٱللهُ بِما تَعْمَلونَ خَبِير . لَقَدْ سَمِعَ ٱللهُ قَوْلَ الذِينَ قالوا إِنَّ ٱللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمْ ٱلأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقولُ ذُوقُوا عَذابَ ٱلْحَرِيقِ ۱۸۰ ــ ۱۸۱)

وقد نزلت هذه الآيات في بعض اليهود الذين ذهب اليهم النبي ليستعين بهم جريا على اعراف التحالف وقال لهم اقرضوا الله فقالوا له ان الله فقير يستقرض منا [2] ، حيث تعبر فضلا عن سوء أدبهم نحو الله عن ما كان من اعتدادهم بغناهم وفقر النبي واصحابه وتعبر بالتبعية عما كانت عليه حالتهم الاقتصادية من صلاح . وكان ذلك في اوائل العهد المدني على ما يلهمه ترتيب نزول سورة آل عمران التي نزلت بعد وقعة احد . وفي سورة المائدة هذه الآيات :

(وقالَتِ ٱليَهودُ يَدُ ٱللهِ مَغْلولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَكُفراً وأَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ ٱلعَداوةَ وَٱلبَغْضاءَ إلى يَوْمِ ٱلقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَها ٱللهُ وَيَسْعَوْنَ في ٱلأَرْضِ فَساداً وَٱللهُ لا يُحِبُّ ٱلمُفسِدِينَ . وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلكِتابِ آمَنوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ

(۱) انظر ايات سورة البقرة ۲٤ و۷٦ و۸۹ و۱۰۹ وال عمران ۱۱۳ و۱۱۵ و۱۹۹ والنساء ۱٥۹ و۱٦۲ والمائدة ۱۳ والاحقاف ۱۰

(۱) انظر تفسير الآيات في الطبري وابن كثير وغيرهما

سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيم . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُم سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ٦٥ ـــ ٦٦)

والآية الاولى فضلا عما فيها من سوء ادب اليهود نحو الله ففيها تعبير عن حنقهم مما صاروت اليه حالتهم الاقتصادية من سوء . وقد روي [١] ان النبي ذهب الى بعضهم ليستعين بهم جريا على اعراف التحالف فشكوا اليه العسر وقالوا ما قالوه . وسورة المائدة نزلت في اواسط العهد المدني .

والمتبادر ان هذا التطور كان نتيجة لاتساع نطاق الاسلام في المدينة وانصراف الناس عن التعامل معهم وضيق مجال استغلالهم له. وقد نددت بهم الآيات تنديداً شديداً ووصفت ما يعتمل في نفوسهم من غيظ شديد من تطور حـــالة النبي والمسلمين نحو القوة والصلاح واهابت بهم الى الايمان به حتى ينقذوا انفسهم مما صاروا اليه من عسر في الدنيا ومما كتب عليهم من شقاء في الآخرة .

التنكيل باليهود في المدينة

•

ولقد كانت وقائـــع التنكيل باليهود متعددة . وكان لكل وقعة مبرراتها المتسقة مع المبادىء والتقريرات القرآنية الجهادية التي شرحناها في مطلع مبحث الوقائع الحربية بل لقد كان موقف النبي موقف المتساهل المتحمل فلم يتخذ لها الا المبررات الشديدة الخطر والاذى . وكان كل منها موجهاً الى فريق دون فريق مما قد يدل على ان اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام والدس والكيد والمكر الى العداء العملي والغدر السافر في وقت واحد .

---

(١) اقرأ تفسير الآيات في كتب تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما ايضاً. وقد يلحظ ان ذكر الانجيل يجعل الكلام شاملا لليهود والنصارى ويجعله بالتبعية عاما . والمتبادر لنا ان السياق والموضوع في اصله حكاية عن موقف اليهود وان ذكر الانجيل جاء استطراداً يشمل الكلام بعمومه ومقتضاه اهل الكتاب عامة واذا كانت صحت الروايات انه كان في المدينة نصارى فمن المحتمل ان يكون ضيق الحالة الاقتصادية قد شملهم ايضا بسبب التفاف السواد الاعظم من اهل المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم

ولعل من اسباب ذلك انهم لم يكونوا كتلة واحدة متماسكة سياسياً وحربياً واجتماعياً بل كان كل منهم في ذلك مستقلا عن الآخر على ماتلهمه آيات القرآن وتوضحه الروايات ومن مظاهر ذلك او دلائله ان كلا منهم كان يسكن في محلة خاصة به .

ولقد أعمى الهوى والحقد بعض المستشرقين من يهود وغير يهود عن حقائق الواقع والآيات والروايات فزعموا ان النبي عليه السلام قد بيت نية التنكيل باليهود وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم منذ البدء وانه إذا لم ينفذ نيته فيهم مرة واحدة فلانه لم يكن له قبل بهم جميعاً ثم غمزوه بالنكث والميل إلى سفك الدم والطمع في اموال اليهود .

فالقرآن ذكر في آيات سورة البقرة ٨٤–٨٥ ما كانوا يقعون فيه من مخالفات دينية في قتل بعضهم بعضاً واسر بعضهم بعضاً في معرض الذم والتنديد مما فيه دلالة على ما كان بينهم من خصومات اوضحتها الروايات فلم يبق أي محل للارتياب في ان ظروفهم الاجتماعية المتقدمة على البعثة كانت هي العامل في عدم تكتلهم . والروايات تذكر [1] ان بني قينقاع وبني النضير كانوا حلفاء للخزرج وبني قريظة كانوا حلفاء للاوس وكان ذلك امتداداً لما قبل الهجرة بل لما قبل البعثة . وكان بين كل من الاوس والخزرج في الوقت نفسه عداء ودماء ممتدان إلى قبل الهجرة وقبل البعثة . وكان كل فريق من الفريقين يقاتل الفريق الآخر هو وحلفاؤه معاً . فيقتل اليهودي حليف الاوس اليهودي حليف الخزرج وبالعكس . وفي القرآن اشارة صريحة الى ان نقض العهد وقع منهم متفرقاً . حيث جاء هذا النص في آية سورة البقرة (١٠٠) :

(أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عهداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُم لا يؤْمِنون).

ولقد احتوى القرآن المدني فصولا عديدة في مختلف ادوار تنزيله حكت مواقف متنوعة وكثيرة لليهود فيها تعجيز وتحد وجدل وسخرية ودس ومؤامرات ومساجلات ومماحكات وسوء أدب ووقاحة وإثارة نعرات جاهلية بين الاوس والخزرج فلم يكن كل هذا ليجعل النبي كما قلنا قبل ينقض عهده معهم . وفي القرآن والروايات ما فيه الدلالة على ان وقائع التنكيل انما كانت بسبب مواقف الغدر والخيانة والنقض والعداء السافرة المهددة لسلامة

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٩٩ و ١١٨ والعرب قبل الاسلام جواد علي ج ٤ ص ٣٥٤–٣٥٥

المسلمين وكيانهم والتي لا يمكن السكوت عليها ، ويكون التنكيل بهم بسببها دفاعاً عن النفس لا يتحمل مراء ، كما ان في الآيات والروايات ما يدل على ان ذلك كان منهم متفرقا فجاء التنكيل فيهم متفرقا تبعا له .

ونقول من قبيل المساجلة انه لم يكن في وقت نزول القرآن وتدوين الروايات قضية من نوع ما يثيره المستشرقون حتى يصح ان يقال ان الدلائل والمبررات التي انطوت فيها قد اخترعت اختراعا للدفاع عما فعله النبي والمسلمون في اليهود . وهذا وحده كاف لاسكات كل افاك مغرض . هذا فضلا عن ان جبلة اليهود واخلاقهم تجاه الامم الاخرى المشهورة منذ تاريخ خروجهم من مصر الى اليوم في غنى عن اختراع المبررات للتنكيل بهم في كل ظرف ومكان . ولقد عاد على المسلمين من اليهود مغانم كثيرة حقا من حقول وبساتين وسلاح ومواش ودواب ومتاع . وهذا نتيجة طبيعية للوقائع . ولقد قتل معظم بني قريظة صبراً حقا ولكن هذا كان متناسبا مع عظم الجرم الذي اقترفوه على ما سوف نشرحه بعد . ومن مؤيدات ذلك ان النبي اكتفى باجلاء يهود بني قينقاع وبني النضير عن المدينة واجلاء الخطرين من يهود خيبر ووادي القرى دون قتل عام بل وسمح لفريق منهم ان يحمل كل امواله ومتاعه ولفريق آخر بعضا من ذلك على ما سوف نشرحه بعد ايضا .

تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة

●

وقبل ان نسرد اخبار وقائع التنكيل نرى ان نشير الى حادث له علاقة بموقف اليهود وهو تحويل القبلة عن بيت المقدس الى الكعبة .

وا كان النبي يستقبل الكعبة في صلاته حينما كان في مكة . فلما هاجر الى المدينة اخذ يستقبل بيت المقدس ولعله فعل ذلك تأثراً من موقف اهل مكة الجحودي المؤذي الذي ألجأه واصحابه الى هجرة وطنهم من جهة . وتألفا لليهود الذين كانوا يستقبلون بيت المقدس أيضا وتسهيلا لاجابتهم الى دعوته من جهة ثانية . ولكن اليهود وقفوا منه موقف الانكار والجحود والدس من جهة واخذوا يزهون عليه وعلى المسلمين بأن اتجاههم الى قبلتهم هو اعتراف بأنهم على الهدى وبأن النبي والمسلمين انما يقتبسون الهدى منهم وبأنهم اولى من يتبعوهم ويندمجوا فيهم لا العكس فحز هذا في نفس النبي عليه السلام وانبثقت فيها امنية

التحول عن سمت بيت المقدس وقد ظهر مـن اليهود ما أيأسه منهم ، وقد روى ابن سعد حديثا جاء فيه ان رسول الله قال لجبريل وددت ان الله صرف وجهي عن قبلة يهود [1] .

ولقد ورد في تحويل القبلة فصل طويل في سورة البقرة [2] جاء فيه هذه الجملة :

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرامِ وَحَيْثُما كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجوهَكُمْ شَطْرَهُ)

حيث يمكن ان يكون فيها قرينة قوية على ما اعتلج في نفس النبي مـن ازمة بسبب الاتجاه نحو بيت المقدس وزهو اليهود وموقفهم من ذلك وعلى ما قام فيها مـن رغبة في التحول عنها . وجملة (فلنولينّك قبلة ترضاها) يمكن ان تلهم ان النبي صار يائسا او كاليائس من اليهود وثارت في نفسه تلك الازمة وقامت فيها هذه الرغبة تراءى له ان اتجاهه الى قبلتهم مما يضعف قوة دعوته وان عودته الى قبلته الاولى مما يؤلف قلوب العرب كما ان ذلك هو الاولى لأنها بيت الله العربي القديم الذي يعرفه العرب ويرتبطون به والذي هو من عوامل وحدتهم الروحية بسبب اشتراكهم جميعا في حجه . فكان يتمنى ان يتحول اليها في صلاته . ولعله كان يسمع تألما او انتقاداً او يرى حيرة من العرب مسلمين وغير مسلمين من الاتجاه الى بيت المقدس واهمال الكعبة فكان هذا مما قوى ما في نفسه من الرغبة والامنية . وفي آخر الفصل القرآني هذه الجملة (لئلا يكون للناس عليكم حجة) التي يمكن ان تلهم او تتضمن قرينة على ذلك .

ولقد رأى اليهود في هذا التحول ضربة شديدة توجه الى مكانتهم الدينية ووسيلتهم الى الزهو على النبي والمسلمين فنشطوا على ما تلهمه آيات الفصل التي وصفتهم بالسفهاء الى الدس والحجاج وتشكيك المسلمين فقالوا اذا كان سمت بيت المقدس غير حق فقد اضاع النبي عبادة الذين صلوا اليه . واذا كان حقا فلا معنى للتحول عنه وتكون الصلاة الى الكعبة ضائعة . وقالوا ان افعال النبي لو كانت مستندة الى وحي رباني لما نسخ اليوم ما فعله بالأمس ولما قال اليوم قولا ثم نقضه في الغد لا سيما في الأمور التعبدية ، وتناسوا ان هذا شأن انبياء الله جميعهم والكتب المنزلة اليهم وان في اسفار التوراة الاربعة المنسوبة الى موسى شؤونا كثيرة منسوبة الى الله فيها اوامر ينسخ بعضها بعضا . ولعل هذا مما جعلهم يستحقون

---

(١) ج ٢ ص ٦ (٢) الآيات ١٤٢—١٥٠

وصف السفهاء الذي جاء في مطلع الفصل القرآني .

وفي هذا الفصل ما يدل على ان هذه الدسائس والدعايات والمواقف الحجاجية قد اثرت بعض الاثر في بعض المسلمين فاحتوت آيات الفصل ثم آيات اخرى جاءت مقدمة له [1] تطمينا للمسلمين وحملة على اليهود وتثبيتا للنبي عليه السلام . مثل تقرير ان المسألة ليست في الاتجاه نحو الشرق والغرب وانما هي في الاتجاه الخالص الى الله . وان تبديل القبلة الاولى بالثانية هو اختبار رباني لقوة ايمان المؤمنين واتباعهم الرسول فيما يفعله . وان من نعمة الله عليهم ان بعث فيهم رسولا منهم يعلمهم ويزكيهم فحق عليهم شكره وذكره والثبات على ما رسمه وعدم جحود نعمته والتردد في اتباع اوامره . وان الله لا يمكن ان يضيع ايمانهم وصلاتهم . وانه لا ينبغي لهم ان يستمعوا لدسائس اليهود الذين يعلمون ان ما وقع حق وان كتموه . وان انتقادهم واقوالهم سنة لا ينبغي لهم ان يعبأوا بها . وانه لا امل في اتباعهم دعوة النبي وقبلته فلم يبق محل لاتباعه قبلتهم واهواءهم . وانهم لا يودون ان ينزل عليهم خير من الله .

ويظهر ان اليهود كانوا يعترفون للعرب في الجاهلية بأن الكعبة اقدم بيوت الله اوان اتخاذهم اياها محجا وقبلة حق وصواب فجاءت آية في فصل القبلة تدمغهم بذلك حيث احتوت هذا النص :

(وإنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمونَ أنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وما اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)

ومما لا نشك فيه ان تبديل القبلة بالذات كحادث من حوادث السيرة في العهد المدني قد أكسب الدعوة الاسلامية شخصية مستقلة بعد ان كان في شخصيتها شيء من التموج او التمازج في افق ومدار شخصية اهل الكتاب وقبلتهم : وقد خلد قدسية الكعبة ومركزيتها. إذ لم تلبث ان صارت متجه العرب في حياتهم الدينية الجديدة في جميع انحاء الجزيره بصورة اشد واقوى وألزم مما كانت قبل هذه الحياة اولا ، ومتجه المسلمين في جميع انحاء العالم وناظما لوحدتهم الروحية ثانيا . وكان كذلك عنوانا على الابقاء على مناسك الحج والكعبة . اذ صارت ركنا معروضا من اركان الاسلام بعد تصفيتها من شوائب الوثنية ومشاهدها .

(١) آيات البقرة ١٠٥-١٣١

وقد تعددت الروايات في تاريخ التبديل وكيفيته [1] وتراوح التاريخ بين الشهر السادس عشر والسابع والثامن عشر للهجرة ، وان ذلك كان اثناء صلاة ظهر من يوم الاثنين في مسجده في رواية وفي بيت ام بشر بن معرور من بني سلمة في رواية فصلى ركعتين نحو بيت المقدس ثم استدار فصلى الركعتين الاخريين نحو الكعبة .

ونأتي الآن الى تفصيل الوقائع التنكيلية فنقول ان اولى الوقائع قتل ابي عفك اليهودي بعد حرب بدر بشهر . وكان هذا شيخا كبيراً يقول الشعر ويهجو النبي ويحرض قومه عليه فنذر احد المؤمنين سالم بن عمير ان يقتله او يموت دونه ثم تربص به حتى وافته الفرصة فدخل عليه وهو نائم بفناء بيته فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خشّ في الفراش وزهقت روحه [2] .

وكانت ثانية الوقائع اجلاء بني قينقاع عن المدينة الى الشام . وقد كان لهؤلاء سوق خاصة . وكان بدء وقعتهم ان امرأة من العرب جاءت بجلب لها فباعته في سوقهم ثم جلست إلى صائغ منهم فجعل بعضهم يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده بظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها فصاحت فوثب رجل من المسلمين فقتل الصائغ فشد اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ اهله المسلمين فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . وانتهى الأمر الى ان حاصرهم النبي حتى نزلوا على حكمه فأجلاهم الى اذرعات ببلاد الشام وسمح لهم بأخذ اموالهم واثقالهم وخفيف سلاحهم . وكان ذلك بعد قليل من وقعة بدر [3] .

وفي سياق ابن سعد وابن هشام ثم في بعض الآيات القرآنية وروايات تفسيرها مايمكن ان يدل على ان هذه الحادثة كانت السبب المباشر وحسب وان بوادر الغدر والخيانة اخذت تبدر من بني قينقاع قبل ذلك بصور متنوعة . ففي آية سورة البقرة (١٠٠) اشارة الى نبذ فريق من اليهود عهده . والآية مما نزل مبكراً والاشارة اولى الاشارات الى نقض اليهود والارجح انها في صدد بني قينقاع لأنهم اول من وقع عليهم التنكيل .

وفي آيات سورة الانفال ٥٥ — ٥٨ اشارة اخرى الى نقض اليهود للعهد مرة بعد مرة .

---

(١) انظر ابن سعد ج ٢ ص ٦—٩ وابن هشام ج ٢ ص ١٧٦—١٨٨

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٦٧ وجعل ابن سعد عنوانا لهذا الحادث (سرية سالم بن عمير الى ابي عفك اليهودي

(٣) انظر ابن سعد ج ٣ ص ٦٧—٦٨ وابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦—٤٢٩ والطبري ج٢ص١٧٢

وسورة الانفال نزلت عقب وقعة بدر . والمتبادر ان الاشارة في صددهم كذلك . والمتبادر كذلك ان تكرر الاشارة الى نقض اليهود للعهد لا بد من ان يكون بسبب مواقف خيانة وغدر وقفوها اوسع مدى من حادث المرأة الذي كان السبب المباشر . ولقد روى ابن سعد وابن هشام ان النبي استشعر من بني قينقاع الغيظ مما كان من نصر المسلمين في بدر فجمعهم وحذرهم فكان جوابهم وقحا اذ قالوا له (لا يغرنك ما نلت فانك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة : وانا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن النـــاس) وان آيات آل عمران :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَاد . قَــدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي ٱلأَبْصَار ١٢—١٣)

قد نزلت فيهم . وان آيات سورة الانفال :

(إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُون . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . وَإِمَّـــا تَخَافَنَّ مِـــنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ . إِنَّ ٱللهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ ٥٢ ـــ ٥٥)

قد نزلت فيهم ايضا . وان النبي عليه السلام حينما نزلت آيات الانفال قال (انا اخاف بني قينقاع) وسار اليهم بهذه الآيات . ففي كل هذا دلائل على ان التنكيل ببني قينقاع كان بناء على بوادر الغدر والخيانة التي ظهرت منهم كما هو واضح . وسماح النبي لهم بأخذ اموالهم واثقالهم وسلاحهم دليل حاسم على ان ذلك لم يكن هدف التنكيل قطعيا .

وجملة (فشرد بهم من خلفهم) في آيات الانفال تعني كما هو المتبادر ان يكون التنكيل

المأذون به عبرة لغيرهم من اليهود بما ينطوي فيه فكرة تفادي الحرب مع غيرهم بقـــدر ما يمكن . ولقد جاء في السورة بعد هذه الآيات آيات تأمر النبي والمسلمين باعـــداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لارهاب اعداء الله واعدائهم ممن يعلمون ولا يعلمون وبالجنوح الى السلم إذا جنحوا اليها أيضاً . وجملة (فانبذاليهم على سواء) تتضمن تلقيناً رائعاً بعد المبادرة إلى قتال من يبيتون الغدر والخيانة بدون اعلان ما دام هناك عهد قائم بوجوب انذارهم بالوقوف منهم نفس الموقف الذي يقفونه وهو حل العهد القائم . وكل هذا متصل بما قررناه ومؤيد له بما لا يدع محلا للمماراة .

وكانت ثالثة الوقائع قتل كعب بن الأشهر في الشهر الخامس والعشرين . فقد كان هو الآخر شاعراً يهجو النبي واصحابه ويحرض عليهم ويؤذيهم . وقد ذهب إلى مكة بعد وقعة بدر فرثى قتلى قريش وبكاهم وحرض قومهم على النبي فقال النبي اللهم اكفني ابن الأشرف ثم قال من لي بابن الأشرف فقد آذاني . فتعهد محمد ابن مسلمة ونفر من الأوس بقتله واستأذنوا النبي باستعمال الخدعة معه فأذن لهم فذهبوا اليه وأظهروا له تشاؤمهم من استفحال امر النبي حتى اطمأن لهم ثم عقدوا معه صفقة حتى تمكنوا في النهاية من قتله. وقد احتزوا رأسه واتوا به الى النبي الذي تهلل وسر سروراً عظيما واثنى على المجاهدين وقال لهم افلحت الوجوه[1] .

وكانت رابعة الوقائع اجلاء بني النضير . وكان سببها المباشر على ما روته الروايات [2] ان النبي عليه السلام ذهب مع بعض اصحابه إلى محلتهم ليستعينهم على دية بعض القتلى — وهذا تقليد عربي — فتآمروا على اغتياله وارتاب في الأمر فنجا بنفسه ثم ارسل في اليوم التالي اليهم إنذاراً بالجلاء على ان يقيموا وكلاء على بساتينهم ومزارعهم . وقد كان لهم حصون قوية لم يكن المسلمون يأملون في التغلب عليها وكان اليهود يحسبون انها مانعتهم على ما أشارت اليه الآيات القرآنية . وكانوا إلى هذا حلفاء الخزرج الذين كان زعيم المنافقين من زعمائهم . وقد شجعهم هو ورفاقه ووعدهم بالنصر والقتال والخروج معهم إذا قوتلوا أو أخرجوا . فتشجعوا ورفضوا إنذار النبي فحاصرهم وضيق عليهم الخنـــاق وامر بقطع بعض غراسهم للارغام والارهاب .

ولم يف المنافقون بما وعدوهم بـــه من النصر والتعضيد فاستولى الرعب واليأس عليهم

---

(١) ابن سعد ج٣ص٧٠-٧٢ وقد عنون الحادث بعنوان سرية محمد بن مسلمة الى كعب بن الاشرف ايضا انظر ابن هشام ايضا ج ٢ ص ٤٢٨-٤٣٠ وفي سياق ابن هشام بعض قصائد كعب

(٢) ابن سعد ج ٣ ص ٩٨-١٠٠ وابن هشام ج ٣ ص ١٩٩-٢١٣ والطبري ج ٢ص٢٢٣-٢٢٩

ورضوا بالجلاء بشروط اشد من الاولى بسبب تمردهم وهي اخذ منقولاتهم فقط وتسليم سلاحهم والتنازل عن ما لهم من حقول وبساتين . وكانت الواقعة في السنة الهجرية الرابعة.

وقد نزل في صدد هذه الواقعة شطر كبير من سورة الحشر التي كان ابن عباس يسميها سورة بني النضير ، وما جاء فيها متسق مع الروايات اجمالا وان جاء بأسلوب العظة والتشريع ومضمون احدى الآيات [1] يدل على انه كان لبني النضير مواقف مؤذية مزعجة مما يسوغ القول ان حادث محاولتهم اغتيال النبي كان النقطة الاخيرة التي فاض بها الكأس . ولقد كان منهم كعب الأشرف الذي مر شرح ما كان من هجوه وأذاه وقتله .

وهكذا يبدو ان هذا التنكيل ايضاً انما كان رداً على غدر وخيانة ومشاقة ومواقف مؤذية تجاوز اليهود فيها نطاق الكلام إلى التآمر على المسلمين وكيانهم ثم على حياة النبي وهو في محلتهم .

ولقد ذهب بعض بني النضير الى بلاد الشام وبعضهم إلى خيبر . ومن هؤلاء زعماؤهم سلام بن ابي الحقيق وكنانة بن الربيع ابن ابي الحقيق وحيي بن اخطب . وقد دان يهودخيبر لهم فغدوا زعماء اليهود في خيبر وما بعدها من القرى اليهودية .

وقد اظهر النازحون التجلد فخرجوا بزينتهم بين عزف القيان ودق الدفوف والمزامير . وقد خربوا بيوتهم وحصونهم حتى لا ينتفع بها المسلمون .

وقد ذكر ابن سعد في سياقه ان بني قريظة اعتزلتهم فلم تعنهم . وبنو قريظة كانوا حلفاء للاوس . في حين كان بنو النضير حلفاء للخزرج امتداداً لما كان عليه الامر قبل الهجرة النبوية . وكان التخالف في التحالف مظهراً من مظاهر الخصومة التي كانت بين بني قريظة وبني النضير على الارجح والمتبادر ان موقف بني قريظة من واقعة بني النضير متصل بذلك وامتداد له .

وكان مما اخذه النبي عليه السلام من بني النضير ٥٠ درعاً و ٥٠ بيضة (غطاء للرأس من

---

(١) هذا نصها (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ ٱللهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابُ ٱلنّارِ . ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشاقِّ ٱللهَ فَإِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقابِ ٣ ـ ٤)

النحاس او الحديد) و ٣٤٠ سيفاً عدا البساتين والحقول . واعتبر ذلك فيئاً منحصراً بالله ورسوله وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لأنه تم بدون حرب وقتال على ما احتواه التشريع القرآني في آيات سورة الحشر ٦ — ١٠ الذي اقتضت حكمة الله ان لا يكون للاغنياء نصيب فيه حتى لا تكون الثروة متداولة في ايديهم وحسب .. وفيه تلقين رائع مستمر المدى من تلقينات التشريع القرآني البليغة الحكمة .

وكانت خامسة الوقائع التنكيل ببني قريظة . والمستفاد من الروايات [1] ان زعماء بني النضير الذين استقروا في خيبر على ما ذكرناه قبل قليل ذهبوا الى مكة وخرضوا قريشاً على النبي والمسلمين على استئصال شأفتهم وتحالفوا معهم واقسموا لهم على الوفاء امام اصنامهم حتى لقد ارتكسوا بسبيل ذلك في ابشع جريمة دينية حيث دفعهم الحقد والحسد والعـداء للنبي ودعوته الى عدم التورع في شهادة فاجرة حينما ناشدهم بعض زعماء مكة اهم اهدى ام محمد فقالوا بل انتم اهدى على ما ذكرته احدى آيات النساء التي ذكرت بالاضافة الى هذا انهم يؤمنون بالجبت والطاغوت تعبيراً على الأرجح عما فعلوه من تمسحهم بأصنام قريش وحلفهم لقريش بها على الوفاء بعهدهم لهم [2] . حيث انطوى في ذلك إنكار لأساس دينهم الذي هو الايمان بالله وحده في سبيل حمل المشركين على محاربة النبي الذي يؤمن مثلهم بالله وحـده ويدعو اليه !

وفي هذا الموقف ما يدفع ذلك الجيل من اليهود بطابع من العار لا ينسى ! ولقد ذهبوا بعد مكة الى قبائل غطفان وحرضوهم وتحالفوا معهم أيضا . وقـد أدلى ذلك الى زحف الحشد العظيم من قريش واحزابها على المدينة على ما فصلناه تحت عنوان وقعة الخندق في الوقائع الحربية مع العرب . وهي الوقعة التي تزلزل المسلمون لها أشد زلزلة وبلغت قلوبهم

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٠٨ — ١٢١ وابن هشام ج٣ ص ٢٣٥ - ٣١٢ والطبرى ج ٢ ص ٢٤٥ - ٢٥٤

(٢) هذا نص الآية (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً . سورة النساء ٥١ — ٥٢)

الخناجر ، وتظاهر المنافقون بما في سرائرهم من نفاق ولؤم ، وأدرك النبي والمسلمون انهم صاروا بين نارين من ورائهم اليهود ومن امامهم احزاب العرب فضلا عن ما بينهم من المنافقين . فكان ذلك اسباب ما حل فيهم من اضطراب وفزع .

ولقد كان بنو قريظة حلفاء الاوس . وقد بقوا محافظين على عهدهم مع النبي . فجاءحيي ابن اخطب الى زعيمهم كعب بن اسد وبشره بما كان من نجاح مسعاه ومسعى رفاقه مع قريش وغطفان وقرب زحف احزاب العرب لاستئصال شأفة النبي والمسلمين وما زال به حتى وعده بنقض عهده .

ولقد بلغ النبي تغير نية بني قريظة وتبييتهم الغدر حين زحف الاحزاب على المدينة . فأرسل زعيمي الاوس والخزرج إلى محلتهم . وكانت وراء بيوت اهل المدينة ليعرف احق ما بلغه عنهم فأتياهم فوجداهم على أخبث ما بلغهم ونالوا من رسول الله وقالوا من هو رسول الله وانكروا العهد الذي بينهم وبينه . فشتمهم سعد بن معاذ زعيم الاوس وكان حليفهم فقابلوه بالمثل فقال له سعد بن عبادة زعيم الخزرج دع مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى منها وقد اخبروا النبي بما كان . فلما ارتد الأحزاب عن المدينة وكفى الله المؤمنين القتال نادى النبي بالتوجه نحو محلة بني قريظة وحاصرهم حصاراً أضاق به الخناق عليهم واضطروا إلى النزول على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم بقتل المقاتلين وسبي النساء والأطفال والاستيلاء على اموالهم واملاكهم وحقولهم وبساتينهم . ولقد حاول بعض رجال الاوس اقناع زعيمهم بالترفق بالحكم حينما نزل اليهود احلافهم على حكمه حتى يكون مصيرهم مثل مصير حلفاء الخزرج من اليهود وهم بنو النضير وبنو قينقاع الذين اكتفى النبي بإجلائهم فقال كلمة بليغة (آن لسعد ان لا تأخذه في الله لومة لائم) .

وفي سورة الاحزاب آيتان فيهما إشارة وجيزة إلى هذه الوقعة ونتائجها وهذا نصهما :

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً . ٢٦ ـ ٢٧)

وعبارة (ظاهروهم) في الآية الاولى تلهم انه بدا من اليهود اثنـــاء حصار الاحزاب للمدينة اعمال مؤذية للمسلمين او بالاحرى اعمال تمت إلى الحرب تضرر المسلمون منها واثارت في نفوسهم السخط فوق ما اثاره موقف الغدر والخيانة فيهم . ولم يذكر الرواة تفصيلا لهذا الذي اشارت إليه الآية .

ويلحظ ان التنكيل ببني قريظه كان اشد منه في بني قينقاع وبني النضير . ولا ريب في ان ظروف غدر بني قريظة كانت مبررة له كل التبرير . ولا سيما انهم لم يعتبروا بما كان من اجـــلاء بني قينقاع وبني النضير . وقد انطوى في كلمة سعد بن معاذ هـــذا المعنى ببلاغة رائعة .

وبالتنكيل ببني قريظة تم القضاء عـــلى يهود المدينة الذين كانوا هم الاشد والاقوى والأبعد نكاية وأذى . ولم يبق فيها من اليهود إلا افراد قلائل اظهروا الاستسلام والمسالمة فتركت لهم حرية الاقامة والدين مما فيه دليل على ما كان من دقة النبي في التزام خطط القرآن الجهادية . ومقابلة من وقف من الاسلام ودعوته والمسلمين موقف الموادة والمسالمة بنفس موقفه دون ان يكون لجريرة قومهم اثر في ذلك عملا بالمبدأ القرآني العام (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وفي هذا ما فيه من روعة وجلال ترشحان الشريعة الاسلامية للخلود فيما ترشحه له من مرشحات لا تحصى .

ولقد كان هذا فاتحة عهد جديد للاسلام والدعوة الاسلامية . فالمنافقون الذين فقدوا محركهم القوي ومدبرهم الألمعي الخبيث لم يلبثوا ان ضؤل شأنهم وخفت صوتهم وتناقص عددهم . وزعماء مكة الذين غزوا المدينة تلك الغزوة العظمى بتحريك اليـــهود لم يعودوا يفكرون في غزوها بل ان الموقف تطور من قوة مكة الى ضعفها ومن ضعف المسلمين الى قوتهم على ما نبهنا اليه في سياق بحث صلح الحديبية وفتح مكة .

التنكيل باليهود خارج المدينة وخضد شوكتهم

●

كان لليهود كما قلنا قبل في طريق الشام من ناحية المدينة عدة قرى اهمها خيبر ثم وادي القرى . ومنها فدك والجرباء وتيماء . فلما تم التنكيل بيهود المدينة اخذ النبي عليه السلام

يفكر لأنها هي الاخرى وصلت الى مرحلة العداء الصريح ضد النبي والمسلمين ودعوته . وقد تمثل هذا خاصة فيما كان من تزعم زعماءبني النضير في خيبر وفي ذهابهم الى مكة وغطفان وتحريضهم لهم على الزحف على المدينة لاستئصال شأفة النبي والمسلمين وتحالفهم معهم واغرائهم بني قريظة بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين وإدخالهم في جبهة العداء الصريح معهم ضدهم ، ثم كان ما رواه ابن سعد [1] من تجديد ابي رافع بن ابي الحقيق احد الزعماء مساعيه مع غطفان ومن حوله من مشركي العرب لحرب رسول الله ووعده لهم بالجهل العظيم واعلان هؤلاء استعدادهم للاستجابة له .

وكانت اولى خطوات النبي ان بعث سرية من اربعة أشخاص بقيادة عبد الله بن عتيك لقتل ابي رافع . وقد تمكنوا من الدخول عليه بفضل قائدهم الذي كان يرطن باليهودية [2] وقتله . فصاحت امرأته فسارع اليهود الى البحث عن المسلمين ومطاردتهم ولكن الله نجاهم وعادوا سالمين ليبشروا النبي بما وقع وليتلقوا تحيته الكريمة في قوله (افلحت الوجوه) [3]

وكانت الخطوة الثانية قتل اسير بن زارم الذي امره يهود خيبر مكان ابي رافع والذي سارع إلى تأليب غطفان وغيرها من القبائل المشركة وجمعهم لحرب النبي والمسلمين . فبعث النبي سرية بقيادة عبد الله بن رواحة لقتله وتمكنت من القيام بمهمتها هي الاخرى [4] .

وكان الحادثان قبل صلح الحديبية . والمتبادر ان النبي قد اخر الزحف على خيبر لأنه لم يكن فارغ البال من ناحية مكة وقريش . فلما انعقد ذلك الصلح زحف فور عودته من الحديبية على خيبر اولا . وقد لقي المسلمون جهداً ومشقة فيها لأنها كانت كثيرة السكان قوية الاستعداد غير ان الامر انتهى بانتصار المسلمين بعد مجاهدة دامت نحو شهر . وقد قتل المسلمون كثيراً من مقاتلتهم واستولوا على اموالهم وسلاحهم وحقولهم وبساتينهم وسبوا كثيراً على نسائهم . وقد أبقى النبي على من لم ير في بقائه خطراً من الذين استسلموا امنهم

---

(١) ج ٣ ص ١٣٤-١٣٥ وابن هشام ج ٣ ص ٣٨٠-٣٨١ وابن هشام روى ان غطفان سارعت إلى نجدة خيبر حينما غزاها النبي ولكن حيل بينها وبين ذلك انظر ايضا الطبري ج٢ص٢٩٨-٣١١

(٢) في هذا دليل إلى الادلة التي أوردناها في الجزء السابق على ان قبائل يهود الحجاز كانت إسرائيلية وان رواية كون بني النضير وبني قريظة قبائل عربية مشهورة غير صحيحة .

(٣) المصادر السابقة نفسها

(٤) نفس المصادر

وولاهم رعاية البساتين والحقول مقابل نصف الغلة وأجلى من رأى في بقائه خطرا إلى الشام[1]

وفي أثناء وقعة خيبر عاد المهاجرون الاولون من الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم فلحقوا بالنبي فيها . وفي أثنائها كذلك جاء الأشعريون من اليمن بقيادة أبي موسى الأشعري وجاء الدرسيون وعلى رأسهم الطفيل بن عمرو وفيهم أبو هريرة فبايعوا النبي على الاسلام . وكلم النبي اصحابه ان يشركوهم في الغنيمة ففعلوا .

ويظهر أن بعض المسلمين أخذوا يقعون على سبايا اليهود فنادى منادي النبي (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ما زرع غيره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعن على امرأة من السبي حتى يستبرئها) مما فيه تشريع مستمر المدى .

ومما حدث بعد نهاية المعركة واستسلام خيبر أن أهدت امرأة سلام بن مشكم احد زعماء اليهود للنبي شاة مشوية دست فيها السم فلاك شيئاً منها فاستكرهها وقال ان هذه الشاة لتخبرني انها مسمومة واستدعى المهدية فاعترفت وقالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت ان كان ملكا استرحنا منه وان كان نبياً فسيخبر .

ولقد مات من الشاة المسمومة أحد أصحاب رسول الله بشر بن البراء ولقد ظل النبي متأثراً مما لاكه منها حتى انه قال في مرضه الذي توفى فيه لأخت بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك ولذلك كان المسلمون يرون ان رسول الله مات شهيداً . ومع ذلك فإن النبي تجاوز عن اليهودية التي أهدته الشاة[2] .

ومما رواه ابن هشام ان نسوة من غفار جئن إلى رسول الله فقلن له اردنا أن نخرج معك فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال على بركة الله . . وقد رضخ لهن من الغنائم .

ومن طريف ما رواه أيضاً ان شخصاً اسمه الحجاج من المسلمين استأذن النبي في السفر إلى مكة لاقتضاء دين له وفي التصرف لبعض القول ليسهل عليه ذلك فأذن فلما بلغ مكة سأله بعض رجال قريش عن أخبار النبي وكانوا قد عرفوا انه سار إلى خيبر ولم يعرفوا ان

---

(١) انظر تفصيل غزوة خيبر في ابن سعد ج ٣ ص ١٥٢–١٦٣ وابن هشام ج ٣ ص ٣٧٨–٤٢٣ والطبري ج ٢ ص ٢٩٨ وما بعدها

(٢) خبر تجاوزه عنها مذكور في تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٠٣ والخبر كله مذكور فيه وفي ابن هشام.

الحجاج قد اسلم فقال لهم عندي من الخبر ما يسركم انه هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل اصحابه وأسره اليهود وهم يهمون بارساله اليكم فسروا أعظم سرور وسهل عليه هذا اقتضاء دينه . وجاءه العباس فزعاً يسأله الخبر فأخبره الحقيقة وطلب منه كتمانها إلى أن يخرج وينجو فلما خرج لبس العباس حلة وتخلق (تطيب بالطيب) واخذ عصاه وجاء الى الكعبة فطاف بها فقال له بعض رجال قريش يا ابا الفضل والله هذا التجلد لحر المصيبة فقال وأي مصيبة . كلا والذي حلفتم به لقد فتح محمد خيبر واحرز أموالهم وتزوج بنت ملكهم [1]

وقد انصرف النبي عليه السلام بعد خيبر إلى وادي القرى وكان فيها حصون عديدة لليهود فلقي هنا أيضاً بعض المقاومة ثم صار الأمر إلى ما صار اليه أمر خيبر . وقد دب الرعب في قلوب اهل فدك والجرباوتيماء [2] فأرسلوا رسلهم إلى النبي يعاهدونه على المسالمة فقبل منهم وصالحهم على نصف أملاكهم فغدت فيئا لأن المسلمين لم يوجفوا عليها خيلا ولا ركابا .

وفي سورة الفتح اشارات غير صريحة روى المفسرون انها [3] في صدد وقائع ومغانم خيبر والقرى اليهودية الاخرى . منها حكاية طلب المتخلفين من الأعراب المسلمين من النبي الاذن لهم بالانضمام اليهم إذا ما انطلقوا الى مغانم يأخذونها وأمر له برفض ذلك . ومنها تذكير المسلمين بفضل الله بما وعدهم به من مغانم كثيرة يأخذونها وكون ذلك من أسباب أو نتائج صلح الحديبية . ومنها الاشارة إلى ما دخل في حوزتهم من أراض لم يحوزوها بقدرتهم. ومن المحتمل الذي قد يلهمه مضمون الآيات ان آيات هذه السورة المتصلة بوقائع خيبر والقرى الاخرى ان صحت روايات المفسرين وليس هناك ما يمنع صحتها قد نزلت بعد الوقائع .

ولقد غمز المستشرقون المغرضون النبي ايضاً بسبب غزوة خيبر وقرى اليهود الأخرى وقالوا ان الباعث الوحيد لها هو منح غنائمها وخيراتها للذين شهدوا واقعة الحديبية . ولعل مما استندوا اليه حصر الحملة في الذين شهدوا هذه الواقعة فعلا وعدم الاذن لغيرهم بالانطلاق معهم .

---

(١) ذلك إن ابن هشام وابن سعد ذكرا ان النبي علـيه السلام أعتق صفية بنت حيي بن اخطب وتزوجها .

(٢) ابن هشام وابن سعد ذكرا استسلام فدك . والثاني ذكر الجرباء . اما الذي روى استسلام تيماء مع وادي القرى فهو البلاذري في فتوح البلدان ص ٤١-٤٢ الطبعة الاولى بالقاهرة .

(٣) انظر تفسير سورة الفتح فى كتب تفسير الطبرى وابن كثير وغيرهم

ولو كان رائدهم الحق لرأوا في ماذكره الرواة القدماء كابن سعد وابن هشام والطبري من الحركات العدائية الساخرة الصريحة التي بدرت من يهود خيبر والقرى الأخرى بزعامة زعمائهم النضيريين ما فيه المقنع . أما الغنائم التي أحرزها المسلمون فقد كانت نتيجة لا هدفا . وأما حصر الحملة بالذين شهدوا وقعة الحديبية وعدم الاذن للاعراب المتخلفين عن هذه الوقعة على ما أشارت اليه احدى سور الفتح ففيه كل المنطق والحق . فالمتخلفون قد تخلفوا بأعذار واهية وكان إيمانهم ضعيفا والذين ساروا مع النبي إلى مكة قد ساروا وهم يحملون أرواحهم على أيديهم متفانين كل التفاني في تأييد دين الله ورسوله . فاعتماد النبي عليهم في حملته دون ضعاف الايمان طبيعي جداً . ولا يحتمل أن يكون ما روي عن تلك الحركات والمواقف العدائية قد اخترع للتبرير . فليس هناك في ذلك الوقت قضية من النوع الذي يشيره المستشرقون كما قلنا في مناسبة سابقة .

ولم يبق لليهود في الحجاز قوة يصطدم بها العرب في دورهم الجديد . وقد كان لهم قرى نائية اخرى أقرب الى بلاد الشام منها إلى المدينة مثل اذرح ومقنا وبني جنبة وبني عريض وبني غاريا . فلما سار النبي عليه السلام إلى تبوك في السنة التاسعة على ما سوف نذكره بعد . سارع زعماء هذه القرى إلى إعلان خضوعهم وولائهم للنبي وتعهدوا بالمسالمة والنصح واداء الجزية . ولقد كان مع ذلك لبعض اليهود الذين تظاهروا بالخضوع مواقف عدائية ومريبة ضد المسلمين في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كانت من أسباب إجلاء الخليفة الثاني من بقي من اليهود عن جزيرة العرب وتطهيرها من رجسهم على ما سوف نذكره بعد .

النصارى في العهد المدني

●

في السور القرآنية المدنية آيات كثيرة في النصارى وعقائدهم ، وما كان بينهم من خلاف ونزاع . وفي عيسى عليه السلام وامه والحواريين ، وقد جاء بعضها بأسلوب محبب وثناء جميل . وفي بعضها تحذير وتنبيه وتنديد ، وفي بعضها جدل ومناظرة وحكاية صد وكيد . وفي بعضها شيء من العنف وأمر بالقتال واستنفار اليه ومشاهد رحلة بسبيله .

ومعنى هذا ان النبي ﷺ قد لقي في العهد المدني نصارى ودعاهم واحتك بهم ، وان بعضهم أظهر روحا طيبة وتلقى الدعوة بالاقبال ، وان بعضهم تردد أو نأى أو جادل وكابر

وان بعضهم قد صدر منه ما تجاوز حد الجدل والمكابرة الى البغي والعدوان .

والآيات في النصارى وعقائدهم ومواقفهم في القرآن المدني اكثر واصرح منها في القرآن المكي . بل إن هذا القرآن ـ اذا استثنينا آيات سورة الزخرف ومريم التي هي تقريرية والتي كانت الاشارة فيها الى انحراف النصارى في عقيدتهم بالمسيح والتنديد به باسلوب عام وغير عنيف ـ لم يذكر الكتاب المعاصرين للنبي بصورة عامة ومنهم النصارى الا بالخير على ما شرحناه في بحث الكتابيين في العهد المكي وهذا الفرق يلهم ان دائرة الاتصال بين النبي والنصارى في العهد المدني كانت اوسع كما يلهم ان المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي واحتك بهم اكثر تنوعاً وان الذين لقيهم في العهد المكي كانوا اكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية واقل خضوعاً للمؤثرات الخارجية واكثر استعداداً نتيجة لذلك للاستجابة للدعوة الاسلامية والاندماج فيها .

وننبه الى ان المروي عن وجود نصارى مستقرين في المدينة ظلوا متمسكين بنصرانيتهم قليل . فهناك بيت في مرثية حسان بن ثابت رضي الله عنه للنبي عليه السلام جاء فيه [1]

فرحت نصارى يثرب ويهودها ... لما توارى في الضريح الملحد

وهناك رواية تذكر ان النصارى في يثرب كانوا يسكنون في موضع يقال له سوق النبط [2]

ولقد احتوى القرآن المدني آيات فيها وصف لحالة النصارى عامة في عصر النبي عليه السلام يمكن ان تنطبق على من كان منهم في بيئة النبي وخارجها . منها آية فيها وصف مواقع اهل الكتاب من لدن عيسى خاصة وما آل اليه امرهم من خلاف ونزاع وقتال [3] وهذا الوصف يشمل اليهود والنصارى . وما لا يكاد يحتمل تردداً ان هذه الحالة مما كان يشاهدها الناس ومنهم العرب. ولقد كان يقع في ظروف البعثة النبوية وقبلها قتال وثورات بين النصارى واليهود في بلاد الشام نتيجة لما كان من نزاع وعداء بينهم ولما كانت البلاد فيه من اضطراب حيث كان يتداول الحكم فيها الروم والفرس فيقوى النصارى بالاولين ويقوى

---

(١) و(٢) العرب قبل الاسلام جواد علي ص ٢١٠

(٣) هذا نصها (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفعنا بعضهم درجات واتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد سورة البقرة ٢٥٣)

اليهود بالآخرين وهلم جرا . كما كان اليهود والنصارى مختلفين فيما بينهم ومنقسمين فرقاً ومذاهب وكان الامر يصل بين النصارى بخاصة قبيل البعثة الى الثورات والاضطهادات الدامية مما ذكرته المدونات القديمة .

ومما لا ريب فيه ان هذه الحالة مما كان له اثر ايجابي في استعلاء الموقف النبوي والدعوة الاسلامية في الكتابيين وغير الكتابيين على السواء كما ان هذه الحالة تفسر بعض حكمة الله في البعثة المحمدية التي استهدفت فيما استهدفته انهاء النزاع والخلاف والقتال بين الكتابيين وفرقهم وحل مشاكلهم المذهبية والذهنية وجمعهم تحت راية القرآن مع غيرهم .

وفي سورة المائدة آيات فيها تقرير لما كان من انحراف اليهود والنصارى ولما كان من عداء وبغضاء دعوة لهم لاتباع الرسول العربي الذي جاءهم ليبين لهم كثيراً مما كانوا يخفونه ويعفو عن كثير مما كانوا يرتكسون فيه والذي جاءهم من الله بنور وكتاب مبين يهدي به الله من اراد رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور والى صراطه المستقيم [1] وفي السورة نفسها آية اخرى تخاطب اهل الكتاب بأن الله قد بعث رسوله العربي ليبين لهم طريق الهدى والصواب بعد ان مر فترة طويلة من ارساله الرسل حتى لا يقولوا انه لم يأتنا بشير ونذير يبين لنا ذلك الطريق بعد تلك الفترة الطويلة [2] مما فيه توكيد للانحراف من جهة ولما استهدفته البعثة المحمدية من دعوة النصارى واليهود الى الانضواء الى الحق والنور الذي جاء بهما النبي والتخلص مما هم فيه من انحراف وخلاف .

ومن تلك الآيات آية في سورة الحديد [3] تضمنت تنويهاً محبباً وشاملا بما جعله الله في قلوب اتباع عيسى من رأفة ورحمة وبما كان من جنوحهم الى الرهبانية ابتغاء رضوان الله اقرهم الله عليه . كما تضمنت استدراكاً وهو عدم رعايتهم لأحكام الرهبانية وانحراف كثير منهم عن جادة الحق والهدى . ومع اطلاق الكلام في الآية فان روحها تلهم ان ما فيها من وصف كله او بعضه هو كحالة النصارى المعاصرين للنبي .

واحتوى القرآن المدني كذلك آيات [4] فيها تنديد بعقيدة النصارى في المسيح وتقرير لكفر الذين قالوا ان الله هو المسيح او ان الله ثالث ثلاثة وحكاية تنصل المسيح يوم القيامة حينما يسأله الله عما اذا كان هو الذي قال للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله وتقريره

---

(١) الآيات ١٢-١٦ (٢) الآية ١٩ (٣) الآية ٢٧

(٤) آيات سورة المائدة ١٧و٧٢-٧٦و١١٦-١١٧وسورة النساء١٧١-١٧٣

انه لا يمكن ان يقول لهم ما ليس من حقه ولا يمكن ان يقول الا ما امره به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وتنديد بهم لعبادتهم ما لا يملك لهم في الحقيقة ضراً ولا نفعاً ودعوتهم بالانتهاء من ذلك وترك الغلو في الدين وعدم قول غير الحق على الله .

والمتبادر ان هذه الآيات كانت تنزل لتوجيهها للنصارى الذين كانوا يلتقي النبي بهم في العهد المدني ايضاً .

ولقد كانت مواقفهم تجاه الدعوة المحمدية متنوعة اذ كان منهم المستجيب المقبل احسن اقبال . والمنقبض المتمسك بما هو عليه ، بل المجادل المشاق الصاد عن سبيل الله والمعتدل والمعتدي .

وقد مر ذكر امثلة من كل ذلك في مبحثي انتشار الاسلام ورسل النبي وكتبه الى الملوك . وهناك امثلة اخرى . فقد كان في وفد عبد القيس من عمان زعيم نصراني اسمه الجارود اسلم مع قومه حينما وفد على النبي عليه السلام في السنة التاسعة [1] ولعل من الصواب أن يضاف الى الامثلة رفاعه بن زيد الجذامي وقومه الذين كانوا في مشارف الشام. فقد وفد على النبي في السنة السادسة فأسلم وتابعه فريق من قومه على ذلك. ونرجح انهم كانوا يدينون بالنصرانية مثل بني كلب . وقد كان فروه بن عمر الجذامي وهو منهم عاملا للروم او الغسانيين في معان والبلقاء وهو الذي قتله الروم بسبب اسلامه على ما ذكرناه قبل [2] . ويضاف اليها ايضاً وفد الداريين بقيادة تميم بن اوس واخيه نعيم من بني الدار من لخم وكانوا نصارى ينزلون مع قومهم في جهة الخليل في فلسطين . وقد استوهب تميم من النبي قريتي حبرى وعينون اذا فتح الله عليه الشام فقال له هما لك . واقام الوفد في المدينة الى ما بعد وفاة النبي وجدد ابو بكر العهد لتميم بما وهبه له النبي [3] .

وممن ذكرت الروايات خبر اسلامهم من النصارى رافع بن ابي رافع الطائي وكان يسمى مرجيس على اسم احد القديسين [4] ولقد كان ممن ارسل النبي اليهم كتباً ورسلا الاكيدر ملك دومة الجندل فاحتفظ بنصرانيته الى السنة التاسعة ثم اسلم بعد غزوة تبوك او نتيجة لها فكتب له عهداً باقراره على ما في حوزته من ملك [5] ولقد ذكر ابن سعد في عداد الوفود التي وفدت على النبي في السنتين التاسعة والعاشرة وفود غسان وبهراء وجذام وبكر وتغلب

---

(١) ابن سعد ج٢ ص٧٨ - ٧٩ (٢) نفس المصدر ص ١١٧

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ (٤) ابن هشام ج ٤ ص ٢٩٩ (٥)ابن سعد ج ٢ ص ٥٤

وشيبان [1] وقد ذكر ان الروم استجاشوا لحرب سرية مؤتة التي قادها زيد بن حارثة على ما سوف نذكره بعد قبائل بهراء وبكر وجذام [2] واستجاشوا للزحف على المدينة في السنة التاسعة فيمن استجاشوه من قبائل العرب غسان [3] وهذا قد يدل على ان بهراء وبكر وغسان من القبائل النصرانية الموالية للروم وقد اعلنت الوفود التي جاءت الى النبي منها اسلامها . ولقد كانت قبائل تغلب وشيبان نصرانية . وقد اعلنت وفودها اسلامها هي الاخرى .

ونعتقد ان هذا ليس كل شيء وان هناك نصارى آخرين استجابوا للدعوة الاسلامية . وفي سورة آل عمران التي نزلت عقب وقعة بدر هذه الآيات :

(لَيْسُوا سَوَآءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ١١٢ - ١١٤)

وهذه الآية (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ خَاشِعِينَ للهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ١٩٩)

حيث يمكن ان يكون فيها قرينة على ما نقول .

الاصطدام والحروب بين النبي والمسلمين من ناحية والنصارى من ناحية

●

والى هذا فقد روت الروايات المؤيدة بقرائن قرآنية اخبار صدام حربي بين النبي والمسلمين من ناحية والنصارى من ناحية . وكان ذلك خارج المدينة لأنه لم يكن فيها

---

(١) نفس المصدر ص ٧٩ - ١٠٢ (٢) ابن سعد ج ٣ ص ٥٧٤ - ١٧٥
(٣) نفس المصدر ص ٢١٨ - ٢١٩

على كل حال كتلة كبيرة يمكن ان يحصل معها صدام وقتال كما كان شأن اليهود .

ولقد كان الجانب الاسلامي في هذا الصدام في موقف الدفاع ومقابلة العدوان بمثله اي في نطاق التقريرات القرآنية الجهادية بصورة عامـــة وفي نطاق الآية الخاصة التي نزلت في قتال اهل الكتاب وهي :

(قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٢٩ سورة التوبة)

والتي لا تشمل جميـع اهل الكتاب وانما الفريق الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يحرم ما حرم الله ورسوله ولا يدين دين الحق منهم .

ولقد قتل والي مؤته الغساني الحارث بن عمر الازدي رسول رسول الله الى ملك بصرى[1] وقتل الروم فروة بن عمر بن نفاثه الجذامي عامل معان بسبب اسلامه [2] وشلح جماعة مـــن بني جذام الذين رجحنا نصرانيتهم رسول رسول الله الى قيصر دحية الكلبي [3] وكانت القبائل الضاربة في انحاء دومة الجندل التي كانت او كان اكثرها يدينون بالنصرانية مثل بني كلب وجذام وقضاعه الخ تظلم من يمر بها من قوافل الميرة الاسلامية وتتهيأ للدنو مـــن المدينة [4] وارسل النبي سرية بقيادة كعب بن عمير الغفاري الى من وراء وادي القرى بقصد الدعوة الى الاسلام فوصلت الى مكان يعرف بذات اطلاح ووجدت جموعا نرجح انهـــا نصرانية لان معظم قبائل مشارف الشام كانت كذلك فدعـــوهم فأبوا ورشقوهم بالنبال وقابلهم افراد السرية بقتال شديد حتى قتلوا الا واحداً نجا جريحا [5] ونمي للنبي ان قضاعـــة النازلة وراء وادي القرى والتي نرجح كذلك انها نصرانية تتجمع لتدنو من المدينـــة [6]

---

(١) ابن سعد ج ٣ص١٧٤ (٢) ابن سعد ج ٢ ص ٦ ٤ و ١١٧ (٣) ابن سعد ايضاً ج٣ص١٣١

(٤) قد يكون من الادلة على ذلك ما روي من نصرانية ملك دومة الجندل الاكيدر وما روي من نصرانية بني كلب احدى القبائل المهمة النازلة في ناحية دومة الجندل ، وقد ذكرنا ذلك ومصادره في مناسبات سابقة .

(٥) ابن سعد ج٣ص١٧٣ - ١٧٤

(٦) نفس المصدر ص١٧٧ - ١٧٨

وهذه الاحداث قبل الفتح المكي . وبلغ الامر اشده في السنة التاسعة حيث بلغ النبي عليه السلام ان الروم قد جمعوا جموعا كثيرة بالشام وان هرقل قد رزق اصحابه لسنة وان لخماً وجذاماً وعاملة وغساناً من قبائل العرب المتنصرة اجلبت معهم للزحف على المدينة [1]

واولى حوادث الصدام غزوة قادها رسول الله ﷺ الى دومه الجندل في الشهر التاسع والاربعين من هجرته حيث بلغه ان بدومة الجندل جمعاً كثيراً وانهم يظلمون من مر بهم من قوافل الميرة وانهم يريدون ان يدنوا من المدينة . وقد علم اهل الناحية بمسير النبي اليهم فتفرقوا فلما نزل بساحتهم لم يجد احداً فأقام اياما وبث سرايا ثم عاد دون كيد . ووجد رجلا فسأله فأخبره بفرارهم وعرض عليه الاسلام فأسلم [2]

ثم سرية زيد بن حارثة الى بني جذام في مسمى وراء وادي القرى لان بعضهم سلب رسول رسول الله الى قيصر دحية الكلبي فأغار عليهم وقتل واوجع واستاق الف بعير و ٥٠٠٠ شاة لهم وسبى مئة امرأة وصبي . وجاء رفاعه بن زيد الجذامي الذي كان اسلم مع بعض قومه قبل فاستشفعه فقبل شفاعته ورد الى قومه كل ما اخذ منهم [3]

ثم سرية عبد الرحمن بن عوف الى بني كلب في دومة الجندل في السنة السادسة . وهي على الارجح قد استهدفت ما استهدفه النبي من غزوته الى دومة الجندل حيث يظهر ان قبائل هذه الناحية ظلوا على خطتهم . وقد عمم النبي عبدالرحمن بيده وقال له: (أغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً) فلما وصل دعا بني كلب الى الاسلام فاستجاب اليه الاصبغ بن عمرو رئيسهم وتابعه كثير من قومه . ومنهم من احتفظوا بدينهم فضربت عليهم الجزية [4]

ثم سرية زيد بن حارثه الى مؤته في السنة الثامنة وقبل فتح مكة . وكان عدتها ثلاثة آلاف . وقد روي ان النبي وصى بقيادتها اذا قتل زيد لجعفر بن ابي طالب فاذا قتل فعبد الله بن رواحه فاذا قتل يختار المسلمون من يرضون عنه واوصاهم بدعوة من هناك الى الاسلام اولا فان لم يجيبوا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم . والرواية تذكر صراحة سبب ارسال السرية وهدفها وهو مقتل الحارث بن عمير الازدي رسول رسول الله الى ملك بصرى

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ٢١٨-٢١٩ (٢) نفس المصدر ١٠٣-١٠٤

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٣١-١٣٢

(٤) ابن سعد ح ٣ ص ١٣٢

الذي قتله شرحبيل بن عمرو الغساني والانتقام له [1] . وسمع العامل الغساني بسير السرية فجمع الجموع الكثيرة التي انضوى اليها نصارى العرب من قبائل بهراء ووائل وبكر ولخم وجذام حتى بلغ عددهم مئة الف على ما ذكرته الروايات التي تدل على كل حال على كثرة العدد. وتردد المسلمون واقترح بعضهم الكتابة للنبي واخباره بالامر . فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي وقال لهم والله ان التي تكرهون لهي التي خرجتم تطلبون اي الشهادة . وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم الا بهذا الدين الذي اكرمنا الله به فانطلقوا فانما هي احدى الحسنيين اما ظهور (نصر) واما (شهادة) فقالوا صدق ابن رواحة ومضوا الى لقاء الحشود العظيمة من اعدائهم ، مما يمثل الروح الجياشة المؤمنة التي كانت تسير الطبقة الاولى من المسلمين والتي ظلت تظهر في كل موقف من مواقف جهادهم رضي الله عنهم . ودعوا من لقوه فأجيبوا بالرفض ثم اشتبكوا مع ما لا يقاس على ما معهم من عدد وسلاح وكراع واهبة . وحمل زيد اللواء فقاتل وقاتل معه المسلمون حتى قتل فأخذه جعفر بن ابي طالب ونزل عن فرسه وقاتل على الارض حتى قتل بدوره . واصطلح المجاهدون بعده على قيادة خالد بن الوليد الذي استطاع ان يكسب جولة في موقف ثم يتقهقر ويعود بمن بقي من المسلمين الى المدينة . ولما بلغ المسلمين في المدينة خبر انسحاب بقية المجاهدين بقيادة خالد حزنوا وسخطوا وحينما وصلوا قابلوهم بالتثريب والتعنيف هاتفين بهم (يا فرار . افررتم في سبيل الله) لانهم آثروا الحياة على الموت حتى بلغ الامر في بعضهم ان حبسوا انفسهم في بيوتهم حياء وفراراً من التقريع لولا ان تدخل النبي عليه السلام ومنع التثريب وقال (انهم كرار ان شاء الله لا فرار) وهذا موقف رائع مستمد من تلك الروح الجيـــاشة التي جعلت الثلاثة آلاف يقابلون اضعافا مضاعفة متفوقة عليهم في كل شيء وهم على مسافة شاسعة جداً من ارضهم !

ثم كانت سرية عمرو بن العـــاص التي وصلت إلى ذات السلاسل من وراء وادي القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام . وكانت في السنة الثامنة . وكان سببها تجمع جمع من قضاعة المرجح نصرانيتهم للزحف على المدينة . وقد امره بالاستعانة بمن يمر به من بلي وعــــذرة وبلقين . فلما قرب بلغه ان الجمع كبير فأرسل رسولا للنبي يستمده فبعث اليه بمدد بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ومد سراة المهاجرين والانصار . وقد طوى بلاد بلي وعذرة وبلقين حتى

---

(١) ابن سعـــد ج ٢ ص ١٧٤-٢٧٧ انظر ايضا ابن هشام ج ٣ ص ٤٢٧-٤٤٧ وفي المصدرين تفصيل الواقعة الذي اوردنا خلاصته في المتن .

اتى الى اقصى البلاد فدوخها وهرب منه العرب وتفرقوا [1] .

وكانت هذه الوقائع قبل فتح مكة . وبعد فتح مكة ببضعة اشهر قاد النبي عليه السلام حملة كبيرة وصل بها الى تبوك . والروايات تذكر [2] انه بلغ النبي ان الروم قد جمعوا جموعا كثيرة بالشام بقصد الزحف على المدينة وانضوى اليها المتنصرون من قبائل لخم وجذام وعاملة وغسان وانهم ارسلوا طلائع الى مشارف الشام فكان ذلك من اسباب حملة تبوك . والذي نرجحه ان النبي قد فكر في ثأر مؤتة فتلاحقت الاحداث في الحجاز فتأخر في تنفيذ عزيمته الى ان فرغ منها . وهذا مستلهم مما جرت عليه عادة النبي وهي ملاحقة ثأر المسلمين ومقابلة العدوان بالمثل بدون ملل الى ان يخضد شوكة العدو ويرغمه على الاستسلام .

وحملة تبوك هي آخر الحملات التي قادها النبي بنفسه واعظمها وأبعدها مدى ومعنى . وقد بلغ عدد المشتركين فيها ثلاثين الفا وعدد الخيل عشرة آلاف . ولعلها كانت اعظم جيش اجتمع تحت راية واحدة في شمال الجزيرة . وظاهر ان النبي حشد كل ما امكن حشده لتكون حملته متكافئة مع ما يمكن ان تلقاه من العرب النصارى والكتائب الرومانية التي قد تكون معهم ولتحقق غرضا عظيما آخر فيما نعتقد وهو إلقاء الرهبة في قلوب العرب وغيرهم في الجزيرة وما جاورها واظهار ما صار اليه امر المسلمين من قوة وعدة .

وقد روى ابن هشام ان النبي قال للجد بن قيس هل لك العام في جلاد بني الاصفر يعني الروم مما قد يكون قرينة على ما انتواه من عزيمة سابقة . ومن المحتمل ان يكون النبي قد ارسل سرية عمرو بن العاص كطليعة او كشافة . وهذا ينفي طبعا ان يكون قد بلغ النبي تجمع جموع من قضاعة فأرسل حملة عمرو من اجلها ، ولا ان يكون قد بلغ النبي استعداد الروم وارسالهم طلائع الى مشارف الشام فكان ذلك من الاسباب المباشرة للحملة .

ولقد سار النبي على رأس حملته الكبرى في السنة التاسعة للهجرة فوصل الى تبوك على مسافة خمس عشرة ليلة من المدينة فحل فيها ولم يتجاوزها . واقام نحو عشرين يوما . ولم يقع بينه وبين احد اشتباك ما حيث انه لم يجد الجموع التي انبىء عنها .

على ان الايام التي قضاها النبي في تبوك لم تكن فارغة . فقد بعث الى دومة الجندل

---

(١) ابن سعد ج ٣ ص ١٧٧–١٨٨

(٢) اقرأ تفصيل وقعة تبوك في ابن سعد ج ٣ ص ٢١٨–٢٢١ وابن هشام ج ٤ ص ١٦٩ و ٢٢١ والطبري ج ٢ ص ٣٦٦–٣٧٣ والبلاذري ص ٦٦-٦٩ ومنها لخصنا ما كتبناه .

سرية بقيادة خالد بن الوليد فاستطاع ان يأسر صاحبها أو ملكها الاكيدر بن عبد الملك وأن يضطره إلى الخضوع وتقديم فدية صلح الفي بعير وثمانمئة عبد واربعمئة درع وأربعمئة رمح. ثم اخذه معه إلى المدينة حيث كان النبي قد عاد اليها فأسلم على يده وكتب النبي كتاباً أورد ابن سعد نصه هكذا :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجـــاب إلى الاسلام وخلع الانداد والاصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل واكنافها ان له الضاحية من الضحل والبور والمعامي واغفال الأرض والحلقة والسلاح والحـــافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور وبعد الخمس لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم الا عشر الثبات . تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها . عليكم بذاك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين [١] .

ونقول استطراداً ان كايتاني الطلياني انكر اسلام الاكيدر لأن هناك رواية أخرى ذكرت خبر قتال خالد بن الوليد لأهل دومة والاكيدر وقتله حينما سافر من العراق إلى الى الشام في خلافة ابي بكر الصديق . ولقد ذكر هذا الخبر البلاذري ولكنه ذكر معه انه نقض العهد وارتد ومنع الصدقة وان ابا بكر امر خالداً بقتاله وقتال قومه حيث يظهر من هذا ان لا تناقض بين الخبرين ، وننبه الى ان البلاذري ذكر الخبر الاول ايضاً [٢] .

وقدم على النبي وهو في تبوك يوحنا بن رؤبة ملك الأيلة وتعهد باداء الجزية له واخذ منه كتاب عهد وامان . وجاء الى لقاء النبي ايضاً يهود بني جنبه وبني عاديا وبني العريض ومدن اذرح والجربا ومقنا فوجدوه قد عاد الى المدينة فلحقوا به اليها واعلنوا خضوعهم له وتعهدوا باداء الجزية واخذوا منه كتب عهد وامان .

وهذا نص كتاب رسول الله ليوحنا بن رؤبة :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة واهل

---

(١) ج ٢ ص ٥٤ قال ابن سعد وهو يورد هذا النص ان محمد بن عمر الاسلمي اخبره ان شيخا من اهل دومة حدثه ان رسول الله كتب لاكيدر هذا الكتاب وجاءه بالكتاب فقرأه واخذ منه نسخته

(٢) ص ٦٨

ايلة لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر . لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر . ومن احدث حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيبة لمن اخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة باذن رسول الله [1]) .

وقد كانت الجزية التي وضعها على اهل ايلة ثلاثمئة دينار كل سنة [2] .

وهذا نص كتاب رسول الله لأهل اذرح :

(هذا كتاب من محمد لأهل اذرح انهم آمنون بأمان الله ومحمد وان عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة . والله كفيل عليهم بالنصح والاحسان للمسلمين ومن لجأ اليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين . وهم آمنون حتى يحدث اليهم محمد قبل خروجه) [3] .

وهذا نص كتابه لأهل مقنا (انهم آمنون بأمان الله وامان محمد وان عليهم ربع غزولهم وربع ثمارهم) [4]

وقدمت على النبي وهو في تبوك وفود عديدة من قبائل مشارف الشام من بلى وعذرة وبهراء وجذام وكلب وبني رقاش فلم تجده فلحقت به الى المدينة واعلنت اسلامها وولاءها .

وبعد قليل من عودة النبي عليه السلام من تبوك اخذت الوفود تتدفق عليه من كل ناحية من انحاء جزيرة العرب وتدخل في دين الله وتعاهد رسوله على ما شرحناه قبل . وليس من شك في ان هذا كان نتيجة لفتح مكة والتغلب على هوازن ثم حملة تبوك العظمى حيث صارت حركات النبي وانتصاراته على كل لسان في كل مكان .

وهكذا يصح ان يقال انه كان لهذه الحملة نتائج عظيمة المدى حيث تم بها للدعوة الاسلامية

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٥٥

(٢) ص ٥٦

(٣) و(٤) ص ٥٦ وفي البلاذري نص اطول لاهل مقنا ذكر في سياقه ان بعض اهل مصر اخبره انه رأى كتابهم بعينه في جلد احمر دارس الخط فنسخه واملى عليه نسخته انظر فتوح البلدان ص ٦٧

الاحاطة بجميع جزيرة العرب الى تخوم الشام ودخول كل ذلك تحت راية الاسلام وسلطان النبي وحكمه وارهاب سكان مشارف الشام الذين تكررت انباء تجمعهم وتضامنهم مع الروم وحوادث اعتدائهم ، وكانت إلى ذلك تمهيداً للخطوات التاريخية الخالدة التي خطاها خلفاء النبي وتم فيها ما تم من فتح باهر وسلطان عزيز واعـــلام منشورة في ربوع الأرض المختلفة .

ولقد نزل الشطر الاكبر من سورة التوبة في صدد غزوة تبوك . منه ما نزل قبل السفر ومنه ما نزل في اثنائه ومنه ما نزل بعده . وفي كل منه صور عن هـــذه الغزوة اوضحت الروايات معالمها .

وتبدأ الآيات التي نزلت في صددها بالآية (٢٩) التي تأمر المسلمين بقتال الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، حيث يبدو في ذلك براعة استهلال او تبرير بين يدي الحملة .

وقد سمت احدى الآيات الغزوة بساعة العسرة . واحتوت بعض الآيات اشارة إلى انها كانت في موسم الصيف . وذكرت الروايات ان السنة كانت عسيرة على النـــاس وجدباء [١] وعرفت في الاصطلاح التاريخي الاسلامي بيوم العسرة [٢] حيث يدل هذا على ان النبي عليه السلام لم ير من الحكمة تأخيرها او ان الظروف كانت تقضي بالاسراع . وقد طلب النبي من المسلمين ان يتبرعوا بما يستطيعون من مال ومؤن وجهاز ودواب لأن كثيراً من الراغبين في الجهاد فقراء لا يجدون ما ينفقون .

وقد استجاب المخلصون وتبرع كل منهم بما استطاع [٣] ومنهم من تبرع بمبالغ تعد طائلة في ذلك اليوم من جملتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي أنفق الف دينار فقال النبي اللهم ارض عن عثمان فاني راض عنه [٤] .

وتثاقل المنافقون في الاستجابة الى النفرة للجهاد لطول المسافة والحر وسارع اولو الطول منهم الى استئذان النبي بالتخلف واخـــذوا يثبطون الهمم ويقولون لا تنفروا في الحر [٥] .

---

(١) انظر آيات التوبة ٣٨-٤٢ (٢) ابن هشام ص ١٦٩ ج ٤
(٣) انظر آية التوبة ٧٩ وابن هشام ج ٤ ص ١٧٢
(٤) نفس المصدر والصحيفة (٥) انظر آية التوبة ٨١

ومع ان فريقاً منهم اشتركوا في الرحلة فانهم لم يتورعوا من الكيد للنبي والمسلمين والدس عليهم والسخرية بهم في اثنائها [1] . وقد حملت الآيات من اجل ذلك عليهم حملات قارعة فضحت نياتهم ومواقفهم النفاقية السابقة واللاحقة وقررت كفرهم وخلودهم في النار [2] . وامرت احداها النبي بأن لا يسمح لهم بالاشتراك معه في اي غزوة اذا طلبوا وبأن لا يصلي على احد منهم مات ابداً وقررت ان الله لن يغفر لهم مهما استغفروا واستغفر لهم الرسول .

وقد اعتذر فريق من الاعراب من اولي الطول كذلك بأعذار كاذبة [3] . غير ان كثيراً منهم اشتركوا في الرحلة . ووصلت الرغبة في الجهاد في بعضهم الى انهم حينما اعتذر النبي لبعض فقرائهم بأن ليس عنده ما يحملهم عليه تولوا واعينهم تفيض من الدمع ألا يجدوا ما ينفقون مما فيه صورة جهادية وايمانية رائعة [4] .

ولم يتخلف من المخلصين القادرين بدون عذر وإذن إلا ثلاثة اشارت اليهم هذه الآية التي انطوت كذلك على صورة جهادية وايمانية رائعة

(وَعلى الثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا حَتّى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا [5] أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلّا إلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إنَّ اللهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ ١١٨)

وقد روي انهم سمعوا شديد التقريع واللوم من اخوانهم العائدين وقوطعوا حتى من قبل نسائهم واقاربهم الادنين فضاقت بهم الأرض حتى انهم ربطوا انفسهم بسواري المسجد خمسين يوماً يبكون ويتضرعون إلى الله ولم يكن يفك رباطهم الا للصلاة والطعام والحاجة الى أن اوحى الله بالآية [6] .

ولقد حاول كايتاني وغيره من المستشرقين ان يهونوا من شأن حملة تبوك ونتائجها وان يشككوا في العدد الكبير الذي حشده النبي لها . ولقد وصفت بعض

---

(١) انظر آيات التوبة ٦٤ــ٦٥ وابن هشام ج ٤ ص ١٧٧ــ١٧٨و١٨٠

(٢) انظر آيات التوبة ٤٤ــ٧٠و٧٣و٨٩

(٣) آيات التوبة ٩٠ــ٩٨

(٤) آيات التوبة ٩٢

(٥) ظنوا هنا بمعنى تيقنوا

(٦) انظر ابن هشام ج ٤ ص ١٨٦-١٩٢

الروايات[1] ان عسكر المنافقين لم يكن أقل العسكرين وانهم انسحبوا في اللحظة الاخيرة فتمسكوا بهذه الرواية ليثبتوا المبالغة في العدد الذي روي انه اشترك في الحملة بعد انسحاب المنافقين .

ولقد ورد في سورة التوبة آيات شديدة ضد المتخلفين والمعتذرين عن حملة تبوك من المنافقين والاعراب [2] ففسروا هذا بكثرة هؤلاء لتأييد رأيهم .

ورداً على ذلك نقول ان المنافقين قد وصلوا من الضعف والقلة في ظروف حملة تبوك الى درجة وصفتهم آيات في سورة التوبة بهذا الوصف

(يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنكُمْ وَلٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ٥٦ـــ٥٧)

وفي آيات سورة التوبة اشارات الى ما كان من اعتذارهم واستئذانهم وتملقهم للنبي والمسلمين في ظروف هذه الحملة وقبل سفرها وبعده [3] . فليس من المنطق ان يكون هذا لو كان عددهم يقارب عدد المسلمين وكان عسكرهم ليس بأقل العسكرين . ولقد ذكرت الروايات [4] ان المتخلفين من المنافقين كانوا ثمانين شخصاً وهذا هو المعقول بالنسبة لما وصلوا اليه . وتفيد آيات التوبة [5] ان الذين استأذنوا النبي بالتخلف او تخلفوا من المنافقين هم الاغنياء اولو الطول وهذا مؤيد لرواية الثمانين شخصاً لأن الاغنياء هم قلة في كل مجتمع . والى هذا فان بعض الآيات والروايات معاً تفيد ان من المنافقين من اشترك في الحملة ايضاً [6] . واما غيرهم ممن في المدينة فالذين تخلفوا فيها من المخلصين قليلون وقد تخلفوا باعذارهم ومنهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه . ولم يتخلف بدون عذر منهم إلا ثلاثة اشخاص كما هو ثابت بالنص القرآني الذي اوردناه قبل حيث يسوغ القول ان معظم القادرين على السفر والقتال من اهل المدينة قد اشتركوا في

---

(١) روى الرواية ابن سعد ج ٣ ص ٢١٩ وابن هشام ايضا ج ٤ ص ١٧٣ وعبارة ابن هشام تفيد عدم التصديق بهذا الزعم .

(٢) اشير الى الآيات قبل قليل (٣) آيات التوبة ٤٢ و ٧٤ و ٨٩–٩١

(٤) ابن هشام ج ٤ ص ١٨٩ (٥) الآيات ٨٦ و ٩٤ (٦) اشرنا الى مصدر ذلك قبل قليل

الحملة . وقد كان كثر توافد المسلمين بعد فتح مكة اليها حتى تضاعف عدد سكانها . ولم يكن الاعراب المتخلفون كثرة كبيرة على الارجح بدليل ان آيات التوبة قد وصفت المعتذرين للنبي منهم بأولي الطول . وكان عامتهم يتسابقون الى الاشتراك في الحملة والذين لا يجدون ما ينفقون ولا يجد النبي ما يساعدهم على الاشتراك فيها من وسائل يحزنون اشد الحزن على ما جاء في القرآن ومر بيانه . وفي سورة التوبة آية قد تكون نزلت بعد العودة من تبوك وفيها تأييد لشدة رغبة المسلمين في الجهاد وتسابقهم إليه حيث احتوت تخفيفاً للعبء وتوزيعاً للعمل والمناوبة في الجهاد [1] .

ففي كل هذا رد حاسم على المستشرقين وكشف عن اغراضهم فيما يعلقون ودليل على ان العدد الذي ذكرته الروايات ليس مبالغاً فيه . وكل ما يمكن أن يكون انه كان تقديرياً وليس احصائيا .

جيش اسامه

●

هذا ويظهر ان النبي عليه السلام لم يرأن حملة تبوك قد اجزت عن ثأر مؤتة واغراض حملة زيد بن حارثة لأنه هيأ بعد عودته من تبوك بمدة ما حملة جديدة لتذهب الى البلقاء ثانية فتثأر للحملة السابقة وتقوم بأغراضها . وجعل قيادتها الى اسامة بن زيد وامره ان يطأ بخيله البلقاء أو ارض فلسطين على اختلاف الروايات [2] . وضم الى هذه الحملة عدداً من كبار اصحابه . وعسكرت الحملة خارج المدينة لاتمام جهازها . ومرض النبي ﷺ في اثناء ذلك المرض الذي توفي فيه فلم ترحل في حياته وسيرها ابو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله عقب توليه الخلافة على ما سوف يأتي شرحه بعد .

وفي هذا توكيد لماقلناه من عادة رسول الله في ملاحقة ثأر المسلمين والانتقام من المعتدين عليهم ثم من تطلعهم الى ما وراء جزيرة العرب لنشر رسالة ربه في اقطار الارض الاخرى .

---

(١) الآيات ٨٩و٩٣ (٢) ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٨

حج ابي بكر بالناس في العام التاسع

ونزول الشطر الاول من سورة التوبة

وما فيه من صور

●

بعد عودة النبي الى تبوك عين ابا بكر اميراً على الحج ليقيم للناس حجهم فخرج ومعه جمع كبير من المسلمين . وحج بالناس حجا رسميا . وكان فريق من المشركين يؤدون في الوقت نفسه مناسك الحج حسب تقاليد الجاهلية [1] .

ولقد ذكرت الروايات ان الشطر الاول من سورة التوبة الذي يأمر الله فيه النبي بان يؤذن في الناس يوم الحج الاكبر بأن الله ورسوله بريئان من المشركين وبانهم ممهلون لنهاية الاشهر الحرم وبان يقاتلهم بعدها بدون هوادة حتى يتوبوا الى الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . ومن كان بينهم وبين المسلمين عهد موقوت فهو الى تمام مدته اذا لم ينقضوه ويظاهروا اعداء المسلمين عليهم . ومن عاهدوهم عند المسجد الحرام فعليهم ان يستقيموا لهم ما استقاموا على عهدهم قد نزل بعد سفر ابي بكر فقيل للنبي ابعث بها الى ابي بكر فقال لا يؤدي عني إلا رجل من اهل بيتي ثم دعا عليا بن أبي طالب فقال له أخرج بهذه الآيات فأذن في الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى بأنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام عريان ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له الى موته . فخرج ، ولما رآه أبو بكر قادما ولم يصل بعد الى مكة سأله أأمير أم مأمور قال مأمور . فلما كان يوم النحر قام علي فأذن بالناس بما امره به رسول الله واجل الناس اربعة اشهر ليرجع كل الى مأمنه ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة .

ومع هذه الرواية التي رواها ابن هشام وابن سعد معا فان الاخير روى حديثا عن ابي هريرة جاء فيه ان أبا بكر بعثه بالذات في الحجة التي امره رسول الله عليها في رهط من المسلمين ليؤذنوا بالناس يوم النحر ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

---

(١) انظر ابن سعد ج٣ ص ٢٢١ - ٢٢٢ وابن هشام ج ٤ ص ٢٠١ وبعدها

حيث تثير هذه الرواية الشبهة في الرواية الأولى أو في جملة (لا يبلغ عني إلا رجل من أهل بيتي) وتحمل على الظن انها من مصنوعات الشيعة . فالنبي أرسل رسلا عديدين إلى الملوك والأمراء والزعماء والقبائل ليبلغوا عنه رسالة ربه . وليس في آيات سورة التوبة ما يخص النبي شخصياً أو أسروياً . وحاشا النبي ثم حاشاه ان يكون اعتبر النبوة اسروية . وكل ما نراه محتملا ان الآيات نزلت بعد سفر ابي بكر فأرسلها النبي مع علي ليبلغها له حتى ينادي بها في الناس يوم الحج الأكبر وهذا ما يتسق مع حديث ابي هريرة .

على ان في الرواية نقطة عجيبة . فالشطر الاول من سورة براءة ليس فيه أمر بمنع المشركين من الحج وطوافهم في حالة العري . وليس فيه إلا الأمر باعلان البراءة إلى الذين عاهدهم المسلمون من المشركين وإلى المشركين عامة وأمهالهم الاشهر الحرم وقتالهم بعدها إلى ان يتوبوا مع الوفاء لمن بينهم وبين المسلمين عهد اذا وفوا واستقاموا عليه .

وهناك في سورة براءة آية [1] تعلن خطر دخول المشركين المسجد الحرام غير انها متأخرة وجاء قبلها آيات كثيرة فيها شؤون متنوعة اخرى إلا إذا فرضنا انها نزلت والآيات التي قبلها الى أول السورة دفعة واحدة . وهو فرض ليس لهما يبرره في مضمون الآيات في رأينا .

وفي الشطر الأول من سورة براءة أو التوبة نقاط يحسن تسجيلها لأن فيها صورة لما صار عليه الأمر في اواخر عهد النبي عليه السلام .

فأمر الله إيذان الناس يوم الحج الأكبر بأنه ورسوله بريئان من المشركين قد يعني ان السلطان الاسلامي تحت راية النبي عليه السلام قد استتب في جميع ارجاء الجزيرة وان المشركين غدوا قلة ضئيلة لا يقام لها وزن ولا يخشى لها جانب . وإحدى الآيات تقول : (وان أحداً من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ٦) حيث يفيد النص بأن المشركين الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد لم يعودوا يستطيعون السير إلى لقاء النبي إلا بجواره وذمته مما فيه تأييد لما نقول . وقد روي ان المشركين انما صاروا يعمدون إلى ذلك بعد اذاعة البراءة يوم الحج الاكبر .

وفي الآية (٢٨) من السورة تقرير رباني بأن المشركين نجس فلا ينبغي لهم أن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام (أي العام التاسع) حيث انطوى فيها تدعيم آخر لما قلناه من

---

(١) الآية ٢٨

استتباب السلطان الاسلامي وهوان شأن المشركين .

وقد يحلو لناقد ان يقول ان في هذا نقضاً لحرية التدين التي قررتها آيات القرآن لأن فيها منعاً للمشركين من ممارسة تقاليد حجهم التي اعتادوها ، وان فيها في الوقت نفسه نقضاً لحرمة الاشهر الحرم التي تمنح الناس الأمن وحرية الحل والترحال . ولسنا نرى محلا لهذا النقد بعد أن صار الايمان بالله وحده وعبادته وحده هو الدين الغالب وبعد أن طهرت الكعبة من الأوثان وجردت تقاليد الحج من شوائب الشرك ، حيث يكون ذلك بمثابة لاخلال بنظام عام ديني واجتماعي موطد .

وفي الشطر الاول من السورة آيتان [١] تدلان على انه كان بين المسلمين وبين فريق ممن احتفظ بشركه من العرب عهود منها ما هو موقوت ومنها ما ليس كذلك حيث احتوت إحدى الآيتين أمراً باتمام مدة ما هو موقوت منها لمن اوفوا بها ولم ينقصوا منها شيئاً ولم يظاهروا عدواً وحيث احتوت الثانية امراً بالاستقامة على العهود التي بينهم وبين المعاهدين عند المسجد الحرام ما استقاموا عليها دون ذكر مدة ما . والمتبادر ان هؤلاء بعض قبائل كانت تنزل في منطقة مكة ؛ وان اولئك كانوا في منطقة أخرى .

والآيتان الأولى والثانيه من السورة احتوتا اعلانا بالبراءة الى الذين عاهدهم المسلمون من المشركين وامهالا لهم اربعة اشهر يسيحون فيها في الأرض والآية الخامسة تأمر المسلمين بقتال المشركين بعد انسلاخ الأشهر الحرم دون ما هوادة الى ان يتوبوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .

وقد توهم الآيات انها تضمنت أمراً بنقض العهد مع المشركين وقتالهم حتى يسلموا . وفي ذلك نقض للمبدأ القرآني الذي يقول لا إكراه في الدين . غير ان الآيتين الرابعة والسابعة اللتين تستثنيان المعاهدين وتأمران بالوفاء لهم ما داموا أوفياء لعهودهم تزيلان ذلك الوهم وتسوغان القول ان اعلان البراءة انما كان للمعاهدين الذين بدر منهم نقض بشكل ما او في موقف ما . والمرجح ان هؤلاء كانوا أعداء فعاهدهم النبي فلم يكونوا أمناء لعهودهم ووقفوا مواقف فيها غدر أو خيانة أو مظاهرة للعداء . فليس من الشذوذ في شيء ان يؤمر المسلمون بقتالهم الى ان يستسلموا وليس في ذلك معنى الاكراه على الاسلام بالقوة قصداً أو

---

(١) الآيتان ٤ و ٧

هدفاً أو مبدءاً كما هو واضح . ولقد وصف هؤلاء في الآيات الثامنة والتاسعة والعــاشرة بوصف يدل على ما كانوا يبيتونه للمسلمين من غدر وعدوان وعلى انهم لا يرقبون فيهم ان سنحت لهم فرصة وظهروا عليهم إلا ولا ذمــة . وفي هذا ما فيه من المبررات الكافية

ويظهر انه كان ولا يزال لبعض المسلمين أقارب مشركون فاقتضت حكمة الله انتوطد الوحدة الاسلامية بقوة أشد نجاء فيما جاءمن آياتسورةالتوبة الأولى هاتان الآيتانالرائعتان اللتان احتوتا تلقيناً جليلا مستمر المدى

(يا أيُّها الَّذِينَ آمنوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وإخوانَكُمْ أوْلِياءَ إنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإيمانِ ومَنْ يَتوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمون. قُلْ إنْ كانَ آباؤكُمْ وأبْناؤكُمْ وإخوانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وعَشِيرَتُكُمْ وأموالٌ اقْتَرَفْتمُوها وتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها ومَساكِنَ تَرْضَوْنَها أحبَّ إلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وجِهادٍ في سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يأتِيَ اللهُ بأمْرِهِ واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفاسِقِينَ ٢٣—٢٤)

والآية (٣٧) من السورة تلغي النسيء في الأشهر الحرم . ولقد شرحنا هذا التقليد في الجزء السابق ورجحنا ان العرب كانوا يعمدون اليه لياتي موسم الحج دائما في الخريف حتى يتيسر للناس السفر بدون ارهاق . وقد بررت الآية الالغاء لأن في النسيء تغييراً وتبديلا في الاشهر الحرم المعينة بالاسماء ، فقد كانوا يعلنون مثلا ان شوالا اول الاشهر الحرم في العام القابل مع انه ليس منها في الاصل فيكون يوم الحج الاكبر اي يوم الوقوف في عرفة في التاسع من ذي القعدة بدلا من ذي الحجة ويخرج المحرم من الاشهر الحرم . وقد ذكرت بعض الروايـــات [١] ان الأمر كان كذلك حينما حج أبو بكر بالناس بأمر النبي في السنة التاسعة كما ذكرت [٢] ان الناس كانوا يطلبون التقديم والتأخير في الاشهر الحرم لمتابعةحروب لهم توقفت بسبب الاشهر الحرم ، حيث يفيد هذا ان النسيء قد أسيء استعماله ويسوغ القول انه من اسباب الغائه المباشرة فضلاعن ما ينطوي فيالالغاء من حكمة اخرى وهي سدالباب امام الجرأة على انتقاص الحرمات والتلاعب بها والاحتيال عليها .

(١ و٢) إنظر تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ٥ ص ٢٣٩ و٢٤٢

حجة الوداع

●

وفي السنة العاشرة حج النبي بالمسلمين الحجة التي عرفت بحجة الوداع لأنه توفي بعدها بقليل . وكانت حجة حافلة احتشد فيها المسلمون من كل صوب . وعلم الناس فيها مناسك الحج ووصاهم بوصايا متنوعة في مواقف متعددة . وخطب فيهم خطبة عامة رائعة .

ومما اثر من ذلك [1] انه هتف بالناس لأن يسمعوا منه فانه قد لا يلقاهم في عامهم القابل ثم نوه بما اتم الله على لسانه ويده ورسالته الخالدة التي كان القرآن في الدرجة الاولى وسننه القولية والفعلية في الدرجة الثانية الضابط لها والمبين لحدودها ومداها وقال انه تارك في المسلمين ما ان اعتصموا به فلن يضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه [2] . واحتوت الخطبة فيما احتوتـــه

---

(١) انظر خطب واقوال وتعاليم ومواقف النبي في حجة الوداع في ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٥-٢٧٦ وابن سعد ج ٣ ص ٢٢٥-٢٤٠ والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٥٧-٣٥٨

(٢) جملة (وسنة نبيه) في رواية ابن هشام . والحديث لم يرد في ابن سعد . وورد في رواية العقد الفريد جلة (واهل بيتي) محل (وسنة نبيه) ورواية العقد الفريد غريبة نخشى بل نرجح ان تكون من غرائب مرويات الشيعة او مصنوعاتهم . ورواية ابن هشام هي المتسقة دونها مع نصوص القرآن ولا سيما آية سورة النساء هذه (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا ٥٩)
والقرآن يمثل الله عز وجل وسنة الرسول تمثل الرسول بعده . والموقف موقف امير المؤمنين على مدى الاجيال بالتمسك بما لا يضلون من بعده إذا تمسكوا به . والنبي لا يمكن ان يفوته انه قد يكون من اهل بيته في جيل من الاجيال منحرف او شاذ ، ولا يمكن ان يظن ان النبوة اسروية وانما هي فضل الله الذي يعلم حيث يجعل رسالته .

نعم هناك حديث رواه مسلم والترمذي عن النبي صدر منه عند ماء (خماء) بين مكة والمدينة جاء فيه : (اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي احدهما اعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي اهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما (التاج ج ٣ ص ٣٠٩) وقد روى اليعقوبي (ج ٢ ص ٩٣) هذا بصيغة مباينة حيث ذكر ان النبي حينما عاد من مكة بعد حجة الوداع وقف عند غدير خم وامسك بيد علي ثم قال للناس الست اولى بالمؤمنين من انفسهم قالوا بلى فقال من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه . وعاد من عاداه . ثم قال ايها الناس اني فرطكم وانتم واردون علي الحوض واني سائلكم عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما قالوا وماالثقلان يا رسول الله قال الثقل الاكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا وعترتي اهل بيتي . وعلى غرابة هذا وتحفظنا ازاءه بناء على ماقلناه آنفاً فان مناسبة صدوره ومقاصده غير المناسبة والمقاصد في خطبة الوداع . وهذا مع اجلالنا للعترة النبوية التي شرفها الله بانتسابها لرسوله الاعظم .

ما يصح أن يسمى إعلانا لقدسية حقوق الناس وتساويهم وحرياتهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم فكلهم من آدم وآدم من تراب . وان أكرمهم عند الله أتقاهم . ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ووصى بالنساء خيراً وقال ان لهن على الرجال حقاً وفسر ما يعني بحق الرجال وهو الأمانة والصيانة والطاعة الزوجية . ونهى عن الغلو في الدين . ووصى بالأرقـــاء . وأكد حرمة الأشهر الحرام باعيانها ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد منفرد هو رجب . وأكد حرمة البلد الحرام . ووصى بطاعة الأمير إذا ما قام بكتاب الله ولو كان عبداً حبشياً مجدعاً . وأعلن سقوط الربا . فليس للمرابي إلا رأس ماله وطبق ذلك على أسرته فأعلن سقوط ربا عمه العباس . وأعلن سقوط كل دم ودعوى جاهلية وطبق ذلك على أسرته فأعلن سقوط دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب . وأعلن سقوط مآثر الجاهلية غير سدانة البيت وسقاية الحاج ثم هتف اللهم هل بلغت . ألا لا ترجعن بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض . وليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل بعض من يبلغه أوعى له من بعض من سمعه . ألا هل بلغت . فأجابه الناس اللهم نعم فهتف اللهم فاشهد .

مرض النبي عليه السلام و وفاته

وظهور مسيلمة وطليحة والاسود العنسي

قبيل وفاته

●

وقد مرض النبي عليه السلام بعد عودته من الحج بقليل المرض الذي توفي فيه [1] .

وطارت أخبار مرضه فكان نتيجة لذلك أن وثب كل من الأسود العنسي في اليمن وطليحة الأسدي في نجد ومسيلمة الحنفي في اليمامة فادعوا النبوة وأخذوا يدعون قومهم إلى نصرتهم وتأييدهم فلقوا بعض الاستجابة بتأثير النعرة القبلية . وأخذوا يتحركون في سبيل بسط سلطانهم وإسقاط سلطان النبي عن بلادهم . وكان أنشطهم العنسي الذي جمع الجموع واخذ يتصاول مع عمال النبي ومن ناصرهم من المؤمنين واستطاع ان يبسط سلطانه على ساحة واسعة من اليمن . ولم يمنع المرض رسول الله مـــن الاهتمام للامر فأرسل رسله وكتبه الى زعماء المؤمنين المخلصين في اليمن ونجد واليمامة . واستطاع هؤلاء ومن انضم اليهم من عامة المؤمنين المخلصين ان يحتالوا على الاسود ويغتالوه وجاء خبر ذلك الى النبي وهو مريض . وظلت حركة مسيلمة وطليحة نتيجة لذلك ضيقة في حياة النبي ثم تفاقمت بعده على ما سوف يأتي شرحه [2] .

ولقد استبطأ النبي سير جيش اسامة نحو غايته وبلغه ان الناس قالوا أمّر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار فخرج النبي من بيت أم المؤمنين عائشة حيث قضى فيه أيام مرضه عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر فقال أيها الناس انفذوا بعث اسامة . فلعمري لئن قلتم في امارته لقد قلتم في امارة ابيه من قبله . وانه لخليق بالامارة . وان أباه كان خليقاً لها [3] .
فتحرك جيش أسامة وضرب عسكره خارج المدينة وثقل المرض على النبي فلم يرتحل .

ولم يمض الا قليل حتى توفاه الله ليلة الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة . وتمت بذلك على هجرته عشر سنين وعمره ثلاث وستون سنة على

---

(١) انظر خبر مرض النبي ووفاته في ابن هشام ج ٤ ص ٣١٩-٣٢١و٣٣٦ـ٣٤٣ والطبرى ج ٢ ص ٤٢٨-٤٤٤

(٢) انظر الطبري ج ٢ص ٤٠٠و٤٣٠و٤٣٢و٤٦٣-٤٧٣

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٨

أشهر الروايات [1] بعد أن أقر الله عينه بانتشار الاسلام وتوطد سلطانه في مختلف ربوع جزيرة العرب وتردد صداه قوياً فيا وراءها تاركا لخلفائه وقومه وأتباعه اتمام عمله العظيم وحمل مشعل هدايته الوهاج الى مختلف أقطار الأرض وتحقيق وعــد الله لهم بالتمكين والاستخلاف في الأرض وظهور الاسلام على الدين كله .

ولقد ذهل المسلمون لوفاة النبي ومنهم من لم يصدقها وقد روي عن عمر بن الخطاب قوله في ذهول (ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد توفي . وانه والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى عن قومه . والله ليرجعن كما رجع موسى فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم زعموا انه مات) وجاء أبو بكر فقصد الى بيت عائشة فدخله فألفى النبي مسجى في ناحية من البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم اقبل عليه يقبله ويقول (ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً) ثم خرج وعمر ثائر النفس يهدد ويتوعــد فقال له على رسلك ثم حمد الله وأثنى عليه وقال (أيها الناس : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا قول الله : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل افــإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين . ١٤٤ سورة آل عمران [2] . فثاب الناس الى رشدهم وصاروا الى يقين من موت رسولهم العظيم .

ومما رواه هيكل في كتابه حياة محمد [3] ان النبي عليه السلام طلب حين اشتد عليه المرض أن يأتوه بدواة وصحيفة ليكتب لهم كتاباً لا يضلون بعده أبداً فحال عمر دون ذلك وقال ان رسول الله قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن وهو حسبنا . ولم نر هذا في ابن هشام . وقد روى الطبري شيئاً من ذلك حيث روى [4] ان النبي طلب ان يكتب لهم كتابا لا يضلون بعده أبداً فتنازعوا وقال بعضهم ان رسول الله يهجر (أي يهذي مــن الوجع) ثم عادوا يستفهمونه فقال دعوني فما انا فيه خير مما تدعونني اليه . ويزعم الشيعة ان النبي اراد ان يعهد فيما يكتبه بالخلافة من بعده لعلي . ويحقدون على عمر وغيره من المسلمين بسبب ذلك . ونحن نشك في الرواية أصلا ونرجح انها من مصنوعات الشيعة .

ومما روي ان العباس قال لعلي اني عرفت الموت في وجه النبي فانطلق بنا اليه فان كان

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٤٥٤ــ٤٥٥ والمسعودى ج ٢ ص ١٧٦

(٢) طبعة ثانية ص ٤٨٥ (٣) ج ٢ ص ٤٣٦

(٤) ابن هشام ج ٤ ض ٣٣٢ــ٣٣٣

هذا الأمر فينا عرفناه وان كان في غيرنا امرناه فوصى بنا الناس فقال له علي اني والله لا افعل والله لئن منعناه لا يؤتيناه احد بعده [١] .

ومما روي ان النبي اثناء مرضه قال (مروا ابا بكر فليصل بالناس) فقالت عائشة يانبي الله ان ابا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء اذا قرأ القرآن فقال ثانية (مروه فليصل بالناس) فعادت عائشة الى كلامها فقال (انكن صواحب يوسف فمروه فليصل بالناس[٢]) ومما روي ان بلالا دعا النبي للصلاة في مبادىء مرضه (فقال مروا من يصلي بالناس) فوجدوا عمر فصلى بالناس . فلما سمع النبي صوته قال (فأين ابو بكر . يأبى الله ذلك والمسلمون . يأبي الله ذلك والمسلمون) [٢] واهل السنة يستندون الى ذلك فيما يستندون اليه ليدللوا على ان رسول الله قد أراد به ان يكون خليفة له في المسلمين من بعده .

ومما روي ان النبي خرج يوماً عاصباً رأسه فجلس على المنبر بعد الصلاة فقال ان عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده . فأدرك ابو بكر ان النبي ينعى نفسه فبكى وقال بل نفديك بانفسنا وابنائنا فقال على رسلك يا ابا بكر . انظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة في المسجد فسدوها الا ما كان من بيت ابي بكر فإني لا أعلم احداً كان افضل عندي في الصحبة يداً منه ولو كنت متخذاً من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن صحبة واخاء ايمان حتى يجمع الله بيننا عنده فان امنّ الناس علي في صحبته وماله ابو بكر . ألا لا تبق خوخة في المسجد الا خوخة ابي بكر . وقد روى البخاري ومسلم والترمذي اكثر هذه الرواية في مساندهم التي سجل فيها ما عد من صحاح احاديث رسول الله ولقد تواترت الروايات عن ما كان من صدق ايمان ابي بكر وصحبته وملازمته وتاييده وتصديقه للرسول في كل موقف وعن ما أنفقه من اموال في سبيل الله مما قد يكون فيه تفسير لما روي عن رسول الله [٣] .

ولقد روى رواة الشيعه ان النبي انما وصى بسد الأبواب الا باب علي . وقد قرر علماء الحديث ان الحديث موضوع . وان الشيعة قد وضعته للرد على ما روي من طرق اوثق في شان باب

(١و٢) ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٤-٣٣٥

(٣) انظر الطبري ج ٢ ص ٤٣٤-٤٣٥ والتاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج٣ ص ٢٧٢ وابن هشام ج ٤ ص ٣٢٧ واقرأ كتاب سيرة ابي بكر الصديق لعلي الطنطاوي

ابي بكر [1] .

وبما روي ان النبي شعر بشيء من التحسن فخرج من بيته والمسلمون في صلاتهم وراء ابي بكر فكادوا يفتتنون فرحا وتفرجوا فاشار عليهم بالثبات وأحس أبو بكر بالامر فاراد أن يتخلى عن مكانه فدفعه النبي في ظهره وقال له صل بالناس ثم جلس الى يمينه فصلى قاعداً فلما فرغ اقبل على الناس رافعا صوته فقال (ايها الناس سعرت النار . واقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . واني والله ما تمسكون علي بشيء . اني والله لم احل الا ما احل القرآن ولم أحرم الا ما حرم القرآن [2] .

وبما روي ان النبي خرج يوما عاصبا رأسه متكئا على ابن عمه الفضل حتى جلس على المنبر ثم امر بدعوة الناس فسارعوا اليه فقال بعد حمد الله : ألا ان الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . الا من كان جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه . ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه . وان احبكم الي من اخذ مني حقا ان كان له او حللني فلقيت الله وانا طيب النفس ثم رجع في يوم ثان الى مقالته . فقال رجل يا رسول الله ان لي عندك ثلاثة دراهم قال اعطه يا فضل . ثم قال ايها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا ألا وان فضوح الدنيا ايسر من فضوح الآخرة . فقام رجل فقال يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله قال ولم غللتها قال كنت محتاجا اليها قال خذها منه يا فضل . ثم قال ايها الناس من خشي من نفسه شيئا فليقم ادع له . فقام رجل فقال يا رسول الله اني لكذاب اني لفاحش اني لنؤوم فقال اللهم ارزقه صدقا وايمانا وأذهب عنه النوم اذا أراد . فقام رجل آخر فقال والله يا رسول الله اني لكذاب واني لمنافق وما شيء الا قد جنيته فقال رسول الله اللهم ارزقه صدقا وايمانا وصير امره الى خير [3] .

وبما روي ان النبي صلى بالناس في مبادىء مرضه ثم استغفر لأصحاب أحد ثم قال (يا معشر المهاجرين استوصوا بالانصار خيراً فان الناس يزيدون وان الانصار على هيئتها

---

(١) انظر المنتقى من منهاج السنة ص ٣١١ ومجمع الزوائد ج ٩ ص ١١٤

(٢) ابن هشام ج ٤ س ٣٣١-٣٣٢

(٣) الطبري ج ٢ ص ٤٣٣ - ٤٣٤

لا تزيد وانهم كانوا عتبتي التي أويت اليها فاحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم [١] .

ومما روي عن النبي في اواخر حياته ما روته عائشة انه حينما اشتد به الوجع قال (قاتل الله قوما اتخذوا قبور انبيائهم مساجد [٢]) وما روته عائشة ايضا ان آخر ما عهد رسول الله ﷺ به ان قال (لا يترك بجزيرة العرب دينان) [٣] وفي هذين الحـــديثين روعة وحكمة بالغتان . وفي الثاني بخاصة تحصين للبلاد التي جعلها الله مهبط وحيه ومنبثق دينه الذي وعده باظهاره على الدين كله :

ولقد دفن رسول الله في بيت عائشة ام المؤمنين حيث توفي لأن ابا بكر قـــال سمعت رسول الله يقول (ما قبض نبي الا دفن حيث يقبض) فكان قبره الشريف وما يزال فيه[٤] . وتأخر دفنه يومين بسبب اضطراب الناس وانقسامهم في أمر من يخلفه في المسلمين عـــلى ما سوف نشرحه بعد [٥] . وصلى عليه الناس ارسالا . الرجال اولا ثم النساء ثم الصبيان [٦] وتولى دفنه علي بن ابي طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس [٧] . وكفن في ثوبين صحاريين – نسبة الى صحاري احدى بلاد اليمن – وادرج في برد حبرة ادراجا [٨] .

بعض خصوصيات رسول الله ﷺ



بالاضافه الى ما ذكرناه من خصوصيات رسول الله واخلاقـــه ونشأته قبل البعثة ففي الآيات القرآنية اشارات اوضحت الروايات معالمها الى بعض خصوصياته نذكرها كما يلي :

---

(٤) ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٨ وفي العقد الفريد لابن عبد ربه وهو مـــن الكتب القديمة رواية تذكر سببا لذلك حيث روي عن النعمان بن بشير الانصاري قال لما ثقل النبي في مرضه تكلم الناس في مـــن يقوم بالامر بعده فقال قوم (ابوبكر) وقال قوم (ابي بن كعب) فأتيت ابيا فذكرت له ما سمعت فقال عندي من هذا الامر من رسول الله شيء ما انابذاكره حتى يقبضه الله ثم دخلت انا وهو على رسول الله بعد الصبح فأقبل على ابي فقال هذا ما قلت لك قال لهفأوص بنا فخرج يخط برجليه حتى صار على المنبر فاوصى بالانصار بما يقرب ما رواه ابن هشام ولقد استمر صاحب العقد الفريد في سياقه فقال انه لما مات النبي وتطلع الانصار الى الامر قال ابي بن كعب انه للمهاجرين دون الانصاروان هذا ما سمعه من رسول الله (انظر العقدالفريد نشر المكتبة التجارية الكبرى على ١٣٥٣–١٩٣٥ ج ٣ ص ٦٣ – ٦٤

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٥

(٣) نفس المصدر وروى هذا البلاذرى ص ٧٣ والطبري ج٢ص ٥٣٤ – ٥٣٥

(٤و٥و٦و٧و٨) ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٢ – ٣٤٥

١ – ازواج النبي ﷺ

تزوج النبي بعد خديجة بنت خويلد الأسدية رضي الله عنها تسع زوجات دخل بهن فعلا وعقد على اثنتين أخريين ولكنه طلقها قبل الدخول . وتسرى بأمتين هما مارية القبطية وريحانة القرظية .

وكانت أولى زوجاته بعد موت خديجة سودة بنت زمعة . وكانت زوجة أحد مهاجري الحبشة تنصر زوجها في الحبشة ومات فيها . وقد تزوجها قبيل الهجرة إلى المدينة . ثم عائشة بنت أبي بكر التي تختلف الروايات في سنها حينما تزوجها وفي وقت زواجها منه ، والأشهر انه خطبها في مكة وعمرها تسع سنين وبنى عليها بعد هجرته . وهي البكر الوحيد من زوجاته وأحبهن اليه واعلمهن واشهرهن وأكثرهن حديثاً عنه واقواهن شخصية . ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت زوجة خنيس بن حذافة احد شهداء بدر . ثم ام سلمة زوجة أبي سلمة الأسدي بعد ان استشهد زوجها في وقعة احد . ثم جويرية بنت الحارث زعيم بني المصطلق وكانت متزوجة فوقعت سبية في يد المسلمين فدفع النبي ثمنها واعتقها وتزوجهاوآمن قومها نتيجة لذلك . ثم ام حبيبة رملة بنت ابي سفيان وكانت زوجة عبيد الله بن جحش أسلمت مع زوجها وهاجرت معه الى الحبشة وتنصر ومات فيها فخطبها النبي وهي في الحبشة وعادت رأساً إلى المدينة حيث تزوجها . ثم زينب بنت جحش الأسدية ، وكانت زوجةزيد بن حارثة ابن النبي بالتبني فطلقها حارثة فتزوجها. ثم صفية بنت حيي بن اخطب اليهوديةبعد أن أسلمت وكانت زوجة لأحد زعماء يهود خيبر . ثم ميمونة بنت الحارث من بني عامر بن صعصعة وكانت زوجة لأحد المسلمين واسمه ابو رهم فمات فعرضت نفسها على النبي فتزوجها وهي التي يقال انها التي ذكرها القرآن في احدى آيات الاحزاب في جملة (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ٥٠) .

أما الزوجتان اللتان طلقهما قبل الدخول فهما اسماء بنت النعمان الكندية حيث وجد النبي بها بياضاً - اي برصاً فردها إلى أهلها . وعمرة الكلابية حيث كانت حديثة عهد بالكفر فاستعاذت من رسول الله فقال لها منيع عائذ الله وردها الى اهلها . وبعض الروايات تخالف بين الاثنتين فتذكر حالة الاولى للثانية والثانية للاولى [١] .

وقد اجتمعت تحت نكاح النبي تسع زوجات مدخول بهن قبل نزول آية سورة النساء

---

(١) انظر ابن هشام ج٤ ص٣٢١-٣٢٧ ومروج الذهب للمسعودي ج٢ س١٧٨ والطبري ج٢ ص١٠٤ و ٤١٧

الثالثة التي اعتبرت تحديداً لعدد الزوجات التي يصح للمسلم ان يجمعهن تحت نكاحه في وقت واحد وهو اربع [1] ، وقد طلق من كان في نكاحه اكثر من اربع زوجات من المسلمين ما زاد عن هذا العدد . وأذن الله للنبي في احدى آيات الأحزاب [2] بصورة خاصة بأن يحتفظ بهن جميعاً وحرم عليه في آية اخرى [3] الزواج من جديد ولو واحدة بدل اخرى وحرم على المسلمين في آية ثالثة ان ينكحوا ازواجه من بعده [4] .

ولقد ابدأ بعض المستشرقين واعادوا في زيجات النبي وقالوا انه سن لنفسه قانوناً ينقض القانون الذي سنه لسائر الناس كما تطاولوا عليه بسبب عدد النساء اللاتي تزوج بهن وجمعهن في عصمته [5] .

ولقد رد كتاب المسلمين على هذا وذاك ردوداً متنوعة وجيهة . منها ان النبي في تعدد زوجاته لم يكن شاذاً عن بيئته او عن الطبيعة البشرية . وان لجل زيجاته ظروفاً غير دواعي الرغبة الجنسية إذ توخى في بعضها تكريم صاحبيه ووزيريه ابي بكر وعمر بابنتيهما عائشة وحفصة ، وفي بعضها توثيق الرابطة بين الاسلام وبعض القبائل كزيجته بجويرية التي كان من نتائجها اسلام جميع قبيلتها بني المصطلق وفي بعضها تكريم الزوجات اللاتي استشهد ازواجهن في الجهاد مثل ام حبيبة وام سلمة وحفصة وسودة . وان نصف زوجاته كن من المتقدمات في السن وامهات اولاد كبار ممن ثقل الرغبة الجنسية فيهن عادة . وجوهر ومدى الردود صحيحان كل الصحة .

ونقول من سبيل المساجلة ان النبي لا يعقل ان يرى نفسه في حاجة الى تشريع خاص به مناقض للتشريع العام لو لم يكن هناك ظروف قاهرة . وكان بامكانه ان يستغني عن المتقدمات في السن وذوات الأولاد وغير الجميلات لو كانت دواعي المسألة هي الرغبة الجنسية فحسب فلا يضطر الى تشريع خاص لنفسه . ومع ذلك فان في سورة الاحزاب آية جاءت

---

(١) هذا هو نص الآية (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ماملكت ايمانكم ذلك ادنى الا تعولوا) وتعولوا هنا بمعنى تجوروا.

(٢) الآية ٥٠

(٣) الآية ٥٢

(٤) الآية ٥٣

(٥) انظر حياة محمد لهيكل طبعة ثانية ص ٣٠٣-٣١٧ وتاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج ١ ص ١٣٠ - ١٣٦

عقب آية إقرار النبي بالاحتفاظ بزوجاته [1] تكاد توحي بأنها تتضمن تعليما للنبي بأن لا يتصل اتصالا جنسياً في وقت واحد إلا بأربع من زوجاته وتخوله بأن يبدل ويغير في هذا الاتصال فيرجىء أي يؤجل مؤقتاً من يشاء ثم يعود الى من يبتغي ممن عزل وأجل منهن لتقر أعين زوجاته جميعهن ولا يحزن ويرضين بما آتاهن كلهن . وقد يلهم نص الآية ان نساء النبي خفن ان يكون مصير المتقدمات في السن وذوات الأولاد الطلاق ليوفق النبي شأنـــه مع العدد الذي حددته آية سورة النساء فيفقدن بذلك كرامة الزوجية النبوية وكرامة أمومة المؤمنين التي كرمهن الله بها في آية سورة الأحزاب هذه (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ٦) ولا سيما ان الآية (٥٣) قد حرمت على المسلمين التزوج بهن من بعد النبي في حين ظل التزوج بالمطلقات الاخريات مباحا . ولقد حظرت الآية (٥٢) على النبي كما قلنا ان يتزوج بزوجة جديدة حتى ولو بطريق استبدال واحدة بأخرى . وقد يكون في هذا تأييد لما تقدم . ولقد روى المفسرون [2] في سياق تفسير آيات الأحزاب المذكورة ان النبي اشترط على ازواجه حين اشفقن من الطلاق وحزن ان تكون له الحرية في المعاشرة فوافقن على ذلك وان النبي لم يعاشر إلا أربعا هن عائشة وحفصة وزينب وام سلمة .

وفي هذا الشرح المقنع للمنصفين في قضية زيجات النبي التي يثيرها المستشرقون عدداً وتشريعا فيما نعتقد .

ولقد استغل المستشرقون كذلك بعض الروايات عن جمال زينب بنت جحش ومشاهدة النبي لها في حالة اغراء وميل قلبه لها ، وانها لما علمت بذلك اخذت تتعنت في سلوكها مع زوجها زيد بن حارثة ابن النبي بالتبني وتتكبر عليه لترغمه على طلاقها وتيسر اسباب زواجها من النبي ، وان زيداً شعر بذلك فاضطر في النهاية الى تطليقها فسارع النبي الى التزوج بها .

وهذه الروايات لم ترد في طبقات ابن سعد ولا في سيرة ابن هشام ولا في تاريخ الطبري وهؤلاء هم اقدم من وصلت الينا كتبهم . وقد كتبوها نقلا عن مدونات قديمة او تسجيلا لروايات سمعوها معنعنة من راو الى راو حتى عهد النبي عليه السلام وإنما وردت في كتب متأخرة [3]

---

(١) هذا نصها (ترجيء من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك اولى ان تقر اعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير والطبرسي والكشاف والخازن

(٣) انظر حياة محمد لهيكل طبعة ثانية ص ٣٠٧-٣١٠

على ان في القرآن رداً حاسما فيه جلاء للامر ووضع له في نصابه الحق وهو أن هذاالزواج كان لابطال تقليد حرمة زواج الرجل بزوجة ابنه بالتبني بعد موته عنها أو تطليقه لها . فقد أبطلت إحدى آيات سورة الاحزاب [1] تقليد كون الابن بالتبني هو كالابن من الصلب فألهم الله نبيه بأن يقوم بابطال احدى نتائج ذلك التقليد وهو عدم حل زوجة الابن بالتبني للاب المتبني بنفسه في زينب . والروايات تذكر [2] ان زينب واخاها كرها زواج زينب من زيد لأنه في اصله مملوك معتق . ولعله قد انبثق في نفسها شيء من التكبر عليه واحست معنى من معاني عدم التكافؤ بينها وبينه . وشعر زيد بذلك فكان الأمر مزعجا له ومبعثا لشكواه وداعيا للتفكير في طلاقها فأمره النبي بالصبر والتحمل ، مع ما قام في نفسه بالهام الله من الزواج بها إذا طلقها ليبطل بنفسه هذه العادة الجاهلية الراسخة ويكون قدوة لغيره . وعاد زيد فأصر على تطليق زينب وصحت عزيمة النبي على تنفيذ إلهام الله فكان الطلاق والزواج . وكل هذا قد تضمنته آيات الأحزاب هذه (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا . وإذ تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج أزواج ادعيائهم [3] إذا قضوا منهن وطراً وكان امر الله مفعولا . ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احداً إلا الله وكفى بالله حسيبا . ما كان محمد أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ٣٦ - ٤٠) وقد تضمنت الآيات وبخاصة جملة (كي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) مفتاح الحادث . والظاهر ان العادة كانت قوية الرسوخ فلم يجرأ احد على نقضها فاقتضت حكمة الله ان يقدم الرسول على ذلك بذاته . والعتاب الرباني في الآيات مصبوب على تردد النبي في الاقدام على تنفيذ ما ألهم الله خشية انتقاد الناس وحياء منهم. وقد تضمنت توضيح الامر . فليس عليه حرج من تنفيذ ما ألهمه الله إياه . وهذه سنة الله في انبيائه اذا اختارهم لتبليغ رسالاته وجعل لهم ابطال والغاء

---

(١) الآيات ٤ـ٥

(٢) انظر آيات سورة الاحزاب ٣٦ـ٤٠ في تفسير ابن كثير والبغوي وغيرها

(٣) كناية عن الابناء بالتبني حيث كانوا يدعون باسماء آبائهم .

وتعديل واثبات بما اقتضت حكمته من عادات وتقاليد . واوجب عليهم الاقدام وعدم خشية احد غيره في ذلك . ولعل مفهوم الآية الأولى يدل على ان نقض هذه العادة لم يصعب على النبي وحده بل صعب على زينب ايضا إذ كانت تعد نفسها كأنها زوجة ابنه . والناس يعدونها كذلك . فاحتوت الآيات ما احتوته من عبارات قوية بسبيل الحض على الرضاء بما امر الله ورسوله وعدم عصيانهما . وزينب وزيد رضي الله عنهما كانا يعرفان بطبيعة الحال ان التقليد لا يسمح بتزوج النبي منها . وهذه نقطة هامة من شأنها ان تهدم ركنا من اركان الرواية وما دار حولها هدما ساحقا. وان تجعل الجزم سائغا بأن زيداً انما اراد تطليقها لأسباب غير اسباب تيسير تزوج النبي بها ولسبب ما بدا من زينب من سلوك مزعج له .

وفوق ما قلناه نقرر استيفاء لمقتضيات الجدل ان اثبات الحادث في القرآن مع ما فيه من عتاب شديد اكبر برهان على انه لم يكن في سياقه شيء ما يمس كرامة النبي ونزاهته وتصرفه . وكل الامر هو ما كان من تردده في تنفيذ الهام رباني فيه إبطال تقليد جاهلي . ويظهر ان الناس لغطوا في الامر فرد عليهم القرآن في الآية (٤٠) رداً حاسما . فما كان محمد ابا احد من الناس حتى يحرم عليه نكاح مطلقة ابنه بالتبني وحتى يسبب ذلك قيلا وقالا فوق ما في اقدام النبي من رفع للحرج عن المؤمنين في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً .

وفي سورة الاحزاب الآيات التالية ايضا (يا ايها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا. وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجراً عظيما ٢٨-٢٩)

وهذه الآيات جاءت بعد آيتين ذكر فيهما ما كان من نصر الله للنبي والمسلمين على الذين ظاهروا المشركين من اهل الكتاب وتوريثهم لهم ارضهم وديارهم واموالهم . وهم بنو قريظة من اليهود مما شرحنا قصتهم في مبحث سابق ، حيث يمكن ان تدل الآيات (٢٨ — ٢٩) على ان معيشة النبي في بيوته كانت ضنكا على ما ايدته الروايات الكثيرة وكان نساؤه يتحملن ذلك فلما رأين ان الله قد افاء عليه أموال بني قريظة طالبنه بالتوسعة فعظم ذلك عليه وانزعج لأنه رأى ان رغبة نسائه في الاستمتاع بمباهج الدنيا وزينتها مما لا يتناسب مع مهمته العظمى ومما قد يعوقه عن حملها او التفرغ لها فأوحى الله بالآيات ليخيّرهن فيها بين البقاء في عصمته والرضاء بحالتهن وبين الانفصال عنه . والظرف الذي نزلت فيه الآيات يسوغ القول بأن العيشة الضنك التي كان يعيشها النبي لم تكن لقلة ذات اليد والعجز عن التوسعة مطلقا

بدليل انها ظلت كذلك طيلة حياته وإلى ما بعد ان امتلأ بيت مال المسلمين بالفيء والغنائم حتى لقد كان ينام على حصير فتعلم فتترك اثرها في جنباته وكان يركب على حمار عري ليس عليه شيء .

والروايات تذكر [1] ان النبي عليه السلام اخبر نساءه بما اوحي اليه به وخيرهن وطلب منهن ان يستأمرن آباءهن ، وان جميعهن اخترن صحبة رسول الله والرضاء بحالتهن .

ولقد جاء بعد الآيتين خمس آيات اخرى وهي (يا نساء النبي من يأت منكن فاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً . ومن تقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها اجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما . يا نساء النبي لستن كاحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه غرض وقلن قولا معروفا . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفا خبيراً ٣٠-٣٤)

والمتبادر ان هذه الآيات جاءت استطرادية لتنبيه نساء النبي الى مركزهن وواجباتهن ومسؤولياتهن الكبيرة بسبب ما نلنه من شرف الزوجية النبوية . كانما اريد بها تنبيههن الى ما يجب عليهن فهمه وادراكه من مهام سامية من شأنها ان تغنيهن وتشغلهن عن متع الحياة الدنيا وزينتها .

وقد احتوت الآيات تنبيها لهن وتنويهـــا بهن ، فقد جعلهن شرف الزوجية النبوية في مستوى خاص بهن بحيث يترتب على ذلك ان يكون عقاب ذنوبهن وثوابها مضاعفا لأنهن صرن قدوة للناس وعليهن واجبات اخلاقية وسلوكية وتعليمية كبيرة متصلة باهداف المهمة النبوية . وقد خصصن بالعناية الربانية في رفعة القدر والتشريف وقصد الابعاد عن الرجس والتطهير لأنهن صرن اهل بيت رسول الله ﷺ . وقد غدون مرجعا من مراجع الناس في امور الدين لأنهن ألصق الناس بمن ينزل عليه آيات الله وحكمته واكثرهم فرصة وقربـــا لسماعها وتلقينها وفهمها فعليهن ان يذكرن كل ذلك وان يؤدين واجباتهن ازاءه وان يقررن في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية لأنهن لسن كاحد من النساء .

---

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير ابن كثير والطبرسي والطبري والبغوي

والآيات جلية المدى في تنبيهها وتنويهها . ولقد احتوت كتب الحديث شيئا كثيراً عنهن وخاصة عن اللاتي عمرن طويلا بعد وفاة النبي في صدد سنن النبي وسيرته وما كان من تحليهن بالاخلاق النبوية ورواياتهن للسنن النبوية القولية والفعلية تبصيراً للمؤمنين في امور الدين والدنيا كأثر من آثار هذه التلقينات والواجبات التي قررتها الآيات .

ونقول استطراداً ان عبارة الآية (٣٣) لا تدع مجالا لتردد ما في انها قد قصد بها نساء النبي اللاتي هن اهل بيته . وفي توسيع مداها الى ابعد من ذلك شيء غير يسير من التجوز كما ان في صرفها عن نساء النبي هو في منتهى التناقض والغرابة . وهذا وذاك مما يقع فيه الشيعة . ومن غرائب ما يروى في هذا الصدد ان الآيه المذكورة نزلت في بيت ام سلمة زوجة النبي فقالت يا رسول الله ألست من اهل البيت فقال انك الى خير انت من ازواج النبي قالت وفي البيت رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين [١] . ومن ذلك عن ام سلمة ايضا (ان النبي جمع عليا وفاطمة والحسن والحسين ثم ادخلهم تحت ثوبه ثم جأر الى الله وقال هؤلاء اهل بيتي . قالت ام سلمة فقلت يا رسول الله ادخلني معهم قال انت من اهلي [٢]) .

ويمكن ان يلحق بهذا الباب ومناسبته تفسير مفسري الشيعة الغريب لجملة (ونساءنا ونساءكم) في آية سورة آل عمران (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ٦١) [٣] . وقولهم أن المقصود بذلك فاطمة وروايتهم ان النبي قد احضرها هي فقط من النساء مع علي والحسن والحسين حينما استعد لمباهلة وفد نصارى اليمن بناء على هذه الآية !

ومن ذلك ما روي عن عائشة انها رأت النبي قد جمع عليا وفاطمة وحسنا وحسينا بثوب ثم قال اللهم هؤلاء اهل بيتي وحامتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً فقالت يارسول الله انا من اهلك قال تنحي فانك الى خير [٤] . وهناك روايات اخرى من هذا الباب فاكتفينا بما تقدم . وما زلنا نراه ونرى ما في بابه غريبا كل الغرابة لأن جملة (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً) وقد وردت في سياق الخطاب لنساء

(١ و ٢) انظر تفسير الآيات في تفسير ابن كثير والطبرسي والمفسر الثاني شيعي معتدل والمفسر الاول محدث

(٢) انظر المنتقى من مناهج السنة ص ٤٣٧

(٣) انظر المصادر السابقة .

النبي وحسب واستمر ذلك السياق بعد الآية التي وردت فيها الجملة . على ان الطبرسي يروي قولا عن عكرمة وهو من كبار التابعين او تابعيهم ومن علماء القرآن ومفسريه انه اريد بالجملة ازواج النبي لأن اول الآية متوجه اليهن . وهذا هو الحق والصواب فيما نعتقد وما عداه يبعث الشك في انـــه من آثار التشاد الحزبي بين السنة والشيعة بعد عهـــد الخلفاء الراشدين .

وفي سورة النور آيات [1] يجمع المفسرون على انها نزلت في مناسبة حديث الافك الذي قذفت به ام المؤمنين عائشة حينما استصحبها رسول الله معه الى غزوة المريسيع . وكان من قصة ذلك [2] ان الجيش في عودته نزل منزلا فضاع لأم المؤمنين فيه عقد فذهبت لتبحث عنه فلم تجده . وكان هودجها امام خيمتها مغطى فلما نادى المنادي بالارتحال جاء الموكل بـه فحمله ووضعه على الجمل وسار به . ولم تكن قد رجعت بعد . فلما رجعت وجدت الجيش قد رحل . فتلففت بجلبابها وقعدت اعتقاداً منها انهم لم يلبثوا ان يفتقدوها . وكان احد المجاهدين واسمه صفوان قد تخلف فرأى سوادها فأقبل عليها وعرفها فأركبها بعيره . واخذ بالزمام حتى لحقا بالمسلمين . فاستغل بعض المنافقين الحادث فأشاعوا عنها الفاحشة وهي ماعرف في تاريخ السيرة باسم (حديث الافك) واندمج في ذلك بعض المخلصين . وكانت أزمة حادة مرت برسول الله وام المؤمنين والمسلمين عامة . فالناس يفيضون في الحديث والنبي حائر يهتف بالناس (لا تؤذوني في اهلي . والله ما علمت عنهم الا خيراً . وما علمت عن صفوان الا خيراً) كل هذا وعائشة لم تعلم . وقد مرضت في هذه الاثناء فرأت من النبي شيئاً من الجفاء لم تعهده فاستأذنت بالانتقال الى بيت اهلها فأذن لها . وهناك درت فعظم الأمر عليها وكلمها النبي وطلب منها ان تقول شيئاً وان تستغفر الله وتتوب ان كانت قد اقترفت ذنبا فبكت ثم قالت والله لا اتوب الى الله بما ذكرت ابداً . والله اني لأعلم لئن اقررت بما يقول الناس لأقولن ما لم يكن . ولئن انكرته لا يصدقونني ولكني اقول ما قـــال ابو يوسف (صبر جميل والله المستعان على مـــا تصفون) ولم يمض إلا قليل حتى اوحى الله للنبي بآيات سورة النور (١١–٢٦) التي احتوت دلالة على ما كان للحادث وظروفه مـن آثار مزعجة ومؤذية ومستوجبة للنقد والتنديد . لا سيما ما كان من غفلة المسلمين عما فيه افك ظاهر وكيد بين كان يجب ان يدركوه بداهة حينما سمعوه . لأن الذين قيل في حقهم ارفع واطهر من

---

(١) الآيات ١١–٢٦

(٢) الشرح مقتبس من ابن هشام ج ٣ ص ٣٤١ – ٣٥٥

ان يتورطوا فيه . وما كان في سلوكهم من بواعث الالم النفساني في النبي وعائشة وذويها . وفيها كذلك نقد وعتب على من يتصل الحادث بهم شخصيا بسبب سكوتهم او حيرتهم او اختلاج نفوسهم باحتمال صحته . اذ كان يجب ان يدركوا لأول وهلة ما فيه من كذب وبهتان وان يعلنوا هذا في الحال . والى هذا الذي تضمنته الآيات فانها تضمنت وعيداً شديداً لمن يحب ان تشيع الفاحشة في المسلمين وتقريراً باستحقاق الذين اشتركوا في حديث الافك بصراحة وتولوا كبره للعذاب العظيم . وقد امر النبي عليه السلام بجلد من ثبت عليه القذف فجلدوا .

ومن الغريب ان لا تكون روح الآيات وما فيها من قوة وحجة مقنعة لكل ذي عقل ببراءة عائشة وتنزهها وان يكابر احد في ذلك . حيث ظل الحديث يساق والروايات تذكر بشيء من التهويل والتضخيم بعد النبي عليه السلام . وحيث استغل ذلك بعض ذوي الهوى من الفرق الاسلامية في صدر الاسلام ثم من اعداء الاسلام كما استغله بعض المنافقين ومرضى القلوب وقت حدوثه .

ونعتقد ان ذلك كان من نتائج الفتنة الهوجاء التي نجمت عن استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه . اذ قالت الشيعة ان عائشة خرجت على علي بن ابي طالب رضي الله عنهما وكانت الواقعة المعروفة في تاريخ الاسلام بواقعة الجمل والتي سوف يأتي حديثها بعد لأنها كانت حاقدة عليه بسبب ما روي من انه وقف من الحادث موقفا غير ملائم [1] . فكان ذلك من اسباب حقد الشيعة على عائشة وترديدهم الروايات وتضخيمها بل وقذف بعضهم فيها متعمدين إغفال ما في الآيات من تنديد ووعيد للذين جاؤوا بالافك وافاضوا في حديثه بغير علم وبينة وتبرئة وتنزيه لأم المؤمنين .

وقد تكون رواية وقوف علي رضي الله عنه موقفا غير ملائم موضوعة في اصلها لتبرير دعوى حقد عائشة عليه لاسباب شخصية . وقد وضعوا احاديث عديدة منها حديث الحوأب الذي جاء فيه ان النبي قال لنسائه (ايكن ذات الجمل الاديب تخرج على الناس فتنبحها كلاب الحوأب) [2]

وتمحيص ما جاء في اسباب خروج عائشة والحوادث التي اعقبته او نجمت عنه يثير الشك

---

(١) انظر ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٦

(٢) انظر العواصم من القواصم لابن العربي طبعة ثانية ج ٤٧ — ١٤٨

في صحة دعوى كونها خرجت لقتال علي حقداً عليه ويثير الشك كذلك في دعوى كونها خرجت للقتال بل و كذب الدعويين كما يثبت ان القتال وقع بغير اذنها وبتحريض من اناس مشبوهين [1] .

وفي سورة الاحزاب هذه الآيات (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه فإذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق واذاسالتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلك اطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً ان ذلكم كان عند الله عظيما ٥٣) و (لاجناح عليهن في آبائهن ولا ابنائهن ولا اخواتهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت ايمانهن واتقين الله ان الله كان على كل شيء شهيدا ٥٥)

ويستدل منها على ان المسلمين كانوا يدخلون بيوت النبي باذن وبدون اذن وبدعوة وبدون دعوة وينتظرون نضج الطعام فيها اذا كانوا مدعوين الى طعام ويقضون الوقت في السمر والحديث وان نساء النبي كن يحضرن مجالسهم . و كان هذا يؤذي النبي ويضايقه ولكنه كان يستحي ان يجبهم بالمنع . والراجح ان هذا كان شأن المسلمين عامة فيما بينهم ايضا جريا على مألوف العرب في ذلك العصر وقبله . مع احتمال انهم كانوا يكثرون من ذلك بالنسبة لبيوت النبي لأنه صار هاديهم ومرشدهم وزعيمهم ومعلمهم وقاضيهم ومفتيهم وصارت بيوته مثابتهم لأنها بيوت الامة عامة . ولعل النبي كان في الوقت نفسه يكثر من دعوة المسلمين الى الطعام في بيته . وقد استفاضت الروايات بأنه كان كثيراً ما يدعو الذين يعتكفون في مسجده من فقراء المسلمين وغربائهم ووفود العرب الى الطعام او يخرج اليهم طعاما من بيوته .

والذي تلهمه روح الآيات ونصوصها ان ما كان يؤذي النبي هو اطالة المكث في بيوته والدخول اليها بلا اذن وفي غير الاوقات المناسبة [2] لا سيما ان البيوت لم تكن فيما نرجح

---

(١) انظر نفس المصدر ص ١٤٨-١٥٥ وانظر المنتقى من منهاج الاعتدال وهو مختصر منهاج السنة للامام ابن تيمية ص ٢٢٢ وبعدها

(٢) روي ان الآيات نزلت في الليلة التي عقد فيها نكاحه على زينب حيث اولم للمسلمين فأكلوا واستمروا مستأنسين بالحديث فخرج وتجول ثم عاد فوجدهم على حالهم واستمروا عليه فخرج ثانية وتجول ثم عاد فوجد بعضهم قد انصرف واستمر الباقي فخرج لثالث مرة وتجول فشعروا بضيقه فانصرفوا (انظر تفسيرها في كتب تفسير الطبري وابن كثير والبغوي وغيرهم

تحتوي على مرافق تساعد زوجات النبي على التمتع بحرياتهن. والآيات هي بسبيل تنظيم الامر مع استثناء محارم زوجات النبي الادنين وملك اليمين والنساء من حظر الدخول عليهن بدون اذن . وليس في الآيات نص صريح يحظر دخول المسلمين الى بيوت النبي بعد الاستئذان والاذن ولحاجة غير تناول الطعـــام . وليس في الآيات كذلك نص صريح يحظر اجتماع المسلمين من غير المحارم بنساء النبي على الطعام او غيره وفي بيوته بعد الاستئذان والاذن والدعوة او في خارجها ولو لحاجة غير تناول الطعام . وهكذا يبدو في الآيات صورة لما كان عليه الامر وما صار اليه من حياة النبي البيتية وصلة المسلمين بها .

وفي سورة التحريم الآيات التالية (يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة ازواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم واذ اسر النبي الى بعض ازواجه حديثاً فلما نبأت به واظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير . ان تتوبا الى الله فقد صدقت قلوبكما وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات عابدات سائحات ثيبات وابكارا ١ — ٥)

وقد روى المفسرون بمناسبة نزولها روايات فيها صور عن حالة النبي البيتية ومكايـدة نسائه لبعضهن ومراجعات بعضهن له . من ذلك ان النبي كان يطيل المكث عند زينب ويشرب عسلا او انه اطال المكث عند حفصة وشرب عسلا فتواطأت عائشة مع حفصة على زينب او عائشة وسودة بنت زمعة واتفقتا على ان تقولا للنبي ان رائحته رائحة مغافير .وهو صمغ ذو رائحة كريهة تجنيه النحل من شجر العرفط ففعلتا فقال بل سقتني زينب او حفصة عسلا فقالتا لعل النحل جنى صمغ المغافير فقال لها او لاحداهما لن اعود الى شربه عندها ثم وصاها بكتم ما قال ولكنها لم تكتمه فأخبرت به زميلتها وفشا الحديث فغضب رسول الله واعتزل جميـع نسائه وحلف ان لا يقربهن واخذ ينام في مكان آخر في المسجد حتى شاع ان النبي قد طلق نساءه واستولى الحزن والبكاء على نسائه .

واستأذن عمر على النبي في مكان عزلته الذي سمته الرواية المشربة والح بالاستئذان حتى دخل عليه وهو متكىء على حصير ـ د اثرت في جنبه فقـــال له يا رسول الله كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فتعلم نساؤنا منهم وقد

راجعتني امرأتي فأنكرت عليها ان تراجعني فقال ما تنكر ان اراجعك فوالله ان ازواج النبي ليراجعنه وتهجره احداهن اليوم الى الليل فقلت قد خاب من فعل ذلك منهن فتبسم رسول الله فقال له ما يشق عليك من نسائك . فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال وأنا وأبو بكر والمؤمنون فهل طلقتهن قال لا فقام على باب المسجد ونادى بأعلى صوته ان النبي لم يطلق نساءه . ثم نزلت الآيات فكفّر النبي عن يمينه وعاد الصلح والوئام بينه وبين زوجاته [١] .

وننبه الى ان تحريم النبي ﷺ ما احل الله له – وهو ما جاء في أولى آيات سورة التحريم – ليس بمعنى جعل الحلال حراما وانما بمعنى حرمان نفسه بما هو حل له . وليس هذا غريباً في الحياة البشرية .

٢ – اولاد النبي ﷺ

رزق النبي أولاداً ذكورا واناثا من ام المؤمنين خديجة وهم القـــاسم والطيب والطاهر وزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة [٢] . ورزق من مارية صبياً هو ابراهيم . وقد مات القاسم طفلا قبل البعثة ومات اخواه الطيب والطاهر طفلين ايضاً بعد البعثة بقليل فنعته احد زعماء قريش العاص بن وائل السهمي على ما رواه المسعودي [٣] بالأبتر اي المقطوع النسل لأنهم كانوا يعتبرون الذكور فقط نسلا للرجل فحز ذلك في نفسه فأنزل الله سورة الكوثر تهدئة لحزنه وبشارة له وتنديدا بناعته . وتزوجت زينب قبل البعثة بأبي العاص بن الربيع [٤] . وظلت في عصمته رغم كفره طيلة العهد المكي لأنه لم يكن قد نزل تحريم المسلمات على الكفار او العكس . وقد اشترك في وقعة بدر مع الكفار ووقع اسيرا في ايدي المسلمين فبعثت زينب بقلادتها لفدائه فأطلقه النبي بدون فداء بشرط ان يخلي سبيل زينب اليه ففعل [٥] . وقبيل الفتح خرج في تجارة للشام فاستولت سرية للمسلمين على القافلة فجاء الربيع الى المدينة ودخل سراً على زينب واستجار بها من اجل ماله فهتفت : لقد اجرت ابا العاص فقال النبي اجرنا من اجرت ثم قال لها اكرمي مثواه ولا يخلص اليك فانك لا تحلين له . لأنه كان نزل قرآن في ذلك . واستشفع النبي المسلمين فيه قائلا ان تحسنوا وتردوا عليه ماله فانا نحب

---

(١) انظر تفسير الآيات في كتب تفسير ابن كثير والبغوي والطبرسي والخازن

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٨٥ وابن سعد ج ١ ص ١١٥

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٦ (٤) ١٨٥

(٥) ابن هشام ج ٢ ص٢٩٦–٢٩٧

ذلك وان ابيتم فهو فيء الله الذي افاء عليكم وانتم احق به . فقالوا يا رسول الله بل نرده اليه فردوه فعاد به الى مكة ورد لكل ذي حق حقه ثم اعلن اسلامه وقال ما منعني من الاسلام عند النبي إلا تخوفي ان تظنوا انما اردت ان آكل اموالكم و كان معروفاً بالامانة والشرف ثم هاجر الى المدينة مسلماً [1] . وقد اثنى النبي عليه في سياق حادث اعتزام علي بن ابي طالب التزوج من فاطمة على ما سوف نشير اليه بعد فقال عنه (حدثني فصدقني . ووعدني فوفّى لي) [2] . وقد ولدت زينب له بنتا اسمها امامة كان النبي يدللها كثيراً . وقد تزوجها علي ابن ابي طالب بعد موت زوجته – خالتها – فاطمة . ولا تذكر الروايات نسلا لها [3] .

وتزوجت او خطبت على اختلاف الروايات رقية وام كلثوم عتبة وعتيبة ابني ابي لهب قبل البعثة [4] فطلقاهما بتأثير ابيه وامه اللذين وقفا موقفا مناوئا وعدائيا من النبي ودعوته على ما شرحناه في الفصل الاول . وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فماتت فتزوج اختها ام كلثوم [5] . وبذلك عرف بذي النورين . ولم تذكر الروايات خلفا لهما . وتزوجت فاطمة في السنة الاولى او الثانية عليا بن ابي طالب فولدت له في السنة الثانية او الثالثة الحسن ثم الحسين ولقد روي ان عليا اراد ان يتزوج على فاطمة وجاء بنو المغيرة القرشيون الى النبي فاستأذنوه في ذلك فأبى ان يأذن وقام في الناس خطيبا فقال (ان بني المغيرة استأذنوني ان يزوجوا بنتهم علياً بن أبي طالب . واني لا آذن . لا آذن إلا أن يريد ابن ابي طالب ان يطلق ابنتي ويتزوج ابنتهم . انما فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها ويؤذيني ما يؤذيها فكف علي عن مشروعه [6] .

ولقد ماتت بنات النبي في حياته إلا فاطمة التي توفيت بعده بستة أشهر . وقد ولد ابراهيم في السنة الثامنة بعد الهجرة ففرح فرحاً عظيما وولع به ولعاً شديداً ولكنه لم يلبث ان مات طفلا فكان حزنه عليه شديداً وقال قولته الشهيرة (ان العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول ان شاء الله إلا خيراً وإنا عليك يا ابراهيم لمحزونون) [7] وراجعه بعض اصحابه فقال (انما هذا

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٠٢–٣٠٤

(٢) المنتقى للذهبي ص ٢٠١

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥ والصفحة المذكورة من المنتقى ايضاً

(٤) انظر مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٨٥

(٥) نفس المصدر

(٦) المنتقى من منهاج السنة ص ٢٠١

(٧) ابن سعد ج ١ ص ١١٦–١٢٣

رحمة ومن لا يرحم . انما نهيت عن النياحة وان يندب الميت بما ليس فيه وان تخمش الوجوه وتشق الجيوب عليه) [1] ولقد روي ان الشمس كسفت يوم توفي فقال رسول الله (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل ولا ينكسفان لموت احد فإذا رأيتموهما فعليكم بالدعاء حتى ينكشفا) [2]

ولقد تبنى النبي زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب . وكان مملوكاً لأم المؤمنين خديجة فاستوهبه منها وأعتقه وتبناه [3] . ومن المحتمل ان يكون فعل ذلك بعد موت ابنه القاسم او بعد موت ابنيه الطيب والطاهر بعد القاسم في أوائل البعثة . وقد تضمنت احدى آيات الاحزاب اشارة اليه وذكرته باسمه ونعتته بأنه دعي النبي أي الذي يدعى اليه . وقد شرحنا ما كان من زواج النبي بزينب بعد تطليق زيد إياها . ولقد ظل النبي يحبه ويعتبره كابنه او من اخص اخصائه بعد ابطال تقليد التبني ونتائجه . وقد أرسله مرات عديدة وأكثر من غيره على رأس سراياه . ولما استشهد في مؤتة هيأ جيشاً لأخذ ثأره وعين ابنه اسامة قائداً له وبلغة تقول الناس عن قيادته وهو ما يزال شاباً حدثاً وكان في جيشه جلة من اصحاب رسول الله الأولين منهم أبو بكر وعمر فخطب المسلمين وكان ذلك أثناء مرضه فقال لهم لئن قلتم في امارته لقد قلتم في امارة ابيه . وانه لخليق بالامارة وان اباه كان خليقاً بها [4] .

ولقد روى البخاري ومسلم والترمذي في مساندهم نصاً آخر مروياً عن ابن عمر ان بعض الناس لما طعنوا في امارة اسامة قال النبي عليه السلام ان تطعنوا في امارته فقد كنتم تطعنون في امارة ابيه من قبل وأيم الله ان كان لخليقا للامارة وان كان لمن احب الناس إلي وان هذا لمن احب الناس الي بعده [5] .

ولقد روى الترمذي ان عمر بن الخطاب فرض لأسامة بن زيد في العطاء ثلاثة آلاف وخمسمئة وفرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف فقال ابن عمر لأبيه لم فضلت أسامة علي فوالله ما سبقني الى مشهد فقال لأن زيداً كان احب الى رسول الله من ابيك وكان اسامة أحب إلى رسول

(١ و ٢) ابن سعد ج ١ ص ١١٦ — ١٢٣

(٣) ابن هشام ج ص ١ ص ٢٦٥

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٨

(٤) التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٣٠

الله منك فآثرت حب رسول الله على حبي [1] . وروى الترمذي أيضا عن اسامة انه كان جالسا عند النبي فاستأذن عليه العباس وعلي فلما دخلا قالا يا رسول الله جئنا نسألك أي اهلك أحب اليك قال فاطمة بنت محمد . قالا ما جئنا نسألك عن اهلك . قال احب اهلي الي من قد انعم الله عليه وانعمت عليه اسامة بن زيد قالا ثم من قال علي بن ابي طالب . قال العباس جعلت عمك آخرهم يا رسول الله قال لأن علياً قد سبقك بالهجرة [2] .

٣ – بيوت النبي ﷺ

حينما اشترى النبي المربد وأحاطه بسور خصص جانبا منه لسكنه وبنى فيه بيتا لزمعة التي كان تزوجها في اواخر عهده في مكة ثم بيتا لعائشة التي تزوجها عقب هجرته . وصار كلما تزوج زوجة او تسرى بأمة يبني لها بيتا ملاصقا للبيوت السابقة . وكانت هذه البيوت من اللبن مسقوفة بالجريد وعلى ابوابها مسوح الشعر [3] . وقد اطلق القرآن عليها اسم (الحجرات) على ما جاء في آية سورة الحجرات وهي (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون) [4] وقد سميت كذلك ببيوت النبي في آية سورة الاحزاب هذه (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا ان يؤذن لكم) .

٤ – صفة رسول الله ﷺ

لقد روى ابن سعد روايات كثيرة معزوة لبعض اصحاب رسول الله ومنهم من كان من اخصائه مثل علي بن أبي طالب ومنهم من كان من الملازمين له مثل ابي هريرة وانس بن مالك وغيرهم فيها وصف لهيئة رسول الله [4] . منها ما فيه وصف شامل ومنها ما فيه بعض الاوصاف . وكلها او جلها متفقة الخطوط بحيث يمكن ان يقال انها اوصاف رسول الله الحقيقية . وهذا وصف شامل روي عن علي بن ابي طالب (كان رسول الله ابيض اللون مشربا حمرة ، ادعج [5] العين ، سبط الشعر ، كث اللحية ، سهل الخد ، ذا وفرة [6] ، دقيق المسربة [7] ، كأن عنقه ابريق فضة . له شعر من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ، ليس في

(١ و ٢) انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٢١ وجملة من انعم الله عليه وانعمت عليه في اصلها زيداً والد اسامة على ما جاء في آية سورة الاحزاب ٣٧

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ٣٣

(٤) ج ٢ ص ١٧١ – ١٨٧ وكل ما في هذه النبذة مقتبس من هذه الصحف

(٥) شديد سواد العين وبياضها (٦) وفرة شعر الرأس اذا وصل الى شحمة الاذن

(٧) ما دق من شعر الصدر سائلا الى الجوف

بطنه ولا صدره شعر غيره. شثن الكف والقدم[1] . إذا مشى كأنما ينحدر من صبب[2] ، وإذا مشى كأنما ينقلع من صخر[3] . وإذا التفت التفت جميعاً . كان عرقه في وجهه كاللؤلؤ . ولريح عرقه اطيب من المسك الازفر . ليس بالقصير ولا بالطويل ولا بالعاجز ولا اللئيم . لم أر قبله ولا بعده مثله .

وهذا وصف شامل عن هند بن ابي هالة التميمي من اصحاب رسول الله وكان وصافاً (كان رسول الله فخما مفخما . يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. اطول من المربوع . وأقصر من المشذب[4] . عظيم الهامة . ورجل الشعر ان انفرقت عقيصته فرق وإلا فلا . يجاور شعره شحمة أذنيه اذا هو وفره . أزهر اللون . واسع الجبين . أزج الحواجب سوابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب . اقنى العرنين[5] . له نور تعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم . كث اللحية . ضليع الفم . مفلج الاسنان . دقيق المسربة . كأن عنقه جيد دمية[6] . في صفاء الفضة . معتدل الخلق . بادن متماسك . سواء البطن والصدر . عريض الصدر . بعيد ما بين المنكبين . ضخم الكراديس[7] . موصول ما بين اللبة[8] والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك . أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر . طويل الزندين . رحب الراحة . سبط القصب . شثن الكفين والقدمين . سائل الاطراف . خمصان الأخمصين مسيح القدمين[9] ينبو عنهما الماء . إذا زال زال قلعاً[10] . يخطو تكفؤاً ويمشي هوناً . ذريع المشية . اذا مشى كأنما ينحط من صبب . وإذا التفت التفت جميعاً . خافض الطرف . نظره إلى الأرض أطول من نظره الى السماء . يعني جل نظره الملاحظة . يسبق أصحابه . يبدر من لقي بالسلام . وكان متواصلا للاحزان . دائم الفكرة . ليست له راحة . لا يتكلم في غير حاجة . طويل السكت . يفتتح الكلام ويختمه باشداقه . ويتكلم بجوامع الكلام . فصل لا فضول ولا تقصير . دمثاً ليس بالجافي ولا المهين . يعظم النعمة وان دقت لا يذم منها شيئاً . لا يذم ذواقاً ولا يمدحه ، لا تغضبه الدنيا وما كان لها فاذا توطي الحق لم يعرفه احد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له . لا يغضب لنفسه

---

(١) غليظها (٢) المكان المرتفع المنحدر

(٣) كناية عن قوة المشي كأنه يرفع رجليه من الارض رفعا قويا .

(٤) طويل الجسم مع نحافة

(٥) طويل الانف مع رقة الارنبة وحدب في وسطه

(٦) الصورة المبالغ في صنعها وتحسينها

(٧) عظام المرافق والركب او رؤوس العظام (٨) المنحر

(٩) ملساوان (١٠) اي كان يثبت في مشيته

ولا ينتصر لها . إذا اشار اشار بكفه كلها واذا تعجب قلبها . واذا تحدث اتصل بها . يضرب براحته اليمنى باطن ابهامه اليسرى. واذا غضب اعرض واشاح . واذا فرح غض طرفه جل ضحكه التبسم . ويفتر عن مثل حب الغمام .

٥ – ومما روي عن مجلسه انه كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الاماكن وينهى عن ايطانها واذا انتهى الى قوم جلس حيث انتهى به المجلس ، يعطي كل جلسائه بنصيبه . لا يحسب جليسه ان احداً أكرم عليه منه . من جالسه او قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها او بميسور القول . مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وامانة . لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن [1] فيه الحرم ولا تنثى فلتاته [2] . وكان دائم البشر . سهل الخلق . لين الجانب . ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب . يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يدنس منه ولا يجنب فيه . لا يذم احداً ولا يعيره. ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه . إذا تكلم اطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير .

٦ – ولقد تعددت الروايات عن علامة بين كتفيه سميت بخاتم النبوة . وقد وصفها جابر ابن سمرة من اصحاب رسول الله قال رأيت خاتمه عند كتفيه مثل بيضة الحمامة تشبه جسمه .

وقد روي حديث عن صحابي اسمه ابو رمثة ان النبي عليه السلام قال له ادن مني امسح ظهري ، فدنوت فمسحت ظهره ثم وضعت اصابعي على الخاتم فغمزتها فقال له السامعون وما الخاتم قال شعر مجتمع عند كتفيه .

وروي عن صحابي اسمه عاصم قال اتيت رسول الله وهو جالس في اصحابه فدرت من خلفه فعرف الذي اريده فألقى الرداء عن ظهره فنظرت الى الخاتم على بعض الكتف مثل الجمع [3] حوله خيلان [4] كأنها الثآليل [5] .

---

(١) اي لا تذكر في مجلسه عورات الناس

(٢) يخلو مجلسه من فلتات اللسان

(٣) جمع الكف مع الاصابع

(٤) جمع خال وهو الشامة

(٥) جمع ثؤلول وهي الحبة التي تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها

وروي عن ابي رمثة ايضاً انه انطلق مع ابيه الى رسول الله فنظر ابي الى مثل السلعة بين كتفيه فقال يا رسول الله اني كأطب الرجال الا اعالجها لك . فقال : (لا . طبيبها الذي خلقها) .

٧ — ويستفاد من الروايات التي رواها ابن سعد ان شعر رأس رسول الله كان يضرب منكبيه او الى شحمة اذنيه ليس بالسبط ولا بالجعد وكان يضفره احياناً اربع ضفائر او غدائر وكان كثير شعر اللحية وانه لم يشب من شعره إلا قليل لم يكد يتجاوز العشرين او الثلاثين شعرة . وكان يخضب بالحناء حيناً والكتم حيناً . وانه كان يحفي شاربه [١] .

٨ — وانه اخذ يسمن قليلا في اواخر حياته .

٩ — وكان يحب الابيض من الثياب · ويقول انها اطيب واطهر . وكان يلبس قميصاً قصير الطول قصير الكمين من فوقه ثوب واحيانا من فوق الثوب بردة او حلة او جبة او شملة فضفاضة بلون احمر او اخضر وكان احياناً يلبس بردين معاً . وكان له برد احمر يلبسه في ايام الجمع والاعياد . وكثيراً ما كان يتعمم بعمة سوداء . وقد تعمم بعمة معلمة ايضا وكانت ثيابه من القطن واحيانا كان يلبس ثيابا من الصوف .

وقد روي انه اهدي اليه قباء من حرير فلبسه ثم صلى فيه ثم انصرف فنزعه نزعا شديداً كالكاره له ثم قال لا ينبغي هذا للمتقين .

وقد روي انه اهدي اليه خميصة شامية فشهد فيها الصلاة فلما انصرف قال ردوا هذه الخميصة على ابي جهم — وهو الذي اهداها له — فاني نظرت الى علمها في الصلاة فكاد يفتنني : وكان يصبغ ثيابه وعمته بالزعفران والورس . وكان يحب الطيب كثيراً . [٢]

١٠ — وكان ينتعل . وقد لبس خفين ساذجين اهداهما اليه صاحب الحبشة ومسح عليهما [٣] .

١١ — وكان يكثر من استعمال السواك ليلا ونهاراً وحينما يستيقظ وقبل ان يتوضا [٤] .

١٢ — وكان له مشط من عاج ومرآة ينظر فيها الى وجهه . وكان يستعمل الاثمد

---

(١) ج ٢ ص ١٩٠—٢٠٠و٢١١

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٢١٢—٢٢١

(٣) ابن سعد ج ٣ ص ١٥ (٤) ١٦

كحلا ويمدحه وكان له مكحلة وكان يكثر من دهن رأسه [1] .

١٣ — وكان عنده عدة اسياف اشهرها المسمى بذي الفقار . وكان له سيف قبيعته وحلقته من فضة [2] .

١٤ — وكان له درعان واحدة يقال لها السعدية واخرى يقال لها فضة او الفضول . ولها حلقات من فضة وهما يمانيتان رقيقتان [3] .

١٥ — وكان له ترس فيه تمثال . وكان له ارماح وثلاثة قسي واحدة اسمها الروحاء وثانية البيضاء وثالثة الصفراء [4] .

١٦ — وكانت له فرس اسمها السا كب غراء محجلة طلقة اليمين واخرى اسمها سيحة وثالثة اسمها لزاز اهداها له المقوقس [5] .

١٧ — وكان له بغلة شهباء اسمها دلدل اهداها له المقوقس وحمار اسمه عفير اويعفور هدية من المقوقس كذلك [6] .

١٨ — وكان له ثلاث هجن واحدة اسمها القصواء وثانية الجدعاء وثالثة العضباء [7] .

١٩ — وكان ينام على ادم محشو ليفا او عباءة مثنية او حصير بدون فرش . وعلى الارض حيناً وعلى سرير من سعف النخل حيناً . وقد رآه عمر بن الخطاب مرة واثر الحصير في جنبه فبكى فقال له مالي وللدنيا ياعمر . ولو اشاء ان تسير الجبال ذهبا لسارت ولو ان الدنيا تعدل عند الله جناح ذباب ما اعطى كافراً منها شيئا . ودخلت انصارية على عائشة فوجدت فراش النبي عباءة مثنية فذهبت فبعثت بفراش حشوه صوفا فأمر رسول الله عائشة برده الى صاحبته وقال لاحاجة لي فيه [8] .

٢٠ — واتخذ خاتما من ذهب اولا وجعل فصه في بطن كفه فصنع الناس خواتيم من ذهب فجلس على المنبر يوما فنزعه وقال اني كنت البس هذا الخاتم واجعل فصه من باطن كفي والله لا البسه ابداً ونبذه فنبذ الناس خواتيمهم . وقيل له لما اراد ان يكتب الى قيصر انهم لا يقرأون الكتاب إلا إذا كان مختوما فاتخذ خاتما من فضة لونقش عليه (محمد رسول الله) وقال للناس قد صنعت خاتما فلا ينقش احد على نقشه . ولما مات استعمله ابو بكر ثم استعمله عمر من بعده ثم عثمان . وسقط من يد عثمان في بئر فاتخذ خاتما آخر نقش عليه نفس النقش [9] .

---

(١) ١٧-١٨ (٢) ١٩ — ٢٠ (٣) ٢٠ — ٢١ (٤) ٢٢ (٥) ٢٣ — ٢٤ (٦) ٢٤ (٧) ٢٦
(٨) ابن سعد ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٣٠ (٩) ابن سعد ج ٣ ص٣ — ١١ والبلاذري ص ٤٦٧

٢١ – وقد عرف من اسماء الذين كتبوا الوحي والعهود والرسائل للنبي ﷺ علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن سعد بن ابي سرح والمغيرة بن شعبة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وحنظلة بن الربيع وابي بن كعب وجهيم بن الصلت والحصين النمري [١] .

٢٢ – وكان يعجبه الحلو والعسل والدباء (القرع) وكان احب الطعام اليه الثريد من الخبز والثريد من التمر. وكان يجمع بين الرطب والطبيخ . وقلما كان ينال ما يحبه ويعجبه الا ان يهدى اليه . وكان اكثر طعامه وطعام اهله اللبن يحلب لهم من لقاح من الابل ومنائح من الغنم خاصة به وكان خبزه الشعير . ولقد اهدي اليه صحفة من نقى اي من دقيق ابيض فقال ما هذا الطعام ما رأيته . وجيء اليه بسويق لوز فقال اخروه عني هذا شراب المترفين .

ولقد روي عن عائشة ام المؤمنين انه كان يأتي على رسول الله اربعة اشهر لا يشبع بها من خبز بر بل روي عنها قولها ما شبع آل محمد غداء وعشاء من خبز الشعير ثلاثة ايام متتابعات حتى لحق بالله . وكان يمر بآل رسول الله هلال ثم هلال ثم هلال لا يوقد في بيوته نار لا لخبز ولا لطبيخ ويعيشون على التمر والماء ولقد سئلت حفصة ام المؤمنين عن ارفع طعام ناله رسول الله عندها فقالت خبزنا خبزة شعير فصبينا عليها وهي حارة اسفل عكة فجعلناها هشة دسمة فأكل منها وتطعم . وسئلت اي مبسط كان يبسطه عندك اوطأ قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه وكان يعاف من الثوم والبصل ولا ينهى عنها ويقول اني اناجي من لا تناجون [٢] صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦٤ (٢) ابن سعد ج ٢ ص ١٥٥ – ١٧٠ واشهر مشاهير الاسلام ص ٤٢٦ – ٤٢٧

خاتمة في الرسالة المحمدية

كان من مظاهر رحمة الله بالعالمين ان اوحى الله الى رسوله وألهمه قبل وفاته كل ما اقتضته حكمته من قرآن وسنن قولية وفعلية كمل بها دين الاسلام الذي رشح ليكون دين الانسانية جمعاء ويظهره على الدين كله فامتلأ بهما الفراغ العظيم بفقد الرسول الاعظم .

ولقد كان النبي ﷺ يتوقع ان ينتقل الى الرفيق الاعلى بدون تأخير فنبه الى ذلك في خطبة حجة الوداع وهتف بالمسلمين (اني تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي ابداً كتاب الله وسنتي) وتـــلا قول الله (اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) .

ولقد احتوى كتاب الله من التنظيم والتوجيه والتشريع والتلقين والتخطيط الاخلاقي والاجتماعي والقضائي والجهادي والتبشيري والاقتصادي والسياسي والمعاشي واحتوت سنة النبي القولية والفعلية من الشرح والايضاح والتفسير والتخطيط والتوجيه والتلقين في تلك النواحي كذلك ما فيه حقا ضمان قيام المجتمع الانساني الاسلامي على اقوى الاسس واتمها واعدلها وضمان عدم ضلال المسلمين ابداً اذا ما تمسكوا بهما برغم ما يعيده المغرضون والاغيار ويبدونه من اقوال ومزاعم لا تصمد امام النور الوهاج ولا تلبث ان يبدو عوارها وغرضها ومجانبتها للحق وعدم الفهم الصحيح او سوء الفهم والتأويل حينما يدقق المنصف في فصول كتاب الله والصحيح من سنة رسول الله مما هو في متناول الناس جميعا تدقيقا مجرداً مـــن المكابرة والعناد وسوء النية مندفعا بالرغبة في الحق والحقيقة وتحقيق مصلحة الانسانـــية في مختلف مقاصدها .

ولقد كان القرآن مظهر وعد الله ومعجزته في قوله (إنا نحن نزلـــنا الذكر وانا له لحافظون ٩ سورة الحجر) حيث كان يدون حين نزوله ثم يرتب بأمر النبي وارشاده . وكان النبي وكثير من اصحابه يحفظونه غيبا ويتلونه بنفس الاداء الذي سمعوه من النبي وكثير منهم اتخذوا لأنفسهم مصاحف . وسارع ابو بكر خليفة النبي بعد توليه الامر بمدة قليلة بالتعاون مع كبار اصحاب رسول الله وعلماء القرآن وكتاب الوحي منهم الى تحرير نسخة مضبوطة وحفظها عنده لتكون الامام والمرجع الرسمي لنصوص القرآن وسوره . ولما مات انتقل المصحف الذي سمي بالربعة الى عهدة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . ولما تولى عثمان بن

عفان بعده وتفرق اصحاب رسول الله والمسلمون في الاقطار وصاروا ينسخون مصاحفهم عن بعضهم بأهجية متنوعة اخذوا يختلفون في القراءة والاداء فأمر عثمان بنسخ نسخ عديدة من الربعة التي كانت في عهدة ام المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب باملاء واحد لتوحيد قراءة القرآن وكتابته وارسلها الى العواصم الاسلامية وامر المسلمين بنسخ مصاحفهم عنها وابادة ما عداها وبذلك حفظ القرآن سليما كما تلاه النبي ودون ورتب من عهد النبي . فكان وظل وسيبقى الى الابد المورد الصافي الفياض الذي يستطيع ان يرد اليه كل ذي عقل وقلب واذعان مجرد عن الهوى والمكابرة من اي نحـــلة كان ليجد فيه اسس ذلك التنظيم الباهر المتنوع المجالات الضامن لكل انواع السعادة والخير والهدى للانسانية في كل ظرف ومكان وفي الدنيا والآخرة معا .

ولقد قيض الله عدداً كبيراً من رجال العلم المؤمنين المخلصين فبذلوا جهودهم العـــظيمة المبرورة في تمحيص ما روي عن النبي ﷺ من سنن قولية وفعلية وتثبيت كثير منها بالرواة الصادقين المعدلين يبدو خلالها من النور النبوي ما يشهد بصحتها كل الصحة وما يجد فيهـا المتمعن من الحكمة والهداية والتشريع والتوجيه والتلقين في شؤون الدنيا والآخرة مايغدو بدوره مورداً صافيا من موارد الشريعة الاسلامية من غير تعارض ولا تناقض في حال، مع نصوص القرآن وتلقيناته وتوجيهاته وخطوطه العامة

ولقد زعم المستشرقون فيما زعموا ان الجانب الاخلاقي والروحي من الرسالة الاسلامية قد اهمل بعد الهجرة وان النبي ﷺ انقلب الى حاكم سياسي وحربي . وان المادية والغنيمة كانت العامل الاقوى فيما وفق النبي الى اقامته من بنيان وسلطان . وقد املى هذا الزعم الغرض ومجانبة الحق او عدم الفهم الصحيح للقرآن لأنه لا يلبث ان ينهار حينما يدقق في القرآن حيث يبدو ان جل ما كان في المدينة من اعمال وتشريع وتنظيم قد احتوى القرآن المكي نواه وان التشريع المدني انما اسبغ عليه صيغة التنفيذ والاجراء مما هو طبيعي ومتسق مع تطور السيرة النبوية . وان الاسلام لم يكن دينا روحيا وتعبديا وعقائديا فحسب وانما كان دينا ونظاما ودولة في الوقت نفسه وان نوى هذا كما قلنا قد جاء في القرآن المكي . وان مزاعم دافع الغنيمة والمادية وتأثيرهما تنهار حينما يدقق في آيات القرآن واحاديث النبي وسيرته مما مر منه امثلة كثيرة في مناسبات عديدة سابقة .

ولقد احاط كتاب الله وسنة رسوله الدولة الاسلامية التي كان الرسول الاعـظم اول رئيس لها بكل ما من شأنه تحقيق العدل والكرامة والمصلحة والحرية والشورى والكفاية

الخلقية والاجتماعية كما احاطها المجتمع الاسلامي بكل ما من شأنه تحقيق التضامن والتعاون والتكافل في كل ما فيه خير وحق وبر ورحمة ومعروف ومصلحة وضد كل ما فيه شر وفساد وبغي وضرر، ورسما للانسان المسلم من الحدود والرسوم كل ما من شأنه ان يجعله الانسان المثالي السعيد في اخلاقه وسلوكه الشخصي والاجتماعي كما رسما للدعوة الاسلامية من الخطط وجهزاها من عناصر الاستجابة بكل ما من شأنه ضمان انتشارها حرة طليقة سحماء فكان من كل ذلك ما شهده الدهر من مظاهر وآثار مثالية للدولة والمجتمع والفرد والكرامة والقوة والقوة والانتشار والحق والعدل والتكافل والتعاون في زمن النبي وبعده الى امد غير قصير.

وبرغم ما طرأ على الاسلام والمسلمين من طوارىء مؤلمة متنوعة المظاهر لا تمت في حقيقتها الى منابع الاسلام الصافية فإن من شأن ما رسمته هذه المنابع للدولة والمجتمع والفرد والدعوة ان يعيد ذلك سيرته المثالية الاولى اذا ما عاد المسلمون فتمسكوا به كما نبه على ذلك رسولهم العظيم ﷺ.

وتصديقا لذلك رأينا ان نختم هذا الجزء بالقواعد المستخلصة من كتاب الله في شؤون الحياة الدنيا المختلفة والتي سميناها الدستور القرآني [1].

---

(١) اقتصرنا على ما هو مستخلص من القرآن من قواعد لان القرآن لم يشب بأي شائبة وهو محدود بين دفتي المصحف الثابت اليقيني عن النبي صلى الله عليه وسلم في حين ان الاحاديث المروية عن النبي قد شابها شوائب كثيرة وليست محدودة ولا محصورة. والصحيح الثابت منها متفق مع مبادىء القرآن وتلقيناته وقواعده ورسومه وحدوده. والزيادة التي قد تكون فيها هي بمثابة شرح للقرآن وتفسير وتحديد.

الدستور القرآني

فصل تمهيدي

في نظرة القرآن الى الحياة الدنيا [1]

١ ـ ان الاسلام دين دنيا وسياسة واجتماع واخلاق وانسانية بقدر ما هو دين إيمان وعقيدة وآخرة .

٢ ـ ان حياة الانسان الدنيوية واعماله واخلاقه الشخصية والاجتماعية هي موضوع جوهري من مواضيع القرآن .

٣ ـ إن صلاح الانسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية والثقافية وصلاح المجتمع البشري وتوجيه الفرد والمجتمع الى ناحية الخير والحق والكمال في الحياه الدنيا هو هدف رئيسي من اهداف القرآن .

٤ ـ ان ما احتواه القرآن من آيات وفصول كثيرة جداً وبمتنوع الاساليب في صدد حياة الانسان المتنوعة الوجهات ومعالجة الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأسروية والاخلاقية والشخصية تشريعاً وتلقيناً وتقريراً ينطوي على دلالة حاسمة على اهتمام القرآن لشؤون الحياة الدنيا اهتماماً بالغاً واعتباره إياها موضوعا جوهريا .

٥ ـ ان الحياة الاخروية وما فيها من ثواب وعقاب وما جاء في القرآن في صددها من وعد ووعيد وترغيب وترهيب بالاضافة إلى ما فيها من الحقيقة الايمانية والحكمة الربانية قد جاءت لتكون أيضا وازعا في سير الانسان في الحياة الدنيا ورادعا يردعه عن الاثم والشر وحافزاً يدفعه إلى الخير والعدل والحق والتعاون والصلاح والاصلاح والسلام في الحياة الدنيا .

٦ ـ ان المبادىء الايمانية والتكاليف التعبدية بالاضافة إلى ما فيها من واجبات نحو الله

---

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني في شؤون الحياة ص ١٧ ـ ٨٤ ففيها الآيات التي استندنا اليها في استخلاص هذه القواعد وشرحها .

قد انطوت ايضا على مقاصد اصلاحية للانسان في حياته الدنيا من اخلاقية واجتماعية ونفسية وتحررية .

٧ ـ لم يهدف القرآن قط الى منع المسلمين من الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا وخيراتها وزينتها وقوى الكون الظاهرة والخفية والانتفاع بها ولا الى نفض أيديهم مما خلق الله فيها ولا الى تعطيل مواهبهم عن الانتفاع من سننه فيهـــا بل حث على ذلك واستنكر تحريمه والانكماش منه وانما جعله في نطاق الطيب الحلال والحق والقصد والاعتدال .

٨ ـ ان ما جاء في القرآن من آيات احتوت تهوينا لشأن الحياة الدنيا ومتاعها انما جاء في سياق او بنصوص تدل على انها استهدفت مقاصد سامية اخرى لا تمت الى قصد حمل المسلمين على عدم اخذهم بنصيبهم من الدنيا واستمتاعهم بطيباتها وزينتها وانتفاعهم بما في الكون وبما في أنفسهم من قوى الله وسننه من مثل مكافحة الظلم والبغي ومقابلة الاعتداء بمثله والدفاع عن حرية الدعوة والانفاق في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصر دين الله وعدم خشية احد او شيء والاهتمام به في سبيل ذلك .

٩ ـ ان الله قد وعد المسلمين الصالحين بتبويئهم الدنيا وتمكينهم في الأرض واستخلافهم عليها ليعبدوا الله وحده ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر .

١٠ ـ ان المسلمين مدعوون الى الاهتمام للحياة الدنيا والانتفاع بخيراتها وطيباتها ونواميسها واعمال مواهبهم وعقولهم فيها . واعداد انفسهم لذلك بكل وسيلة من وسائل العلم والمعرفة. والملازمة بين الايمان والعمل الصالح الذي من اهمه العمل على اعلاء كلمة الله وشرائعه والتزام العدل والبر والخير والحق . واجتناب الاثم والشر والباطل والبغي . والتعـــاون في البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليضمنوا لانفسهم كأفراد ولمجتمعهم ككيان القوة والعزة والكرامة والهيبة والسعادة والتضامن والتمكن والطمأنينة والعدل والحق والرفاه في الحياة الدنيا .

١١ ـ ان من واجب المسلمين الصالحين ان يتعاونوا على اشاعة تعاليم القرآن على وجهها الحق ومكافحة ما تركته عصور الجمود والجـــهل في سواد المسلمين الاعظم من آثار جعلتهم يسيئون فهم تلك التعاليم.

الباب الاول

في النظام السياسي

الفصل الاول [1]

في

نظام الدولة

١٢ – ان القرآن قد أقر قيام دولة للمسلمين يتولاها الصالحون الاكفاء منهم . وواجب على المسلمين اطاعتهم والنصيحة لهم وعدم خيانتهم . وهو صريح الدلالة على ان المسلم غير مكلف دينيا بالخضوع والطاعة لغير المسلم .

١٣ – ان هناك صفات وشروطا ينبغي ان تتوفر في من يتولى امر المسلمين كالرفق واللين وحسن المعاملة والبعد عن الغلظة والفظاظة والاعنات والحرص على مصلحة المسلمين والشعور معهم في سرائهم وضرائهم والاغضاء عن اخطائهم والعفو عن جاهليهم والرحمة والرأفة بضعفائهم وفقرائهم والاستعداد لمشاورتهم في شؤون الدولة .

١٤ – يشترط في الطاعة الواجبة على المسلمين لأولي الأمر منهم ان تكون في المعروف. اي فيما كان صالحا نافعا فيه خير وبر واحسان ومصلحة وحياة وعدل وقوة وكرامة وعزة للمسلمين وما كان متعارفا انه كذلك بين العارفين وفي نطاق امر به القرآن واحله ونوه بخيره وصلاحه وما امر به النبي عليه السلام ودعا اليه وحبذه فيما هو صحيح ثابت من قوله وفعله .

١٥ – ان ما يحق لأولي الأمر ان يدعوا اليه المسلمين ويطلبوا منهم الطاعة فيه والنصر عليه والتضامن والتعاون معهم فيه هو ما كان للمسلمين فيه مصلحة وفائدة وحياة .

١٦ – ما دام انه يشترط في اولي الأمر أن لا يدعوا المسلمين إلا إلى ما فيه حياتهم ومصلحتهم

---

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني ص ٥٠ – ١٢٦ ففيها الآيات التي استندنا اليها في استخلاص هذه القواعد وشرحها .

وما دام ان واجب الطاعة والتلبية والنصر والتضامن على المسلمين مشروط بما لا يكون فيه منكر ومعصية وضرر وبما يكون فيه مصلحة وفائدة وبر فإن هذا لا يتم فيما ليس فيه صريح قرآن وسنة إلا برأى ناضج يصدر عن مشورة اولي الحل والعقد والعلم من المسلمين فوجب عليهم ان يشاوروهم في ما يلم من امور ويعزمون عليه من عزائم .

١٧ ـ ان اشتراط طاعـــة المسلمين لأولي الأمر منهم بأن تكون في معروف وان لا تكون في معصية لا يعني ان لا يكون لكل فرد حق في الاجتهاد فيما هو المعروف وما هو المنكر وما هو الموافق وما هو المخالف وما هو النافع وما هو الضار وأن يجعل كل فرد نفسه في حل من اطاعة اي امر يتراءى له انه غير معروف وغير صالح او انـــه مخالف ومعصية وضرر اذا لم يكن هناك نصوص صريحة وصحيحة . فان ما ليس فيه ذلك يكون الرأي فيه لاولي الامر بمشورة اهل الرأي والعلم والبصيرة . وعلى سائر الناس الطاعة : وخلاف هذا هو خروج عن سبيل المسلمين وجماعتهم يستحق فاعله العقاب والتنكيل في الدنيا والآخرة .

١٨ ـ أن القرآن والسنة النبوية القولية والفعلية هما مرجع المسلمين في امورهم سواء في ذلك افرادهم ام اولو الامر منهم .

١٩ ـ في القرآن والسنة تشريعات محددة كما فيهما مبادىء وتلقينات وتوجيهات وخطوط عامة . ومرجعيتهما تشمل هذه كما تشمل تلك . فما لم يكن فيه نصوص واحكام صريحـــة ومحددة في القرآن والسنة يسار فيه في نطاق المبادىء والتلقينات والتوجيهات والخطوط العامة فيهما وبعد التدبر والتشاور في الامر من قبل اهل الحل والعقد والعلم . وليس فيهما ما يمنع المسلمين من السير فيما يجمع عليه خاصتهم واولو العلم والحل منهم فيما فيه مصلحة ومحاسن ولا من الاقتباس من الغير والسير على السوابق والمثل الصالحة والقياس على ما هو معروف من احداث ونصوص فيما ليس فيه نصوص صريحة معينة من كتاب وسنة وفي نطاق تلك المبادىء والتلقينات والتوجيهات والخطوط العامة . مع وجوب ملاحظة هامة وهي ان في القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات للتقريب والتمثيل وان الاحكام والاعمال والخطط يجب ان تستند في الدرجة الاولى الى الآيات المحكمة .

٢٠ ـ ان جميع السلطات في الدولة هي بيد رئيسهـــا . والسلطة في الدولة الاسلامية واحدة . وليس هناك سلطة ورآسة مدنية لحدة ودينية لحدة . لأن رئيس المسلمين هو بمثابة خليفة النبي فيهم والنبي كان يمارس الرآسة الديـــنية والمدنية معا على اعتبـــار الاسلام

دينا ونظاما .

٢١ – ان رئيس الدولة هو صاحب العزيمة والأمر المنفذ لما يتم عليه رأي اهـــل الحل والعقد والشأن الذين يجب عليه استشارتهم.

٢٢ – ان الدولة ليست كيانا منفصلا عن المسلمين او ان مصلحتـــها غير مصلحتهم . ولذلك وجب على المسلمين ان يتضامنوا مع اولي الامر في قمع الفتن واتقائها ويتعاونوا معهم على البر والتقوى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة الى الخير ويقوموا بواجبهم نحوها من الطاعة بالمعروف واداء الزكاة والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ويعتبروا انفسهم جزءاً غير متجزيء من كيان الدولة ويرعوا مصالحها ولا يخونوها ويحافظوا على وحدة صفوفهم ولا يتنازعوا ولا يتفرقوا .

٢٣ – ان بنيان الدولة يقوم على الرجل والمرأة معا . وهما متساويان فيها في الحقوق والواجبات إلا ما ورد فيه نص صريح من الشؤون الخاصة بطبيعة كل منها الجنسية .

٢٤ – ان للعرب شأنا متميزاً في الاسلام وبالتالي في نظام دولته السياسي . وان عــلى العرب ان يدركوا ذلك ويعتبروه شرفا يوجب عليهم خطير الواجبات نحو الاسلام والمسلمين لا يجوز ان يقصروا فيها ولا يهملوها او يسيئوا فهمها واستغلالها .

٢٥ – ان القرآن لم يحدد شكل رآسة الدولة . والنبي لم يفعل ذلك . وهذا يلهم انــه ترك الشكل لأهل الحل والعقد والعلم والشأن وظروف المسلمين . غير ان عدم قيام وارث نسبي للنبي في رآسة المسلمين السياسية بعده وقيام الخلافة الراشدية التي هي جمهوريـة طول الحيـــاة غير متسلسلة في اسرة يلهمان ان هـــذا الشكل هو افضل اشكال رآسة الدولة في الاسلام .

٢٦ – ان القرآن لم يحدد كيفية الشورى في الدولة ولا تشكيلات الدولة . وهذا يلهم ان ذلك قد ترك لأولي الأمر والحل والعقد والعلم وان من الجـــائز ان يتبدل ويتعدل ويتطور وفقا لمقتضيات الظروف والمصلحة مع لزومها في اي حال واعتبارها صفة وخصيصة من صفات وخصائص المسلمين .

٢٧ – ليس في القرآن نص صريح بوحدة الدولة في الاسلام . غير ان وحدة الدولة في حياة النبي والخلفاء الراشدين تلهم وجود كونها واحدة شاملة . ومن الامثلة الثابتة من عهد

النبي وخلفائه الراشدين يستدل على ان الدولة الواحدة كانت على اساس الاستقلال المحلي او اللامركزي . بحيث يصح ان يقال ان هذا النوع من الحكم هو اصلح الاشكال لبلاد العرب والاسلام تحت راية دولة واحدة . على ان هناك بعض قرائن قرآنية قد تجعل تعدد الدول في الاسلام سائغا . وعلى كل حال إذا لم يكن بد من التعدد فواجب المسلمين ودولهم على ما نص القرآن وألهمه ان يقيموا الصلات فيما بينهم على اساس الحق والاخوة والتضامن وتبادل المنفعة والثقة واصلاح البين بين المتنازعين منهم وردع الباغي والاجتماع على قتاله حتى يفيء الى امر الله والحق .

٢٨ ـ لأعمال المسلمين وتصرفاتهم ضابطان : الابتعاد عن كل منكر واثم وفاحشة وباطل ورجس وظلم وبغي واسراف . والتزام كل ما هو معروف وحق وخير وطيب وعدل واعتدال وهم في نطاق هذين الضابطين الرجال والنساء على السواء متمتعون بكامل حرياتهم في كل عمل وتصرف شخصيا كان ام اجتماعيا ام سياسيا ام فكريا ام ثقافيا ام مهنيا ام اقتصاديا . وليس للدولة ان تحد شيئا او تنتقص شيئا من ذلك ما دام في نطاق هذين الضابطين .

٢٩ ـ للمسلمين الرجال والنساء على السواء على الدولة حق الصيانة والحماية من العدوان والتسلط والأذى والضرر في اموالهم واعراضهم وممتلكاتهم ودمائهم وسلامتهم وحرية تصرفاتهم الشخصية والاجتماعية والسياسية والفكرية والمهنية والاقتصادية ما دامت في نطاق الضابطين المذكورين آنفا .

٣٠ ـ ان التلقينات القرآنية تخول الدولة وضع الانظمة الزاجرة ضد كل خبيث وشر وفسق واثم وضرر والميسرة لأسباب كل ما هو صالح ونافع وعدل وخير وحق .

٣١ ـ وهي تخول الدولة منع حق الاقوياء والاغنياء والزعماء من ظلم الضعفاء والفقراء والسواد او الاجحاف بهم او الانتقاص من حقوقهم وحرياتهم .

٣٢ ـ وهي تقتضيها التسوية بين جميع الناس في كل موقف ومطلب بقطع النظر عن تفاوت الدرجات وفي حدود القدرة والطاقة .

٣٣ ـ وهي تمنعها من تكليف احد بشيء لا يطيقه وتأمرها بالعفو عن تبعة ما يصدر من الناس بسائق الخطأ والنسيان والاكراه باستثناء ما فيه ضرر للغير يقدر بقدره من دم او مال وفقا للاحكام القرآنية والنبوية وصالح المسلمين .

٣٤ - وهي توجب عليها ضمان حق العمال والصناع والزراع قبل اصحاب الاعمال الى حد يكفل لهم الحياة المعقولة الكريمة . لأن هذا من مقتضيات العدل الاجتماعي والعدل في مختلف اشكاله من واجبات الدولة ومقاصدها .

٣٥ - وهي توجب عليها تيسير اسباب العمل للقادرين عليه ومساعدة العاجزين لأن ذلك من مقتضيات العدل الاجتماعي كذلك .

٣٦ - وهي تقرر حق الحيازة والملكية الفردية وتوجب على الدولة حمايته .

٣٧ - وهي تقر حق توريث اصحاب المال للمستحقين من ذوي قرباهم بعد اداء ما عليهم من دين وما وصوا به من وصايا وتوجب على الدولة حماية هذا الحق .

٣٨ - وهي تخولها الحد من التبذير والاسراف وحمل الناس على القصد والاعتدال بمختلف الاساليب .

٣٩ - وهي تخولها اخذ ما تقتضيه مصالح المسلمين والشؤون العامة من الأموال من القادرين بمختلف الاساليب .

٤٠ - وهي تخولها الحيلولة دون استعطاب الثروة في جانب واحد بمختلف الاساليب .

٤١ - ان صلات الدولة الاسلامية والمسلمين بغير المسلمين تكون على اربع حالات :

الاولى - حالة العداء . وهي الحالة التي يبدؤهم فيها الغير بالأذى والعدوان مما يدخل فيه الطعن في دينهم وعرقلة الدعوة اليه ومظاهرة اعدائهم عليهم بالقول والفعل واضطهاد افرادهم وفتنتهم عن دينهم والتآمر عليهم.

وواجب المسلمين هو مجاهدة المعتدي الباغي دون هوادة ولا ضعف ما أمكنهم ذلك . وبكل ما يملكون من وسائل وفي كل ظرف . الى ان ينتهي عن موقفه بعهد او توبة او خضوع . وبعبارة ثانية بما يرى فيه اولو الامر أمنا وطمأنينة .

الثانية - حالة العهد : وهي الحالة التي ارتبط بها المسلمون بغيرهم بعهد بدءاً او بعد حرب . وقامت بينهم حالة سلم وأمن . فواجب المسلمين هو احترام العهد والوفاء به ما احترمه الغير ووفي به ولم يبد منه نقص او نكث او خيانة او سوء نية او مظاهرة عدو او طعن في الاسلام وصد عنه فإذا بدا منه شيء من ذلك او انتهت مدة العهد ولم تتجدد انقلب

الموقف الى حالة عداء . وعلى المسلمين اعلان نقض العهد لمن يبدو منه شيء من ذلك او لم يجدد عهده المنتهي حتى يكون على بينة من امره .

الثالثة ـ حالة المسالمة : وهي حالة الفريق الذي كف يده ولسانه عن الاسلام والمسلمين ولم يقاتلهم ولم يتحرش بهم ولم يظاهر عليهم عدواً ولم يطعن في دينهم ولم يصد عنه فواجب المسلمين مقابلته بمثل موقفه والبر به والاقساط اليه .

الرابعة ـ حالة الخضوع : وهي حالة الفريق الذي خضع لسلطان المسلمين وأدى اليهم الجزية بدءاً او بعد حرب . فواجب المسلمين ان يوفوا له بما شرطوه من حماية وذمة وان يعتبروه مسالما من جهة ومعاهداً من جهة ما دام محافظا على حالته وشروطه .

٤٢ ـ وبناء على ما تقدم وبناء على النصوص القرآنية الصريحة والضمنية فليس للمسلمين ان يقاتلوا احداً ولا يتحرشوا بأحد بدءاً . وكل ما يسمح لهم به بدءاً ان يدعوا الناس الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وان يجادلوهم بالتي هي احسن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا اكراه في الدين .

٤٣ ـ لا يجوز للمسلمين ودولتهم ان يتبادلوا النصر والولاء والمودة مع اعدائهم بأي عذر كان ومهما تكن الظروف . كما لا يجوز لهم ان يخلطوا فيهم من ظهرت منه بوادر المكر والكيد والبغض لهم من غيرهم ولا يتخذونه بطانة لهم . وعليهم ان يكونوا منه على حذر .

٤٤ ـ للمسلمين ودولتهم ان يسايروا ظروفهم بحيث يجوز لهم ان يتقوا غيرهم ويدافعوه بالتي هي احسن إن كان في ذلك مصلحة لهم او دفع ضر عنهم . على ان لا يكون ذلك خضوعا ولا ولاء .

٤٥ ـ ان القرآن قد اولى المواثيق والعهود عناية عظيمة . فيجب على المسلمين ودولتهم بأن يلتزموا بها ما دام الآخر ملتزما بها وعليهم اذا شعروا منه نية غدر او خيانة ان يعلنوه بشعورهم وعزمهم على الوقوف منه نفس الموقف وان لا يأخذوه على غرة .

٤٦ ـ ان القرآن قد كرر اوامره ببذل النصح للاعداء ودعوتهم الى الحق والتوبة واشعارهم بأن الباب مفتوح لهم دوما . وبالجنوح الى السلم معهم حال يجنحون اليها . فعلى المسلمين ودولتهم التزام هذه الاوامر .

٤٧ – ان لغير المسلمين من رعايا الدولة الاسلامية والعرب والمستعربين منهم من باب أولى ما للمسلمين فيها من الحقوق والحريات المتنوعة المشروعة . وعليهم ما عليهم من الطاعة والاخلاص والأمانة والتضامن والتكاليف.

٤٨ – ان القرآن يقرر ان اليهود من اشد الناس عداوة للمسلمين وان النصارى أقربهم مودة اليهم . وعلى المسلمين ان يستلهموا هـــذا في نطاق مصالحهم وأمنـــهم وطمأنينتهم وكرامتهم .

الفصل الثاني

النظام المالي [1]

●

٤٩ – ان القرآن قد ذكر أربعة موارد مالية للدولة . وهي الزكاة وخمس الغنائم والفيء والجزية.وفرض الجهاد بالمال بالاضافة إلى الجهاد بالنفس. وفوض للنبي بأن يأخذ من الأغنياء صدقات تبرعية . وذكر مصارف الموارد الثلاثة الاولى . وبذلك يكون قد احتوى نصاً للنظام المالي للدولة الاسلامية .

٥٠ – ان الموارد المذكورة في القرآن لم ترد على سبيل الحصر . وليس فيه ما يمنع الدولة من تدبير موارد اخرى لبيت المال اذا ما اقتضت مصلحة المسلمين وحياتهم ذلك وكان ذلك ممكناً [2] .

٥١ – ان في القرآن ما يلهم عدم تحبيذ انحصار تداول الثروة في أيدي الاغنياء. وليس فيه ما يمنع من فرض ضرائب على الاغنياء بنسبة ثرواتهم وأرباحهم اذا ما اقتضت مصلحة المسلمين وحياتهم ذلك .

---

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني ص ١٣٤ – ١٥٤ ففيها الآيات القرآنية الواردة في هذا الشأن وشروحها

(٢) في السنن النبوية والراشدية امثلة . حيث فرض لبيت المال خمسة من الركاز اي المعادن المخبوءة في الأرض ومن صيد البحر كما جبي من التجار مكوس عن بضائعهم التي يأتون بها من البلاد الاجنبية .

٥٢ – ان القرآن اقر للفرد في الدولة بحق الحيازة والتملك فعلى الدولة احترام هذا الحق .

٥٣ – ان القرآن قد فرض الزكاة على مختلف اجناس الثروة . يؤديها صاحب المال من المسلمين والمسلمات . وقد أتمت السنة تشريعها فحددت النصاب لكل نوع ونسبة الزكاة وتدرجها فيه [1] .

٥٤ – ان القرآن يلهم ان الدولة هي التي تتولى جباية الزكاة عن جميع الاموال من الذين حقت عليهم وانفاقها وان لها ارغامهم على ادائها .

٥٥ – ويلهم ان الدولة هي التي تتولى قبض وصرف خمس الغنائم التي تغنم في حرب فعلية يتكلف المجاهدون فيها بجهاز انفسهم وركائبهم وسلاحهم ومؤونتهم . وكانت الاخماس الاربعة توزع على المجاهدين بناء على ذلك [2] .

ويذهب المذهب الشيعي استناداً الى اخلاق القرآن الى ان الغنائم تشمل غنائم الحرب ومكاسب السلم معاً ويوجب على جميعها الخمس للمصارف المعينة لها .

٥٦ – ويلهم ان الدولة هي التي تتولى قبض جميع الفيء وصرفه وهو الغنائم التي تتيسر للدولة بدون حرب يتكلف فيها المجاهدون بجهاز انفسهم وركائبهم وسلاحهم ومؤونتهم [3] .

---

(١) من شروط استحقاق الزكاة ان يحول الحول على ما يفيض عن نفقات صاحب المال اثناء الحول من ثروته ربحاً كان ام رأس مال . واوجب اداؤها عن النقود والعروض التجارية وثمرات الزرع والماشية . وجعل الحد الادنى في النقود والعروض ما قيمته عشرون ديناراً ذهبا او مئتا درهم فضة . وجعلت نسبة الزكاة بمعدل اثنين ونصف في المائة . وجعلت نسبة زكاة الزروع التي تسقى بماء المطر عشراً وبماء الري نصف العشر والحد الادنى لما يجب من غل الارض ما مقداره خمسة اوسق – ووزن الوسق ٣٢٠ رطلا اي نحو (١٥٠) كيلو . والحد الادنى للابل غير التجارية خمس حيث يجب عليها شاة ثم تزداد حسب الزيادة بنسبة معينة . والحد الادنى للبقر غير التجارية ثلاثين حيث يجب عليها تبيع اي عجل عمره سنة ثم تزداد . والحد الادنى للغنم اربعين حيث يجب عليها شاة . وهناك آثار مروية ان الابل والبقر والغنم التجارية تكون في مثابة نقود وعروض وفي حكمها . وهناك آثار مروية اخرى في صدد زكاة الزروع والثمار والمواشي والحلى والعروض والسلع لم نر ضرورة لاستقصائها .

(٢و٣) قد يلهم هذا ان غنائم الحرب التي تتكلف الدولة جميع نفقات المجاهدين فيها ويكون لهم مرتبات ثابتة تعود جميعها للدولة . لان جميع الفيء يعود للدولة لسبب ان المجاهدين لم يوجفوا في سبيله بخيل ولا ركاب كما جاء في آيات سورة الحشر التي احتوت تشريع الفيء هي (وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من

٥٧ – ويلهم ان الدولة هي التي تتولى قبض الجزية من الخاضعين لها من غير المسلمين نتيجة لحرب او رهبة منها وصرفها [١] .

٥٨ – لم يحدد القرآن والسنة مقادير الجهاد بالمال ولا الصدقات التبرعية . وقد ترك هذا لأولي الأمر يأخذون من القادرين ما تمس اليه الحاجة .

٥٩ – ان القرآن حدد مصارف الزكاة والفيء وخمس الغنائم . وهذه المصارف صنفان رئيسيان اولها مصالح الدولة والكيان الاسلامي ومصالح المسلمين العامة . وثانيهما الطبقات المعوزة والعاجزة . وقياساً على ذلك فالموارد والضرائب الاخرى التي يمكن ان تتيسر للدولة من الجزية وفريضة الجهاد بالمال والمكوس وغير ذلك تصرف للصنفين الرئيسيين المذكورين ايضاً .

٦٠ – ان للدولة تنظيم مساعدة الطبقات المعوزة والعاجزة المفروضة على بيت المال على الوجه المجدي الذي يضمن لأفرادها الكفاية .

٦١ – ان القرآن قد ضرب المثل الاعلى لسد حاجة الطبقة المعوزة والعاجزة في جعل مساعدتهم من نظام الدولة المالي . والدولة الاسلامية مدعوة دينا الى تحقيق هذا المثل فعلا على احسن وجه واشمله . وليس في القرآن ما يمنعها من تكثير مواردها وفرض الضرائب على القادرين بسبيل هذا الواجب القرآني .

خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم . . . ٦–٧)

(١) ليس في القرآن تحديد لها ولم يثبت ذلك في السنة حيث يلهم هذا ان ذلك ترك لتقدير اولي الامر وظروف الاحداث . وكانت مقاديرها متفاوتة حين ما فتح الله بلاد الشام ومصر والعراق وفارس وشمال افريقية على المسلمين . والسنة جرت على انه من الجائز مصالحة الكتابيين وغيرهم كالمجوس عليها .

الفصل الثالث

النظام القضائي [1]

أولا – مبادىء العدل والحق والانصاف بصورة عامه

٦٢ – ان فكرة العـــدل والحق والانصاف هي التي يجب ان تكون ضابط المسلمين ورائدهم في تعاملهم مع الناس مسلمين كانوا ام غير مسلمين .

٦٣ – ان التزام العدل والحق والانصاف واجب لا يجوز ان يتأثر بكراهية وبغضاء ولا بعاطفة غضب او لحمة قربى ونسب ولا بعصبية دين ومذهب وجنس .

٦٤ – ان الواجبين المذكورين يترتبان على المسلمين عامة وحكامهم وقضاتهم خاصة .

٦٥ – ان على حكام المسلمين وقضاتهم الحذر والتنبه تجاه ما يعمد اليه المتقاضون احيانا من كيد ومكر وتدليس واغراء وذلاقة . كما ان عليهم ان لا يتأثروا بالمظاهر الزائفـــة والأيمان الكاذبة . وان يكون همهم تحري الحق والعدل والانصاف والحكم به مجرداً عن كل شائبة واعتبار .

٦٦ – ان على المسلم ان يعتقد ان مخـالفته لمقتضيات الحق والعـدل والانصاف اثم ديني يعاقبه الله عليه . وان الله رقيب عليه ولو استطاع اخفاء اثمه عن الناس . وان عليه ان يجتنب الاثم والبغي والعدوان على مال اي انسان ودمه وعرضه وسائر حقوقه . ولا يظاهر غيره على ذلك مهما كانت الرابطة التي تربطه به ومهما كان بينه وبينه بغضاء وكراهية وخلاف في الجنس والمذهب والدين. وان عليه اذا بدر منه شيء من ذلك ان يسرع الى التوبة والاصلاح ورد الحق الى صاحبه .

٦٧ – ان قلب الحق باطلا والباطل حقاً والصاق الاثم والتهم بالابرياء من الجرائم الدينية الكبرى التي يستحق مقترفها سخط الله وغضبه وعذابه .

ثانياً – الاجراءات القضائية

٦٨ – لا يجوز للمسلم ان يتهرب من التقاضي امام القضاء الاسلامي او يفضل غيره عليه

---

(١) انظر كتابنا الدستور القرآني ص ١٦٠–٢١٦ ففيها الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها

وعليه ان يذعن له سواء أكان الحكم له ام عليه .

٦٩ – ان القضاء الاسلامي يستمد احكامه واساليبه من القرآن والسنة وتلقيناتها وملهاتها وخطوطها العامة . وليس ما يمنع من الاقتباس والسير على السوابق الصالحة فيما ليس فيه نصوص صريحة وفي نطاق تلقينات القرآن والسنة وخطوطها العامة .

٧٠ – يجب على المسلمين ان يوثقوا اعمالهم المالية والتجارية وبخاصة ديونهم بوثائق وسندات ودفاتر منعاً للشك والنزاع وعلى الكتاب ان يؤدوا مهمتهم بكل امانة وصدق وعدل .

٧١ – يجب على الذي عليه الحق ان يتقي الله فيعترف بما عليه بتمامه ويسجله ويوقع عليه ويجب على الذين يقومون مقام غيرهم وكالة او ولاية او وصاية ان يفعلوا ذلك ايضاً .

٧٢ – يجب توثيق المعاملات والوقائع والقضايا بشهود عدول . ويجب على الشهود ان يلبوا الدعوة للشهادة وان يؤدوا شهادتهم بكل امانة وصدق .

٧٣ – ان للكاتب والشاهد حق الحماية والصيانة والحرمة . فلا يجوز مضارتهما في أي حال وعلى القضاء ردع من يضارهما او يخل بواجب صدق الامانة والصدق منهما .

ثالثاً – مرجعية القضاء الاسلامي في القضايا المدنية

٧٤ – ان القضاء الاسلامي مرجع لحل وتنظيم الشؤون والمشاكل والخلافات المدنية من ديون ووصايا وهبات وحجر واثبات رشد ونكاح وطلاق وارث وما شاكلها .

رابعاً – القضاء لغير المسلمين في الدولة الاسلامية

٧٥ – ليس للقضاء الاسلامي ان يجبر الكتابيين على التقاضي امامه في امورهم الخاصة . واذا رغبوا في التقاضي امامه فالقضاء يكون وفقاً للشرع الاسلامي . وما جاء في المادة (٦٩) .

٧٦ – للكتابيين في الدولة الاسلامية ان يتقاضوا في امورهم الخاصة امام احبارهم ورهبانهم وقضاتهم على شرط ان يكون قضاؤهم مستمداً من التوراة والانجيل .

خامساً – القضايا الجزائية

٧٧ – ان ما استنكره الله ورسوله ونددا به ونهيا عنه وانذرا مقترفه بعذاب الله وغضبه

ونقمته من الافعال الشخصية والاجتماعية ولم يعين له في القرآن والسنة حدود وعقوبات يمكن ان يعد من الجرائم التي يحق للدولة ترتيب وايقاع العقوبات على مقترفيها بطريق القضاء بما يتناسب مع أثرها وخطورتها ومداها ويكون فيه الصيانة للافراد والمجتمع . وفي نطاق المادة ٦٩ السابقة .

٧٧ – ان ما يمكن ان يتعارف على انه منكر واثم بأعيانه او بخطوطه وأوصافه لدى الرأي العام من افعال شخصية واجتماعية يدخل في مفهوم المادة السابقة ونطاقها .

٧٨ – ان القرآن قد حرم قتل النفس بغير حق اطلاقاً . وفي الاطلاق القرآني ما يسوغ القول ان القصاص اي قتل القاتل العمد يوقع على القاتل بقطع النظر عن صفة القتيل الجنسية والدينية . غير ان هناك قرينة قرآنية تسوغ القول ان القصاص لا يوقع على القاتل إذا كان القتيل عدواً .

٧٩ – انه يلهم بأن لأهل القتيل العمد او بعضهم ان يعفوا عن الدم . وحينئذ تجب على القاتل دية المثل حسب المتعارف عليه .

٨٠ – إذا قتل مسلم مسلماً خطأً تجب دية المثل وكفارة توبة تعبدية هي عتق رقبة عبد مسلم او صيام شهرين متتابعين في حال عدم إمكان الاولى . ويحق لأهل القتيل ان يعفوا عن جميع الدية أو بعضها . واذا كان اهل القتيل غير مسلمين وبينهم وبين المسلمين ميثاق فالدية واجبة الاداء والكفارة واجبة الفعل. اما اذا كان اهله اعداء وهو مسلم فلا تجب الديةوتجب الكفارة . وروح القرآن تسوغ قياس المسالم والخاضع من غير المسلمين على المعاهد في هذه القضية .

٨١ – ان القرآن حدد حد جريمة السرقة قطع اليد سواء أكان السارق رجلا ام امرأة .

٨٢ – ان في القرآن ما يلهم ان السارق إذا تاب ورد المسروق او عوض عنه قبل القدرة عليه سقط عنه الحد [١] .

٨٣ – ان جريمة الزنى من اشد الجرائم فظاعة وتحريماً . وقوة إنكار القرآن لها وتحريمها واحدة بالنسبة للاحرار من الرجال والنساء على السواء .

---

(١) حددت السنة الحد الادنى للسرقة التي يجب فيها الحد . وهناك آثار بأن السارق لسد جوعه يعفى من الحد .

٨٤ ـ لا تثبت جريمة الزنى الا بشهادة أربعة شهود [1] .[أو بالاقرار وعدم رد التهمة التي يوجهها زوج الى زوجته بدون شهود .

٨٥ ـ إذا ثبتت جريمة الزنى يجلد الزاني والزانية مائة جلدة وهناك آثار يستند اليها جمهور العلماء تشدد عقوبة الزناة المتزوجين حيث توجب جلدهم مئة جلدة ورجمهم حتى الموت. وليس في القرآن نص في هذا . كما ان روح الآيات القرآنية تجعل هذا موضع نظر وتساؤل [2] .

٨٦ ـ اذا اتهم زوج زوجته بالزنى ولم يكن معه شهود واشهد الله على صدقـــه اربع مرات ورضي بلعنة الله عليه إذا كان كاذباً تكلف الزوجة بالرد على شهادتـــه بشهادة أربع شهادات بالله إنه كاذب . وبغضب الله عليها ان كان صادقاً . فان فعلت سقط عنها الحد وان لم تفعل اعتبر ذلـــك إقراراً وأقيم عليها الحد . وواضح من هذا انه في حالة وجود شهود لا يبقى محل للشهادة المتقابلة [3] .

٨٧ ـ ان القرآن جعل عقوبة الاماء الزانيات نصف عقوبة الحرائر [4] .

٨٨ ـ انه يلهم ان تزويج الزاني والتزوج بالزانية الذين تثبت عليهم جريمة الزنا ويقام عليهم الحد مكروه أشد الكره .

٨٩ ـ انه اوجب على من يتهم غيره بالزنا اثبات التهمة بأربعة شهود . فإن لم يفعل عد قاذفاً وحق عليه الحد وهو ثمانون جلدة وسقطت عدالته إلا إذا تاب واصلح بعد ذلك . ولا يشترط في جريمة القذف ان تكون في حضور المقذوف فيه ولا أن تكون بكلمات صريحة . فإنها تتحقق في الغياب والحضور وفي معرض الشتيمة والاخبار والرواية وبكلمات ضمنية على

---

(١) هناك آثار ان العلامة القاطعة كالحبل بدون زوج مما يثبت التهمة .

(٢) محصنا هذا الامر في كتابنا الدستور القرآني ص ١٩٣-١٩٥

(٣) من السنن النبوية ان يفرق بين الزوجين اذا شهدا كما نص القرآن . وتعرف هذه الشهادة المتقابلة بين الزوجين باللعان . وليس في القرآن ولا في السنة اشارة الى حالة رؤية الزوجة زوجها بزني في حالة الجرم المشهود او في معرفتها ذلك. والمتبادر ان هذا بسبب الفرق الذى لا ينكر بين حالتي الزوج والزوجة والذي يترتب عليه نتائج مختلفة ، كما ان المتبادر ان للزوجة رفع امر زوجها الزاني الى القضاء وأثبات الجريمة عليه وحينئذ يقام عليه الحد .

(٤) الذين يوجبون الرجم على الزناة المتزوجين لا يوجبونه على الامة المتزوجة . ويوجبون عليها خمسين جلدة . ويقولون ان الموت لا ينصف ويأخذون بالاخف .

شرط ان لا تتحمل غير معنى الزنى . والزوج الذي يتهم زوجته بالزنى ولم يؤيد تهمته بالشهادات المنصوص عليها يمكن ان يعد قاذفاً بالنسبة لزوجته وكذلك الزوجة بالنسبة لزوجها كما هو المتبادر .

٩٠ ـ يجب على من يعرف حادثة زنى ان لا يتسرع في الشهادة ونقل الخبر قبل ان يكون معه ثلاثة شهود آخرين . فإذا تقدم واحد او اثنان او ثلاثة للشهادة ولم يؤيدهم شهود يكمل العدد بهم اربعة عدّوا قاذفين على ما تلهمه روح القرآن وتؤيده الآثار النبوية المروية [1] .

٩١ ـ ان ما جاء في القرآن من ان العين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص قد جاء بصيغة الحكاية عن الشريعة التوراتية . والملهمات القرآنية لا تؤيد ان ذلك تشريع يجب على القضاء الاسلامي الاخذ به ولا تؤيد نظرية (شرع ماقبلنا شرع لنا) .

٩٢ ـ ليس في القرآن طريقة معينة لاثبات الجرائم عدا جريمة الزنى . وفي القرآن طريقة لاثبات المعاملات المدنية مثل الدين والوصية . وهي شهادة شاهدين عدلين . وليس ما يمنع ان يتبع هذا في اثبات الجرائم . والمأثور من السنن النبوية يؤيد ذلك . وليس ما يمنع الاخذ بطرق واساليب اخرى لأجل اثباتها أيضاً في نطاق مبادىء الحق والعدل العامة والتلقينات القرآنية والنبوية .

٩٣ ـ ان القضاء في الدولة هو المرجع في الجرائم الاربعة الرئيسية المذكورة وفي الجرائم الثانوية الاخرى .

سادساً ـ جرائم الفساد

٩٤ ـ ان التآمر مع الاعداء وموالاتهم والتجسس لهم وخيانة الدولة والمجتمع الاسلامي وإقلاق أمنه وطمأنينته واشاعة الفاحشة فيه والعيث في الأرض فساداً من افظع الجرائم

---

(١) ان حكمة ذلك وحكمة توقف ثبوت تهمة الزنا على اربعة شهود ظاهرة لان في ذلك ردعاً عن التهور والتسرع في قذف اعراض الناس واشاعة قالة السوء عنهم لما في ذلك من اقلاق أمن المجتمع والحياة الاسروية ومن ضرر في هذه الحياة ادبيا وماديا فاذا ما ورد اربعة شهود صار الاستهتار والعلنية او شبهها من مظاهر الحادث وانتفى الضرر الاجتماعي من شيوعه او خف وصار ايقاع الحد على مقترفي الجريمة من مصلحة المجتمع حتى يكون زاجراً ورادعاً .

المستنكرة في القرآن ، اشدها ضرراً وتستوجب العقوبات الدنيوية الشديدة فضلا عن عذاب الله الاخروي .

٩٥ – ان استغلال الفرص لتأمين المنافع الخاصة على حساب المجتمع وضرره أو ضرر الغير وعدم التضامن مع المسلمين في الأزمات والشدائد والنضال ، واللعب على الحبلين مع الدولة الاسلامية واعدائها وقبض اليد عن البذل في سبيل الله والتثبيط عن الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس والتبطيء عنه وبث الدعايات المقلقة والاشاعات الضارة ، والتهويش على القائمين بالمصالح العامة من الجرائم المنكرة التي تستحق العقوبة الدنيوية فضلا عن عذاب الله الاخروي .

٩٦ – ان اخافة المسلمين واقلاق امنهم والعدوان جهرة على اموالهم ودمائهم وقوافلهم والتمرد على اوامر الله ورسوله وتعطيلها من الجرائم المنكرة التي تستحق العقوبة الدنيوية فضلا عن عذاب الله الاخروي .

٩٧ – ان على الدولة واجب التنبيه الشديد لمرتكبي هذه الجرائم والمندمجين فيها عن علم والوقوف منهم موقف الشدة ووقاية المجتمع من شرهم .

٩٨ – أن العقوبات التي يمكن ان توقع على من حارب الله ورسوله وسعى في الارض فساداً هي القتل والصلب وقطع الايدي والارجل والنفي . وللدولة تقدير العقوبات الواجبة حسب اثر الجرم وخطورته ولها ان تتصرف مع المجرمين في نطاق المصلحة فتوقع عليهم العقوبة بدون هوادة او تنذرهم وترهبهم وتعظهم إذا رأت في ذلك خيراً [1] .

---

(١) هناك مأثورات نبوية وراشدية تذكر ان النبي وخلفاءه الراشدين كانوا يامرون بقتل بعض الذين يقترفون جرائم الفساد المذكورة وضربهم ونفيهم وحبسهم وتعزيرهم حسب المقتضى مما فيه حظة وتلقين .

الفصل الرابع

النظام الجهادي [1]

●

أولا ـ المبادىء والقواعد الاجرائية

٩٩ ـ ان الجهاد فرض على القادرين من المسلمين كلما دعت اليه الحاجة . وفرضيته تشمل الجهاد بالنفس والمال معاً . واذا كفى ان يقوم بعضهم فلا بأس . وإذا دعت الحاجة اليه فتقاعس عنه المسلمون او لم يكف ان يقوم به من قام به منهم اثم القاعدون عنه .

١٠٠ ـ ان الجهاد استهدف غايتين : الاولى دفع الظلم والبغي والاضطهاد عن المسلمين والانتقام ممن بادأهم بالعدوان والاذى ومقابلته بالمثل . والثانية تأمين حرية الدعوة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

١٠١ ـ ان الخيانة والغدر ونكث العهد وفتنة المسلمين عن دينهم والصد عن سبيل الله والحيلولة دون حرية الدعوة اليه والطعن في الدين الاسلامي ومظاهرة اعداء المسلمين عليهم وخيانتهم والكيد لهم من موجبات الجهاد .

١٠٢ ـ ليس الجهاد لاجبار الناس على الاسلام . لأن الدعوة الى الاسلام قامت على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن . ولأن القرآن قرر ان لا اكراه في الدين .

١٠٣ ـ في البلاد التي استقر كيانها وتوطد السلطان الاسلامي فيها يكون الجهاد بدعوة من أولي الأمر حينما يرون ذلك ضروريا . اما البلاد التي لا سلطان للمسلمين فيها ولا كيان مستقر لها والتي تسلط عليها غير المسلمين وساموا مسلميها الخسف والظلم فالجهاد واجب على هؤلاء دون ما حاجة الى دعوة من سلطان . حيث يتقدم اولو العزم والشأن فيهم ويدعون اخوانهم اليه فينفرون افراداً وجماعات ويتوسلون الى ارغام الظالمين وتقويض سلطانهم بكل وسيلة فإن تقاعسوا أثموا .

---

(١) من كتابنا الدستور القرآني ص ٢٢٤ـ٢٨٥ الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها .

١٠٤ - على المتمتعين بالأمن والسلطان من المسلمين ان لا يتوانوا في الجهـــاد في سبيل نصرة وانقاذ من يقع من اخوانهم تحت تسلط الأعداء وبغيهم وظلمهم . وان يتوسلوا الى ذلك بكل وسيلة فإذا قصروا أثموا .

١٠٥ - يجب على المسلمين قبل مباشرة القتال مع اعدائهم ان يبذلوا جهدهم في النصيحة والدعوة الى الكف عن البغي والظلم والغدر والعداء ولا يباشروا القتال إلا إذا أخفقت دعوتهم ونصيحتهم .

١٠٦ - ليس القتال للابادة . وانما هو لدفع الاذى والبغي وتأمين حرية الدعوة وحقوق المسلمين وأمنهم وحريتهم . ولا يجوز ان يتجاوز الانتقام والمقابلة الحد المعقول المماثل . ويجب ترك الباب مفتوحاً دائماً لمن ينتهي عن موقفه الباغي ويجنح الى السلم او يلقي السلاح ويعلن خضوعه . فإذا وقع هذا وجب الكف عن القتال إذا أمنت الخيانة والغدر وسوء النية .

١٠٧ - ليست الغنائم هدفاً من اهداف الجهاد . ولا يجوز ان تجعل كذلك كما لا يجوز التشدد مع الناس لهذا القصد . ويجب قبول ظواهرهم إذا جنحوا للخضوع او السلم او اظهروا الاسلام والتوبة وأمنت الخيانة والغدر وسوء النية .

١٠٨ - ليس الجهاد هو الحرب والقتال فقط . فكل جهد يؤدي الى ارهاب العدو ودفع أذاه واحباط كيده وحفظ هيبة المسلمين وحريتهم وحرية الدعوة الى الاسلام وتعـــاليمها واعداد القوة المرابطة هو جهاد فإذا تقاعس المسلمون عن ذلك أثموا فضلا عـــن تعريضهم أنفسهم وأمنهم ودعوتهم للخطر وبلادهم للدمار .

١٠٩ - ان امر الأسرى الذين يقعون في يد المسلمين في حروبهم مع اعدائهم بعد خضد شوكتهم منوط بما يراه أولو الأمر من المصلحة [١] .

١١٠ - ليس للمسلمين ان يبدأوا غيرهم بقتال وانما عليهم قتال من قاتلهم او اعتدى عليهم او اذاهم بصورة ما وبالقدر الذي فيه خضد شوكة العدو وارغامه واخضاعه .

---

(١) خطة القرآن المحكمة في الاسرى اطلاق سراحهم بعد ان تضع الحرب اوزارها اما بفداء واما منا بدون فداء . والمأثور من السنة جواز استرقاق الذين لا يدفعون فدية ولا يمن عليهم بدون فدية . وإذا أسلم الاسير قبل ان يحكم عليه بالاسترقاق يطلق بدون فداء ولا يسترق .

١١١ — ليس للأفراد أن يتدخلوا في سياسة الجهاد العليا أو يتناولوها بالجدل والاذاعة . وعليهم رفع ما يتصل بهم منها لأولي الأمر والطاعة لهؤلاء فيما يصدرونه من اوامر ويرونه من تدابير . ويجب عليهم اجتناب النزاع والخلاف وخاصة في ظروف الجهاد .

١١٢ — اذا رغب الطرف الثاني او بعض أفراده في استماع كلام الله ومعرفة شروط السلم او الاسلام او تبليغ بعض الأمور وطلب الأمان فعلى اولي الأمر منحه ما طلب وعليهم حمايته الى أن يعود الى مأمنه .

١١٣ — للمسلمين ان يتوسلوا بكل وسيلة . ويغتنموا كل فرصة لقهر اعدائهم وان يقاتلوهم في كل ظرف . وان لا يتحرجوا من مقابلتهم بالمثل عملا وظرفاً . وعليهم ان لا يهنوا في طلبهم والاستعداد لهم والحذر منهم والاحتفاظ بنظامهم وقواهم المعنوية مهما طرأ عليهم من الطوارىء حتى ولو دارت عليهم الدائره في بعض مواقفهم وقتل قائدهم الأعلى .

١١٤ — ان التقصير في واجب الجهاد بالمال والنفس والاستعدادوالمرابطة وارهاب العدو عدا انه اخلال بواجب ديني مستوجب لغضب الله فهو مؤد إلى التهلكة والفساد والذل واختلال نظام الاسلام والمسلمين . ومبرر لوقوف اولي الأمر ممن يبدو منهم ذلك موقف التأديب والتنكيل .

١١٥ — ان التثبيط والتعويق والتخلف والتقاعس عن الجهاد بالمال والنفس . والسعي في الفساد واثارة الفتنة والتمرد في ظروف الجهاد بنوع خاص عدا انه جريمة دينية تستحق عقوبة الله وغضبه وسخطه فهي جريمة سياسية تبرر لأولي الأمر ان يقفوا من اصحابها موقف التأديب والتنكيل كذلك .

١١٦ — ان لأولي الامر ان ينظموا طريقة النفرة الى الجهاد بالمال والنفس ومباشرته وإعداد العدة له والاستعداد له على الوجه الذي يرونه صالحاً وكفيلا بالقصد . ولهم بسبيل ذلك انتداب من يرونه قادراً على الجهاد ونافعاً في مختلف المجالات واخذ ما تمس الحاجة اليه من مال وعروض من القادرين .

١١٧ — ان لأولي الأمر ان يفرغوا فريقاً للجهاد والمرابطة بصورة دائمة كما ان لجماعات المسلمين ان يفعلوا ذلك حينما تمس الحاجة وتقضي المصلحة . وعليهم أن يكفلوا لهم نفقاتهم ويكفوهم مؤونة التكسب .

١١٨ – ليس بين المسلمين قتال . فإذا وقع فهو بغي . ويجب على الفريق الذي ليس طرفاً في النزاع ان ينصر الفريق المبغي عليه بالسلاح الى ان يذعن الباغي للحق . وتبعاً لهذا فليس بين المسلمين أسرى حرب واسترقاق ومن وفداء .

ثانياً – المبادىء الايمانية الجهادية

١١٩ - ان المسلم باسلامه يكون قد عقد عقداً مع الله باع به نفسه له للجهاد في سبيله بالمال والنفس واشترى الله منه ذلك بالجنة . فيجب عليه كعقيدة دينية ان يوفي بما عاهد الله عليه وينفر الى الجهاد كلما دعا الداعي اليه وان يعتقد ان الله موف له بوعده الحق .

١٢٠ – يجب على المسلم ان يعتقد ان الله قد كتب على نفسه نصرة المؤمنين . وانه ناصر من ينصره حقاً في ما يباشره من جهاد في سبيله بماله ونفسه من اجل الدفاع عن الحق وكفاح الظلم وضمان الحرية للدعوة الى سبيل الله .

١٢١ – يجب على المسلم ان يعتقد انه فائز ورابح في جهاده على كل حال . فإن بقي حياً فتكون له حسنى الجهاد وثوابه وكرامته . وان قتل فتكون له حسنى الشهادة . وان كتب النصر للمسلمين فيكون الفتح والعزة لهم بالاضافة الى تلك الحسنيين . وان لم يكتب لهم النصر فيكون ابتلاء واختباراً ربانياً يثاب الصابرون عليهما .

١٢٢ – يجب على المسلم ان يعتقد ان ايمانه وصدقه وصبره تحت الاختبار . وان الله قد يبتليه بالخوف والجوع والنقص بالأموال والأنفس والثمرات في سبيل الله . وان عليه ان يقابل ذلك بالصبر والصمود وتحمل المكاره وان لا يضعف في طلب العدو وارغامه وان لا يهن في جهاده . وان يعتقد انه لا يصيبه ظمأ ولا نصب ولا جوع ولا يطأ موطناً يغيظ به العدو ولا ينفق شيئاً من المال قليلا او كثيراً إلا كتبه الله له عملا صالحا واثابه عليه بأحسن الثواب .

١٢٣ – يجب على المسلم ان يعتقد ان شهداء الجهاد هم احياء مكرمون عند ربهم .

١٢٤ – يجب على المسلم ان يعتقد ان الاجل لايتقدم لحظة ولا يتأخر لحظة عما هو مقرر في علم الله . وانه حينما يدركه اجله يموت : سواء اكان في بيته ام عمله ام ساحة القتال ام في حصن حصين . وان الجهاد لا يقدم من اجله وان تجنبه لا يؤخر منه .

١٢٥ – ان المسلم لا يكون مسلما حقا صادق الايمان إلا اذا كان الله ورسوله والجهاد

بالمال والنفس في سبيل الله احب اليه من كل شيء حتى من ابيه وابنه واخيه وزوجته وعشيرته وتجارته وامواله وبلده . وإلا إذا جاهد بماله ونفسه برضاء وطيب نفس واقدام .

١٢٦ – ان الذي يسارع الى تلبية داعي الجهاد في اوقات الشدة والحرج اعظم درجة ممن يجاهد في اوقات السعة وتباشير النصر .

١٢٧ – ان الذي يفر من امام العدو لغير غاية حربية يكون قد ارتكب جريمة دينية عظمى .

١٢٨ – ان المسلم حينما ينزل الى ميدان الجهاد يكون امام الله وامام عدوه وعدو الله ويكون قد وضع نفسه في ميزان الاختبار بالخشية من عدوه او من الله . ومن الواجب عليه دينا ان يختار الخشية من الله والاستماتة في سبيله .

١٢٩ – يجب على المسلم ان يعتقد ان جهاده في سبيل الله والحق وان الله وليه وناصره . وان عدوه مسير بالهوى ووسوسة الشيطان والباطل وان الله خاذله ومنكسه . وان له التفوق على عدوه بالمدد الرباني وانه مستطيع بهذا ان يغلب عدداً أكثر من عدده إذا صدق في جهاده واخلص في نيته .

١٣٠ – ان التثبيط عن الجهاد بالمال والنفس والتخلف عنه عند الدعوة إليه والتقصير فيه والجزع منه والتراجع عنه وعرقلة سيره ووسائله واشاعة الوساوس والدسائس والاخبار الموهنة في ظروفه ووضع العقبات في طريقه جرائم دينية عظمى يستحق مقترفوها والمندمجون فيها مقت الله وغضبه وعقوبته

الفصل الخامس

الدعوة الى سبيل الله
او
النظام التبشيري [1]

●

١٣١ — ان سبيل الله هي تعاليم الله والنبي وبعبارة ثانية هي الدعوة الاسلامية .

١٣٢ — ان الدعوة الى الاسلام ونشر تعاليمه الايمانية والاخلاقية والاجتماعية والانسانية بين المسلمين وغيرهم مما يجب على الدولة والمسلمين عامة . والتقصير في ذلك هو تقصير في واجب ديني خطير .

١٣٣ — ان خطة الدعوة إلى سبيل الله هي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن من دون اكراه ولا عنف .

١٣٤ — ان من حق الدولة الاسلامية والمسلمين ان يقفوا من الذين يشذون في الجدل ويتجاوزون الحسنى فيه الى البغي والظلم موقف المثل .

١٣٥ — ان على الدولة واجب الانفاق على نشر الدعوة الاسلامية ومبادئها وصيانتها واعلاء شأنها ورد البغاة عنها والطاغين فيها والصادق عنها مما يدخل في بيت المال من موارد .

١٣٦ — ان على الدولة الاسلامية تنظيم الدعوة الى الاسلام ونشر مبادئها تنظيما يضمن لها النجاح .

١٣٧ — ان الواجب المذكور واجب على عامة المسلمين وخاصتهم كل في حدود امكانه وقدرته . وعلى المسلمين بالاضافة إلى ما يؤدونه لبيت المال ان يتبرعوا في كل وقت ومناسبة بما تسعه قدرتهم للانفاق على الدعوة ونشر مبادئها وتنظيمها وحمايتها وكفالة حريتها . والتقصير في ذلك هو تقصير في واجب ديني خطير .

١٣٨ — ان من اهم اركان الدعوة الى سبيل الله عموم الرسالة المحمدية .

---

(١) انظر الآيات القرآنية في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٢٩٢-٣٦٢

١٣٩ ـ ان عناية القرآن باليهودية والنصرانية واصحابها تنطوي على تقرير كون ذلك من الأركان المهمة للدعوة الى سبيل الله لاتحاد الأسلام مع الديانتين في المصدر والأسس ولما يترتب على اتحاد اصحاب الديانات الثلاث تحت راية القرآن آخر كتب الله المنزلة ورسالة محمد خاتم رسل الله من نجاح الدعوة الى سبيل الله واكتساحها غيرها .

١٤٠ ـ ان عناية القرآن بالعقل ودعوته المخاطبين والسامعين إلى التفكير والتدبر وحسن الاختيار تنطوي على تقرير كونها ركناً مهما من أركان الدعوة الى سبيل الله .

١٤١ ـ ان اسلوب القرآن فيدعوةالناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنه والجدال بالتي هي أحسن والبرهان والاشفاق وتوجيه الخطاب إلى العقل والقلب معـــاً ينطوي على تقرير كونه ركناً من أركان الدعوة الى سبيل الله .

١٤٢ ـ ان بساطة الدعوة الاسلامية وصفاءها وخلوها من التعقيد وعدم وجود ما ينافي فطرة الله التي فطر الناس عليها فيها واحتواءها اشرف المثل واقوى الحوافز للخـــير والحق والعدل والبر والكرامة والانطلاق واستهدافها اقامة اخاء انساني عـــام يقوم على الحرية والمساواة وبنيان اجتماعي عام يقوم على التعاون والتضامن وكيان سياسي عـــام يقوم على المصلحة العامة على ما قرره القرآن مما يؤهلها للظهور على الدين كله وغدوهـا دين الانسانية العام .

١٤٣ ـ ان القرآن هتف بالمسلمين بأن يدخلوا في السلم كافة حيث ينطوي في هذا توجيه رباني بأن يكون السلام والمسالمة والمحاسنة واسلام النفس لله وحده هو ما يجب ان تكون دعوة الاسلام وخطة المسلمين . وهذا عنصر هام من عناصر الدعوة لأنه يفسح المجال بسهولة لانضواء الناس اليها على اختلاف الاقطار والاجناس والألوان والنحل .

١٤٤ ـ ان قدسية اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والسنة والعبادات مما يؤهلها للانتشار بين المسلمين على اختلاف الاقطار والاجناس وغدوها لغة المسلمين العامة ووسيلة من وسائل توطيد الوحدة والأخوة بينهم

١٤٥ ـ ان التنظيم والجد اللذين يترتبان على الدولة كفيلان بتحقيق ما وعد القرآن به من اظهار الاسلام على الدين كله .

١٤٦ ـ ان الدعوة الى سبيل الله لا تقتصر على نشر الاسلام بين غير المسلمين . بل تشمل

نشر حقائق الاسلام ومبادئه بين المسلمين حتى يؤمنوا حق الايمان ويفهموا حقائق الاسلام حق الفهم ويعملوا الاعمال الصالحة التي تشمل كل ما فيه قوة وخير وصلاح وبر وتعاون وعدل واحسان ويتجنبوا الاعمال السيئة التي تشمل كل ما يضاد ذلك وبذلك يتحقق وعد الله لهم بالقوة والتمكين والبركات [١] .

---

(١) يضاف الى هذه المواد المقتبسه من القرآن هذه المواد المقتبسة من التاريخ الاسلامي :

١ - ان سير التاريخ والحوادث في عهد النبي عليه السلام وبعده مما يؤيد نجاح الدعوة الى سبيل الله في مختلف الاقطار وبين مختلف الاجناس والالوان والنحل .

٢ - ان الحروب النبوية والفتوحات الاسلامية لم تستهدف فرض الدعوة وانما استهدفت رد العدوان والاذى وضمان حرية الدعوة . وان بقاء جماعات من اصحاب الاديان الاخرى على مدى الاحقاب وفي ظروف قوة السلطان الاسلامي العربي العظمى على اديانهم ومعابدهم وتقاليدهم دليل حاسم على ان الدعوة كانت ضمن الخطة القرآنية المثلى وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن وترك المسالمين والحياديين والمعاهدين والخاضعين وشأنهم إذا ارادوا الاحتفاظ بدينهم مع البر بهم والاقساط اليهم وإذا كان التاريخ سجل شذوذاً فانه لا يمت بسبب إلى هدى القرآن والسنة النبوية .

٣ - إن الدعوة الاسلامية لم تنتشر في ظروف قوة السلطان العربي الاسلامي فحسب بل انتشرت وكسبت مئات الملايين في مختلف انحاء الارض في ظروف ضعفه ايضا مما ينطوي فيه دليل حاسم على قوة عناصر الدعوة وعظمتها لذاتها .

٤ - ان حالة المسلمين الحاضرة من ضعف وجهل وفتور واستخذاء لا يمكن ان تمت الى هدى القرآن والسنة النبوية الذي ينطوي على كل اسباب القوة والمعرفة والحق والكرامة والنشاط والحيوية والسؤدد والرقي والحرية . وإنما هي راجعة إلى اسباب وعوامل طارئة ومتنوعة اخرى . ومنها او من اشدها سوء فهم ذلك الهدى وسوء تأويله والانحراف عنه .

الباب الثاني

النظام الاجتماعي

الفصل الاول [1]

في التضامن الاجتماعي

١٤٧ – ان على المسلمين كافة افراد وجماعات كل فريق في نطاق قدرته وامكانه ان يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتضامن فيه بالاضافة الى واجب الدولة والقائمين بأمرها من ذلك .

١٤٨ – ان القرآن يقرر ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب لازب وعنوان ملازم للمسلم الصادق يمارسه حيثما يمكنه الله في الارض وان المسلمين الصادقين من اجل ذلك كانوا خير امة اخرجت للناس .

١٤٩ – ان التقصير في هذا الواجب وفي التضامن فيه اثم ديني يستحق سخط الله فضلا عن انه مؤد الى اهمال المعروف واستشراء المنكر مما فيه ضرر كلي للمجتمع ونقض لصفة المسلم الصادق .

١٥٠ – ان كلمتي المعروف والمنكر عامتان واسعتان . يمكن ان تشمل أولاهما كل ما عرف انه من فاضل الأخلاق والصفات والعادات والأعمال الشخصية والاجتماعية والانسانية ونافعها وحسنها ومستحبها . وثانيتهما كلما عرف انه من رذيل الاخلاق والصفات والعادات والاعمال الشخصية والاجتماعية والانسانية وضارها وقبيحها ومكروهها . والمقياس في ذلك كتاب الله وسنة رسوله وما تعارف عليه اهل الحل والعقد والعلم والرأي العام في ظرف وعصر انه من هذا او ذاك مما لم يرد فيه قرآن وسنة .

١٥١ – ليس في القرآن تحديد لكيفية القيام بهذا الواجب مما يلهم انه ترك للمسلمين

---

(١) انظر ايات هذا الفصل وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٣٦٨–٣٩٩

ليقوموا به حسب المصلحة والحكمة والظروف . والمتبادر ان قيام الجماعات به على شكل جمعيات متعددة ومتنوعة الاهداف من سلبية وايجابية كمكافحة المسكر والميسر والبغاء والظلم والبغي والباطل والرذائل الأخرى وكمساعدة الفقراء والعاجزين وانشاء الملاجىء والمشافي ومنظمات الدعوة الى سبيل الله ومكارم الاخلاق والاصلاح بين الناس هو الأجدى والأضمن للنجاح في هذا الواجب القرآني العظيم .

١٥٢ – ان ما يحتاج إلى الهيمنة والتنفيذ وبذل القوة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يترتب على الدولة وما له صلة بحياة المجتمع ولا يكفل النجاح فيه إلا بالتضامن وحسن الاضطلاع والتقدير مما لا يحتاج الى بذل القوة يترتب على الجماعات وما لا يخفى وجه الصواب فيه ولا ينجم عن القيام به فوضى ولا مفسدة هو مجال الأفراد .

١٥٣ – في حالة ما إذا لم يكن للمسلمين دولة عادلة ووقعوا تحت سلطة الاغيار والمتغلبين البغاة فإن هذا الواجب يترتب على جماعاتهم وافرادهم بلزوم اشد .

١٥٤ – ان على المسلمين كل في نطاق امكانه ومجال نشاطه ان يدعوا الى الخير ويفعلوه ويتضامنوا فيه .

١٥٥ – ان الخير هو كل عمل فيه مكرمة وبر بالآخرين ونفع ومساعدة لهم .

١٥٦ – ان المسلم المقصر في فعل الخير والدعوة اليه والتضامن فيه يعد مقصراً في واجب ديني .

١٥٧ – ان تقصير مجتمع من المجتمعات الاسلامية في الدعوة الى الخير اثم يشمل جميع افراده ويستحق سخط الله فضلا عن ايرائه الوهن والضعف في البنيان الاجتماعي .

١٥٨ – ليس في القرآن ولا في السنة تحديد للكيفية والاساليب في فعل الخير والدعوة اليه مما يلهم انه ترك للمسلمين حسب ما يرون فيه المصلحة والحكمة . على ان قيام الجماعات به بشكل جمعيات ومنظمات هو الاجدى والأضمن للنجاح .

١٥٩ – ان القرآن قد استهدف قيام مجتمع اسلامي قوي عزيز متضامن في كل ما فيه الخير والمصلحة وضد كل ما فيه الشر والضرر واوجب على المسلمين تحقيق هذا الهدف .

١٦٠ – ان من صفات المسلمين وواجبهم التعاون على كل ما فيه مكرمة ونفع وبر وخير وطاعة الله ورضوانه والتضامن ضد كل ما فيه اثم وشر وضرر ومعصية .

١٦١ ـ ان من صفات المسلمين وواجبهم ان يتواصوا بالحق والصبر والمرحمة وان يبثوا ذلك فيما بينهم وان يتضامنوا فيه .

١٦٢ ـ ان الانحراف عن هذه الصفات والتقصير بهذا الواجب مخلان بصفة الاسلام وصدقه ومستوجبان لسخط الله ومقته فضلا عن انهما مؤديان الى وهن المجتمع الاسلامي .

١٦٣ ـ ان موالاة الاعداء وموادتهم بأي شكل وسبب محظورة على المسلمين ومنافية للاخلاص والواجب للمجتمع الاسلامي ودالة على عدم الصدق في الاسلام ومستوجبة لسخط الله ومقته .

١٦٤ ـ ان على المسلمين واجب تبادل الولاء والاخلاص فيما بينهم في أي حال وظرف .

١٦٥ ـ ان التنازع والخلاف والفرقة والقتال فيما بين المسلمين مؤد إلى وهن الكيان الاسلامي وتشتت شمل المسلمين وهو محظور عليهم واثم ديني مستوجب لسخط الله . وعليهم واجب التضامن في منع ذلك واصلاح ما بين المتنازعين منهم بالحق والعدل ورد الباغي منهم وارغامه الى الحق .

١٦٦ ـ ان اثارة الفتنة والدس والكيد بين المسلمين من أشد الآثام الدينية المستوجبة لسخط الله ومؤدية إلى توهين الكيان الاسلامي .

١٦٧ ـ ان على المسلمين واجب التضامن في الوقوف موقف الشدة والحزم تجاه الفئات المفسدة الخبيثة المثيرة للفتن وقمع شرورها دون اي تساهل أو تأثر برحم أو مصلحة خاصة . وهو مقياس لاخلاص المسلم لدينه . والتقصير فيه مستوجب لسخط الله .

١٦٨ ـ ان البر بالفقراء والمساكين والمحتاجين والتصدق عليهم ومنع الأذى عنهم والاخذ بيدهم في كل ظرف واجب على المسلمين بقطع النظر عن اي اعتبار . ومؤد الى قوة بنيانهم والتقصير في هذا الواجب اثم ديني مستوجب لسخط الله .

١٦٩ ـ لا يجوز للمسلم ان يقصر في هذا الواجب بسبب ما قد يبدو من الفقير والضعيف من افعال او مواقف مثيرة او بسبب خلاف في الدين والنحلة والمذهب .

١٧٠ ـ لا يجوز للمسلم ان يمن على الذين يتصدق عليهم ويحميهم ويأخذ بيدهم . ولا ان يؤذيهم بالكلام ويجرح عواطفهم كما لا يجوز له ان يتصدق برديء ما عنده . وفاعل هذا وذاك آثم مستوجب لسخط الله .

الفصل الثاني

الحرية والاخاء والمساواة في الاسلام [1]

●

١٧١ — ان القرآن قد توخى ان يتمتع المسلمون كافة بالحرية والمساواة والاخوة بصورة عامة ضمن نطاق الحق والعدل والقصد .

١٧٢ — ليس لحرية المسلم حدود إلا المحرمات والواجبات الدينية التي تتناول أولاها الخبائث والفواحش والمنكرات والبغي وسيء العادات والاعمال والاخلاق ومكروهاتها ، وثانيتها القيام بأركان الاسلام والدعوة الى الله وطاعة أوامر الله ورسوله واولي الأمر بما فيه المصلحة والحياة والمعروف والتزام الحق والعدل والبر وصالح العادات والاعمال والأخلاق ومستحباتها ضمن وسع النفس وطاقتها .

١٧٣ — ان القرآن قد وطد الاخوة بين المسلمين بكل قوة دون فرق ولا اعتبار جنسي ولوني وحسبي ومالي . وجعلها من صفات الاسلام وملازماته الطبيعية . واوجب الاصلاح بين المتنازعين منهم منعاً لكل تصدع . والاجتماع على رد الباغي على غيره دفعاً لكل ظلم يتنافى مع هذه الاخوة . وتلقينات القرآن قد أثرت تأثيراً ايجابياً قوياً ومستمراً بحيث يصح ان يقرر ان عاطفة الاخوة بين المسلمين هي اقوى منها في غيرهم .

١٧٤ — ان القرآن قد وطد المساواة التامة في الحقوق والتكاليف والمباحات والمحظورات والثواب والعقاب بين جميع المسلمين ذكورهم وإناثهم دون تمييز احد على احد . وقضى على كل تمايز بسبب الجنس واللون والحسب والمال والمركز الاجتماعي .

١٧٥ — ان ما منحه القرآن للرجل من منح قليلة دون المرأة كمضاعفة الارث وحق القوامة وواجب الانفاق وجعل شهادتها في بعض الامور دون شهادته هي خصوصيات متصلة بطبيعة كل منهما وواجباته . والقوامة خاصة هي في نطاق الحياة الزوجية . وليس من شأن ذلك ان ينقص او يخل في مساواتها التامة معه في التكاليف والحقوق والمباحات والمحظورات والثواب والعقاب والحدود مما اقره القرآن بكل قوة وصراحة .

---

(١) انظر الآيات القرانية في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القراني ص ٤٠٣-٤٢٢

١٧٦ — ان ما جاء في القرآن من الاشارة الى رفع بعض الناس على بعض هي بسبيل تقرير الواقع القائم . وليست ايجاباً ونظاماً مستمر اللزوم كما ان تفاوت الناس في الرزق وبسطة العيش ليس مما ينبغي ان يتأثر به حقوق النـــاس وواجباتهم ومساواتهم الاجتماعية والسياسية والفردية من حيث المبدأ . وليس في القرآن ما يجعل هذا التفاوت نظاماً مستمراً. وإذا ما سارت الدولة وفق تلقينات القرآن وحالت دون استقطاب الثروة في فئة محدودة ونظمت تداولها بين مختلف الفئات تزعزع الركن الأساسي لهذا التفاوت وخف كثيراً حتى يزول .

١٧٧ — ان القرآن في اقراره الرق انما اقر واقعاً كان شائعاً في الدنيا ولم يقصد الى اقراره كنظام واجب الاستمرار او ايجاب التمايز الطبقي به . ولا فرق في الاسلام بين الحر والعبد في الواجبات الدينية ونتائجها الدنيوية والاخروية .

وقد احتوى القرآن تلقينات وتوجيهات وتشريعات تؤدي الى الغائه . سواء في شأن أسرى الحرب او في عتق الرقيق . واوجب على مالية الدولة المساهمة في تحرير الرقـــاب . وليس في القرآن ولا في السنة تسويغ لاسترقاق المحايدين والمسالمين والمعـــاهدين من غير المسلمين ولا ايجاب استرقـــاق المحاربين من غير المسلمين . كما ان استرقاق الحر المسلم ممتنع البتة .

الفصل الثاني

في نظام الاسرة والآداب السلوكية [1]

أولا — في الحياة الزوجية :

١٧٨ — ان القرآن قد حض المسلمين عامة على التزاوج وأمر بالتساهل فيه والمساعدة عليه بالنسبة للطبقات الفقيرة خاصة .

١٧٩ — انه استهدف من الزواج انشاء كيان للاسرة يقوم على المودة والرحمة والوفاق والاستقرار والاستمرار والواجبات والحقوق المتقابلة . وندد بالزواج الذي لا يهدف الا الى اشباع الشهوة ولا يكفل الاستقرار والاستمرار .

---

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٤٢٤—٤٨٠

١٨٠ – انه عظم من شأن الرابطة الزوجية تعظيما كبيراً . وحث على الوفاق والصلح وتفادي النزاع بكل وسيلة .

١٨١ – انه اوجب على الزوج حسن المعاشرة وكظم الغيظ وعدم الاستجابة الى عاطفة الكراهية والنزوات العابرة . واوجب على الزوجة الاخلاص والطاعة والامانة وعدم الانحراف والنشوز . وحفظ الزوج في ماله وعرضه وكرامته في حالتي الغيبة والحضور .

١٨٢ – انه اوجب على الزوج مهراً للزوجة . كما اوجب عليه نفقتها بالمعروف وحسب قدرته سعة وضيقاً . وجعل له مقابل ذلك ومقابل ما امتاز به الرجل من ميزات حق القوامة عليها وتأديبها في حالة شذوذها وانحرافها ونشوزها واخلالها بالواجبات التي اوجبت عليها مستهدفاً بذلك ضمان اصلاحها وارعوائها وتفادي الطلاق والكوارث الاخرى . وجعل لها عليه حقوقاً . وشدد في رعاية هذه الحقوق وفي عدم مضارتها وابتزاز اموالها .

١٨٣ – ان نصوص القرآن صريحة بأن قوامة الرجل على المرأة منحصرة في الحياة الزوجية . ولا قوامة له عليها في شؤونها المدنية . فهي تتمتع بكامل حريتها في ذلك دون حاجة الى اذن منه

١٨٤ – ان القرآن اباح للرجل جمع اربع زوجات في عصمته بشرط العدل . وامر بالاقتصار على واحدة في حالة احتمال عدم العدل مع تقريره عدم الاستطاعة فيه ولو حرص المرء عليه مما ينطوي في هذا وحدة الزوجية ووجوب قصر رخصة التعدد على الظروف الضرورية التي تنطوي فيها حكمة الاباحة.

١٨٥ – انه اباح الطلاق الذي يقصد به الفراق بعد ان تحقق الجهود الواجب بذلها في سبيل التوفيق . ويصبح الفراق لا ندحة عنه لمصلحة وحياة كل من الزوجين . وقد رسم للطلاق خطة حكيمة متسقة مع هدف الابقاء على الرابطة الزوجية ما أمكن ذلك .

١٨٦ – انه قرر مبدءاً اساسيا لدوام الحياة الزوجية وهو الامساك بالمعروف والحسنى فان لم يمكن فالفراق والتسريح بالمعروف والحسنى كذلك . ونهى عن امساك الزوج زوجته بنية ضررها وابتزاز اموالها ، ونهى اهل الزوجة عن منعها عن العودة الى زوجها في حالة الطلاق اذا تراضى الزوجان . والتلقين القرآني يخول القضاء الاسلامي التدخل في حال مخالفة الزوج لهذا المبدأ امساكا او تسريحا . ولا يسيغ اكراه المرأة على معاشرة زوجها بالقوة مما يسمى ببيت الطاعة .

١٨٧ - انه اوجب للمطلقات عامة تعويضا مناسبا حسب المتعارف فضلا عن المهر ونفقة العدة .

١٨٨ - ليس في القرآن طلاق لم يقصد به الفراق • ولا طلاق بات مرة واحدة للزوجة المدخول بها .

١٨٩ - انه اجاز تطليق الزوجة التي لم يدخل بها زوجها . ومثل هذا الطلاق يعد بائنا بحيث يجوز استئناف الزواج بعقدومهرجديدين . وليس على الزوجة عدة فيه ، واوجب لها نصف المهر المسمى .

١٩٠ - انه ندد باليمين على هجر الزوجة الطويل . وحدد اربعة اشهر بحيث تطلق منه اذا حلف على هجرها وامتد الهجر اكثر من ذلك

١٩١ - انه ندد بالزوج الذي يحرم زوجته على نفسه بالمظاهرة كما يحرم امه . واوجب عليه ان يكفر عن قوله بالكفارة الشديدة قبل المعاشرة .

١٩٢ - انه حظر التزاوج بين المسلمين وغير الكتابيين واباح زواج المسلم من الكتابية دون زواج المسلمة من الكتابي .

١٩٣ - ليس فيما حرم القرآن من الانكحة حرج على المسلمين في حال . وما حرمه هو ما جرى العرف البشري على تحريمه او فيه فاحشة سيئة .

١٩٤ - ان اهل المذهب الشيعي يتأولون في اجازة نكاح المتعة الذي يكون لمدة معينة . اما جمهور اهل السنة فهم في جانب تحريمه .

١٩٥ - ان القرآن حث على تزويج العبيد والاماء الصالحين للزواج ومساعدتهم على ذلك . واباح لمالك الاماء استفراش من شاء منهن بدون عقد ولا مهر[1] . واباح زواج الحر بالامة باذن مالكها . وليس في القرآن ما يمنع زواج الحرة بالعبد . وليس في القرآن اي اختصاص وتفريق في حالات الزوجية ونتائجها بالنسبة للرقيق والاحرار باستثناء جعل عقوبة الزنى على الامة المتزوجة نصف عقوبته على الحرة .

---

(١) لاجل ان يكون استفراش الامه صحيحا يقتضي ان يكون رقها صحيحا . والرق الصحيح اما من التناسل من اسرة مسترقة قبل الاسلام او نتيجة سبي واسر في قتال شرعي بين المسلمين وغير المسلمين . وعلى هذا فان شراء الاناث غير المسلمات من اهلهن او جلبهن من بلادهن خطفا وبيعهن ليس رقا صحيحا .

١٩٦ – انه اعتبر المرأة في حالات الزواج ونتائجه طرفا ثانيا نافذ الاجراء . فلا تتزوج الا برضائها وموافقتها وهي تقبض مهرها وتتصرف فيه كما تشاء [١] .

١٩٧ – ان نصوص القرآن وروحه تلهمان ان الزواج وحالاته ونتائجه هي ذات طابع مدني ولا تتوقف على مراسم دينية كهنوتية كما هو الشأن في الأديان الاخرى .

ثانياً – المواريث والوصية :

١٩٨ – ان القرآن وطد حق الرجال والنساء على السواء في الارث . ومنع الحيلولة دون استيفاء اي منهم حقه فيه . وعين النسب المستحقة لكل فئة في الحالات الرئيسية . وأكملت السنة ما سكت عنه من الحالات الثانوية .

١٩٩ – انه قرر كمبدأ عام ان نصيب الذكر ضعف نصيب الانثى . وحكمة ذلك واضحة لأنه اوجب على الزوج الانفاق على زوجته واسرته .

٢٠٠ – انه قرر ان الارث الواجب توزيعه هو ما فضل عن التركة بعد اداء دين المورث وتنفيذ وصيته . وحظر عدم قصد الاضرار والجنف في الدين والوصية [٢] .

٢٠١ – انه حث على الوصية كما حث الورثة على البر بالايتام والمساكين وذوي القربى المعوزين حين قسمة التركة . وفي هذا تلقين باستحباب الوصية للايتام والمساكين ووجوه البر بالاضافة إلى الاقارب غير الوارثين .

٢٠٢ – ان في القرآن نصوصا وعبارات تلهم ان القضاء في الدولة هو مرجع لمختلف الشؤون الشخصية من نكاح وطلاق وعدة وارضاع ومهر وتعويض ونفقة وارث ووصية واصلاح وتوفيق وحل مشاكلها وتنظيمها .

٢٠٣ – ان هذه الشؤون جاءت في القرآن فريدة من حيث التحديد والتفصيل لأنها متصلة بحياة ومشاكل كل فرد . وكانت قبل الاسلام فوضى ومائعة . وليس في ما حدده ما يمكن

---

(١) قيدت السنة زواج البكر بموافقة وليها مع ايجاب موافقتها على كل حال واجازت موافقة الاب على عقد نكاح ابنته القاصرة .

(٢) اتمت السنة تشريع ذلك فنعت الوصية للوارث وكرهت الوصية بأكثر من ثلث المال تفاديا للحيف بالورثة وتعريضهم للفاقة والعوز . ويلوح لنا ان الوقف الذي يعمد اليه بعضهم لحرمان النساء او بعض الورثة مما يجب منعه لان فيه قصد الضرر ومنع حق منحه الله .

ان يتناقض مع مصلحة البشر وتطورهم مع ذلك .

ثالثاً – توطيد اواصر الاسرة :

٢٠٤ – ان القرآن اسبغ على كيان الاسرة حفاوته واستهدف تقويته بتقوية الاواصر بين افراده .

٢٠٥ – انه اوجب البر بالوالدين والاقارب ومساعدتهم في كل حال . غير انه قيد هذا الواجب بمقتضى الحق والعدل ودين الله ومصلحة المسلمين العامة .

رابعاً – الآداب السلوكية :

٢٠٦ – ان القرآن اوجب على المسلمين الاستئناس والاستئذان والاذن قبل دخولهم بيوت غيرهم . والكلام في ذلك مطلق يسوغ القول انه عام للرجال والنساء والاقارب والاباعد .

٢٠٧ – ليس فيه ما يمنع دخول الرجال على النساء والنساء على الرجال بعد الاستئناس والاستئذان والاذن مع توخي حسن النية وطهارة القصد والادب والاحتشام باللباس وستر المفاتن بالنسبة للمرأة .

٢٠٨ – انه حظر دخول الخدم والاطفال لمخادع الازواج بدون اذن في اوقات التبذل وهي قبل صلاة الفجر وبعد صلاة العشاء ووقت الظهيرة .

٢٠٩ – انه اوجب على المسلمين والمسلمات على السواء غض الأبصار والعفة .

٢١٠ – انه اوجب على المسلمة ان تحتشم في لباسها وتستر مفاتنها وزينتها عن غير محارمها .

٢١١ – ليس في القرآن نص صريح يحظر على المرأة كشف وجهها ويديها بل وفيه ما يلهم استثناءها من الستر والحجب . وليس على المسلمة والحالة هذه اذا ما احتشمت في لباسها وسترت مفاتنها بأس اذا هي سفرت عن وجهها ويديها ومارست شؤونها المشروعة التي اباحها لها القرآن اسوة بالرجل . في حدود المعروف والبعد عن المنكر ودواعي الفتنة ومواطن الريب والاماكن العامة غير البريئة .

٢١٣ — ليس على النساء اللاتي لسن اهلا للنكاح بسبب السن وغيره بأس في التخفف وعدم التشدد في التستر مع واجب الحشمة والبعد عن التبذل .

٢١٤ — ليس في القرآن قيود واشكال خاصة لتناول الطعام ومجالسه الا واجب حسن المعاشرة وتبادل التحيات . وليس فيه ما يمنع مشاركة الرجال والنساء في مائدة واحدة سواء أكانوا أقارب أم أباعد .

٢١٥ — ان القرآن اوجب الرفق بالضعفاء من مرضى وعمي وعرج وتطييب خاطرهم ونفوسهم وعدم التشدد معهم فيما هو واجب على الاصحاء من آداب السلوك .

٢١٦ — ان مما قد يلهمه القرآن تحبيذ السكن المتفرق بحيث يكون للآباء مساكن وللابناء مساكن فضلا عن الاخوان والاعمام والاخوال .

الفصل الرابع

مبادىء اجتماعية عامة [١]

●

٢١٧ — ان القرآن يقرر ان صلاح اي مجتمع وفساده منوطان بالدرجة الاولى بماتكون عليه اخلاق افراده ونفوسهم من صلاح وفساد .

٢١٨ — انه يقرر ان فساد المجتمعات كثيراً ما ينشأ من فساد اكابره وزعمائه الذين هم القدوة لأفراد المجتمع ويحملهم مسؤولية هذا الفساد .

٢١٩ — انه يقرر ان التمكن في الارض تبسطاوسلطانا واستمتاعا وقوة ورفاها ونجاحا هو من حظ المجتمع الذي يكون غالب افراده من عباد الله الصالحين المتحلين بمكارم الاخلاق وفاضل العادات وحسن الاستعداد والتزام الحق والعدل ، ويدعو الى التحلي بذلك .

---

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها من كتابنا الدستور القرآني ص ٤٨٩–٥٠٨

٢٢٠ ـ انه يقرر على لسان ملكة سبأ أن الغزاة الاجانب يفسدون اخلاق البلاد التي يتغلبون عليها ويوهنون من قوتها ويذلون أعزتها . ويفصمون روابطها وان الخير كل الخير والواجب كل الواجب هو الحيلولة دون وقوع نكبة الغزو بكل وسيلة ممكنة .

٢٢١ ـ انه يقرر ان الباطل مهما لمع فانه لن يلبث ان يزهق ويضمحل . وان الثبات والنفع هما للحق وحسب . وان من واجب الناس ومصلحتهم تأييد الحق ونبذ الباطل .

٢٢٢ ـ انه يحظر على المجتمع وافراده ان يتمسكوا بقديم لقدمه أو ينأوا عن جديد لجدته . والضابط الذي يوجب ان يستلهمه الناس في عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم وأعمالهم وخططهم هو الحق والخير والعدل والمصلحة بقطع النظر عن الجدة والتقدم .

٢٢٣ ـ انه يوجب على الناس التروي والاناة في رواية الأنباء واستماعها لاحتمال القصد السيء والنية الخبيثة والرعونة فيها . ولما يترتب على التهور والتسرع في نقلها وتصديقها من المفاسد والأضرار العامة والخاصة .

٢٢٤ ـ انه يحظر تتبع عورات الناس والتدخل فيما لا يعني واساءة الظن بدون مبرر والتجسس والغيبة والنميمة لما يترتب على ذلك من مفاسد واضرار عامة وخاصة .

٢٢٥ ـ انه يوجب على المسلمين ان يترووا في ظروف الفتن وشوائع السوء لما يترتب على الاندماج فيها ولو بحسن نية من مفاسد وأضرارلا يقتصر ضررها على مثيريها . ويوجب عليهم ان يقفوا موقف الشدة من مثيري الفتن وشوائع السوء ويتضامنوا في قمعها وتفاديها .

٢٢٦ ـ انه يشجب التفرق في الدين شيعاً واحزابا اندفاعاً وراء الهوى والمطامع لما يؤدي اليه من مفاسد اجتماعية عظيمة من نزال وقتال وتعصب اعمى وخلاف وحقد وبغضاء وانحلال روابط . ويقرر عظم مسؤولية رجال الدين في هذا الشأن سلباً وايجاباً .

٢٢٧ ـ ان التلقينات القرآنية توجب على جماعات المسلمين وذوي الشأن فيهم بذل الجهد والتوسل بكل وسيلة للقضاء على الانقسامات الطائفية والخلافات والفوارق المذهبية .

الباب الثالث

النظام الشخصي

الفصل الاول

في

الاخلاق والصفات الشخصية [1]

●

٢٢٨ – ان القرآن قد حفل اعظم الاحتفال بأخلاق المسلم وتقويمها وتربيتها . بحيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بالاخلاق الصالحة والسيئة إلا نبه عليها موجباً التزام الاولى متوخياً تقويتها محذراً من الأخرى مثيراً لمقتها . هادفاً بذلك الى ان يكون المسلم في اخلاقه نموذجاً للكمال الانساني وان يكون الاتساق تاماً بين التربية القرآنية الاخلاقية الشخصية والتلقينات القرآنية السياسية والاجتماعية .

٢٢٩ – انه خاطب العقل والقلب معاً في ما توخاه من هذه الحفاوة فوعد واوعد من ناحية وبين ما للاخلاق من آثار في حياة الانسان صلاحاً وفساداً من ناحية ثانية .

٢٣٠ – انه احتوى مجموعات رائعة جاء بعضها بأسلوب الأمر والتنويه وبعضها بأسلوب النهي والتنديد ويصح ان يكون كل منها دستوراً اخلاقياً خالداً نافذاً إلى اعماق القلوب والعقول .

٢٣١ – انه اهتم لبيان كون الاخلاق الحسنة فضيلة بذاتها ودعا الى الاهتمام للجوهر أكثر من العرض ولذاتية الفضائل أكثر من الأشكال والمظاهر .

٢٣٢ – انه اشتد في الحملة على الظلم – أي الجور والبغي والطغيان – ودعا الى الوقوف منه موقف المنكر المقاوم .

---

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٥١٣ – ٥٤٩

٢٣٣ ـ انه اشتد في الحملة على الكذب والكاذبين . كما حفل بالصدق والصادقين وهدف الى بث مقت الكذب واجتنابه وحب الصدق والتزامه في نفس المسلم .

٢٣٤ ـ انه احتفى كثيراً بفضيلة الصبر في الشدائد والخطوب وعدم الجزع . وهدف الى تربية المسلم على هذه الفضيلة . وليس فيما جاء في هذا الصدد ما يفيد تسويغ الصبر على الذل والظلم .

٢٣٥ ـ انه اكثر من الدعوة الى تقوى الله في مختلف الاعمال والتصرفات هادفاً بذلك الى جعل المسلم رقيباً على نفسه ومراقباً لله في ما يفعل ويقول متوخيا تنبيه الضمير وتقوية الوازع الداخلي فيه .

٢٣٦ ـ انه نهى عن اتباع الهوى . وندد بالذين يتبعون أهواءهم ويقفون من الحق موقف المكابر . متوخيا بذلك النأي بالمسلم عن هذا الخلق وبث روح الحق والحقيقة واحترامها في نفسه .

٢٣٧ ـ انه انفرد في تحظير الربا والخمر والميسر وتقرير ما انطوى فيها من أضرار وشرور متوخيا بذلك ابعاد المسلم عن هذين الشرين الضارين بكرامته وصحته وماله ودينه.

٢٣٨ ـ انه انفرد في تحظير الربا واشتد في الحملة على المرابين واكل الربا اضعافا مضاعفة واستغلال عسر الناس وعوزهم ودعا الى التساهل والتسامح مع المعسرين والمعوزين .

٢٣٩ ـ انه اشتد في التنديد بالمتكبرين والمختالين ونهى عن السخرية بالناس ونبزهم بالألقاب وغمزهم ولمزهم . وعن تتبع شؤون الناس والتدخل فيها والتجسس على الناس وغيبتهم وأكل اموالهم بالباطل والتحايل عليهم واستغلال الضعفاء والفقراء والمحتاجين والاجحاف بحقوقهم ومناصرة الأقارب بالباطل هادفا بذلك النأي بالمسلم عن هذه الاخلاق والاعمال المكروهة وبث احترام الناس وحقوقهم وكراماتهم في نفسه .

٢٤٠ ـ انه اشتد في التنديد بالمناقضين اقوالهم بأفعالهم والمخادعين في مظاهرهم وحقائقهم والذين يغضبون من النصيحة ويأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم والذين يتخذون اسم الله واليمين به ذريعة الى الامتناع عن الخير والبر والمعروف متوخيا بذلك تحلي المسلم بالصدق والحق في سريرته وعلنه وجعله يفعل الخير والمعروف مع الناس بقطع النظر عن اي اعتبار .

٢٤١ ـ انه جعل الاحسان والصدق والعدل والانصاف والحسنى والبر بالضعفاء ودرء الحسنة بالسيئة

وكظم الغيظ والعفو والتسامح ضوابط وقواعد لتعامل المسلمين فيما بينهم .

٢٤٢ ـ انه توخى فيما توخاه من لفت النظر الى نعم الله وما أودعه في الكون من منافع ونواميس الاقبال على الانتفاع بذلك والجد والدأب والسعي للرزق الحلال . وجعل ذلك من حق جميع الناس دون ما تمييز ولا تفاضل . هادفا بذلك تحلي المسلم بالشكر الانصاف والسعي في سبيل الكسب الحلال وعدم البقاء عالة على غيره كلاً على مجتمعه .

٢٤٣ ـ انه استهدف فيما احتواه من وعد ووعيد اخرويين بالاضافة الى ما فيهما من حقيقة ايمانية تنبه ضمير المسلم ليتوخى الحق والعدل وصالح العمل ويتحلى بفاضل الاخلاق في حياته وتصرفاته مع الناس .

٢٤٤ ـ انه استهدف فيما اوجبه من تكاليف تعبدية كالصلاة والصوم بالاضافة الى اداء حق الله الواجب جعل المسلم ذاكراً لله دائما فيقبل على ما حض عليه من مصالح الأعمال ويبتعد عما نهى عنه من الفحشاء والمنكر .

٢٤٥ ـ انه استهدف فيما احتواه من بيان ما للسيئات والحسنات من آثار ونتائج في الحياة جعل المسلم يدرك بالعقل والامثال ان اجتناب الاولى والتزام الثانية من مصلحته .

٢٤٦ ـ انه احتوى تنويها متكرراً بوجوب التدبر واعمال الفكر والعقل والنظر بما يسوغ القول ان القرآن يقرر ان القراءة والكتابة والعلم والتعلم وإعمال الفكر والعقل من الصفات الصالحة التي يجب ان يتصف بها المسلمون وان لهم ان يتوسلوا بكل وسيلة الى ذلك بما في ذلك الاقتباس من الغير ليتمكنوا من القيام بواجباتهم المتنوعة وممارسة ما اوجده الله فيهم من قوى والانتفاع بها في مختلف المجالات . وليس في القرآن ولا في السنة تحديد لمجال العلم والفكر والاقتباس الا واجب التزام العقائد الصحيحة وما تقتضيه مبادىء القرآن والسنة وتلقيناتها السامية من الآداب والاخلاق الصالحة .

٢٤٧ ـ ليس في ما كل ما ورد في القرآن من اوامر ونواه وتنويهات وتنديدات اخلاقية بما في ذلك الحث على العلم والتعلم وإعمال الفكر والعقل والتكسب تخصيص الرجل دون المرأة . وكل ما ورد من خطاب قرآني في هذا الشأن شامل للمسلم والمسلمة على السواء تبعا لمساواتها في التكاليف المتنوعة ونتيجة لتساويها في الاهلية والمواهب .

الفصل الثاني

اصلاح المسلم ومعالجته روحياً [1]

●

٢٤٨ - ان القرآن احتوى تلقينات متنوعة توخى بها اصلاح المسلم ومعـالجته خلقيا وروحيا .

٢٤٩ - انه توخى بصورة عامه التوسعة وعدم الاحراج سواء أكان ذلك في تكاليف العبادة أم التعامل والمعاش وشؤون الحياة.

٢٥٠ - انه نهى عن حرمان النفس من الاستمتاع بطيبات الرزق وزينة الحياة واستنكر التقشف والتزمت . ولم يقيد المسلمين إلا بالطيب الحلال والقصد والاعتدال والبعد عما هو خبيث وفسق ورجس .

٢٥١ - انه سمح للمضطر بفعل المحظور عليه ضمن نطاق الضرورة وظروفها .

٢٥٢ - انه رفع عنه الحرج والمسؤولية عما يصدر منه بسائق النسيان والخطأ والاكراه من اعمال محظورة بشرط توفر حسن النية وطهارة القصد وباستثناء ما يسبب ضرراً بليغا حيث اوجب التعويض مع حض المتضرر على العفو .

٢٥٣ - انه نهى عن جعل اليمين وسيلة لعدم البر والاصلاح والتقوى ومساعدة المحتاجين والحرمان من الطيب الحلال . ورفع حرج اليمين اللغو التي لا نية للضرر فيها. كما امر بالكفارة عن اليمين التي فيها تحريم لما احل الله او اذى وضرر ومجانبة للبر والتقوى والاصلاح .

٢٥٤ - انه قرر عـدم تكليف المرء بمـا لا يطيق سواء فيما يتصل بالعبادات او الشؤون الدنيوية الاخرى . وينطوي في هذا عدم مسؤولية عما لا يطيق .

٢٥٥ - انه قرر عدم مؤاخذة المرء بما يأكل ويشرب . ولم يقيده براسم وقيود خاصة عدا حدود الحلال الطيب وحسن النية واللطف في المعاشرة .

---

(١) انظر الآيات الواردة في هذا الباب وشرحها في كتابنا الدستور القرآني ص ٥٥٣-٥٨٨

٢٥٦ ـ انه انكر التحليل والتحريم بغير علم وسند

٢٥٧ ـ انه دعا إلى الاهتمام بجوهر الأعمال والفضائل وذاتيتها أكثر من أشكالها ومظاهرها .

٢٥٨ ـ انه طمأن الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش بأن الله يتجاوز عما يلمون به من الهفوات والذنوب الصغيرة .

٢٥٩ ـ انه قرر ان الرسالة النبوية استهدفت تحليل الطيبات وتحريم الخبائث وتخفيف التكاليف الشديدة السابقة .

٢٦٠ ـ انه دعا إلى التوبة . وقد شملت هذه الدعوة جميع ما يصدر من الانسان بصورة عامة والمسلم بصورة خاصة من مواقف واعمال وآثام .

٢٦١ ـ ان الدعوة القرآنية إلى التوبة قد انطوت على مقاصد اصلاحية وتربوية جليلة للانسان بصورة عامة والمسلم بصورة خاصة بحيث تهيء للآثم المخطىء مجالا لاستئناف حياة جديدة صالحة مملوءة بالرجاء .

٢٦٢ ـ انه شرط في التوبة أن يرافقها عزيمة صادقة على رجوع التائب إلى الله والحق والصواب والصلاح وتلافي ما كان منه من ضرر وفساد . وأن تقع في متسع من العمر والعافية والقوة ليتحقق بذلك المقصد الاصلاحي .

٢٦٣ ـ انه نهى عن القنوط واعتبره من نقائض الايمان . وبث الرجاء والامل واعتبرهما من مظاهر الايمان .

٢٦٤ ـ انه يلهم ان الامل والرجاء مما يبعث القوة والروح والنشاط في الانسان في حين ان القنوط يفقده ذلك .

٢٦٥ ـ انه توخى تثبيت قلب المسلم وتشجيعه على التضحية والاقدام وتحمل الشدائد والمشاق والمكروه بنفس راضية مطمئنة .

٢٦٦ ـ ان ما ورد فيه من آيات تضمنت وصف مصائر الناس الاخروية قد انطوت على وسيلة إلى تعويد المسلم الامل والرجاء في المستقبل وجعله يواجه متنوع الاحداث والحظوظ بدون تذمر ولا اضطراب بالاضافة الى ما انطوت عليه من الحقيقة الايمانية .

٢٦٧ ــ ان ما ورد فيه من آيات تعد المؤمن باليسر والأمن والنصر قــد انطوت على وسيلة لتنمية الجلد والصبر والمقاومة في المسلم وخاصة في الظروف الصعبة والمواقف الحرجة .

٢٦٨ ــ انه حث على تحمل ما يشق على النفس مما فيه خير آجل . وانطوى في ذلك وسيلة لبث الطمأنينة والهدوء في نفس المسلم وتنمية نوازع الحق والبر والأمل فيه .

٢٦٩ ــ ان ما ورد من آيات تحض على التقوى وتعد بالفرج واليسر قــد انطوت على وسيلة لبعث الامل في المسلم وعدم الاستسلام لليأس والقنوط أمام النوازل والخطوب .

٢٧٠ ــ ان القرآن قد دعا الى التوكل على الله . وانطوى في هذه الدعوة وسيلة لتطمين نفس المسلم وجعله اقوى على مواجهة الخطوب والأخطار .

٢٧١ ــ ليس في تلقينات القرآن ما يوحي بالاستسلام للمكروه والبغي والخطر والحرمان والشظف والظلم والرضاء بذلك وما يبدو من هذا في سواد المسلمين هو أثر من آثار سوء فهم القرآن والغفلة والانحطاط الذي عاشوا فيه دهراً طويلا .

الفصل الثالث

مسؤولية المسلم عن عمله

●

٢٧٢ ــ ان القرآن يقرر أن الله قد جعل في الانسان قابلية الخير والشر والتقوى والفجور وكلف العاقل الراشد وأوجب عليه مسؤولية أعماله وحمله نتائجها وجعل له إرادة واختياراً يباشر أعماله وتصرفاته بها .

٢٧٣ ــ ان الذهنية الراسخة في سواد المسلمين بكون الانسان مسير غير مخير وبعــدم تأثير إرادته واختياره وكون ما يفعله من افعال هو مما قدر عليه في الازل ولا مناص له عنه لا تتفق مع التعليمات والتلقينات والتقريرات القرآنية والحكمة المنطوية فيها . وانمــا هي طارئة على المسلمين نتيجة لما قام في العصور الاسلامية الاولى من فتن سياسية وجدلية .

٢٧٤ ــ لا يجوز للمسلم أن يظن أن في القرآن تعارضاً . فإذا قصر فهمه عن شيء وبدا

له فيه تعارض فعليه أن يأخذ بالصريح المحكم المتفق مع الحكمة الالهية وأن لا يورط نفسه في الجدل ويعطل قواه ومواهبه التي أودعها الله فيه .

٢٧٥ – إن تقرير القرآن لمسؤولية الانسان عن عمله وقابليته للكسب والتصرف حراً مريداً خيراً وشراً وصلاحاً وفساداً قد تضمن حفز المسلم على التفكير والتبصر والامعان والتدبر في أعماله وتصرفاته وعزائمه ونواياه لمباشرة ما يضمن له السعادة والهناء والنجاح والنجاة في الدنيا والآخرة ولاجتناب الهوى والتقصير والاهمال والطيش والشذوذ عـــن جادة الحق والعدل والخير والنجاح والنجاة ولإصلاح نفسه وتلافي تقصيره [1] .

---

(١) مرجع هذا الفصل آيات سورة البقرة ٣٨و٣٩و٨١و١٧٧و٢٨٦ وآل عمران ٣٠ و ١٩٥ والنساء ٤و٧ و٢و٦٦و٦٨و١١١و١٢٣و١٢٤و١٣٠و١٣٤والمائدة ٩٠–٩١والانعام٩٤و٣٢ويونس ٥٢و١٠٨ والحجر ٩٢و٩٣ والنحل ١١١و١١٢ والاسراء ١٥و١٩ والكهف ٢٩و٣٠ والنمل ٨٩ و٩٣ والزمر ٧ والنجم ٣٣و٤١ والبلد ٨و٢٠ والشمس ٧و١٠ والليل ٥و١٠

الفهرس المفصل لمحتوى الجزء